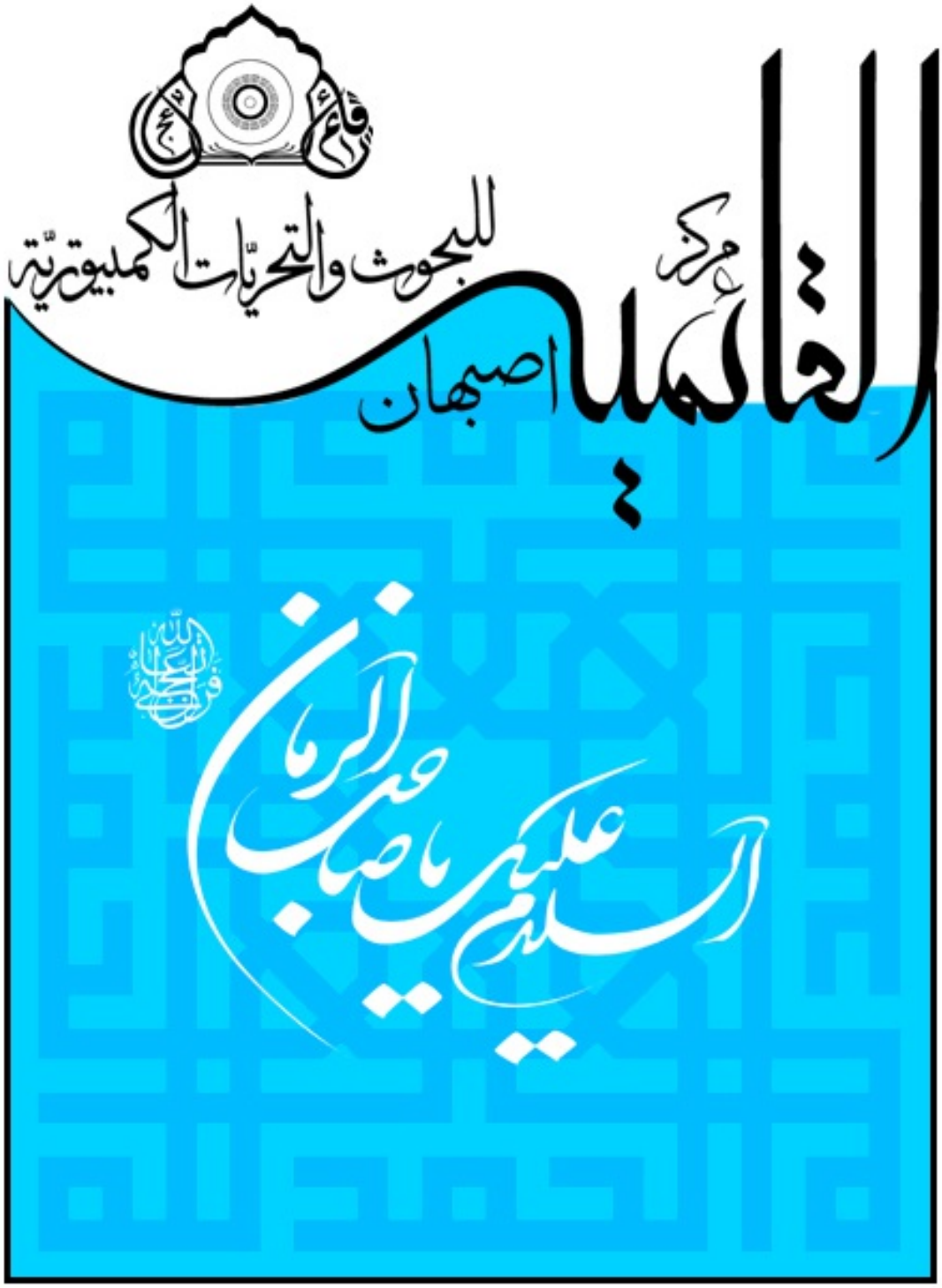

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

المكتبة الصوفية

الرحلة الورثيلانية

الموسومة بنزهة الأنظار
في فضل علم التاريخ والأخبار

تأليف

سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني

المجلد الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحلة الورثيلانية

كاتب:

حسين بن محمد ورثيلانى

نشرت فى الطباعة:

مكتبة الثقافة الدينية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الرحلة الورثيلانية المجلد ۱ ----- ۶
اشارة ----- ۶
[الجزء الاول] ----- ۶
كلمة للمصحح ----- ۶
ترجمة المصنف ----- ۷
[مقدمة المؤلف] ----- ۹
ذكر خروجنا من بسكرة ----- ۵۵
ذكر وصولنا إلى طرابلس ----- ۷۲
ذكر خروجنا من مصر ----- ۱۶۴
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۱۹۸

الرحلة الورثيلانية المجلد ۱

اشارة

نام كتاب: الرحلة الورثيلانية

نويسنده: ورثيلانى، حسين بن محمد

تاريخ وفات مؤلف: ۱۱۹۳ ه. ق

موضوع: سفرنامه

زبان: عربى

تعداد جلد: ۲

ناشر: مكتبة الثقافة الدينية

مكان چاپ: قاهره

سال چاپ: ۱۴۲۹ ه. ق

نوبت چاپ: اول

[الجزء الاول]

كلمة للمصحح

الحمد للّه الذى جعل الرحلة لبيته الحرام من قواعد الإسلام، و أمر بالسفر فى البرور و البحور، فقال اللّه عز و جل هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ. و جاء فى الخبر أنه صلى اللّه عليه و سلم قال:

«سافروا تصحوا و تغنموا». و الصلاة و السلام على خير الأنام سيدنا و مولانا محمد خاتم الأنبياء و المرسلين و على آله و صحبه و الذين جابوا البسيطة من المغرب الأقصى إلى بلاد الصين.

أما بعد فالرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ و الأخبار للإمام العلامة و الأستاذ الفهامة الشريف النورانى الشيخ الحسين ابن محمد الورثيلانى نسبة إلى بنى ورثيلان قبيلة قرب بجاية. أنفس تصنيف رصعت جواهره فى وطن الجزائر. و أعلق تأليف اشتهر بين البوادى و الحواضر؛ لاشتماله على عوارف المعارف، و ظرائف الطرائف، و أوابد العوائد، و فرائد الفوائد، و نسق كالأوصاف الكاملة، و حل المسائل الشاكلة تارة راتعا فى رياض الفقه و الحديث و التوحيد، و تارة واردا حياض التفسير و التاريخ و التجويد، و آونة طامحا إلى التصوف و النصح و الوعظ. باذلا فى ذلك كله غاية الجهد و النكظ. فاصلا جمانه بمرجان الحكايات الأنيقة، و مرصعا و شاحه بياقوت الأشعار الرفيقة و غير ذلك مما هناك. و لما كان هذا التأليف الحسن الترصيف مطمح الأنفس، و غاية التأنس، أمر سمو الوالى العام بطبعه، لتعميم نفعه.

و قد اعتمدنا فى التصحيح على أربع نسخ:

۱- نسخة مخطوطة بخطوط مغربية مختلفة مقابلة على نسخة منقولة من مسودة

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴

المؤلف مجموع صفحاتها ۶۴۲ فى كل صفحة من ۲۱ إلى ۳۲ سطرا و كل ۳۳ كراسة غير مخيطة متخللة بأوراق مورقة طولها ۲۷۱ مليمترا فى عرض ۲۱۰ مليمترا.

۲- نسخة مخطوطة بخطوط مغربية غالبها جميل مقابلة كالتى قبلها على مسودة المؤلف مجموع أوراقها ۲۵۳ فى كل صفحة ۲۱ سطرا و ۳۱ كراسة غير مخيطة متخللة أيضا بأوراق مورقة طولها ۲۰۷ مليمتر فى عرض ۱۹۰ مليمترا و هى أصح النسخ و أقل بياضا.

۳- نسخة مخطوطة بخطوط مغربية غالبها غير جيد مؤرخة بيوم الجمعة الفاتح لشهر شعبان عام ألف و ثلاثمائة و ثلاثة عشر (۱۳۱۳) مجموع صفحاتها ۶۴۰ فى ۳۷ كراسة غير مخيطة متخللة بأوراق مورقة فى كل صفحة ۲۰ سطرا و طولها ۲۶۵ مليمترا فى عرض ۱۹۵ مليمترا.

۴- نسخة مطبوعة على الحجر فى حاضرة تونس سنة ۱۳۲۱ بتصحيح الشيخ على الشنوفى و الشيخ الأمين الجريدى و هذه النسخة مشتملة على ثلاثة أجزاء فى الأول ۲۵۰ صفحة و فى الثانى ۲۱۴ صفحة و فى الثالث ۲۶۰ صفحة غير أنه يمكن أن تعتبر نسخة مخطوطة بخط مغربى كاد لا يقرأ فى بعض المواضع لانطماس الحروف و تعثر القلم و التمجمج أو تفشى المداد و زيادة على ذلك لم ينبه فى غير موضع عن البياض الموجود فى الأصل.

هذا و قد بذلنا فى التصحيح غاية الجهد مع أننا معترفون بأننا لم نبلغ منزلة تسمو عن النقد. و لا سيما كون الأصول التى راجعناها عند الطبع مختلفة الروايات مضطربة العبارات. و قد تعذر علينا كثيرا إصلاح التصحيف و التحريف بعد مراجعة عدة من التآليف. و ما العصمة و الكمال إلا لذى القدر و الجلال.

محمد ابن أبى شنب

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۵

ترجمة المصنف

الحمد للّه وجد مكتوبا فى آخر صحيفة من رحلة الشيخ البركة سيدى الحسين الورثيلانى ما نصه:

يقول زابر هذه الأسطر الفقير إلى اللّه القدير، عبد القادر بن محمد الصغير، و فقه اللّه لما يحبه و يرضاه، اعلم أيها الواقف أن مؤلف هذه الرحلة و جامعها هو مولانا و قدوتنا إلى اللّه تعالى المحقق الكامل، العالم العامل، العارف باللّه تعالى أمام المحققين و المريدين، ذو الرتبة الإلهية و العلوم الربانية، و المنح الرحمانية، المقتفى لكتاب اللّه تعالى و السنة المحمدية، و هو الولى الصالح، و العالم الربانى، سيدى الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلانى، رحمه اللّه تعالى و نفعنا به كان إماما محققا بارعا فى العلوم و تفقه حتى وصل الغاية فى مذهب المالكية، و لا سيما قد فتح اللّه عليه بالافتتاحات الربانية، و له تصانيف عديدة، و تآليف مفيدة.

منها شرحه على القدسية للإمام المحقق، و الفهامة المدقق، سيدى عبد الرحمن الأخضرى و هو شرح حسن إذ لم نعلم لها شرحا غيره.

و منها شرحه على وسطى الإمام السنوسى.

و منها شرحه أيضا على محصل المقاصد للإمام أبى العباس أحمد بن زكرى التلمسانى غير انه مات فيه قبل تمامه.

و شرح أيضا خطبة شرح الصغرى للسنوسى.

و له حاشية جليلة على حاشية المحقق السكتانى التى وضعها على شرح السنوسى.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۶

و قد وضع رسالة عجيبة على قول بعض الأولياء وقفت على ساحل وقفت الأنبياء دونه لعله أبو الحسن الشاذلى و اللّه اعلم.

و له رسالة أخرى فى بعض قول الأولياء نسجت برنسا من ماء و غطيت به من الأرض إلى السماء الخ.

و رأيت له حاشية على صغير الخرشى مزبورة على هوامش الشرح.

و قد شطر البردة.

و القصيدة التى للبوصيرى أولها «يا رب صل على المختار من مضر» تشطيرا عجيبا بحيث لا تفرق بينه و بين الكلام الأصلى و غير

ذلك من القصائد و التآليف و التقارير مما يطول تتبعه.

ولد رحمه اللّه تعالى على ما أخبرنى به أبى عام خمسة و عشرين من الثانى عشر (۱۱۲۵) و توفى على ما ذكره لى بعض تلاميذه فى شهر رمضان عام ثلاثة و تسعين من القرن (۱۱۹۳) و بعضهم قال عام أربعة و تسعين فعلى هذا عاش المؤلف ثمانى و ستين أو تسعا و ستين سنة انتهى.

هذا و قد ترجمه أيضا العلامة المحقق و الفهامة المدقق الشيخ أبو القاسم محمد الحفناوى فى القسم الثانى من كتابه الموسوم بتعريف الخلف برجال السلف المطبوع بالجزائر فقال هو الإمام العالم العامل العلامة الكامل الأستاذ الهمام شيخ مشايخ الإسلام الورع الزاهد الصالح العابد المتبع لأثر الرسول الجامع بين المعقول و المنقول بحر الحقائق و كنز الدقائق مفيد الطالبين و مربى السالكين و قدوة العلماء العاملين و بقية السلف الصالحين محيى السنة و الطاعن فى نحور مخالفيها بالأسنة نادرة الزمان

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۷

و بركة المسلمين فى كل عصر و أوان الجامع بين العلمين و الكامل فى النسبتين حامل لواء الشريعة و الحقيقة و معدن السلوك و الطريقة ذو التأليف المفيدة و التصانيف العديدة العالم الربانى و القطب الصمدانى و الشريف النورانى الشيخ سيدى الحسين الورثيلانى نسبة إلى بنى ورثيلان قبيلة بالمغرب الأوسط قرب بجاية التابعة للجزائر كان رحمه اللّه مجاب الدعوة شديد السطوة لا تأخذه فى اللّه لومة لائم ليله قائم و نهاره صائم.

تراه يصلى ليله و نهاره‌يظل كثير الذكر للّه سائحا

متعلقا برب الأرباب متوكلا على الكريم الوهاب قد استوى عنده الذهب و التراب فهو ممن ترك الجيفة للكلاب و رأى المصطفى فى المنام فاحتضنه فأول ذلك بزهده فى الدنيا و الحطام ظهرت على يده الكرامات و خوارق العادات و شهد له أهل الصدق بالولاية الكبرى و المكاشفات و نصر اللّه به الدين و قطع به دابر الملحدين و لم يزل متضرعا للّه فى السر و النجوى يصدع بالحق و يقيم السنة صادق اللهجة واضح المحجة مستقيم الحجة قصد بيت اللّه مرارا و حجه طاهر الجنان رطب اللسان ناشط الأعضاء فى العبادة و الأركان.

حلف الزمان ليأتين بمثله‌حنثت يمينك يا زمان فكفر

كان يرى النبى صلى اللّه عليه و سلم يقظة و مناما رآه أكثر من ثلاثمائة مرة و فى بعضها قال له عند تعلقه به:

تضلع من علم الشريعة بعد ماتضلع من علم الحقيقة و تدرعا

أخذ العلم عن والده و أشياخ وطنه ثم رحل إلى المشرق فحج و اجتمع بالخضر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۸

عليه السلام بمكة المشرفة و اجتمع بالشيخ الهماق صاحب الطريقة المشهورة بالمدينة المنورة و دخل مصر القاهرة فوجدها طافحة بالعلم و العلماء نيرة زاهرة فركع و استفاد و اخذ العلوم العالية عن أولائك كالأسود و الأسياد فممن أخذ عنه الصعيدى و الحفناوى و الجوهرى و النفراوى و العفيفى و السيد البليدى و الملوى و الصباغ و العمروسى و خليل الأزهرى و عمر الطحاوى و الزياتى و الأشبيلى و أبى القاسم الربيعى و الهاشمى و ابن شعيب الكردى و الفيومى و أجازوه فى العلمين ثم رجع من المشرق بعد أن امتلاء و طابه و فاض عبابه بعلم و أفاد و ألف و أجاد و دعا إلى اللّه العباد و قهر الجهلة أهل التعصب و العناد فمن تأليفه الرحلة السنية التى سارت بها الركبان و قد دعا لناسخها و مالكها و ناظرها فهى حصن حصين و درع متين و منها شرحه على المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضرى فى التصوف و حاشية على الكستانى و كتاب المرادى و قصيدة فيها خمسمائة بيت فى مدح النبى صلى اللّه عليه و سلم كالهمزية لكنها ميمية و شرح على خطبة الصغرى و رسالة جوابا على قول بعضهم خضت بحرا وقفت الأنبياء بساحله و رسالة فى حل اللغز الذى أرسله سيدى أحمد بن يوسف الملیانى إلى علماء فاس فعجزوا عنه و أما وفاته رحمه اللّه فقد رأى النبى صلى اللّه عليه

و سلم فأخبره أنه يعيش إلى السنة العاشرة من القرن الثالث عشر فتكون وفاته كما أخبر به الصادق المصدوق لأنه لا ينطق عن الهوى و رؤيا النبى صلى اللّه عليه و سلم حق و من رآه فقد رأى الحق كما فى صحيح البخارى اه.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۹

نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ و الأخبار المشهور بالرحلة الورثيلانية للشيخ العالم الربانى و الشريف النورانى سيدى الحسين بن محمد الورثيلانى قدّس سرّه آمين

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۱

[مقدمة المؤلف]

بسم اللّه الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و على آله و صحبه قال الشيخ الفقيه العالم الورع الزاهد شيخ الشريعة و الحقيقة، و إمام أهل الطريقة، العالم الربانى، و الفقيه النورانى، سيدى الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلانى رحمه اللّه تعالى و رضى عنه و أعاد علينا من بركاته و أفاض علينا من بحر أسراره و أنواره بمنه أمين.

الحمد للّه الذى خلق الإنسان أطوارا، و جعل الشمس و القمر و النجوم أنوارا، و سيرها من كون إلى كون بحيث تقطع أبراجا ليلا و نهارا، فيا عجبا من رحلتها بسوق الأملاك إياها فهى أية النهار حقا مشهورا. خلق الإنسان من نطفة أمشاج ليبتلى و جعل سمعيا بصيرا، فبهدى إلى السبيل أما شاكرا و أما كفورا، ثم كالأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها المقربون أعنى زمزم و ذات المحبوب يفجرونها بالشوق تفجيرا، نعم يوفون بما به كلفوا من المناسك و ما به عرفوا من الحقائق تذكرا و تذكيرا، يسمى العهد القديم و النذورا، و يخافون يوما كان شره مستطيرا، و يطعمون الطعام فى البر و البحر على حبه و الرغبة فيه لقلته و غلائه جائعا و ضريرا، بحب و شوق و عشق فى اللّه و نبيه و رضاهما لا يريدون جزاء و لا شكورا، فوقاهم اللّه شر ذلك اليوم بسعيهم سعيا مقبولا مشكورا، و تجارة لن تبورا، ليوفيهم اللّه تعالى أجورهم و يزيدهم من فضله النظر إلى وجهه و قد حجوا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۲

حجا مبرورا، و لقاهم أيضا نظرة و رحمة و عزا و رفعة و معرفة و زهدا و بصيرة و سرورا، و جزاهم أيضا بما صبروا لتعب السفر و مشقته حرا و بردا و سقما جنة و حريرا، فلا يرون فى ظل العرش عذابا أصلا و لا شمسا أيضا و لا زمهريرا، فما أحسنها من رحلة و ظعن من الخلق إلى الخلق و ان إلى ربك المنتهى و سواه لم يكن شيئا مذكورا، فسبحان من وفق و خذل آخرين مع استوائهم فى البشريات ألا له الخلق و الأمر تبارك اللّه يقول للشيء أخسا فيكون مذموما مدحورا، و الصلاة و السلام على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم سرمدا دائما بكرة و أصيلا ليلا و نهارا، و على آله و أصحابه أجمعين صلاة نحوز بها غدا حجابا عظيما من شر كل ذى شر مع لواء الحمد فى حضرة القدس منشورا، و ذلك مع الأباء و الأمهات و الأزواج و الذرية و الأحبة و فى جنة الفردوس تكون قصورا، و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له شهادة نشأت من صميم القلب و خلوص الاعتقاد خالية من الأمتراء تكون لنا يوم القيامة فوزا و نورا، و أشهد أن سيدنا محمد عبده و رسوله و نبيه و قريبه صلى اللّه عليه و سلم إذ كان مؤيدا منصورا.

و بعد فأنى لما تعلق قلبى بتلك الرسوم و الآثار، و الرباع و القفار و الديار، و المعاطن و المياه و البساتين و الأرياق و القرى و المزارع و الأمصار، و العلماء و الفضلاء و النجباء و الأدباء من كل مكان من الفقهاء و المحدثين و المفسرين الأخيار، و الأشياخ العارفين و الأخوان و المحبين المحبوبين من المجاذيب المقربين و الأبرار، من المشرق إلى المغرب سيما أهل الصحو و المحو إذ ليس لهم من غير اللّه فرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادى، و يستحسنها الشادى، فإنها تزهو

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۳

بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة و الحكايات المستحسنة و الغرائب العجيبة و بعض الأحكام

الشرعية مع ما فيها من التصوف مما فتح به على أو منقولا من الكتب المعتبرة سيما و ان اعتمادى فى ذلك على رحلة شيخنا و قدوتنا و من على اللّه ثم عليه اعتمادنا سيدى أحمد بن [محمد بن] ناصر [الدرعى الجعفرى] هذا و أنى أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة فى ذكر ملوك صنهاجة و مختصر الجمان فى أخبار أهل الزمان و كذا حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة و غيرهما مما يناسب المحل جعله اللّه خالصا لوجهه و عملا متقبلا بين يديه و حصنا حصينا من كل بلاء دينا و دنيا لمؤلفه و ناسخه و مالكه و ناظره أمين يا رب العالمين و كذا قلت و على اللّه اعتمدت.

اعلم أيها الأخ لما أراد اللّه المشى منا إلى الحج و قد سبق فى علم اللّه أن يكون حجنا فى عام تسعة و تسعين و مائة و ألف (۱۱۷۹) مع إجابة و تلبية للخليل عليه السلام حين قال له اللّه تعالى و أذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضامر من كل فج عميق الآية حدث لنا العزم بإذن اللّه تعالى.

و سببه أن الفاضل العالم الكامل الصالح أخانا فى اللّه و المحب من أجله سيدى أحمد الطيب الزواوى نجل الولى الصالح سيدى محمد السعدى من بنى العزيز من وطن بنى منجلات قدم إلينا زائرا و واقفا علينا و طالع أحوالنا لعل اللّه يفرج ما بنا من الفتنة مع بعض المخذولين الخارجين عن طاعة اللّه و رسوله فى الأحكام الشرعية بعد إعطاء البيعة و الأذعان فى جميع الأحكام الشرعية و نبذ العوائد الردية و البدع

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۴

الشنيعة كقطع الميراث و أكل أموال الناس بالباطل و أموال اليتامى و لين الجانب كالأرامل فلما وصل إلينا فرج اللّه عنا ذلك بعد أن وقع النصر من اللّه العزيز لقوله تعالى: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ و لقوله تعالى: تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ فيوقع الصلح بين الفريقين و أظهروا التوبة و الذل و المسكنة و الندم بعد أن كانوا ممتنعين منها ظاهرا و باطنا الفضل للّه تعالى و الشكر له جل جلاله.

فلما كان ذات ليلة من الليالى إذ اجتمع سيدى أحمد الطيب مع أخينا فى اللّه سيدى أحمد بن حمود و سيدى مهنّا و كلهم ذوو الفضل و العلم و الصلاح فى دارنا فأخذوا فى حديث الانتقال من الوطن فتوقى بهم الكلام إلى التحدث على الحج سنة إذ مع أننا سمعنا أن الشيخ الفاضل الكامل شيخ الركب سيدى محمد المسعود نجل الشيخ البركة سيدى الموهوب نجل الشيخ الولى الصالح و البدر الواضع سيدى محمد الحاج قد ضرب طنبله فى المدينة المحروسة الجزائر على عادة الأمراء فى ذلك نعم كنا تواعدنا معه قبل على السفر جميعا وفق اللّه الكل إلى صالح القول و العمل و ذلك عام مشينا لزيارة النبى سيدى خالد عليه السلام على القول بنبوته و قد شهر غير واحد من المتأخرين رسالته بجبل الرس الملقب الآن أوراس و كانت معجزته نارا و كانت رسالته قبل رسالة سيدنا محمد صلى اللّه عليه و سلم بمدة قريبة إلا أن رسالته صلى اللّه عليه و سلم نسخت جميع الرسائل و الشرائع إلا ما بقى عن كونه لم ينسخ و الذى شهر رسالته صاحب التآليف المشهورة و التصانيف المذكورة المنتفع

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۵

بها غربا و شرقا و جوفا و قبلة سيما بمحروسة مصر فى الجامع الأزهر إذ قد اقبلوا على تلك التآليف إقبالا كليا تدريسا و بحثا و شرحا و تعليقا بالحواشى و تطريرا سيدى عبد الرحمن الأخضرى نفعنا اللّه ببركاته و أفاض علينا من بحر أنواره رضى اللّه عنه و أنا سمعنا أنه هو الذى أظهر قبره بعلم التربيع و هو مقام عظيم و الوفود تأتيه من المشرق و المغرب للزيارة و أما على قول بولايته فواضح لأن قبور الأولياء لا تكاد أن تخفى و كذا نص على رسالته الخفاجى على الشفاء فما أحسنها من زيارة و قد اجتمع فيها أكابر الفضلاء و أعظم الصلحاء و تلاقينا فى تلك الزيارة مع أفاضل الزاب و نجبائه و لا شك أن أكثرهم مجاب الدعوة كالشيخ الفاضل الفقيه المدرس فى مسائل المختصر للشيخ خليل بشرح القدوة صاحب الأنوار الشيخ التنائى مع حاشية الشيخ مصطفى سيدى محمد الشريف من بنى جلّال و أهله من الأشراف و السيد عبد الباقى و الفضلاء من الطلبة و الفقيه الأديب سيدى عبد البارى و اجتمعنا أيضا بالزاهد فى الدنيا المتخلى عنها رأسا سيدى المبروك و سيدى المبروك هو تلميذ الولى الصالح الورع الزاهد سيدى أحمد بن باباس و نجليه سيدى

المحفوظ و سيدى الطيب و سيدى المحفوظ كان يرى النبى صلى اللّه عليه و سلم و يرى اللّه تعالى أيضا حسبما تراه فى مرائيه و كان أخا لنا نفعنا اللّه ببركاته أمين.

و قد كان سيدى المبروك رضى اللّه عنه حينئذ متبتلا منقطعا للعبادة و قد رأيته رضى اللّه تعالى عنه كأنه خارج من قبره تعلوه صفرة و قد ظهر أثر التراب على وجهه فبتنا عنده فى قريته و تكرم علينا غاية و دعا لنا و لإخواننا و من تعلق بنا فلما أردنا الانفصال صبيحة تلك الليلة ذهب عائدا لزيارته سيدى أحمد الطيب و كثير من الناس فلم أذهب أنا معهم قصدا منى أن لا أمنعه من العبادة فى تلك العودة و ما

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۶

حصل لنا قبل كأبى و ذلك شأنى مع كل مشتغل باللّه تعالى فأن كنت بطاه فلا أعوق الغير عما يعنيه.

و قد دخلنا طولقة فاجتمعنا بها أيضا مع أهل الفضل و العلم وزرنا أيضا الشيخ المذكور و الولى المشهور سيدى عبد الرحمن الأخضرى فى قريته المشهورة فلما وصلته وجدته كأنه حى فى قبره و ذقت منه أمرا عظيما يكاد الجاهل أن يحيله و قد زرت و الحمد للّه النبى سيدى خالدا مرة أخرى قبلها مع الجم الغفير و الجمع الكثير نحو الألف و فيه من الأفاضل ما لا يحصى كالسيد الفاضل الشيخ سيدى على بن المبارك نجل سيدى على الطيار و فى ذلك السفر زرت الشيخ الغوث أبا جملين فى المسيلة أفاض اللّه علينا من بركاتهم و أعاد علينا من أنوارهم.

هذا و أن العهد مع سيدى محمد المسعود موثوق فعقد الجميع النية و عزموا على الحج جزما و كان عزمى بعزمهم غير أن عزمى لم يتفّو ذلك العام إلا- إذا ذهبوا فاذهب معهم قطعا إن شاء اللّه تعالى و بعد ذلك أظهر الجميع عزمه إلى الحج و أنا أقول عزمى على عزمهم فأعان اللّه الكل فحجوا و قضوا مناسكهم حال الحياة تقبل اللّه من الجميع.

نعم علامة القبول موجودة و دلائل الخير حاصلة إن شاء اللّه تعالى و كيف لا إذ لم يسافروا إلا حبا فى اللّه و للّه و من اللّه و شوقا فى رسوله صلى اللّه عليه و سلم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۷

و دلائل الخير لا يمكن فشوها كان ذلك فى الكعبة و عند المواجهة علمها بعض الفضلاء و قد شاهدنا ما لا يصح تخلفه بفضل اللّه تعالى و ناهيك بزيارتهم و حبهم و الأخذ منهم و إلا فالمحروم شقى و من لم يحسن الظن غبى.

و بالجملة فلما سمع الناس من عمالة الجزائر بحج هؤلاء الفضلاء و نخبة العلماء حركهم ذلك إلى شد الرحال إلى بيت اللّه الحرام من كل بلد و وقع الضجيج من عامة المسلمين و من خاصتهم و ذلك من الحاضرة و البادية حتى ذهب جميعهم بنسائهم و أولادهم.

نعم زاد عزمى و قويت همتى للمشى غير أنه عارضنى أمر أوجب السفر مع الأخ فى اللّه سيدى أحمد الطيب إلى ناحية زواوة و قرية تدلس [دلّس] لزيارة الشيخ الولى الصالح سيدى أحمد بن عمر إذ سمعت به فى صباى أنه من أهل التصريف و قد أخبرنى بذلك البعض من أهل الخير ممن يوثق بهم و كان رضى اللّه عنه يعرف أهل عصرنا و يطالع أحوالهم و يعلم من كان من أهل التصريف منهم من المشرق و المغرب و أنه اخبرنى بأن سيدى احمد الزروق بن مصباح و سيدى الحسين بن أعراب من بنى يزدان و سيدى أحمد ابن باباس الفليسى و سيدى أحمد بن عمر التدلسى أنهم من أهل الوقت و هو غير بعيد بل هو الحق إن شاء اللّه تعالى.

نعم هؤلاء فقهاء مدرسون متبعون للسنة و قد ظهرت عليهم آثار الفضل

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۸

و أنوار الحق مشرقة عليهم و قد صحبتهم و أحببتهم و شهدت من جميعهم ما يدل على ذلك على أن سيدى ابن أعراب كان يحدثنى عن رجال الغيب و يقول أنهم قالوا ذا و يكون ذا و لو لا- الإطالة لذكرت من كلامه ما فيه العجب العجاب من اطلاعه على بعض المغيبات.

نعم أحوال الكشف فيه ظاهرة و قد روينا من أسراره رضى اللّه عنه و كذا من الجميع فى محالهم و قد زرتهم مرارا مع اطلاعى على بعض أسرارهم و الحمد للّه تعالى.

فانفصلنا من مقامنا بنية الزيارة و قضاء الحوائج لبعض المسلمين من إصلاح ذات البين إذ القتال بين المسلمين فى وطننا كثير و الفتنة بينهم قل أن ترتفع و الهرج بينهم قوى أزال اللّه ذلك بمنه و كرمه و حكم السلطان غير نافذ فيهم إذ لا يقدر عليهم و ان كانوا قريبا من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال فلم يفد فيهم الأهمة الصالحين و أهل الخير فيجب على من يقبل منه أن يذهب إليهم و يصلح حالهم ليرتفع ما فيهم من المعصية و هى قوله صلى اللّه عليه و سلم القاتل و المتقول فى النار الحديث و قد نص علماء بجاية على أنه يجب على أهل الخير و الصلاح ممن يقبل منه أن يصلح بين هؤلاء المسلمين و إلا عصى اللّه تعالى و قد نصّ أيضا على أنه لا يجوز حال قتالهم النظر إليهم و لا النزهة فيهم لأنها معصية فلا تجوز مشاهدتها و هو شريك بالنظر أنظره فى الأسئلة تره بالعيان.

و بالجملة فذهبنا لبعض القرى قد خربت من أجل ذلك وعلها ترجع للعمارة و كان ذلك فى يد متولى أمرهم سلطان مجانة بتخفيف الجيم كما سمعته من بعض من

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹

يعرف ضبطه من الحذاق و يوثق به فى اللغات و هو المعظم الأجل محب الصالحين الشريف المبارك محمد بن أحمد بن القندوز المقرانى ثم العباسى متوجهين إلى تلك النواحى.

و مررنا على قبر الشيخ الولى الصالح و القطب الواضح رحمة وطننا و غيث بلدنا سيدى يحيى العيدلى نفعنا اللّه به أمين و قد شهد بقطبانيته الشيخ الولى الصالح ذو التصانيف المفيدة سيدى عبد الرحمن الصباغ شارح الوغليسية و قد شرح البردة أيضا بان اختصر شرح الإمام ابن مرزوق التلمسانى عليها بعلوم سبعة ورثاه عند موته بقصيدة عظيمة و شهد له أيضا بالعلم الظاهر و الباطن و ان له كرامات عظيمة و شهد له بذلك أيضا بحر الولاية و العلم سيدى عبد الرحمن الثعالبى رضى اللّه عنه و مثله فى العلم و الولاية سيدى التواتى البجائى و كان حكمه و فتواه لا يردان من بجاية إلى تورز [و مثله طود العلم و شمس الحق و العرفان السيد الشيخ زروق و كفى بهم علما و ديانة و نصحا للمسلمين] أما سيدى عبد الرحمن الثعالبى فانه رد رسالة للشيخ سيدى يحيى بان شاوره على أمور ثلاثة أحدها من أزواج ابنتى و الثانية من يكون وصيا على أولادى و الثالثة تجعل تأليفا لأصحابى فأجابه الشيخ الثعالبى عنها بان بنتك زوّجها من تلميذك فلان و أما الوصية فأنت الوصى عليهم حيا و ميتا و أما التأليف فقد ألفت ما فيه كفاية و الآن قد كبر سنى و وهن عظمى فلا أقدر على التصنيف و هؤلاء كلهم فى القرن التاسع رضى اللّه عنهم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۰

و أرضاهم و أما سيدى التواتى فقد عظمة غاية التعظيم بان كتب الشيخ سيدى يحيى بعد السلام و الرحمة و البركة أنك ذكرت شيئا من أحوالنا فى الصلاة منتقدا أو فادحا فيها فأجابه رضى اللّه عنه بان قال له بعد تعظيمه بما يستحقه من التعظيم و اللّه ما ذكرنا أحوالك إلا- تبركا بها فقط و كيف لا- و أنك أحييت أمورا درست و طرفا ذهبت و أنت المحق الفاضل صاحب الوقت أو كلاما يقرب منه و إما الشيخ زروق فقد ذره فى كناشه و أنه ألف بعض تآليفه فى مسجده المعلوم فى ثمقرا رضى اللّه عنه و نفعنا به حاصله ذكره الشيخ زروق و عظمة غاية التعظيم بحيث أخذ عنه العلم الباطن و قال بعض العلماء هو الذى ملك للشيخ زروق أقطارا من البلدان و إلى ذلك أشار بقوله «و ملكنيها بعض من كان مالكا» و قد سمعت ممن يوثق به أيضا أنهما اختلفا فى لفظ الجبروت هل هو بهمز أو بغير همز [فقال الشيخ زروق بغير همز إذ لم يوجد فى اللغة فعلوت هكذا بهمز] و قال الشيخ سيدى يحيى إنما هو بهمز فلما أصاب الشيخ الريب قال له الشيخ سيدى يحيى أنظره فى اللوح المحفوظ بان مسح وجه الشيخ زروق فأزال اللّه الحجاب عه فراه كذلك و من كرامات سيدى انه لما بنى مسجده المعلوم اختلفوا فى القبلة فلما اختلفوا فيها قال الشيخ سيدى يحيى لجبل فوق قريته انخفض فانخفض فتبينت لهم الكعبة و رآها كل من كان هناك و هذا و اللّه أعلم و ان لم يرمى الكتب غير انه تواتر عنه ذلك و من

كراماته رضى اللّه عنه أن الشيخ سيدى التواتى بعث بعض طلبته لسيدى يحيى ليرسل له شيئا من الزيت لأن بلد الشيخ بلد الزيتون إلى الآن فبعث الشيخ سيدى يحيى للطلبة معزا أى عددا منه و قال لهم سوقوا المعز من غير كلام لأحد حتى تصلوا الشيخ فلما و صلوا أثناء الطريق بان و صلوا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۱

سوق الثلاثا لبنى هارون وجدوا بعض إخوانهم من الطلبة فسألوهم عن الخبر و قالوا بعث معنا عددا من المعز و غفلوا عن وصية الشيخ رضى اللّه عنه فلما ذهبوا لذلك المعز وجدوه جلودا من زيت و قد أسقط عليهم الكلفة [فلما فضحوا سر الشيخ رجعت لهم الكلفة] ثم أنهم حملوها جلودا كذلك إلى أن وصلوا إلى بجاية إلى الشيخ فاخبروه القصة و قال لهم لو سكتم لوصلوا كذلك ثم يرجعون زيتا فلما خالفتم وقع بكم ما وقع من الكلفة و بالجملة من كتم سر الأولياء و كذا سر اللّه انتفع به ودام له ذلك و كراماته رضى اللّه عنه كثيرة و قد كتبنا منها نبذة فى شرحنا لوظيفته عند ختمه و لم أذكر فيها كرامة عظيمة لم أرها مسطرة غير أنها تواتر أمرها و اشتهر و هو انه لما رجع من سياحته و قد مكث فيها مختفيا عن الناس نحوا من عشر سنين و أمه فى حال حياتها وجد أهل قريته أخذوا ثورا لحما فقسموه و لم يجعلوا نصيبا لأمه من غير اكتراث بها فلما علم بذلك تغير من أمرهم حيث لم يسهموا لها شيئا و الحالة أن اللحم لم يبق منه شىء بل جعلوه فى القدور و لم يجد شيئا باقيا إلا الجلد و الرأس فعند ذلك ورد عليه حال عظيم بان أمسك الجلد من الذيل و قال له قم بإذن اللّه فقام الثور يمشى كما كان أول مرة فلما شاهدوا منه ذلك خضعوا له و تواضعوا و ذلوا و استكانوا و ظهر أمر الشيخ بينا بحيث أن من تعدى عليه هلك بغتة و قد كان له زرع فى امالوا و بات فيه جماعة من الناس بخيلهم من غير علم أن الزرع للشيخ فلما أصبح اللّه بخير الصباح مات جميع خيلهم و حملوا سروجهم على أعناقهم ثم إن ذلك فى أخر عمره ارتفع و سئل الشيخ عن ذلك فقال فعل اللّه ذلك ابتداء ليعلم بحالى الخلق و ليظهرنى فلما حصل المقصود من الظهور و النفع للخلق و ظهرت الخصوصية

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۲

الخصوصية و ثبتت و دامت ارتفع ذلك و اللّه اعلم.

و لما زرنا قبر الشيخ و سألنا اللّه بجاهه أن يمن علينا بما فيه رضاه من السفر و أن ييسر علينا أمره و ان يجعله مقبولا مع الأخذ فى الاستخارة الشرعية و بالجملة فقبر الشيخ ترياق مجرب ذهبنا لبنى عباس و بتنا عند الفضلاء الأشراف المحبين لنا جميعهم الصغير و الكبير و الذكر و الأنثى و تكرموا و فرحوا بنا فرحوا شديدا ثم بعد ذلك لقرية المحب كل الحب إذ داره يد أهل الخير فيها يدا واحدة الفاضل الفقيه الصالح الكامل سيدى محمد السعيد بن الطالب و انه فرح بنا أيضا فرحا شديدا و بعده ذهبنا لزيارة الشيخ الولى الصالح و البدر الواضح ترياق وطنه و أمير بلده سيدى أحمد بن عبد الرحمن جدا أولاد مقران و اللّه اعلم تلميذ الشيخ سيدى يحيى و قد سمعت أنه قال للشيخ سيدى يحيى أنى رأيت فى النوم النار تخرج من بولى فعبرها له الشيخ بان قال يصير منهم أى من أولاده ما يصير من أهل الظلم و الجور و كان الأمر كلما ذكر و لعل بركة جدهم تعمهم و كذا الشرف و قد رأيت طبقات ابن فرحون انه نص على شرفهم و اللّه اعلم قلت و قد نص الشيخ عبد الباقى على أن الشرف يثبت بالشهرة عند قول المصنف و مصرفها بكسر الراء فقير الخ و الأجهورى بضم الهمزة قال الناس على ما حازوا من أنسابهم كحيازة الأموال يصدق الإنسان شرعا فى نسبه كما يصدق بان ما بيده ماله إلا إذا كان مشهورا بالعداء و الظلم فلا بد أن يكلفه الحاكم بأى وجه تمليكه و إلا أخذه من يده لعل صاحبه يأتى إليه نص عليه الشيخ إبراهيم الشبرخيتى.

هذا و لما زرنا الشيخ و سألنا اللّه حوائجنا الدينية و الدنيوية و أمر السفر أيضا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۳

حسبنا عند الشيخ سيدى يحيى ذهبنا لقضاء حوائج المسلمين فلما قضيناها من أمير مجانة و غيره من عرفاء نبى عباس ذهبنا لمحل

الولى الصالح و الشريف الواضح سيدى بهلول بن عاصم نفعنا اللّه به و بذريته و قد اشتهر أمره انه تلميذ الشيخ سيدى يحيى كما كنا نسمع ذلك و اللّه اعلم و انه أيضا تزوج بنت الشيخ المذكور و كراماته كثيرة و حال أولاده مع الناس كذلك.

نعم بدأنا بزيارة الذاكر للّه كثيرا الفاضل الصالح الفقيه المحلى بحلية القبول سيدى محمد بن سعيد الشريف البابورى و قد اجتمعت معه حيا وزرته مرتين و قد سمعت انه تلميذ الشيخ سيدى أحمد بن عبد العظيم و سيدى أحمد هذا كان من المحققين فى كل علم و شهد بولايته كل من رآه من أهل عصره و قد سمعت ممن سمع سيدى إبراهيم الحاج البجائى انه سمع الحيتان فى البحر تقول سبحان اللّه أحمد بن عبد العظيم ولى اللّه.

و سيدى إبراهيم هذا كان صاحب الوقت فى زمانه و أنى سمعت ممن يوثق بخبره أن السيد أبا القاسم الحاج صاحب فراية فى بجاية انه رأى السيد إبراهيم فى السماء الرابعة يجذب الشمس مع الملائكة و كفى به و أنى سمعت العدل المبرز الكامل الصالح سيدى على بن عبد الرحمن البجائى انه سمع من الفقيه الصالح سيدى يحيى الصنهاجى انه قال سمعت من سيدى إبراهيم هذا يقول لا يقف عند قبرى شقى و تواتر عنه هذا الخبر و قبره معلوم و ذلك داخل السور عند باب امسيور قرب قبر الشيخ أبى حامد الصغير أبى على المسيلى.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۴

و سيدى على هذا سمعت منه انه قال رأيت فاطمة الزهراء فى النوم فقالت أنت من جيراننا ثم إنه ذهب إلى الحج و مات فى المدينة المشرفة و دفن فى البقيع بلغنا اللّه و من تعلق بنا ببركة جميعهم.

و كذلك زرنا سيدى الهادى و أولاده كان رضى اللّه تعالى عنه مقبلا على اللّه و له بسطة فى الدنيا و أقبلت عليه الناس ثم بعد ذلك امتحن و نجا بفضل اللّه تعالى بان تعدى عليه طلبة الشيخ سيدى أحمد بن إدريس إذ بلغ أمرهم الظلم و التعدى و الفتنة للناس و هلاكهم و قطع شجرهم و أصابتهم غيرة من الشيخ و حسد فعادوه و حرقوا قريته و أخذوا ماله و قتلوا ولده و لما أحاطوا بداره و لم يتركوا فرجة له يخرج منها ظنا منهم يمسكونه بأيديهم ركب فرسه و هى طويلة جدا و هو رجل طويل بلغ فيه الغاية فلم أر رجلا مثله إلا النادر و خرج من باب صغير بحيث لا يخرج منه إلا الطفل المراهق أو ربعة من الناس نعم لا يخرج من ذلك إلا بعسر فخرج بفرسه على حاله فكل من رأى ذلك و علم بحاله تعجب من ذلك كثيرا فنجاه اللّه تعالى و سلم ثم أنى رأيت له قصيدة كبيرة فى شأن هؤلاء الطلبة المتعدين و ان خصها بعض الأوزان الشعرية فان مذهب المتقدمين لا يشترطون ذلك و إنما هو مذهب المتأخرين على أنه إن استقامت حالة الإنسان و كانت همته عالية متعلقة باللّه تعالى لا يضره مخالفة القوانين الأدبية و لا غلبة العجمة و لا قلة العلم و قد ذكر فيها انه سمع من النبى صلى اللّه عليه و سلم انه قال له سيهلكهم اللّه بان قبلت فيما طلبته فيهم و كان الأمر كما ذكر بان شتت اللّه جموعهم و فرق أمرهم تفريق أيدى سبا و ان بقيت منهم حثالة فقد رق حالهم و ضعف أمرهم غير انه إن بقى منهم و لو واحد لا يخلو من

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۵

التعدى و الظلم نعم بركة الشيخ سيدى أحمد بن إدريس تنوب عليهم و لعل اللّه يهديهم أو يهلكهم إن لم يعلم ذلك منهم و بركة الشيخ سيدى الهادى هذا ظاهرة على ذريته أرشدهم اللّه تعالى.

و زيارة هذا الشيخ بعد أن زرنا مقام الشرفاء فى بو جليل فأنهم أهل فضل و بركة و عناية و قد اجتمعنا معهم فى الجد الأعلى و الشرف على ما كنا نسمعه من أعالى أسلافنا فلما وصلنا قرية أولاد الشيخ سيدى بهلول فعلوا ما أمرناهم به من الصلح مع أعدائهم وردهم إلى محلهم لأنهم حرقوهم بالنار و أخذوهم و قتلوا منهم ثلاثين و أولاد الشيخ كثيرون غير أن فيهم من يقرأ القرآن و من يفهم العلم و كثير منهم على طبع العامة من تقليدهم سيف الفتنة و أحكام العوائد نعم غلب عليهم الكرم.

ثم بعد زيارتهم و قضاء الحوائج منهم ذهبنا لزواوة فزرنا وطنهم الحى و الميت و الظاهر و الخفى على الجملة إلى أن بلغنا بيت الفاضل

الأخ سيدى أحمد الطيب و اجتمعنا بفضلاء من الناس.

و بعد ذلك عزمنا على زيارة الولى الكبير و القطب الشهير سيدى على بن موسى و مررنا على بنى منجلات و بنى بترون و بنى عيسى و غيرهم فلما وصلنا الشيخ سيدى على بن موسى بتنا فى مقامه المشهور و ضريحه الترياق و قد ظهر من أمره نفعنا اللّه به أن من قصده لحاجة دنيوية أو دينية يعطى لو كلائه و طلبة مقامه شيئا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۶

معلوما إذ كل حاجة بما تشترى من القدر المعلوم تقضى بإذن اللّه تعالى و فضل اللّه عليه عظيم و صبغة اللّه عليه جالية و زائره مقبول و قبره دواء ربانى و طب إلهى و قد كان فى القرن التاسع معاصرا للشيخ سيدى يحيى العيدلى و صديقا له كراماته باهرة و أحواله ظاهرة قلت قال الشيخ سيدى يحيى العيدلى على بن موسى فيه خاصية الرقية لم تكن فى أحد من أهل عصره قال و قد رقى لى عكازا أى عصا و كنت أرقى به للناس فيظهر أثارها و قيل انه ذهب لبنى يمّل فى وادى بجاية و أتوا له بولد كبير بلغ حد المشى و تجاوزه و لم يقدر على المشى بان صار مقعدا لا يقوم أصلا فمسح عليه و رقاه فمشى من حينه نفعنا اللّه به و من كراماته ما اشتهر عنه أنه أقام بقرة بعد ذبحها و قسم لحمها و سببه أنهم لم يسهموا له الطلبة لأنه كان خديما للطلبة و غير ذلك من كراماته و كان له مزود إذا امتلأ يكفيه ثمانية أيام بلغ الضيوف ما بلغوا ألفا أو أكثر أفاض اللّه علينا من بركاته و جعلنا فى زمرته بمنه و كرمه.

ثم ذهبنا بعد الزيارة و طلبنا عنده ما طلبناه عند الشيخ سيدى يحيى إلى قرية تدلس المحروسة لزيارة سيدى أحمد بن عمر إذ كنت صغيرا و قلبى متعلق به حتى جمع اللّه بيننا و بينه عام تسعة و سبعين و مائة و ألف (۱۱۷۹) فلما وصلنا فرح بنا فرحا عظيما و سر بنا سرورا قويا و دعا لنا بعزم و قوة همة من صميم قلبه و خلاص الاعتقاد و أقمنا ثلاثة أيام فيها مع كرم عظيم و طيب ضيافة و إحسان تام من أهلها عمرهم اللّه و جعل البركة فيهم.

ثم أن فضلاءها و نجباءها سألونى عن قول بعض الأولياء وقفت بساحل

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۷

وقفت الأنبياء دونه فزبرت عليه رسالة حسنة بما فتح اللّه به ارتجالا و كتبت فيه رسالة نحو كراسة صغيرة و قد قلت فيها ما حاصله انه وقف بساحل بعلمه الحقائق و زوال الحجاب عنه بان وقعت له شطحة من شطحات أهل المحو فوقف فى ذلك الساحل لعدم تمكنه و رسوخه فى علم الشريعة و لا- فى علم الحقيقة إذ هو متلون لا- متمكن من الذين إذا ذكر اللّه و جلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا لا من المتمكنين الذين اطمأنت قلوبه بذكر اللّه ألا بذكر اللّه تطمئن القلوب فوقف فى ذلك الساحل وقوف اضطراره لا وقوف أدب لأن صاحب هذا المقام محمول لا- حامل و هو ممن ملكه الحال لا- انه ملكك حال فكان وقوف الأنبياء دونه أولى و أمكن و أليق لتمكنهم و اشتغالهم مع السفرة و الوحى هذا بمنزلة الخضر مع موسى عليه السلام و قد كانت علوم عنده لم تكن لموسى عليه السلام مع أن موسى أفضل منه بالإجماع غايته أن تلك مزية و القاعدة المقررة أن المزية لا تقتضى الأفضلية فموسى قد اشتغل بما هو أعظم و الخضر خصه اللّه تعالى بهذا الأمر فلا يكون أولى و لا شك أن الخضر وقف بساحل من العلوم اللدنية و المواهب الكشفية لم يقف موسى بها إذ وقف دونها و هى علم الشريعة و لا شك أن ما يفعله الخضر فى بادى الرأى أنه ممنوع شرعا فى ظاهر الحال و لذلك قال له لن تستطيع معى صبرا و كيف تصبر على ما لم تحط به خبرا فإذا علمت هذا علمت مثله فى هذا القول من غير شك و قد قررته بوجهين آخرين فاستحسنوا ذلك منى غاية قل بفضل اللّه تعالى.

ثم و دعونا وفقهم اللّه و هداهم نحو مسيرة نصف يوم و فى تلك الجماعة عمنا العلامة المحقق الفهامة سيدى محمد الصغير بن رقية و الفاضل الكامل سيدى محمد السعيد بن الطالب و المحب للخير و أهله سيدى أحمد بن على نجل السيخ سيدى يحيى العيدلى و سيدى أحمد الطيب و الشيخ الفاضل سيدى مهنا و خديم الصالحين الحاج على البترونى و غيرهم و تلميذ سيدى محمد السكلاوى الجزائرى إذ كان يقرأ

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۸

علیّ کبری الشیخ السنوسی بالشیخ الیوسی قراءة تحقیق فی أیام الزیارة و غیرها و شاورنا سیدی أحمد بن عمر علی الحج فقال توکلوا علی اللّه.

ثم رجعنا و أخذنا علی بنی فراوسن بلد الشیخ ابن معطی صاحب ألفیة النحو الذی قال فیه ابن مالک «فائقة ألفیة ابن معطی» و سیدی محمد الزواوی صاحب المراءی المعلومة صدیق سیدی سعید السفری القسنطینی و صاحبه فنزلنا قریة الجمعة اعنی الصهریج و هی قریة عظیمة ذات بساتین و عیون فی وسط العمارة نحو مائة عین کما قیل.

و نزلنا عند المعظم سیدی محمد بن القاضی الشریف سلطان زواوة و عاهدنا علی الحج و مشی معنا ثم مات رحمة اللّه علیه بعد خروجنا من المدینة المشرفة و دفن بین الینبع و نقب علی فی شهر محرم سنة ثمانین و مائة و ألف (۱۱۸۰) ثم أتینا بنی بو شعایب وزرنا جملتهم ثم مررنا علی بنی یحیی وزرنا جملتهم أیضا و تلاقینا مع بعض فضلائهم أولاد الفقیه من قریة ثوفة .

وزرنا سیدی علی بن الطالب و هو ولی مشهور کان صبغة فی عصره و کان یأتیه الرجل فیبلغ للّه تعالی ساعتئذ وزرت قبره مرارا و أنی أدرکت أصحابه المنورین جملة منهم سیدی أحمد بن عمر و سیدی الموفق ابن أم رزق الصغیر إلا أنی صغیر و هو قد تجرد للعبادة و خدمة طلبة العلم و له کرامات کثیرة و ورع شدید صاحب انقباض و المرابط سعید بن ثیفرین و أنی أدرکت منه المنی و أنا صغیر و الولی الصالح سیدی

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۲۹

یحیی بن حمود و کلهم أصحاب وقت فی عصرهم.

ثم نزلنا قریة الشیخ الفاضل ذی التصانیف الجیدة الولی الکبیر و العالم الشهیر صاحب وقته المحب للنبی صلی اللّه علیه و سلم و خلیله سیدی أحمد بن مزیان و هی ورجة قریة عظیمة طیبة فیها بساتین و عین جاریة وسط داره و له خلوة معلومة له الید العلیا فی العلوم کلها المنقول و المعقول و قد خمس البردة] بحیث لا نفرق بین کلامه و الکلام الأصلی و ألف کتابا فی الصلاة علی النبی صلی اللّه علیه و سلم لم یوجد له نظیر لأنه ذکر تصاریف اللغة و حاز ید السبق فیها و غیر ذلک و له سر عظیم و انفعال جسیم فأین توجه إلا و الناس حافون به کلامه له حلاوة و طلاوة و قد تمکن فی علم الأوفاق تمکنا کلیا مع الکشف التام و قد أخبر عنه أنه لا یفعل شیئا حتی یستأذن النبی صلی اللّه علیه و سلم و له کرامات مشهورة و هی أنه أتاه فقیر فی أیام الحج فقال له و اللّه أن أحج فی هذه الأیام فلما ألح علی الشیخ و ذلک فی زمان الخریف أعطی له عنقودا فکمل أکله فی مکة المشرفة ثم لما کمل حجه وجد نفسه فی داره نفعنا اللّه به و وله حی أخ لنا و صدیق لدینا و هو لا ینتبه لأکثر أحوال الدنیا.

و زرنا صاحب الفضل و الفواضل سیدی العزالی جعل اللّه البرکة فی أولاده بمنه و کرمه و له أحوال سنیة و کرامات ظاهرة سیما إجابة الدعوة و أبوه أقوی و أعظم و قد عمت برکته الدانی و القاصی نعم زرنا قبره وبتنا فی خلوته و توضأنا من عینه

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۳۰

و قد سمعنا أن ماء زمزم یخرج إلیها و انه أیضا لم یبن تلک القریة إلا بإذنه صلی اللّه علیه و سلم.

ثم بعد ذلک رجعنا إلی دار الشیخ سیدی محمد السعدی والد سیدی أحمد الطیب کان فاضلا عالما عابدا زاهدا ورعا آکلا من عمل یدیه طالبا للحلال لأن من أکل الحلال أطاع اللّه شاء أم أبی و من أکل الحرام عصی اللّه شاء أم أبی أو کما قال صلی اللّه علیه و سلم و هو تلمیذ الشیخ سیدی أحمد بن مزیان و انفعلت فیه سریرته و ظهر علیه آثار أنواره و قد سمعت ممن یوثق به أنه قال لو شئت أن تصیر لی الجبال ذهبا لفعلت و لکنی اخترت ما اختاره النبی صلی اللّه علیه و سلم لنفسه من التقلل فی الدنیا و نفض ید القلب منها قطعا و الحمد للّه علی محبة آثارهم و معرفة أحبابهم رضی اللّه تعالی عنهم.

ثم بعد زیارته فی محله رجعنا إلی بلدنا مارین علی الشیخ سیدی یحیی العیدلی عطفه اللّه علینا و علی أولادنا و طلبتنا و کل من ینتمی

إلينا من الإخوان و غيرهم بمنه و كرمه.

فلما بلغت البيت حدث لى العزم التام نعم أخذنا فى التأهب إلى السفر و الأخذ فى أسبابه و اشتهر أمر سفرنا و بلغ أمره أطراف نواحى عمالة الجزائر فقامت لذلك فضلاء الخاصة و العامة ثم وقع النداء فى أسواق بلدنا فيمن عزم للسفر.

ثم بعد ذلك عرض لى أمر أوجب لى السفر لوادى بجاية فلما ذهبت إلى الوادى سمع بى جماعة من فضلائها العلامة الفاضل قاضيها تلميذنا سيدى أبو القاسم نجل

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۱

الكامل سيدى إبراهيم و الفقيه المفتى سيدى محمد و المعظم الأجل قائدها أحمد السطمبولى محب الخير و أهله و كان والده السطمبولى تاب على أيدينا رحمه اللّه آمين.

فلما وصلت إلى أولاد الشيخ سيدى محمد أمفران فى محلهم إذ هم أنسابى نويت زيارة الشيخ الصالح و الأستاذ الواضح سيدى إبراهيم بن ثابت فى بنى مسعود فوجدت تلك الجماعة قاصدين ملاقاتى فاجتمع كلنا عند السيد إبراهيم المذكور فبعد زيارتنا له ألحوا على فى الذهاب إلى بجاية إذ كنت متغيرا عليهم قبل غير أنهم لما أكدوا على ذهبت معهم إلى زيارتها لأنى محب فيها غاية و ذلك قبل بلوغى و كنت كل عام أصوم فيها رمضان ناويا للرباط مع تعليمى الطلبة راجيا أن يكون لى حظ وافر منهم و نصيب كامل من عندهم حقق اللّه رجائى بمنه و كرمه.

فلما وصلت بئر السلام متشرفا على المدينة المذكورة توجهت إلى زيارة الشيخ سيدى أحمد بن معمر الولى الكامل و الليث الفاضل لما كنا نسمعه أن من زار بجاية و لم يزره لم يذهب بشىء منها و العياذ باللّه تعالى و ان لم يكن كذلك فى نفس الأمر غير أن أسباب الحرمان كثيرة فالحذر الحذر و الأدب الأدب ألا ترى ما وقع لبعض الأولياء فى زمان الشيخ سيدى عبد القادر الجيلى حين قال قدمى هذه على رقبة كل ولى للّه فكل من سمعها طأطأ برأسه تواضعا للّه تعالى و تسليما للشيخ إلا واحدا من

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۲

أولياء العراق لم يسلم للشيخ حاله و لم يصدق مقالته فسلب من حينه و العياذ باللّه تعالى و كذا رجل تغير عليه الشيخ و قال لا يدخل بغداد فكان إذا وصل إلى بابها لا يقدر على الدخول لما يجده من المنع الإلهى نعم شفعت عنده أمه فى الاجتماع معها فقبلها غير انه أذن لها أن تجتمع معه فى طريق تحت الأرض فى بغداد و أما الطريق المعلومة فممنوع منها و كذا ما حكى عن أبى يزيد البسطامى الذى من عرف اسمه دخل الجنة و اسمه طيفور بن عيسى و هو أنه قال لصائم تطوعا كل يوما بيوم فقال أنا صائم فقال كل يوما بشهر فقال أنا صائم فقال كل يوما بعام فقال أنا صائم فقال كل يوما بدهر فقال أنا صائم ثم سكت عنه الشيخ فقام بعض الناس إليه قائلا له أن الشيخ يأمرك بالأكل و أنت تمتنع فقال له الشيخ دعه فانه سقط من عين اللّه تعالى انظر هذا مع انه موافق لمذهب مالك أنه يحرم على الصائم المتطوع الفطر من غير وجه و الوجه الأبوان و ذو التربية من الشيوخ و لابد أن يكون الصائم مديما للصوم و ألحق البعض شيخ التعليم قلت قال المحلى حديث الصائم أمير نفسه إن شاء صام و إن شاء أفطر رواه الكتب الستة فكان المختار عند غير مالك الفطر من غير منع بل هو مباح و يحتمل حينئذ المأمور بالأكل أن يكون تلميذا للشيخ و يحتمل أن يكون الشيخ مذهبه الحديث أعنى جواز الفطر.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۳

تنبيه إياك أن تتعرض لأحد من أهل اللّه ممن ثبتت له الخصوصية من الأولياء فى زمانك فيما فيه الوسع شرعا فتنزل قدمك بعد ثبوتها و قال الخطاب فى حاشيته على الشيخ خليل أن مذهب المخالف أعى الفطر من غير وجه أقيس فإذا فهمت هذا علمت أن الاعتراض على من ثبتت له الخصوصية حرمان و المنازعة شقاوة و امتثال أمره غنيمة فالكيس بن الكيس إذا اجتمع مع أحد من أولياء زمانه ينظر ما يستحسنه منه بقلبه فعله من غير كلفة من الشيخ فتأخذ مكانا فى صدره فينظر اللّه إليك بعين الرحمة لأن اللّه ينظر إليه

بعين الرحمة فمن نظره فى قلبه أفلح و لا تعترضه و لو فى غيبته إذ ربما كان ذلك سلبا لإيمانك لأن اللّه يحارب عنه و قال أبو يزيد المذكور أعلى الولاية التصديق بأحوال أهل اللّه و أدنى الولاية التسليم لأهل اللّه فلا تنازعهم أصلا بقلبك و لا بقالبك فيموت قلبك إلا ما أنكره الشرع إجماعا . حاصله. هم أبواب اللّه و اللّه يقول و أتوا البيوت من أبوابها فمن اعترض أحدا بحظ نفسه رد عن باب اللّه و كان مطرودا بين العباد فيراه كل أحد من الناس بعين الازدراء حتى انه لا يجد شفيعا إلا التوبة الصادقة فحسن الظن و تسليم الأمر لأهل اللّه غير قادح شرعا بل هو سلم يرقى به إلى حضرة الكمال فإياك أن تنظر إلى كثرة العبادة من الإنسان بل انظر إلى خميرة الصدق و حسن الاعتقاد و عدم المنازعة فذلك الشان و خمر عقلك به تفز كما فازوا و حينئذ لا تسرع لإنكار ما يحكى عن الشيخ سيدى أحمد بن معمر نفعنا اللّه به و أفاض علينا من بحر أنواره بمنه و كرمه أن ثبت عنه ذلك.

و بعد زيارتى له توجهت لزيارة رجال النخلة المدفونين فى مسجد الخميس

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۴

[أعنى السوق و كذا من فى مقبرة السوق] نفعنا اللّه بهم فقد سمعت ممن يوثق به أن بعض الناس من بجاية وصل إلى عرفة فصار يستغيث بالصالحين فيما أصابه فاتاه بعض الأولياء فقال له إن رجعت إلى بجاية فاستغث برجال النخلة فمن استغاث بهم يغاث بإذن اللّه تعالى.

و بعده توجهت بوجهى إلى المدفونين فى جبل خليفة بعد ما زرت سيدى الصديق و زيارة سيدى عبد الحق الفجيجى و لم يثبت عندى شىء فى حقهما نعم أهل بجاية يعظمونهما غاية التعظيم إلا ما سمعت عن بعض طلبة بجاية بان قال الشيخ عبد الحق هذا هو ألى قتله السلطان ظلما و عدوانا و سبب ذلك أن بعض الزنادقة كان يتعبد فى الظاهر فى الموضع المسمى المضيق فلما اشتهر أمره صار الناس يأتيه فيختلى بها فتلد طفلا فعلى صيته بهذا الأمر فذهبت زوجة سيدى عبد الحق هذا إليه و هو معها فلما وصلته طلبها للخلوة على عادته ليطأها فتلد ولدا فامتنع الشيخ من ذلك فقال هذا ممنوع شرعا فرجع هو و زوجته و كانت امرأة السلطان قد فعل بها ما فعل قبل بالنساء و لما رجع الشيخ عبد الحق نادى بالويل على الرجل و قال انه زنديق و نبه على فعله الخسيس و افتضح أمر الرجل و أصابت السلطان المعرة العظيمة فطلب سيدى عبد الحق على مقالته فقتله و جعل رأسه عند باب المدينة و إنما فعل ذلك امتثالا لقوله عليه الصلاة و السلام إذا رأى العالم منكرا و لم يغيره فعليه لعنة اللّه نعم بقى رأس الشيخ هناك مدة غير انه إذا جاء البواب عند الغروب و يقول الباب الباب ليدخل من كان خارجا فيقول الرأس لم يبق إلا عبد الحق الذى مات على الحق

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۵

بلسان فصيح يسمعه الناس كلهم فبعد ذلك رأوا الشىء عيانا و ظهر الحق و زهق الباطل رفعوه و عظموه و جعلوا روضة على قبره و قد قيل فيه أنه ولد الشيخ سيدى على المظلوم المدفون عند الحلق بان قيل أنه مظلوم فى قتل ولده هذا.

و بعده توجهت لزيارة من فى الجبل و قد قيل فيه اثنا عشر ألف قطب و انه ينيخ بأهله فى الجنة كما ينيخ البعير بحمله و توجهى إنما هو على القنطرة التى عند الباب إذا سمعت أيضا من بعض الصالحين انه يقول من وقف على تلك القنطرة و توجه للجبل فسأل اللّه شيئا إلا أعطاه إياه.

و بعد ذلك دخلت بجاية و زرت الشيخ سيدى الصوفى و لم أحفظ من أمره شيئا إلا أن أهل بجاية يعظمونه غاية التعظيم و انه من أهل التصريف فى بجاية نفعنا اللّه به آمين.

و بعده زرت خلوة الشيخ سيدى أبى مدين الغوث و قد زرت قبره و الحمد للّه فى العباد فى تلمسان أرض الجدار وزرت معه الشيخ السنوسى و الإمام ابن زكرى و العقبانيين و الإمام ابن مرزوق و ولدى الإمام و هؤلاء كلهم مؤلفون نفعنا اللّه بجميعهم و أبو مدين كان فى القرن السادس فى بجاية حتى سعى به بعض الشياطين من الحساد إلى أمير مراكش فبعث إليه فلما سمع أهل بجاية عزا مرة عليهم و أرادوا الخروج عن طاعته و قال خليفة بجاية لا تذهب فأنى أخرج عن طاعته من أجلك فقال اذهب و اللّه غير أن الناس لا يرونى و

لا أراهم و ذهب فلما قرب تلمسان أشار بموته فقال احملونى على بغلة فالموضع الذى تبرك فيه فذلك قبرى فبركت فى العباد

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۶

و دفن فيه فصار رحمة لأهل تلمسان و من زاره نفعنا اللّه به آمين.

و كان أصحابه كثيرين منهم الشيخ أبو محمد صالح الدكالى فانه ذات يوم أتى الشيخ أبا مدين فقال له أردت الفقر إلى اللّه أما أنت أو أحد يبلغنى فقال له لما أر لك مثل الشيخ عبد القادر فى بغداد فذهب إليه فلما وصل قال له أردت الفقر إلى اللّه فادخله الخلوة فمكث فيها أربعة و عشرين يوما فدخل عليه الشيخ عبد القادر فقال ما أردت فقال أردت الفقر إلى اللّه فقال عليك بكذا و كذا فقال له هذا كله أعرفه من الكتاب و السنة فقال ما تريد فقال أريد أن تدخل يد قلبك لقلبى قال فنظر فى نظرة فامتحن قلبى من حينه ثم قال انظر الكعبة فنظرت الطائفين بها ثم قال لى انظر المغرب فنظرت شيخى فى المغرب ثم قال له ما أردت مكة أو المغرب قال فقلت شيخى فى المغرب فقال لى فى خطوة أو كما جئت قلت كما جئت فأغنانى بتلك النظرة دنيا و أخرى أنفق فيهما اه.

ثم إن أبا محمد قيل أنه قدم بلادنا و استقر عند أمير وادى أقبو و هو وادى بجاية فرغب فيه السلطان فزوجه بنته فولد معها ولدا فمكث غير بعيد قال دعنى أرفع ولدى فانه ستظهر شمس فى القرن التاسع فى بنى عيدل تغيب النجوم كلها معها فمنعه السلطان منه و ذهب و تركه نعم قيل أولاده هم أولاد سيدى محمد صالح الآن عندنا و اللّه اعلم و قد قيل انه هو الذى طلع بدابته عمود السوارى بالإسكندرية حين قال لهم أين يبيت الغريب فقالوا له استهزاء به فى عمود السوارى فبات فيه و هو لا يمكن عادة المبيت به نفعنا اللّه به آمين.

و أما الشيخ عبد القادر فكان فى القرن الخامس أخذ منه خمسين سنة و أخذ من

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷

السادس تسعا و أربعين سنة.

ثم بعد زيارة خلوته توجهت لزيارة خلوة الشيخ أبى محمد المرجانى المعلوم الذى ينقل كلامه صاحب المدخل و يعتمد عليه و لا يشكك أيضا أحد فى ولايته فقال ابن عرفة قادحا و اللّه اعلم فى الشاذلى و أصحابه اثقل شىء على قولهم قيل لى أو على فقال فلا أقبله و لو من المرجانى المقطوع بولايته اه- فقد جزم بولايته و لا شكك فى ولاية الشاذلى و الشيخ عبد القادر قلت نقل كلامه هذا الشيخ زروق ورده بقوله الثقل ليس بحجة و قوله أيضا المرجانى المقطوع بولايته فإن أراد القطع بحسب الكرامات فالشاذلى و الجيلى أظهر منه كرامة و أن أراد ذلك بحسب نفس الأمر فلم يقطع لأحد الآن بذلك إلا بعد دخول أهل الجنة الجنة.

ثم توجهت لزيارة خلوة الشيخ عبد القادر و خلوة الشيخ سيدى أبى العباس السبتى الكائنتين فى برج اللؤلؤة و قبر سيدى أبى العباس فى مدينة مراكش و أما قبر الشيخ سيدى عبد القادر فمعلوم فى بغداد أفاض اللّه علينا من بحر أنوارهما.

وزرت الجامع الأعظم القديم القريب من تلك الخلوة و من البرج المذكور الذى كان فيه تسعون مفتيا [إذ قال الشيخ أبو على المسيلى دخلت بجاية فوجدت فيها تسعين مفتيا] أى فى الجامع الأعظم و كان كل واحد لا يعرف أبا على من أى ناحية كان.

ثم بعد ذلك توجهت إلى الشيخ عبد الحق الأشبيلى و يقال له اليمانى و يقال له أيضا البجائى و هو الذى ألف العاقبة و قبره خارج باب المرسى القديم طريق أبى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۸

زكرياء الزواوى و كان رضى اللّه تعالى عنه لوذعيا فاضلا كريما لا نظير له و كانت تأتيه أمته مرارا فى يوم واحد لمجلس درسه تطلب منه دراهم فلم يخيبها قط ثم قال بعض تلامذته هذا شىء كثير يا شيخ فقال له استحى أن تجتمع فىّ ثلاث شينات شيخ و شحيح و أشبيلى اه- و أيضا كانت رخامة عند قبره فيها تاريخ موته فأتى بعض النصارى إلى قبره فرفعها فلما وصل بها إلى بلده تشاءم بها وردها بنفسه إلى قبره نفعنا اللّه به آمين.

ثم زرت من دفن فی تلک المقبرة و انه دفن فیها أیضا قرب السور الشیخ عبد الحق بن ربیعة و قد ذکره صاحب عنوان الدرایة بما یحرک قلب الناظر إلیه و قد قیل أن فی تلک المقبرة الغافقی.

ثم توجهت لزیارة الشیخ أبی زکریاء یحیی الزواوی و قد کان فی القرن السادس و قبره مشهور أقول قال صاحب عنوان الدرایة ما نصه أربعة قبور یستجاب الدعاء عندها قبر معروف ببغداد و قبر أبی مروان فی بونة أی عنابة و قبر أبی زکریاء یحیی الزواوی الذی هو هذا و قبر أبی مدین فی تلمسان و قد زرت و الحمد للّه الثلاثة بلغنی اللّه إلی الرابع و هو قبر معروف بجاه من ذکرته من الأربعة آمین و من أوصافه رضی اللّه عنه أنه کان لا یأکل إلا السمک یصطاده بنفسه طلبا للحلال و کان کثیر التردد إلی المساجد یتعبد فیها بنواحی بجایة و کان رحمه اللّه له مجلسان فی العلم مجلس فی الحدیث و مجلس فی التفسیر إلا أن التفسیر کان یقرئه بعد صلاة الجمعة علی المنبر لکثرة الناس و ازدحامهم علیه إلی یوم موته فکان یکرر قوله تعالی عفا اللّه عما سلف و من عاد فینتقم اللّه منه ففهم أکثر الحاضرین أن الشیخ یموت و کان رحمه اللّه سخی

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۳۹

الدمعة یبکی و یبکی أکثر الحاضرین معه إلی أن قربت صلاة العصر فذهب لزاویته قرب الجامع فسمعه من فی المسجد له حرکة اغتیال ثم رجع إلی صلاة العصر فلما فرغ منها رجع إلی زاویته فمات بعد صلاة العصر من یوم الجمعة فدفن صبیحة یوم السبت و خرج الناس لدفنه و خرج أمیر بجایة و قد انکسر کذا کذا نعشا تحته رحمة و رغبة فیه و من کراماته رحمه اللّه تعالی انه کان یعبد اللّه فی خلوة بشاطئ البحر فإذا سفینة من النصاری فأخذوه و رفعوه فی السفینة فلم تتحرک بهم فأمرهم صاحبها برده إلی مکانه و قال انه من رهبان المسلمین فلم تتحرک أیضا فقال لهم أبقی من حوائجه شیء فوجدوا سجادة فردوها له فلم تتحرک حتی أخرجوا عصاه و أبریقه فتحرکت حینئذ و من کراماته أیضا لما ذهب إلی الحج کما ذکره الغرینی لم یحج من عامه ذلک بان بقی بالشام عامه ثم أنه دخل علی بعض الأولیاء من رجال الغیب فقعد معهم مدة و کان لا یکلمه إلا واحد منهم غیر أنهم إذا وصلوا المغرب قام واحد منهم یأتی بمائدة من طعام ثم أنهم لا زالوا کذلک إلی أن وصلت نوبته فأمره مکلمه بان یذهب لیأتی بما یأتون به فذهب فلم یخیبه اللّه فأتی به أو أحسن فکان معهم کذلک إلی أن وصل وقت الحج فودعهم و خرج معه صاحبه و مشی معه ساعة فأوصاه فقال له بلغ سلامی لفلان السافی فی زمزم و أمسکه من إصبعه السبابة أو الإبهام فلما وصل بلغ وصیته و مسکه من ذلک الإصبع فقال السافی أن فرغت من مناسککک فارجع إلی فلما قضی مناسکه رجع إلیه فقال الآن صلینا علی صاحبک الذی و دعک و أوصاک إلینا ثم مسکه فأصبحه فی وطنه أی بوادی شوشوان کأنه متیقظ من النوم فوجد راعیهم عند رأسه فذهب معه إلی البیت اه- و هو حسناوی

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۴۰

من بنی عیسی و بلدهم معلومة بقرب الجزائر و دفن معه الولی الکبیر ابن عربی غیر الحاتمی و غیر الحافظ و إنما هو أمی علی صورة البله یلعب بقصبة و قد قال صاحب عنوان الدرایة ما نصه انه ضربها یوما من بجایة فوقعت فی وجه النصاری فی الأندلس فانهزموا بإذن اللّه تعالی إذ أرخوه فوجدوه کذلک و اللّه اعلم و من کراماته انه کان بالشام فجاءت سفینة لبعض النصاری تریدبجایة فأعطی صاحبها مزودا یبلغه إلی بجایة أعطاه إیاه یوم الجمعة إلی الجمعة الأخری وصلت السفینة بجایة ببرکته نفعنا اللّه به آمین فوجدوه فی بجایة فقال النصرانی هذا أعطانی مزوه یوم الجمعة و خلفته فی الشام وقت کذا من ذلک الیوم فأخبره أهل بجایة بأنه یوم الجمعة ذلک الوقت کان هنا فتعجب صاحب السفینة من أمره فأسلم ببرکته و حسن إسلامه نفعنا اللّه بجمیعهم بمنه و کرمه آمین.

و أما الشیخ سیدی المیلح فلم أحفظ من أمره شیئا إلا أن أهل بجایة یعظمونه غایة التعظیم و یعدونه من أهل التصریف و کذا سیدی عیسی وجده سیدی علی البکای إلا أن جده و اللّه أعلم قد ذکر فیه صاحب عنوان الدرایة کلاما فی طبقته و ان له زاویة عظیمة الخ ما ذکره و اللّه اعلم.

و أما الشیخ سیدی أبو علی المسیلی فقد کان حجة فی بجایة و تولی القضاء فیها مع کونه مدرسا للعلم و کان یقرئ الجن من اللیل و

الإنس فی النهار و کان معظما فی بجایهٔ و من تعظیمه أنه لما دخل الموارقهٔ بجایهٔ و کانوا یلثمون وجوههم فطلبه السلطان [فی المبایعهٔ فأبی و قال و اللّه لا أبایع شخصا لا أعرفه رجلا أم امرأهٔ]

الرحلهٔ الورثیلانیهٔ، ج۱، ص: ۴۱

فکشف السلطان عن وجهه لیعرفه فلما رآه بایعه حینئذ و تولی القضاء بعده ابن الخطیب و أبو علی مشتغل بتدریس العلم فغار منه فبعث له رسولا لیخرج من بجایهٔ فلما جاءه الرسول وجده فی مجلس العلم و قال لحفیده قبل أن یکلمه الرسول خذ مصحفا و أقرأ لنا شیئا بعد التعوذ فأخذ المصحف و تعوذ ثم قرأ و أتل علیهم نبأ نوح إذ قال لقومه یا قوم إن کان کبر علیکم مقامی و تذکیری بآیات اللّه فعلی اللّه توکلت فأجمعوا أمرکم و شرکاءکم ثم لا یکن أمرکم علیکم غمهٔ ثم أفضوا إلی و لا تنظرون الآیهٔ فانتقع وجه الرسول و رجع و فی أثناء الطریق وجد رسولا من القاضی لیرده بأن لا یخبر الشیخ بذلک لأنه أتته ضربهٔ من اللّه کادت أن تهلکه فلما وصل الرسول أخبره أمر الشیخ مع حفیده فتعجب ابن الخطیب ثم استرده إلیه لیجعله فی حل بصرهٔ من الدراهم فرجع و وضعها بین یدی الشیخ و قال له یطلبک أن تجعله فی حل فقال الشیخ جعلناه فی حل و أمره برد الصرهٔ و أبی أن یأخذها اه- و من کراماته بعد موته أیضا أن شخصا من تونس له صدیق فی بجایهٔ مات یراه دائما فی النوم یعذب و لما مات أبو علی المسیلی رآه فی نعیم و سرور و سأله عن السبب و کان مدفونا فی جبل خلیفهٔ فقال له لما مات الشیخ غفر اللّه لمن کان بین أطراف المدینهٔ من قبره إلی الجبل ضیافهٔ له و هدیهٔ نفعنا اللّه به آمین.

ثم إن ذلک الرجل احتمل من تونس إلی زیارهٔ الشیخ فلما وصل إلی بجایهٔ سأل عن قبر الشیخ و هو یتصبب عرقا و قبره متلبس بین أربعهٔ قبور فینبغی للزائر أن یعینه بالنیهٔ فلما زاره أخبر بالقصهٔ اه- و الدعاء مستجاب عند قبره و یسمی أبا حامد الصغیر و من تآلیفه التذکرهٔ و النبراس فی الرد علی منکر القیاس و قد رأیت الشیخ عبد الباقی یقول قال صاحب النبراس و هو من أواخر القرن السادس.

الرحلهٔ الورثیلانیهٔ، ج۱، ص: ۴۲

و أما الشیخ سیدی التواتی فهو من القرن التاسع أیضا ولی صالح کبیر الشأن عالم علی الإطلاق و له مؤلفات کما کنا نسمع و هو عند أهل بجایهٔ من أهل التصریف و قد سمعنا أن فتواه لا ترد إلی توزر و هو المعاصر للشیخ سیدی یحیی العیدلی و له زاویهٔ و طلبهٔ إلی الآن و خدام فی الجبل و غیره نفعنا اللّه به آمین.

و أما سیدی سعید العلمی فلم أحفظ من أخباره شیئا إلا ما ذکره عنه سیدی عبد الرحمن الثعالبی و عن الشیخ سیدی عبد الرحمن الوغلیسی صاحب التآلیف المعلوم فی الفقه الذی شرحه سیدی عبد الکریم الزواوی شرحا کبیرا فیه من العلوم ما یغنی الناظر عن غیره و طریقته رضی اللّه تعالی عنه طریقهٔ ابن أبی جمرهٔ و صاحب المدخل و شرحه سیدی عبد الرحمن الصباغ أیضا و سیدی عبد الکریم هذا کان ینقل عنه الشیخ عبد الباقی و غیره و قد زرت قبره فی بلده أعنی بنی یتورغ من زواوهٔ إذ قال رجع سیدی سعید العلمی من بعض نواحی بجایهٔ إلیها فلما قرب وجد الباب مغلقا فرجع إلی قبر سیدی عبد الرحمن الوغلیسی فبات عنده و إذا الشیخ سیدی عبد الرحمن قام من قبره و أصحابه من بجایهٔ مجتمعون علیه یقرئهم و یعلمهم إذ مات رحمه اللّه تعالی و ترک ختمهٔ لم تکمل فکملها لهم فی قبره بعد موته و هی کرامهٔ عظیمهٔ للشیخ سیدی سعید و للشیخ سیدی عبد الرحمن و لتلامذته نفعنا اللّه بجمیعهم و جعلنا فی زمرتهم و رزقنا العافیهٔ و جمع شملنا بأهلنا و نصرنا علی السنهٔ و إظهارها بمنه و کرامه آمین.

و قال الشیخ سیدی عبد الرحمن الثعالبی دخلت بجایهٔ فی أواخر القرن الثامن فوجدت أصحاب الوغلیسی متوافرین.

و أما سیدی محمد امقران فکان من أکابر الأولیاء و هو من القرن العاشر یعنی آخره و أخذ من الحادی عشر و کراماته ظاهرهٔ و أحواله باهرهٔ فلا یحتاج لذکرها.

الرحلهٔ الورثیلانیهٔ، ج۱، ص: ۴۳

و أما سیدی عبد الرحمن الصباغ فتآلیفه تنبئ عنه و کلامه یدل علیه فلیس إلا من أهل الشأن و التصریف و هو من القرن التاسع نفعنا

اللّه بكلهم بمنه و كرمه آمين و بالجملة ففضل بجاية مشهور و علم أهلها مذكور قال الشريف التلمسانى دخلت بجاية فى القرن الثامن فوجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذى ينبع من حيطانها فرت أكتب فى كل مسجد سؤالا و أتركه هناك حتى وصل أمره إلى السلطان.

و قال الشريف بعد أن خرجت من بجاية دخلت تونس فوجدت ابن عبد السلام يقرئ ما رأيته قط و لا رآنى نعم لما سألته قال أظنك أنت الشريف التلمسانى قلت له أظنك أنت ابن عبد السلام فتصفح معرفتى من كلامى و تصفحت معرفته من كلامه و قد سمعنا أن بجاية فيها خمسمائة صبية يحفظن المدونة و إما اللاتى يحفظن ابن الحاجب فلا يحصى عددهن إلا اللّه تعالى حاصله جعلنا اللّه فى زمرتهم و أفاض علينا من بركتهم بمنه و كرمه آمين.

و لما ودعت أهل بجاية رجعنا إلى دارنا عازما على السفر و جاءنا الركب من جبل زواوة نحو الثلاثمائة رجل و اشتغلنا بهم إلى أن ذهبوا إلى قسنطينة ثم إلى تونس ليذهبوا فى البحر و فيه أفاضل و أكابر و ساعدهم فضلاء الركب نعم صرنا فى توديع الناس من كل بلد من حمزة و وانوغة و وادى بجاية و غيرها و بالجملة فوطننا طيب فيه العلم و بعض الكرم للغريب و فيه الزيتون و العنب و التين بكثرة و الحرث غير أن الوطن عزيز غال و سبب ذلك كثرة الناس غير أنه خال من السلطان و أحكامه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۴

فالوطن سائب عمره اللّه بالأحكام الشرعية و أزال منه الفتنة و بدل ذلك بالعافية الدائمة و كذلك الغالب عليها البرد و الثلج و بالجملة فنسأل اللّه تعالى أن يعمره على يد سلطان عدل فلما حان السفر و آن جمعت طلبتى و أمرتهم بالاشتغال بالعلم و المودة بينهم و الطاعة للّه تعالى عمرهم اللّه تعالى على الدوام بالعلم و العمل مع أولادنا الذكور إلى غابر الدهر بجاه من ذكرناه آمين.

و لقد علمت أن من أراد مثل هذا السفر إذ سفر الحج سفر ينسبه طريق الآخرة فينبغى أن يعتنى به غاية الاعتناء لما فيه من كثرة الحسنات سيما فعل المعروف فإنها طريق للمحسنين و اللّه يقول ما على المحسنين من سبيل يحتاج إلى نية عظيمة و صدق قوى و همة عالية و إخلاص كبير لأن عمل الطاعة كله إلى الإخلاص للّه تعالى لأن اللّه يقول إن اللّه لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء نعم الحج أقواها فى طلب الإخلاص إذ كثير ما يدخل الرياء فيه لما علمت من كثرة خوف الأهوال فيه و المسافة البعيدة و ملاقاة الناس فنجد الحاج يحكى للناس فى وطنه و غيره أنه وقع فى الدرب كذا و فى مكة [و فى المدينة و فى مصر كذا و فى برقة كذا و فى البحر كذا و فى الموضع الفلانى] كذا [فيقع فيه السمعة و العجب و الرياء و بعض الكذب إذ لا يخلوا المخبر بالوقائع الماضية عن] الزيادة و النقصان فيقع فى الكذب قطعا و الغالب أنه ينوى بحجه المفاخرة و ليقال انه حج [فغالب عامة الحجاج يقصدون ذلك فيغلب عليهم الرياء و لهذا] قال اللّه تعالى و أتموا الحج و العمرة للّه و لم يقل فى الصلاة ذلك و لا فى الزكاة و لا فى غيرها من الأعمال الصالحات نعم من فتح اللّه عليه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۵

و سبقت له السعادة إذا وصل إلى بيت اللّه الحرام و رأى تلك الأماكن الشريفة و دخل تلك الجموع المباركة يغفر اللّه تعالى له لكثرة المغفورين إذ لا يخلو الموسم العظيم أعنى عرفة عن رجال الغيب و أهل التصريف كالقطب و غيره و الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة و السلام و الخضر و إلياس فمذهب أهل الفضل الغفران لجميع الحجاج و أما قول خليل و صح بالحرام و عصى فمذهب فقهىّ قلت فى الحجة الأولى اجتمعنا مع الشيخ الولى الصالح العالم الواضح الورع الصدر العارف باللّه تعالى الزاهد العالم بالمذاهب كلها المربى لأصحابه بحسن التربية الموافقة للشريعة و الحقيقة و ما أحسنه معرفة و أدبا و ورعا و زهدا و صحبة و كان متقشفا سيدى محمد المغربى الطرابلسى رحمه اللّه و نفعنا به آمين قال لنا عام ثلاثة و خمسين و مائة و ألف (۱۱۵۳) العام الذى قبل العام الأول لم يقبل اللّه من الحجاج إلا سبعة و باقى الحجاج رجع خائبا غير أن السبعة المقبولين أقبلوا على اللّه بالتوجه بالطلب و السؤال و المغفرة لأهل الموسم إلى دخول رمضان فأول ليلة منه تقبل اللّه منهم و غفر لأهل الموسم و أما العام الأول فقد خرج من فاس رجل لأجل أهل

الموسم ليغفر اللّه لهم فلما وصل إلى عرفة فقال و اللّه ما خرجت من هنا حتى تغفر لجميع أهل الموسم فلم يخرج منه حتى غفر اللّه لهم فعمت المغفرة الذين لم يحجوا بأن جاءوا للنزهة أو للسوق فقال قول خليل و صح بالحرام و عصى مذهب فقهى و أما مذهب أهل الفضل فيغفر اللّه لجميع من حج و بالجملة فالعناية حاصلة لمن وصل إلى حرم اللّه و حرم رسوله و كيف

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۶

لا و أن الصلاة فى مسجد مكة و مسجد النبى صلى اللّه عليه و سلم تعدل ألف صلاة فى غيره أو كما قال صلى اللّه عليه و سلم و أن الدعاء فى عرفة و مزدلفة و المشعر الحرام و منى و مسجده و عند الرمى و عند الملتزم و عند الحطيم و زمزم و عند الحجر و غيرها مستجاب و بالجملة فينبغى أن ينوى بسفره رضى اللّه تعالى و أن يشغل نفسه بالتوجه إلى اللّه و إلى بيته و مواجهة نبيه صلى اللّه عليه و سلم و مواجهة أصحابه و آله و عترته و مواجهة أنبياء اللّه و رسله عليهم الصلاة و السلام و أن ينتظر شفاعتهم بأن يتعلق بهم بحيث ينوى الانتقال من أوصافه المذمومة إلى الأوصاف المحمودة و السفر من الخلق إلى الخلق و من طبائعه الرديئة إلى السجايا السنية و إن كانت غير مكتسبة إلا أن أسبابها مكتسبة و ينوى أيضا أن يكون من وفد اللّه تعالى و ضيوفه و إن يقصد أيضا إجابة الداعى الذى هو الآذان و أن يحمد اللّه و يشكره لما أن جعله من أهل الإجابة و من الذاهبين لبيت اللّه تعالى ألا ترى إذا ذهب الإنسان إلى بيت قريبه يفرح فرحا عظيما و يسر سرورا كبيرا فكيف ببيت ربه سبحانه و ينوى إغاثة المضطر ما أمكنه بماله أو جاهه و أن يعلم الجاهل إن كان من أهل العلم أو يسأل العالم إن كان جاهلا و أن ينوى الزيارة لأحباب اللّه الأحياء و الأموات فى كل وطن يدخله سواء من يعرفه أم لا و إن يعتبر و يوحد اللّه فيما يراه من عجائب المخلوقات و لذا اختار الأكابر سكنى المدن الكبار من الأمصار للتوحيد و الاعتبار [و أن يكف لسانه عن القيل و القال إذا أكثره فيه معصية اللّه تعالى] و أن يشغل جميع أعضائه بما فيه رضى اللّه تعالى و أن يختار من الأخوان ما يزداد به إيمانه للصحبة و أن لا يشترك إلا مع من كان كنفسه بحيث إذا تصرفت فى ماله لا يتغير كما إذا تصرفت فى مالك

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۷

و إلا فلا و أن تتولى شراء ما تستحقه بنفسك لتسلم من المعاملات الفاسدة أو توكل من لا يتساهل فى الأحكام الشرعية و أن يكون عالما و ان تجعل من كان فى الركب كنفسك بان تجعل الكبير أبا لك و الصغير ولدا لكل و المساوى أخا لك فلا ترضى لأبيك و لا لأبنك و لا لأخيك إلا خيرا و ان لا تخالط الأغنياء أصحاب الترفه بان تستحقر نفسك ما عندها من المال فلا تحمد اللّه على ما أعطاك و يتعلق قلبك بمعالى الأمور حتى ينسى ما ذهب إليه بل من كان أدنى منك لتشكر اللّه على ما أولاك إذ من السنة فى نفسك أن تنظر فى أمور الآخرة من هو أعلى منك لتغبط حاله و تحمل نفسك على ذلك و أما أحوال الدنيا فتنظر من كان أقل منك لتشكر اللّه تعالى فتنموا أحوالك بإذن اللّه فيستقيم أمرك و ان تعتمد على اللّه فى جميع أحوالك ظاهرا و باطنا و ان تودع من تركته من الأهل و الأخوان و الجيران للّه تعالى لأن وديعته لا تضيع و ان لا تذهب من بيتك حتى تقضى جميع ما كان عليك من حقوق الخلق لأن من أكل لأخيه المسلم ظلما دانقا [و هو] سدس الدرهم أعطى فيه يوم القيامة سبعين صلاة مقبولة و قيل سبعمائة صلاة مقبولة فمن ظلمته أخذ من حسناتك و أن لم تكن لك حسنة أخذت من سيئاته لسيئاتك فلا تترك شيئا عليك و ان ظننت أنك غفلت شيئا مما هو عسى أن يكون عليك فاجعل نائبا يتعاهد أمورك و يقضى ما كان عليك كما يقضى ما هو لك على الوصف المتقدم من العلم و عدم التساهل و ان تترك ما يكفى من تجب نفقته عليك فتغسل ظاهرك عند سفرك و باطنك بالوجوه السابقة مع التوبة من كل مخالفة صدرت منك فى الماضى لتكون صالحا لدخول حضرته هذا فى الحقوق المالية.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۸

و أما الأخرى كهتك الأعراض و غيرها مما لا يتمول فلا بد أن يجعلك صاحبها فى حل إن كان لا يتغير إن ذكرت له ذلك و عينته و إلا فاطلبه على الجملة إن كان لا يفهم التفضيل و إلا فاطلب له من اللّه المغفرة و الإحسان إليه و كذلك إن كان ميتا فادع له بالرحمة

ليتولى اللّه ذلك عنك و ان تختار من مالك الحلال لتتزود به إن وجدته و أن تزجرا أصحابك عن الجدال و المنازعة عند الماء و النزول بان يصبروا و يتخلفوا فيجدوا ما كتب لهم فالذى يختاره اللّه للعبد أولى مما يختاره لنفسه و لعل اللّه ينظر إليه بعين الرحمة دائما أنظر للشيخ عبد الكريم الزواوى على الوغليسية فانه أجاد فى نصح العبد و أعانته على ما فيه رضاه.

و كذا يصحح توبته و يقيم طريقته ليستقيم الإنسان كما أمر فإذا عزم الإنسان على الحج فلا بد أن يعلم فضله لتنشط نفسه لذلك و يسهل عليه أمر ماله إذ يصعب على النفس مفارقته و كذا تعب النفس فى السفر و لذا ينبغى له أن يختار زمان البرد لشدة زمان الحر عليها فإذا علمت هذا علمت أن الحج من أفضل الأعمال و أولاها عند اللّه تعالى.

و لذا قال الشيخ خليل فى مناسكه ما نصه ورد فى الصحيحين عنه عليه الصلاة و السلام انه قال من حج هذا البيت فلم يرفث و لم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه و الرفث هو الجماع و قيل الفحش من القول و الفسوق المعاصى و فى الصحيحين عنه عليه الصلاة و السلام انه قال العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما و الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة و المبرور هو الذى يخالطه مأثم و قيل المقبول و قيل ما لين فيه الكلام و أطعم فيه الطعام و مشى فى مناسكه و مشاعره اه.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۹

و قال أيضا ما نصه الفصل الثانى فى آداب السفر فإذا وجب عليك الحج فيجب أن تعرف أحكامه و ما يلزمك فيه لأن الإجماع أنه لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم اللّه فيه فأول ذلك يستحب له أن يشاور من يوثق به فى دينه و على من يشيره أن يبذل النصيحة له و يتخلى من الهوى و حظوظ النفس ثم يستخير اللّه عز و جل و هذه الاستخارة لا تعود إلى نفس الحج لأن الاستخارة فى الواجب و المكروه و المحرم لا- محل لها و إنما تكون الاستخارة هنا هل يشترى أو يكترى و هل يرافق فلانا أم لا و هل يكترى مع فلان أم لا و غير ذلك و هل يسير فى البر أو البحر أو فى هذه السنة أو فى غيرها على القول بالتراخى.

و صفتها يصلى ركعتين من غير الفريضة قال بعضهم فيقرأ فى الأولى بقل يأيها الكافرون و فى الثانية بقل هو اللّه أحد و أن قرأ بغيره جاز ثم يقول اللهم إنى أستخيرك بعلمك و استقدرك بقدرتك و أسألك من فضلك العظيم فأنك تقدر و لا أقدر و تعلم و لا أعلم و أنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن ذهابى إلى الحج فى هذه الحالة و يذكرها خير لى فى دينى و دنياى و معاشى و عاقبة أمرى و عاجله و آجله فأقدره لى و يسره لى ثم بارك لى فيه و إن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى و دنياى و معاشى و عاقبة أمرى و عاجله و آجله فاصرفه عنى و اصرفنى عنه و أقدر لى الخير حيث كان ثم أرضنى به، ثم ليمض بعد الاستخارة لما انشرحت له نفسه و يبدأ بعد تحققه بالعزم بالتوبة من جميع المعاصى ورد التبعات من الديون و الودائع و العوارى و الاستحلال من غيره فان عجز عن الاستحلال من بعض الناس لموته أو لخشية زيادة الفتنة فليلجأ إلى اللّه تعالى فانه يرجى من كرمه لمن لجأ إليه فى ذلك أن يرضى عنه خصمه يوم القيامة و يستحلب له أن يكتب وصيته ثم ينظر فى أمر الزاد و ما ينفقه فيكون من أطيب جهة لأن الحلال يعين على الطاعة و يكل عن المعصية و كان السلف رضى اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۵۰

عنهم يتركون سبعين بابا [من الحلال خوفا من الحرام] .

و لما كان الضمير متعلقا بمن تعلق بالرب الكريم و تاقت نفسى إليهم غير أن صلحاء بلدنا لم يتعرض لهم أحد قبل و لا بعد لعدم الاعتناء و ضيق المعيشة أردت التنبيه عليهم على سبيل الإيجاز و الاختصار مع البيان و الاستفسار نعم أذكر ما دون وادى آقبو.

و أما جبل زواوة فهو منفرد و أولياؤه شهرتهم تغنى عن ذكرهم و تعظيمهم يقوم مقام بيانهم و تبيانهم و جميل آثارهم فلم يبق إلا ذكر هؤلاء ليتم المقصد الرحمانى و النور الربانى فأقول و على اللّه أعول.

منهم الولى الصالح و البدر الواضح الذى يستجاب الدعاء عند ذكره و انه ممن يبر اللّه قسمه و كذا أولاده المنورون يبر اللّه قسمهم و يقبل دعاءهم سيدى أحمد بن يحيى نفعنا اللّه به و جعلنا من أهل وده و نسبه يتصل مع نسب أهل عروس من بلد زواوة و هم

مشهورون و كذا فرقة فى أتّوجة جبل بقرب بجاية و انه من قبيلة مزينة و كان فى أواخر القرن التاسع و هو تلميذ ابن غازى هكذا تصفحت أخباره رضى اللّه عنه و كراماته كثيرة ينبغى للعاقل أن يزوره و يزور من دفن معه فان أكثرهم صلحاء و قد سمعت الفاضلة الصالحة المنورة زوج سيدى محمد بن قرّى تقول إنى ذهبت غيبا مع رجال الغيب لقضاء حاجة من أهل التصريف فلما وصلت إلى قبر الشيخ قام معى الشيخ و من دفن معه للاجتماع مع أهل التصريف و كان الذى يتكلم فى ذلك الديوان هو الشيخ سيدى أحمد بن يحيى إلى غير ذلك نفعنا اللّه به و أما شرفه فإنهم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۵۱

يقال أنهم شرفاء و اللّه أعلم.

و كذا أولاد الشيخ أم رزق وجدهم صالح و منهم الشيخ سيدى الوفق صالح زاهد ورع خديم الطلبة و كان ينفق عليهم و هم يشتغلون بالعلم بان يأتى لهم بمدرس و كان محبا لوالدنا وجدنا نعم يحب الجانب العلى أعنى الأشراف بحيث لا يملك لنفسه ضرا و لا نفعا معهم بل أنه مملوك لهم و قد غلب عليه القبض نفعنا اللّه به و هو تلميذ سيدى على بن الطالب و أوصافه الطيبة و أخلاقه السنية لا تكاد تحصى رضى اللّه عنه و أرضاه بمنه.

و كذا ابن عمه الفاضل العالم الفقيه الفرضى سيدى على بن أم رزق من أجل أهل وقتنا و أهل عصرنا فقد نفع و انتفع نفعنا اللّه به.

و منهم الشيخ سيدى أمزال قبره فى قرية الجمعة و عليه مسجد و أهل إمتين يعظمونه و هو فى الصمعة نفعنا اللّه به و أما تاريخ فلا علم لى به و نسبه و اللّه اعلم من جملة من هو معه غير أنه أقبل على اللّه فأقبل عليه و هو أظنه قريب.

و منهم الفاضل الكامل المجرد عن الخلق و اعتزلهم طرا بل الذى اعتقده انه اعتزل الخلق و اتصل بالحق و هو فقيه متكلم فقد انفرد فى زماننا بالتسجيل وجودة الخط سيدى أحمد زروق بن الحاج نفعنا اللّه به و كان صديقا ملاطفا لأبى تخلف عنه ثم بقيت صبحته لنا كذلك إلى أن مات فى مصر بعد رجوعه من الحج و قد سافرنا معه إلى تونس نريد الحج فلم يتيسر لنا و لا له ذلك العام و بقى هو فى زاوية الولى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۵۲

الصالح الزاهد فى الدنيا على الإطلاق الكريم كل الكرم سيدى أحمد المجذوب الزمورى و قد دفن فى جبل افريقية عند ولده الفاضل و نخبته الكامل سيدى ابن الحاج إلى العام القابل فحج نفعنا اللّه به.

و منهم بدّيمان على ما قيل انه ولى صالح و ضريحه يزار دائما و ظن أهل وطننا أن ممن ذهب إليه تقضى حاجته و ان فيه رجال الغيب حسبما اتفق عليه أهل وطننا و أنى سمعت فى صغرى من بعض الصالحين من أهل السياحة يقولون ذلك حق و صدق.

و من العامة المرابط سعيد بن هارون فأنى سمعت من أبى انه كان يعلم الفجراى طلوعه و هو فى بيته مدة طويلة و كان لا يفتر عن ذكر اللّه تعالى و هو صديق له و انه إذا ذهب إلى الخلاء امسك لسانه و قد تخلف فى الحياة بعد موت أبى و صاحبنى مدة و هو رجل كبير السن كبير الشأن و كذا ابن عمه يقرب من سنه و شأنه.

و كذا المرابط على بن درار و هو من شعراء رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و لو كان كلامه بالعربية لكان يكتب بسواد العين لما فيه من العلم اللدنى و قد كان يرى النبى صلى اللّه عليه و سلم و هو أعمى رضى اللّه عنه و نفعنا به آمين.

و منهم سيدى على بن جاب اللّه كان صديقا لأبى و كان رضى اللّه عنه فى غاية الترقى فى العبادة و الذكر و تهذيب الأخلاق و غير ذلك من أوصافه.

و منهم سيدى يحيى الشريف ابن رقية فى قرية ويزران هاجر من بنى عمه و فر بنفسه من قرابته ليكمل أمره و يظهر سره و هو من شرفاء العش شريف النسب و هو

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۵۳

من أهل العلم و الصلاح مجاب الدعوة خديم العلم و أهله من القرن الحادى عشر نفع اللّه به و بأمثاله جميعنا.

و منهم الشيخ الولى الصالح و الغيث السائح الشريف نسبا كما هو عند ابن فرحون فى طبقات الشرفاء سيدى أحمد بن عبد الرحمن نفعنا اللّه به و هو من تلامذة الشيخ سيدى يحيى العيدلى و أولاده الآن معلومون بالجور و التعدى و الظلم فى مجانة بتخفيف الجيم أمراء و محاربون و لعل جدهم يشفع فيهم و فينا و هو فى القرن التاسع و ولده هو الذى بنى قلعة بنى عباس و أقام المملكة فيها بان أسس العساكر و جيش الجيوش و أخذ المغرم فى القرن العاشر بان وصلت عساكره عمالة تونس و وادى ريغ فى الصحراء و من جهة المغرب مزاب و بلد الأغواط و هم كذلك فى المملكة ثمانون سنة كما سمعته من بعض الفضلاء من علماء القلعة و آخرهم فى مملكة القلعة سيدى ناصر هو فاضل عالم زاهد و قد قيل انه من زهده يلبس الغرارة شعارا على لحمه و قد رتب طلبة العلم نحو الثمانين طالبا فحسده مناحيس بنى عباس على ذلك فقتلوه مكرا و خديعة فمزق اللّه جيوشهم و أضل عسكرهم أعنى عسكر بنى عباس فلم يبق فيهم ذلك بل أضلهم اللّه بسببه و أهلكهم من أجله و كان بعض علماء فاس يقول فى مرثيته قصيدة رائية و هى عندنا فى عندنا فى الزاوية [فى العقل انه عمر] و يقول فى بنى عباس:

فلعنة اللّه ثم الخلق قاطبةعلى المجوس بنى عباس ما ذكروا

أن عاهدوك فقد خانوا على ثقةأو حالفوك فأيقن أنهم فجروا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۵۴

و عدد أوصافهم من الخيانة و الغدر و الخديعة ما يحمل السامع على الفرار منهم و النفرة من ساحتهم إذ هم على تلك الأوصفا إلى الآن بل زادوا ضلالا و مكرا و خديعة فى العهود و قلة الحياء و الهيبة فى الحدود و أولاده على المملكة فى مجانة تحت ولاية الترك غير أن حكمهم عليهم ضعيف نفع اللّه به جميعنا و أمور أمراء القلعة معلومة عند أهلها و منهم جد أولاد الطالب فانه من أولياء اللّه الصالحين و لا اعلم من أخباره شيئا إلا أن أولاده فضلاء لا يخلون من العلم و جميعهم فيه البركة نفعنا اللّه بهم.

و منهم الولى الصالح الربانى سيدى محمد ابركان قبره عند أولاد السيد أحمد بن عبد الرحمن فى الوادى معلوم يزار و يعظم و أولاده أين ما كانوا فى بنى عباس و غيرهم علماء فضلاء أجلاء يقتدى بهم و لهم العلم الصحيح و الصدق الصريح.

و منهم سيدى أحمد زروق المذكور و غيره.

و منهم أولاد تبونداوث فضلاء نجباء فقهاء مفتون و فيهم البركة إذ العلم كله بركة و قد سمعنا أنهم من بجاية نفعنا اللّه بهم و بأمثالهم و أنهم قضاة من العهد الأول إلى الآن بارك اللّه فيهم.

و منهم أولاد سيدى عبد الحليم الساكنون فى قرية من قرى بنى عباس فضلاء كرماء علماء صلحاء إلى الآن نفعنا اللّه بهم و بأمثالهم من ذرية سيدى عبد الحليم.

و منهم شرفاء بوجليل من الزمان الأول هم على الخيرة و البركة القوية و الأنوار

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۵۵

السنية و هم شرفاء نسبا و هم من قرابتنا بان اجتمعنا فى الجد الأول ما نسمعه من أعالى أسلافنا فبركتهم معلومة و برهانهم مشهور و كرمهم مأثور رضى اللّه عنهم و نفعنا بهم و كان لنا و لهم بمنه و كرمه.

و منهم المعظم بالاتفاق سيدى أحمد بن يوسف الولى على الإطلاق يعتقده العام و الخاص نفعنا اللّه به و هو فى حنديس قرب الوادى و لا أعلم هذا و أولاده معظمون عند أهل وطنهم و لا يخلو بعضهم من العلم و البركة فى جميعهم رضى اللّه عنهم و قد سمعنا من بعضهم أن جدهم يقرب من الشيخ المعلوم صاحب الفتح و الخرف الواضح سيدى أحمد بن يوسف الملیانى الذى كان حجة اللّه فى أرضه إلى الآن و اللّه اعلم.

و منهم سيدى محمد بن محرز قبره بالقلعة ظاهر البركة قوى التعظيم قبره يزار و أهل القلعة يظنون أنه سترهم و اللّه اعلم.

و منهم أولاد معمر فضلاء علماء صلحاء ذوو بركة عظيمة و نتيجة قوية نفعنا اللّه بهم.

[و منهم أولاد أبى جمعة فهم فضلاء صلحاء محل العلم و أهله فقهاء أئمة خطباء نفعنا اللّه بهم] .

و منهم المرابط سليمان و كان صالحا متعبدا فى زماننا لا نظير له زاهدا معلوم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۵۶

البركة رضى اللّه عنه و نفع به جميعنا آمين.

[و منهم و منهم أولاد أبى ذئب صلحاء علماء ذوو بركة نفعنا اللّه بهم] .

و منهم سيدى سعيد و هو والد سيدى أحمد بن يدير ذو بركة قوية و من أجلها خرج ولده طيبا صالحا عالما فقد انتفع به أهل زمانه أى انتفاع.

و منهم سيدى سراج ذو بركة عظيمة و رحمة مشهورة معلوم الذكر صيته منتشر فى وطنه كراماته مشهورة و أولاده فضلاء كرماء فقهاء علماء يقع بهم الخير و الصلاح و النفع و النجاح نفعنا اللّه بهم.

و منهم أولاد ساسى معلومون بالبركة و الصلاح و الاعتقاد و التعظيم نفعنا اللّه بهم.

و منهم سيدى أحمد بن على صالح صاحب اتكال ولى معلوم البركة و التعظيم و قبره يزار و انه منور انتفع به العام و الخاص رضى اللّه عنه.

و منهم سيدى المسعود قوى البركة ولى صالح أولاده صلحاء فيهم بركة عظيمة نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم سيدى سليمان ولى صالح كبير الشأن عظيم الحال ولى معظم عند أهل وطنه و قبره يزار و أولاده صلحاء معظمون فضلاء كرماء رفع اللّه قدره و نفعنا به آمين.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۵۷

و منهم سيدى عمر فى قرية ترق هؤلاء كلهم قرب مجانة و هو ولى صالح كبير الشأن عظيم فى الأعين أولاده معظمون راغبون فى العلم و أهله و هم على العهد الأول من القراءة و الأخلاق السنية و الأوصاف الحميدة فأكثر أولاده يتعلمون علينا نفعنا اللّه بهم و بأمثالهم.

و منهم الولى الصالح سيدى أبو التقى معلوم البركة قوى النفع معظم عند أهل مجانة نفعنا اللّه به.

و منهم سيدى موسى الولى الصالح كبير الأمر عظيم السر أولاده فضلاء معظمون عند أهل مجانة و أهل جبل عياض و أظن أنه من القرن التاسع كما وجدته فى بعض الرسوم نفعنا اللّه به.

و منهم أولاد العياض و من معهم رضى اللّه عنهم علماء كرماء أدباء فضلاء محبون للعلم و أهله و أولاد سيدى أحمد مثلهم فى الفضل و الصلاح و الشواثرة علماء أيضا صلحاء لا يخلون من العلم يرثونه خلفا عن سلف نفعنا اللّه بهم و بمن كان فى ذلك الجبل.

و منهم سيدى يدير الحاج ولى صالح معظم معتقد فى بنى يعدل أولاده معظمون صلحاء ذوو بركة و خير و نجاح نفعنا اللّه بهم.

و منهم أولاد سيدى خروف معظمون فيهم العلماء و الصلحاء و القضاة و المفتيون و هم شرفاء على ما اشتهر عندنا من كان فى زمورة و بنى يعدل نفعنا اللّه بهم.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۵۸

و منهم سيدى سعيد الفرطاس ولى معتقد فيه و أولاده ذوو بركة عظيمة و هو من أخيار أهل زمانه و هو من القرن الحادى عشر [معاصر لسيدى لوهر] نفعنا اللّه به آمين.

و منهم أهل تعروسين معلومون بالبراكة و كذا أولاد ابقورة فهم على كتاب اللّه عز و جلب و الصلاح سيما سيدى لى فهو شيخ جدى و قد قيل انه لا يخرج منهم الأولياء و قد انتفع بهم العام و الخاص.

و كذا سيدى أحمد صالح معلوم الولاية و البركة.

و سيدى أحمد أعشاب معلوم الولاية.

و كذا سيدى محمد بن صالح من أولاد سيدى الجودى فقد ظهرت كراماته فى وطنه و غيره و انه مجاب الدعوة نير السيرة قوى البركة نفعنا اللّه بهم و بأمثالهم.

و منهم الشيخ الفاضل الولى الصالح المعلوم النجاح سيدى محمد بن مصباح ذو العلم المتين و السر المبين و كذا أولاده فضلاء نجباء رضى اللّه عنهم و أرضاهم سيما من أدركنا سيدى أحمد زروق و سيدى أحمد بن المبارك فقد كان فيهم العلامة الفاضل المحقق الكامل محيى السنن سيدى الحسين نفعنا اللّه بهم.

و منهم الولى الكامل و العالم الفاضل مقيم السنن و منشر العلم سيدى محمد بن عبد القادر و أولاده فضلاء علماء أدباء جمعا فاوعوا سيما سيدى محمد بن عبد القادر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۵۹

و ولده سيدى الموهوب فإنهما من فضلاء الوقت يقصدان للفتيا رضى اللّه عنهم و أرضاهم و نفعنا بهم و بأمثالهم آمين.

و منهم الولى المشهور و الطود المنصور صاحب الزاوية ذو العناية سيدى أحمد اغوبة ظاهر البركة قبره مزار معلوم لدى الخاصة و العامة يقصده الزوار من بعد و له طلبة إلى الآن و روضته بينة نفعنا اللّه به و أفاض علينا من بحر أنواره آمين و أظنه من القرن السابع كما سمعته من البعض و اللّه سبحانه اعلم و له كرامات مشهورة و مناقب و قد سمعت من بعض من يوثق به انه يتصرف كما كان حيا فانه يغيث من استغاث به.

و منهم الولى سيدى إبراهيم صالح مشهور عظيم الشأن معظم عند الناس بركاته ظاهرة و نوره قوى و سره صمدانى و أولاده علماء صلحاء من لم يكن منهم عالما كان صالحا نفعنا اللّه به و بأمثاله و اللّه اعلم انه كان فى القرن الحادى عشر معاصر السيدى موسى الوغليسى و لا اعلم انه أخذ من العاشر أم لا و اللّه اعلم.

و أما أهل ايلمان على ما تقرر من رسم الأشراف انهم شرفاء من شرفاء ايلمان الوانوغى كذا رأيته مزبورا فيها فانه نص على أولاد عنان و هم ايلمان و الحمد للّه لا يخلون من أهل الخير رجالا و نساء و ذلك معلوم عندنا فقد شاهدنا ذلك منهم نفعنا اللّه بهم و ان كان فيهم أهل جرأة و تعدّ و قد ورد فى الخبر أن اللّه ينظر إلى قوم فيهم الصالح نظر رحمة نقلته بالمعنى و أما لفظه و اللّه اعلم فقد نسيته و الحديث يجوز نقله بالمعنى بشروط انظر الشهاب فى الآيات البينات على المحلى نعم ما وجد منهم مما لا يحل من اجتماعه الرجال و النساء عند الرفض و البكاء و التباكى و الصياح و ذكر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۶۰

الشوق من غير اشتياق و العشق من غير عشق و الحب كذلك و غيرها من الزهد فأنها من دسائس اللعين الشيطان الرجيم حرام باتفاق لا يقول أحد بحليته لما فى ذلك من الفتنة و مخالفة السنة و إنما السماع المباح أن يكون مع أهله بشروطه الخالية من المحرمات و مع ذلك أنه دواء للمرضى من أهل الوله و أما غيرهم من أهل البدايات كالمتمكنين فلا يكون و لا ينبغى فى حقهم فهذه الفرقة غير معتبرة عندنا و إنما المعتبر من شد أزار الحزم و العزم للذكر و العبادة و الاعتناء بنفسه و ليس من هذا المجموع و هم موجودون و الحمد للّه و قليل ما هم.

و منهم الولى الصالح الفاضل الناجح صاحب البركة قوى النتيجة سيدى يدير بن صالح الجمهورى أصلا و العيدلى مسكنا التمغراوى مدفنا تلميذ الشيخ سيدى يحيى العيدلى قد دفن معه فى روضته نفعنا اللّه به فانه معظم غاية التعظيم و حبه ظاهر و أولاده ذوو بركة قوية و خيرهم مشهور و صلاحهم منثور و أمرهم مذكور، فان الناس ينتفعون بهم و يعتقدونهم إلى الآن و لا يخلو البعض منهم عند الوجد الصحيح، و الحب الصريح، فتجده انه يتواجد حقا، و يحب صدقا، و أنهم أهل السماع دائما على كل حال فمن طلبهم وافقوه و

ساعدوه على أى وجه فيه الرجال و النساء غير أن سماعهم فى الغالب أولى من غيرهم و الناس يأمنون شرهم و يعتقدونهم و ان دلائل الشر خالية منهم غالبا إلا من قل منهم و ندر و أنهم لا يفرون من العلم و أهله بخلاف غيرهم فهم أسعد حالا مما سواهم كما شاهدنا ذلك منهم و ان الكل مخالف للسنة النبوية و أنه ليس بشروطه غير أن غيرهم يقصد البعض منهم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۶۱

التوصل إلى الأغراض الفاسدة و هم و اللّه اعلم سالمون من تلك المفاسد و ان كان على غير الشروط نفعنا اللّه بهم حاصله جمعهم لا يخلو عن أهل الخير و البركة تحقيقا و بركة جدهم و شيخه القطب تنوب عليهم.

لطيفة لو أنهم انسلخوا عن ذلك رأسا أولى بهم و أجدر و أنور و أستر و أفقر و أحظ و أشعر و أذكر و أكثر و اشهر و أقدر و أنصر و أعمر و أحذر أو أنهم فعلوه بشروطه مع أهله و من أهله من غير حضور الشبان و النساء و من لا بلاء له بذلك لوصلوا إلى الحضرة القدسية و الأنوار الإلهية نور اللّه قلوب الجميع ما كدّر القلب إلا مخالفة السنة و كون الشيء على غير شروطه و على غير بابه و اللّه تعالى يقول: وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها.

و منهم أخوه فى اللّه و من شيخه الولى الصالح و الفاضل الناصح ذو البركة البينة و الأحوال المزينة و الأمور المستحسنة المجاهد نفسه حق الجهاد سيدى إبراهيم بن عمار و قد قيل انه فى محله المعلوم ما فاتته صلاة الصبح مع شيخه سيدى يحيى صيفا و شتاء و غيرهما اغتناما بركة الشيخ و ان ذلك من خوارق العادة إذ لا يمكن ذلك فى النهار دائما فضلا عن الليل و قد قيل أن الشيطان يصنع النار له لعله يعوقه عن اللحوق به فشعر به و لم يلتفت له أصلا و لعنه و استعاذ من شره نفعنا اللّه به آمين و أولاده أهل بركة و خير وفق اللّه الكل إلى صالح القول و العمل و حفظ جميعنا من الزيغ و الزلل.

و منهم الولى عند الناس بلا شك و هو كذلك و اللّه اعلم و قلوبنا تشهد بذلك الشيخ سيدى إبراهيم الساكن فى ناحية حنيف مشهور معلوم أحواله مرضية و نفائسه زكية و لطائفه و هبية أولاده مشهورون بالصلاح إلى الآن و قد أدركت منهم فضلاء كالفقيه سيدى أبى القاسم محب ذو ود و صدق و كذا أولاد سيدى الحاج نفعنا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۶۲

اللّه ببركاتهم و نفعنا بسر جدهم و كذا سيدى عبد الحليم مثله و أظنه من أخر التاسع أو من أوله العاشر.

و منهم من بركاته كالأمواج و أحواله كالأبراج الولى ذو البركة الظاهرة و الخوارق الباهرة الشيخ سيدى عيسى بن محمد قد انتفع به العامة و الخاصة و قد رد ببركاته عينا من ماء فطرانا لحيوانه و انه صبغ كل من أتى إليه و قد مسح على عين الأعور فرجعت أحسن مما قبل فقال من لا معرفة له عين عيسى خير من عين اللّه و لم يعلموا أن الكل من عند اللّه و غير ذلك من كراماته رضى اللّه عنه و نفعنا به و حفظنا من كل جبار عنيد بجاههم و جاهه و له قبران قبر فى أطراف و انوغة أعنى المسيلة و الأخر فى فرواو و بينهما نحو اليوم و قد زرتهما معا و الحمد للّه.

و منهم الشيخ عمرو الأشهب فان و انوغة يعظمونه غاية التعظيم و أولاده معظمون أيضا و قد بقى منهم الفاضل سيدى الطيب نفعنا اللّه ببركته آمين.

و منهم أولاد سيدى عمر فى وادى الخميس من هذا العرش و ان جدهم هو المؤلف المعلوم فى الكتب المتداولة أعنى الوانوغى و أولاده فيهم البركة نفعنا اللّه بهم.

و منهم شرفاء القصبة دار علم و بركة و شجاعة و قد زرت الجميع و الحمد للّه سبحانه.

و منهم الولى الصالح و القمر الواضح سيدى على الطيار معظم فى الصحراء و التل و أولاده كذلك إلى الآن سيما الشيخ سيدى محمد بن المبارك و أولاده نفعنا اللّه بهم آمين.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۶۳

و من زمورة أولاد أبى شيب و أنهم شرفاء أهل فضل و بركة و قد رأيت فى بعض رسوم الشرفاء و أظنه كلام ابن فرحون أنه قال ما نصه و لا شريف فى زمورة أعنى بنى فرقان إلا طائفة يقال لها أبو شيب نفعنا اللّه بهم.

و منهم أولاد سيدى أحمد التواتى فضلاء كرماء أهل خير من العهد الأول نفعنا اللّه تعالى بهم.

و منهم الولى الصالح البركة سيدى عمر العجيسى فان الناس يعظمونه غاية التعظيم و هو جد سيدى أحمد المجذوب و قد رأيت أيضا أن عجيسة شرفاء نفعنا اللّه به.

و منهم ذو الفضل و الفضائل أخونا فى اللّه سيدى محمد بن زيان كان رحمة لنفسه و للمؤمنين وضع اللّه البركة فى أولاده نفعنا اللّه به.

و منهم أولاد البواب أعنى الزياتنة فإنهم أهل فضل و كرم و قراءة نفعنا اللّه بهم.

و منهم الشيخ الولى الصالح ذو البركة العظيمة سيدى مبارك السماتى و أولاده على الفضل و الكرم و الهمة نفعنا اللّه به.

و منهم ظاهر الفضل و النجاح و الصلاح سيدى عمر بن عباشة و أولاده كذلك و ان أصابهم بعض الذل و قد علمت أن درهم المغرم لا يعد له شيء رزقنا اللّه بركته آمين.

و منه الشيخ الصالح المجذوب الذى فاض عليه بحر الأنوار و طلعت عليه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۶۴

شمس الأسرار سيدى محمد بن المبارك الشريف من أولاد سيدى أبى زيد و أولاده من لم يكن ذا علم فهو ذو فضل و بركته و مآثره مشهورة من القرن الحادى عشر نفعنا اللّه بهم و أفاض علينا من بركاتهم.

و منهم سيدى سعيد الموسخ و الولى الصالح سيدى أبو ناب و الشيخ الولى الشهير سيدى عطاء اللّه هم أولو الفضل و الصلاح و الخير و الفلاح أولادهم أهل فضل نفعنا اللّه بهم و بأمثالهم آمين.

و منهم الشيخ الزاهد الورع الولى الصالح سيدى على بن أبى زيد كان فى الحادى عشر و قد بلغ الغاية فى العبادة و مجاهدة النفس و قد انعزل بأهله فى الجبل طلبا لخفة الأشغال و تفريغ سوى اللّه من البال و ذلك شان الصديقين و قد نص العلماء أن آخر الزمان لا يسلم ذو دين بدينه إلا من فر من شاهق لشاهق و أظنه حديثا و الشيخ استعمله بنفسه و أهله نفعنا اللّه به آمين.

و منهم ذو الفضل العظيم و الخير العميم الولى المشهور ذو السر المأثور سيدى الجودى العلمى من آخر القرن العاشر و أولاده أهل جد و اجتهاد و صلاح سيما سيدى على ابنه تلميذ الشيخ سلطان العارفين سيدى على بن المبارك ذى السر القوى و النور السنى فأنى رأيت بعض مرائيه من أعجب العجاب تكاد أن تكون مرائى الثعالبى أو ابن جمرة نفعنا اللّه بهما و قد رأيت سيدى الجودى نوما فيما مضى و صورته لم تزل عنى إلى الآن و مسكنى من يدى فقال إلى جدك سيدى أحمد الشريف من بنى عشاش إلى قبره فلما وصلناه قال سيدى أحمد الشريف ما دام يبقى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۶۵

يزيد حرارة كالسمن العتيق أو كلاما هذا معناه نفعنا اللّه به آمين و بأولاده و لا شك أنهم أحياء عند ربهم لا خوف عليهم و لا هم يحزنون.

و منه الزاهد الورع المتخلى عن الدنيا الذاكر للّه كثيرا من الحادى عشر و قد قيل التقط حب البلوط من كل شجرة فى وطن الخميس إلا- أنه ذكر اللّه عند كل حبة و انه أول أمره كان يؤاجر نفسه و يقتات من ذلك حتى منعه بعض الناس من أداء الصلاة فسلم فى الأجرة و ذهب و لم يرجع ففهم أن اللّه لم يقمه فى الأسباب و إنما أراد به التجريد عنها و التجريد واجب عند تعذر الأسباب الشرعية أنظر ابن عباد عند قول ابن عطاء اللّه أرادتك التجريد مع أقامة اللّه إياك فى الأسباب من الشهرة الخفية و أرادتك الأسباب مع إقامة اللّه إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العالية فرجع للتجريد و هو سيدى محمد بن يحيى من أولاد الشيخ سيدى مالك وجده هذا

كان صاحب حال عظيم قيل انه صبغ تسعة و تسعين رجلا من جملتهم سيدى موسى الوغليسى و لم يجد أحدا يزيده فزاد شجرة الزان و اللّه اعلم و معنى صبغها محتمل يحتمل أن اللّه جعل فيها إدراكا كما جعلها فى الذى نطق للنبى صلى اللّه عليه و سلم حتى ذاقت حلاوة الإيمان و شهدت مشاهد الخير و البركة ثم تصير بركة للناس بعده [و يحتمل] أنها محل بركة إلى يوم الساعة فتصير أثارها لعيرها من العقلاء رحمة لأهل بلدة و من يمر عليها و سيدى محمد هذا مجاب الدعوة و هو فى جبل بنى يعلى ضريحه مشهور يزار و من أراد قصم عدوه الظالم فيسأل اللّه بجاهه عند ضريحه و قد جربت ذلك مرارا فوجدته كذلك أحيا قلوبنا اللّه بجاهه آمين.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۶۶

و منهم الشيخ العارف باللّه تعالى الزاهد فى الدنيا رأسا المتخلى عنها نفسا سيدى محمد بن قرى و قد اعتزل بأهله و سكن القلعة فى غيضة عظيمة لا يسكنها إلا الوحوش لعدم الماء فيها و مع ذلك انه بنى دوره فى الأوعار من الجبل مع بعدها من الوادى إلى رأس الجبل و بنى فيها مساجد بفضل اللّه سيما الجامع الكبير فقد بناه بناء معتبرا إلا إذا كان مثله فى تونس و أشار رحمه اللّه إلى أنها تصير مدينة قاهرة آخر الزمان و قد تحمل المشاق العظيمة فى مجاهدة نفسه و أهله و أولاده و أصحابه و كان لا يفتر عن ذكر اللّه تعالى طريقه صعب لا يسلكه إلا من نبذ نفسه وراء ظهره و قد أدركته صغير و قد سمعت من بعض الناس أنه قرأ على شمهروش الطيار من الجن و هو قرأ على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بأن أحياه اللّه أحد عشر قرنا و كذلك قرأ عليه الشيخ سيدى أحمد الحبيب صاحب السر العظيم و الصراط المستقيم الفملالى و كذلك الشيخ البقال المصرى و قد سمعت أنه يصلى كل جمعة فى جامع الزيتونة فى تونس فلما مات قال مجاوره أظن أن الشيخ توفى لما لم يعمر محله و كان الأمر كذلك و اللّه اعلم و زوجته كذلك و قد سمعت منها أنها كانت تنازع الشيخ فى بعض الأمور عند رجال الغيب و نصها أنها قالت أنا أريد أطعام الطعام و الشيخ يمتنع ليس بخلا [بل] لما فى ذلك من كثرة الخلق و هو يريد السلامة منهم و الفرار من أجلهم قالت ذات ليلة و الشيخ بات عند بعض الناس خارج القلعة فذهبت إلى المسجد الكبير فصحت برجال الغيب فأتونى من مصر ثم ناديت برجال المغرب فجاؤا من فاس أعنى أشياخ زوجها قالت و ناديت رجال الصحراء فأتونى كالجراد و ناديت رجال بجاية فأتونى سيدى أبو القاسم الذى فى قراية و غيره من رجال بجاية فلما استقر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۶۷

الجمع و التفت البصر و السمع لم أجد الشيخ يمتنع أو يتبع ثم أن بعض الحاضرين قال إن أردت أن يحضر الشيخ فنادى بأهل الجزعة و هم سبعة و هو واحد منهم قالت فناديت بذلك فحضر ساعتئذ فقال ما شأنك بهذا الجمع و أنت امرأة فقلت له منعك من غيرهم و أما هؤلاء فلا ثم قام واحد من هؤلاء الجموع و أتى بجمرة تضطرم نارا أى اضطرام فى أحدى يديه و خبزة فى يده الأخرى يقول لى أطعمى هذه و لو جلست على هذه فقلت لا و اللّه ما يرضاه بى زوجى ثم بعد ذلك زجروه و أمروه بموافقتى فوافق و ساعدنى بعد و تفرق الجمع الخ الحكاية رضى اللّه عنهما و أولاده ذكور و أناث ظهرت عليهم آثار الأسرار و شوارق الأنوار سيما الولى كأبيه ذو الصدق و الوفاء و الحلم و النصيحة و الصفاء المتواضع لكل الخلق و قد حاز فى كل خير السبق سيدى بركات و قد شاهدنا منه ما لا يمكن التعبير عنه نفعنا اللّه به و جعل البركة فى أولاده و أظهر عليهم آثار الفضل بمنه و كرمه و قد حج من لا نظير له أصلا فى زماننا سيدى عبد الرحمن ولده.

و أما سيدى محمد السعيد فضله عن أهل وطننا و كذا علمه و صدقه لا يخفى و قد زوجنى سيدى بركات بنته كما زوج أبو بكر رضى اللّه عنه بنته النبى صلى اللّه عليه و سلم عائشة رضى اللّه عنها من غير كلفة و لا مشقة و قبر الشيخ معلوم فى القلعة.

و أما ضريح ابنه سيدى بركات فهو مع ضريح سيدى محمد بن يحيى السابق و كذا قبور الفضلاء الصلحاء أولاد قرى و من أولياء اللّه سيدى عبد الرحمن و سيدى التواتى و الأستاذ السبعى سيدى الحسين و سيدى أبو عبد اللّه و كذا جميع أولادهم على الخير و البركة فى كل سكون و حركة نفعنا اللّه بهم.

و منهم الشيخ سيدى عمر بن موسى فانه ولى من أولياء اللّه تعالى و قبره مشهور

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۶۸

يزار و أولاده على الخير و البركة و العلم و الصلاح و الفلاح و من بركاته أن أهل محله يقسمون به صغيرا و كبيرا و ان قريته و اللّه اعلم ما وصلت إلى خراب فى الظاهر و هلاك إلا شفعها فقد سمعت أن الولى رحمه اللّه فى قومه ما دام يعظمونه و يبجلونه مع مراعاة أولاده أن كانوا على وفق العلم قال تعالى و كان أبوهما صالحا قيل الجد التاسع و لا أعلم تاريخ وفاته رحمه اللّه و نفعنا به و بأمثاله.

و منهم سيدى سعيد بن شتوان أدركناه أستاذا فى القرآن مشتغلا باللّه مقبلا عليه مع تعليم القرآن و قد ورد فيه الخير الكثير و أولاده على الخير و البركة رضى اللّه عنهم و نفعنا بهم.

و منهم شرفاء تمنقاش من أخيار الناس و ليس أحد يذم منهم بل كلهم أو جلهم على الخير و الاستقامة بحسب الزمان و أهله و أصلهم و اللّه اعلم من الرابطة و أهل الرابطة ذوو فضل و خير و همة و صلاح و كرم و علم و قرآن و حياء سيما الشيخ سيدى السعدى و غيره منهم نفعنا اللّه بالجميع بمنه و كرمه.

و منهم سيدى سعيد الزيتونى فانه ولى كبير و أمره عظيم و حاله جسيم و أولاده كذلك ذوو علم و حلم و فضل خصوصا سيدى سليمان و كان حبيبا لنا و أولاده و سيدى الحسين و ولداه الفاضلان الكاملان سيدى محمد و ابوة و قد رأى البعض النبى صلى اللّه عليه و سلم قال فسألته عن الأشراف فأجابنى بقوله الزياتنة و لا أدرى زاد و ما نسبهما أم لا و لا أدرى تاريخ سيدى سعيد و أظنه من أواخر التاسع أو أول العاشر نفعنا اللّه به و بأمثاله آمين.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۶۹

و منهم الولى المعلوم ذو البركة العظيمة و الخيرات الجسمية سيدى إسماعيل الفملانى و كذا أولاده فهم على الخير و البركة و العلم و الفضل و الرحمة نفعنا اللّه بجميعهم و لا اعلم تاريخ وفاته و قد سألت البعض عنه فقال من القرن السابع غير أنى لم أثق به.

و منهم أولاد محجوبة فهم أهل الخير و الفضل و القرآن و العلم و الحلم سيما والد سيدى على بن محجوبة و كذا سيدى على و ولداه الفاضلان الكاملان سيدى عبد اللّه و سيدى محمد السعيد و قد حضرت مع سيدى الحسن بن مصباح أن سيدى محمد السعيد طار فى الهواء ساعة زمانية مع جماعة من أهل الخير أدركنا اللّه من بركاتهم بمنه و كرمه و كذا سيدى على بن محروش و ولده و كذا شيخنا الذى هو ظاهر الصلاح و الخير و النجاح سيدى يحيى اليعلاوى فى قصطنطينية و قد شهدت منه أمرا عظيما من الكشبى غير مرة وجدهم هو الولى الصالح سيدى الحاج عيسى و لا أدرى تاريخ نفعنا اللّه بجميعهم آمين.

و منهم سيدى سيلمان الحربيلى فانه ولى من أولياء اللّه تعالى و هو واسع المعنى رحب البناء عند أهل حربيل و أولاده كذلك أهل فضل و خير نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم الأخيار و السادات الأبرار ساداتنا زواوة و هم أهل سداد و صواب و خدمة رب الأرباب أولو فضل و علم و أدب و حلم أنوارهم ساطعة و أحوالهم مرتفعة و ضمائرهم خاشعة و نفوسهم للّه خاضعة جملة و تفضيلا و علهم على الخير من اللّه تفضيلا و نسبهم على ما اشتهر لديهم و كذا الشواثرة إلى الولى الصالح سيدى يحيى أبى زكرياء الزواوى الذى ببجاية مدفون ضريحه الدعاء عنده مستجاب

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۷۰

و الناس فى أنسابهم مصدقون حسبما صرح به الأجهورى بضم الهمزة و غيره إذ الأنساب كالحيازة فى الأموال انظره.

و قد قلت:

سريرة الجسد تحق فى الولدو نوره حقا عليه يعتمد

فخيرة الخلق من أصل طيب‌شذا معطرا أنى من أعجب

و حسن أخلاق كذا قد ينتخبو أمره غريب ليس يحتجب

نفعنا اللّه بجميعهم آمين.

و منهم المحيى لما درس من حق قد بخس المحاسب منه كل نفس و أغلى حقا ما قد رخس و أعلى طريقا أنس الشيخ على الحقيقة شيخ الطريقة ولايته ظاهرة و أحواله فاخرة و أسراره بينة و أنواره قدسية سيدى الجودى بن الحاج كراماته و أحواله مشهورة و علومه منشورة و قد بلغ رحمة اللّه عليه حالة التربية إذ سمعنا أن طالبا كان يتعلم عليه ذات يوم غلبته نفسه فتبعها فى غير شىء بان شوغف بامرأة أجنبية و تعلق بها و أراد الزنى بها و حين وقعت المعصية بحيث أراد مباشرتها فوجد الشيخ بينه و بينها فاستحيى و أصابته حشمة عظيمة و لم يرجع بعد ذلك له نحو خمسة عشر يوما حتى بعث إليه رضى اللّه عنه و قد سمعت من المبرز العدل الصالح من أهل الفضل المرابط سعيد بن تقرين يحكى عن أبيه أو عن جده عن الشيخ سيدى الجودى أنه سرق لبعض أحبابه سرقة و لم يعلم بها إلا اللّه تعالى فوقعت الشكوى من أربابها له فبعث لكل من أتهم بها و كنت فى جملتهم نعم لما وصلنا إليه أمرنا بردها و وعدنا بالخير العظيم و الفضل الجسيم على ذلك فأبى الكل عنه و كنت السارق فلما انفصل

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۷۱

الجمع عنه مسكنى و قال أنت الذى سرقت ردها فما تريده فأنا متكفل به فقلت له نعم أنا على ما تريده فرددتها ثم قال لى كلما وقعت بك شدة فاستغث بى فأنا أغيثك أين ما كنت و بعد ذلك ذهبت إلى الجزائر أريد المعيشة و تحصيل أسبابها فركبت فى السفينة مع من يحارب النصارى فأسر جميعنا فوقعت عند رومى لا حلم و لا شفاعة له أصلا و صار يعذبنى تعذيبا شديدا فلما كان ذات ليلة خرجت هاربا إلى شاطئ البحر مختفيا فى الشجر فلما علموا بأمير صار الصياح و النداء و رائى إلى أن وصل الجمع إلى محلى غير أنى حجبنى اللّه عنهم بعد أن وصل كلبهم إلىّ يبصبص بى ثم يرجع إليهم غير أنى معتمد على الشيخ و مستغيث به فرجعوا خائبين و بقيت أنا ثم ملتجئا إلى اللّه ثم إلى الشيخ فمرت علىّ سنة و إذا بالشيخ يقول مد يدك إلى فمددت يدى إليه فمسكها و رفعنى فاستيقظت فوجدت نفسى فى الجزائر و غير ذلك من الكرامات رضى اللّه عنه و نفعنا بعلومه و أحواله و أنواره بمنه و كرمه و أولاده إلى الآن على الخير و الفضل و العلم و الحمد للّه تعالى و هو من القرن الحادى عشر أعنى لوله لوم أدر هل أخذ من آخر العاشر أم لا و قد حشى على الصغرى حاشية لطيفة و كلامه رأيته لا بأس به لأنه محقق فى عصره.

و منهم سيدى عمر الواصلى رجل من الأكابر و صلاحه و ولايته معلومة فى الضمائر فان أهل وطنه بنى سليمان يعظمونه غاية التعظيم و أولاده على الخير خصوصا الأجل المنير ذو الخير الشهير سيدى الموهوب كبير السر عظيم الشأن و الحمد له حبيب لنا نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم سيدى عمر الخلادى شيخ معظم و ولى معتقد فيه أولاده على الخير و الحمد للّه تعالى نفعنا اللّه به.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۷۲

و منهم الولى الصالح و النجم الواضح سيدى على بن سليمان البرباشى معظما عند أهله و محترما عند أهل وطنه قبره يزار و أولاده فيهم و الحمد للّه العلم و الصلاح و خدمة الخير و أهله و محبة العلم و ذويه سيما سيدى على بن الصالح و كان حبيبا لجدى و لوالدى و هو قد ظهرت أنواره و قويت أسراره و علمه و فضله ظاهران قد درس و أسس و علم و أنس نبراس زمانه و عبقرى أوانه و ليث مكانه و كذا سيدى عبد اللّه تفقه على جدى الحسين الشريف و اغتنم منه البركة و العلم يحكى ذلك الوالد عنه و كذا أخوه سيدى الموهوب بن على بن سليمان و أولادهم على الخير و البركة و الحمد للّه نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم سيدى زيان صالح زمانه و ولى أوانه و أولاده كذلك نفعنا اللّه به.

و منهم السادات الأفاضل و الأخيار الأكامل أولاد سيدى بهلول القائمين بالحق الظاهرين على قدم الصدق و السالكين سبيل الجد و الرفق و هم شرفاء خصوصا سيدى على و سيدى المهدى و من نحا نحوهما على أن أولادهم إلى الآن على ما يحسن فلم تسكن نفسى

لأحد مثلهم لفضلهم وجودهم و حيائهم و أحسانهم و علمهم بقدر من له القدر زادهم اللّه رفعة و تعظيما و مهابة نفعنا اللّه بهم أجمعين آمين.

و منهم ذو العلم و المهابة، و الحلم و الأنابة، و السطوة و الاستجابة، و التحقيق و الإصابة، ذو العلوم الفاخرة، و الأحوال الصادقة الظاهرة، و الأنوار الباهرة، و الأسرار الحاضرة، الزاهد بالتحقيق، بعد التمكين من الدنيا كما يليق، قد نبذها وراء

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۷۳

ظهره، دفعا لنفعه و ضره، عند جميع الأفاضل مرغوب، الولى الكامل سيدى الموهوب، نجل الشيخ القدوة و الدرة الثمينة سيدى محمد بن على اليعدلى كراماته ظاهرة، و دعواته قاهرة، و أسراره ليست مستترة، مكنه اللّه فتمكن، و بذكره قد أطمأن، قلت فيه و فى أمثاله.

شمس النهار أشرفت بضرتهاعند الظلام منجل من نورها

ففجرها أحيانا ما كان قد يبس‌من ريح أهل جرأة بل من نفس

أحسن جوهر من المعالى‌قد رصعن وطننا فى الجبال

قد أقبل المآل بالسعودمن طلعة الغر على الوفود

و كل ظلم قد جرى من العجم‌على ذوى الشرف و الخير إلا تم

أزاله بحق من حلاه‌بحلية من عزه علاه

و كل ما أتاه من أوساخ‌فرقه إذا بلا تراخ

من غير أن يقبض شيئا أبدالنفسه و أهله معتمدا

على الذى من رزقه قد انقسم‌على العباد ليس ضيزى فى القسم

إذ حلمه قد عم أهل مصره‌و بره مدخر لوقته

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۷۴ فدهره يثنى عليه باتفاق‌و حاله و سيره بالارتفاق

هذا و ان صيته قد أرتفع‌و رسمت أحواله لتتبع

و أمم حقا أرعوت لأمره‌و افتقرت إذ ذاك فه بسره

مدرس الفنون فى المقام‌كذا القرآن أضحى للأنام

محل سر و انتفاع بالدوام‌قواعد العلوم تقرا بالتمام

على قانون العلم من غير اختلاط‌و لا التباس و انتقاص باغتباط

تأتيه الافواج من كل بر‌لأمور اضطروها لضر

أصابهم جائحة الفقدان‌لرفع معضلات عن أخوان

محله كالمصر للحجاج‌و علمه أجلى بلا احتياج

كالنحو و التفسير مع علم الحديث‌و لغة و أدب ليس الخبيث

منتفعا بها كل انتفاع‌بصيرة عمياء باقتطاع

أولاده حقا عليهم ما أبدى‌من علوم و أطعام و ما أرتدى

به من التقوى و حسن الزادو أبحاث العلوم فى ازدياد

هذا و ان بحرا فيه مستقرمن العلوم و الأسرار يعتبر

شريعة حقيقة مع العمل‌فخشية و خضوع منه أقل

حال الهوى عن قلبه قد انقشع‌عن سره كل السوا منه اندفع

و كله بربه قد انخشعو حبه بقلبه قد انصدع

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۷۵ و أنوار العلوم منه تشرقو أبحاث التحقيق منه تبرق

مدده قد مده الإلهو حلاه بسره مولاه

قد شهدت بقربه حيتانمن ربه اسمعها الرحمان

صديقه إبراهيم صوان ديدانه من ربه القرآن

هو الذى يجذب مع ملائكشمس العوالم سرا و ذلك

ليس غريبا أبدا على الحبيبلربه و قربه من الرقيب

قد انبان بانه لا يقفنعن قبره شقى حقا و يا من

و هو الذى يقرأ فى الكتابفى مسجد الشيخ المتقى الأواب

بجاية قد اسعدت بسرهو انتشرت أنواره بقبره

مدفنه يقرب من أبنى علىأبى حميد الصغير المسيلى

كتابه النبراس و التذكيرهو أمره و حاله شهيره

فعند قبره الدعاء يستجابمدده يحظى به من قد أناب

الغبرينى فى عنوان الدرايةنص عليه و خذ العناية

أحيا علوما من علوم الدينفى وقته بالجد و التبيين

بلمحة يصبغ كل من أتىبنية خالصة مستثبتا

قد كان يا أخى إذا من البلهأحوال دنياه لها لم ينتبه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۷۶ هذا الذى تعلق القلب بهباحمد عبد العظيم ينتهى

لحبه النظم أتى مرتجلالسنة و قرآن ممتثلا

فارضنا قد اخضرت بعلمهو كل صعب لين بحلمه

أرواحنا قد حييت بوابلمن غيثه قد عمنا بحلل

من أزهار و أنوار من العلومفمن سقاه شربة بها يقوم

بأنواع من المواهب عجبفى حضرة قدسية قد انسغب

لنصح من أتاه حقا قاصدايعلو به منازلا و زائدا

بأسماء و صفات من ربهلسالك يسعى به لحزبه

و خمره قد شاع فى الأقطارسلافة من كأس ذى الأسرار

فنظرة مسكرة على الدوامشاربها عن حسد من الهوام

خردلة من الهوى تنفعهكذاك ضره و ما يدفعه

فمثله أمان العبادكذا بسد ثلمة الفساد

بجاهه حققنا رب بالهدىمع الرضى مفوضا معتمدا

و أسلك بنا بجاهه كل نمطمن طرق الحق بعلم يغتبط

بقربه يا رب زوّل الحجابعن الضمائر بحب و أرتقاب

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۷۷ و كلنا برحمة مع عافيهو زد لنا تصفية و توفيه

وجد لنا بالعفو و الغفرانو جنة الخلد مع الرضوان

و أمح لنا جرائما قد سبقتبتوبة صادقة منك أتت

فى حضرة القدس مع البنينو أسعد بناتنا و من يلينا

إلى انتقال و ارتحال يا فتىعجل لنا توسعة مما أتى

من خيرة الدارين و السعادةكذا التوفيق مع الاستفادة

و اجعل لنا ودا من العبادو الخبر و الورق بالازدياد

و كف عنا يد عدو بالدوام من كل جبار عنيد بالسلام

أنت الذى تكفنا من الأذىو أقصمه يا رب عند العزم إذا

أرادنا بسوء فعل منك ردفى نحره كيده قهرا بالأشد

ما رماه و نراه قاصداو رده ذلا بعادا ما أعتدى الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۷۸ دعا يعم الوالدين و الأزواجو منتم لنا من الأفواج

من قريب و محسن كذا المحبو اشياخ و أخوان و مرتقب

بأمثال المزبور فيما قد سبقو آخذ و طالب و من صدق

فى حبنا و ودنا من العبادو كن لنا بجمع شمل و اجتهاد

فى العلم بالجد و التمكينلنفع مسلم و دفع رين

و شر ذى شر على الإطلاقو الختم بالحسنى مع ارتفاق

نبينا و ذخرنا يوم الحسابجاهه حقق لا عين انتساب

ثم الصلاة و السلام دائماعلى الرسول صادقا معظما

و آله و صحبه ذوى التقىو المجد و الفخر و كل منتقى

و بالجملة فقد تشرف مقام الشيخ سيدى الموهوب بإشراق حضرة الولى سيدى أحمد بن عبد العظيم أشراقا تاما، و طلوع نجم السعود فيه طلوعا عاما، و كذا بأولاده سيما ذو المجد الأنيف، و الفاضل الشريف، و هو من النوادر سيدى عبد القادر رحمه اللّه تعالى و رضى عنه و فيه قلت

و معه الحبر الهمام فى الوغىمكافحا مناضلا و قد بغى

على المعالى كلها أو جلهاملتقطا لدرر من أصلها

قد حازها بسيفه منعطفالهمم الأمور غدا و اقتفى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۷۹ من أرجاء الملك مع السياسهو فر بالنفس عن الرياسة

و حظه جواهر مع الأدبو علمه نار القرى كذا الحسب

و عبد قادر تسمى فى الورىو جوده و خيره بلا امترا

فقد عما عصرهما ككوثر و ظل عز منهما كشجر

من شجر الضخم و ذى الأوراقلعابر ذى حاجة إطلاق

هذا و أن فضل اللّه عظيم، و بره عميم، و أولاد الشيخ سيدى الموهوب فيهم الخير و العلم و الأدب خصوصا سيدى عبد اللّه نجل الشيخ سيدى عبد القادر المذكور و سيدى عبد اللّه بن محيى الدين و تلميذنا سيدى عبد القادر بن أحمد و كذا غيرهم.

و منهم من أشرق بالكرم و الجود، فى سماء السعود، بحر السخاء من الودود، سيدى المسعود، و فيه قلت:

مدده قد يغنى كل من سألوجوده قد عم قطرا و اشتمل

على كل من المعالى و استقل‌بسجيه عن غيره بها احتفل

خدانه بسيرة حميده‌قد أخبرت عنه بها سديدة

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۸۰ لا عيب فيه أبدا سوى السخى‌لقاصد من عدو موبخا

ألسنة من عصره متفقه‌على الثنا بحمله معتبقه

فحله الرب من المعارف‌تمده مدا بلا تخالف

أعنى الذى فى عهدنا محمدافلم يبعد عن مثلهم مستمدا

مقتبسا من أمور قد سبقت‌من أجداد له بما قد صدعت

من خدمة العلم و أهل الأدب‌ذويهما بكل ما قد اكتسب

فحظه من كلهم لم يختلف‌نصيبه من مجدهم لم ينحرف

فأولاد الشيخ على الإطلاق‌لم يعدموا الكل من السباق الرحلة الورثيلانية ؛ ج۱ ؛ ص۸۱ الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۸۱ و أصلح الكل بحق المصطفى‌و صاحب و تابع ممن صفا

ثم صلاة اللّه مع سلام‌على رسول رحمة الآنام

محمد أفضل كل من أتى‌من رسول و نبى مثبتا

و كذا الفاضل المحسن و الحليم ذو المعروف و المآثر ظهرى و ذخرى سيدى الموهوب بن محمد لا يأتى الزمان مثله و فيه قلت:

فانه يحاكى أبريز الذهب‌و البحر من فنونه قد ارتقب

فعزه مبجل ممن أحل‌فى قطره ممن علا و من سفل

قدس اللّه ضريحه، و عطر ناشذاه و ريحه، و أما قرابة سيدى أحمد بن عبد العظيم فهم على الخير و الحمد للّه جعلنا اللّه فى زمرتهم آمين يا رب العالمين.

و منهم شيخ والدنا الفاضل النحوى اللغوى المحدث المفسر الأديب الفقيه الجامع بين المعقول و المنقول الولى الصالح و البرهان الواضح ذو الأحوال الفاخرة شيخ شيوخنا المعرب الغربى سيدى محمد العربى المتوطن فى جبل سيدى الموهوب و قد أسعد اللّه باستقراره كل الأماكن من وطننا و تأنسوا به أى تأنيس فى زماننا و كان إذا أحل بقوم نزلت عليهم الرحمة و السكينة و كيف لا و هو بحر اللّه فى عالمتنا و غيث بلدنا و رحمة لمن كان عندنا و علمه مبذول عند من سبقت له السعادة و الحمد للّه و قد تعلمت الألفية على تلميذه العلامة الفاضل سيدى على بن أحمد و طريقه ناصرية شاذلية و كان رضى اللّه عنه يفجئ الغمة على من وقع عليه فى العلم و غيره رضى اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۸۲

عنه و كذا سيدى عبد الملك و ان لم يكن مثله فى العلم غير انه ذو فضل قوى و فى سيدى محمد هذا قلت:

بحر الندى و العلم من شيخ برزشيخ الحقيقة لدينا مكتنز

وجوده كعلمه فيما دنامن قطرنا على الذين به اغتنى

نار القرى فى علوم لم تسترو شمسه مشرقة على الدرر

و أنه طود فى كل من علوم‌و رحمة على الذى به يؤم

و اللّه ان نعمة قد أهديت‌من الرحيم عاجلا لمن أتت

بدرا إذا رأيته يا من قصدزيارة أو سلوكا لمن أراد

إن مات قلب قسوة أحياه فى‌لحظة من وقت و منه قد شفى

و بالجملة فاللّه يتداركنا بفضله وجوده و إحسانه توفى فى هذا القرن الذى نحن فيه و أما سيدى الموهوب فانه من القرن الحادى عشر و سيدى أحمد بن عبد العظيم بعد الشيخ سيدى الموهوب. و قرية أمّولة جامعة لأهل الخير و الفضل و العلم نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم الولى الصالح سيدى عمر القمونى و أهل محله يعظمونه و يعتقدونه غاية التعظيم و لا أدرى تاريخ نفعنا اللّه به آمين.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۸۳

و منهم الولى الصالح و القمر الواضح له بركات ظاهرة و أحواله باهرة و أسراره مشتهرة سيدى الصادق ضريحه فى الوادى معلوم يزار و هو من القرن العاشر أعنى أواخره و لا أدرى هل بلغ الحادى عشر أم لا و أولاده رضى اللّه عنه بدور أهلة و أعلام أجلة كالفاضل الولى و الصالح الولى و الفقيه العلى سيدى يحيى بن الموهوب و مثله فى الفضل سيدى محمد الموهوب و سيدى التوانى الفقيه سيدى يحيى بن الواثق و هو فى غاية الفقه تلميذ جدنا و قد سمعت منه أنه رأى الشيخ خليل فى النوم و أخذ بيده إلى أن وصل إلى الصندوق المملوء بالكتب قال فأخذ منه كتابا و أعطاه لى فوجدته الشيخ بهرام فعلمت أنه أذن لى فى مختصر الشيخ خليل ففتح اللّه على بما لم يفتح على غيرى و قد أخبرنى عمى سيدى محمد الصغير إذ هو علامة زماننا أنه كان يتعلم عليه المختصر و كان يقرئ من الأجهورى و أنا و بعض الطلبة أعنى سيدى محمد بن باب الملقب بالأوجه [و هو فاضل محقق أيضا و أولاده] فى أيدينا الشيخ عبد الباقى و الشيخ إبراهيم فكان قدس اللّه ضريحه يحمل الشيخ المذكور و يهذبه و يحرره بان يترك المكرر منه كالشيخين بعده سواء بسواء إلا فى عين اللفظ و مآثر سيدى الصادق و أولاده كثيرة و قلت فيهم:

يا أيها الإنسان فاعلم قدرهملأنهم سحابة مع غيثهم

قد اخضرت أشجار أهل العصرو أثمرت فواكها بتمر

فهم كحصن مانع يلوذ منله الجناية بحق أو ضمن

رحمتهم تعم كل بلدو سرهم من سر فضل أحمد

قد سكروا بحبه و قربهفمنحوا من عزه و حلمه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۸۴ فاسكنوا قلوبهم دار الوصولبجذبة الإله صرفا بالحلول

فى جمع الجمع بالتجريدو سيفهم للقهر بالتهديد

بحليه الإله قد جملهمو شرحه الصدر فقد زينهم

فأنهم على الهدى من ربهمأيدهم قدسهم عرفهم

يا للّه رب عصمة منك لناهداية أمانة لمن دنا

بجملة الأشياخ و الأباءو أزواج و النسل بالسراء

و آخذ العهد و كل طالب‌ترزقنا عافية يا غالب

مع التجلى دائما على القلوب‌بركة معرفة لمن ينوب

من أحباب و جيران مع الخدامو كل ذا لنسلنا على التمام

ثم الصلاة و السلام كالمطرعلى النبى دائما كمن حضر

نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم محيى الفنون و مجدد العلم و الدين، بعد إندراسه على التعيين، المتصف بعلم اليقين، اتقى المتقين، بل انه شرب من عين اليقين، حتى صار من أهل التمكين،

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۸۵

علامة زمانه، و قدوة أوانه، بركة الأوائل، قد زحلق و آخر لقابل، لحكمة ربانية يعلمها مرسل صاحب الشمائل، الولى الواضح سيدى

محمد صالح كاد أن يجدد الدين فى وقته و علمه مشهور و فضله منشور توفى فى القرن الحادى عشر ضريحه معلوم يزار فى قرية اجليم من عرش بنى اجمات من عرشنا بنى ورثيلان و هو فى غاية الصدق و الوفا، و عن كل مشتبه أو شبهة قد حفا ، رحمه اللّه و قدس ضريحه، و أفاض علينا خيره و ربحه، و نور قلوبنا و قلوب أولادنا باليقين و التمكين، و حلانا بحلية المتقين، فى كل تحريك و تسكين، و هذا الشيخ كان مدرسا للعلم قائما بأمور الطلبة بنفسه مع قلة ذات يده و يهاجر من كل بلدة لا تأخذهم الأحكام إليه و قيل ليس على الأحكام الشرعية إلا- جيرانه بنو اجمات من بلدنا فقد أنتقل من قرية بيكنى و سكن متين من بنى عيدل و كانوا يمنعون الميراث أيضا فأمرهم بإعطائه و حرضهم على ذلك فلما رآهم امتنعوا و توانوا و رأى هجرته واجبة و علم منهم انه إن انتقل بحضرتهم يمنعونه فتركهم إلى أن ذهبوا إلى الزيتون زمانه بحيث لا- يبقى أحد فى العمارة إلا الضيف أو كبير السن فلما آن زمانه و حان وقته ذهبوا إليه فرفع زوجه و شئونه فوقع النداء من العمارة و الصياح ليجتمعوا على الشيخ إذ لا قدرة لهم على فراقه فتسابقوا إليه من كل فج عميق ليمسكوه فلما ألحوا على رجوعه و أقامته معهم حلف أن لا يرجع إليهم إلا بالرجوع إلى الأحكام الشرعية و قد علم اللّه صدقه فى ذلك فامتثلوا أمره بجد و صدق فرجع فيهم على الأحكام الشرعية إلى الآن و الحمد للّه تعالى على ذلك و قد تحقق له الحديث فله أجرها و أجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

لطيفة أقول إنما هاجر رحمه اللّه و قدس روحه لما علم عظيم عصيانهم و كبير جرمهم إذ بعض المواضع سالمة من ذلك و قد ورد عنه صلى اللّه عليه و سلم انه قال

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۸۶

من قطع ميراث مسلم قطع اللّه ميراثه من الجنة ذكره ابن مرزوق فى شرحه لفرائض خليل فإذا علمت هذا علمت انتقال الشيخ لوجوبه عليه و قد نص علماؤنا رحمة اللّه عليهم أن المعاصى إذا كثرت فى موضع و قلت فى آخر فيجب على العبد أن ينتقل لمحل قل فيه ذلك. و أما عند عموم الشر فلا بل يلزم مكانه و يكون حلسا من احلاس بيته إذ رب موضع انتقل إليه أكثر مما انتقل عنه فيرجع إلى الذى انتقل منه فيجده قد تغير أيضا ثم يرجع إلى الذى انتقل منه فيصير كحمار الرحى فالموضع الذى انتقل منه هو الذى يعود إليه ذكر هذا صاحب المدخل و الشيخ هذا الذى حمله فان قلت لو كان الشيخ هذا قصده لانتقل إلى الجزائر أو قسنطينة أو تونس لأن هذه الأوطان سالمة من ذلك قلت حب الوطن من الإيمان كما روى عنه صلى اللّه عليه و سلم و لعله يتيسر له ذلك فى بعض وطنه و السنة حب الوطن و قد يسر اللّه له ذلك و الحمد للّه و قد سكن مواضع عديدة و لعله يجد موضعا تتيسر له فيه العبادة و من جملة ذلك صحة المعاملات و بفسادها يتكدر الوقت خصوصا على ما ذكره الشيخ زروق أن المعقود عليه يحرم بحرمة العقد و المذهب خلافه فالمعقود عليه لا يحرم بفساد العقد.

انعطاف نعم أولاده على طريقة من العلم و الحلم و الفضل و الإحسان و الأدب و الحياء و البركة رضى اللّه عنهم سيما الورع الزاهد المقتفى آثار النبى صلى اللّه عليه و سلم المتمكن فى طريق اللّه عز و جل الجامع بين الحقيقة الشريعة قدس اللّه روحه ولى ظاهر سيدى الحسين نجل الشيخ المذكور المتبع للسنة النبوية و الشريعة المحمدية كادت أوصاف سيد الخلق أن توجد فيه و قد تخلق بمعانى الأسماء و الأوصاف الإلهية ظاهره راغب فى الدنيا و باطنه خال منها فالجاهل من الناس إذا رأى حرصه فى الظاهر يقول سيدى الحسين يحب الدنيا و ليس كذلك بل الدنيا فى يد العارف أمانة و الأمين لا يضيعها و إنما يترقب بها أمر صاحبها أو يردها لصاحبها و من أحاط علما

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۸۷

بذلك فلا يتغير لفواتها فقدانها لأنها ليست له فان قلت ربما يتغير العارف على فقدانها و لا يتكدر وقته ما الحكمة فيه قلت العراف أن يتغير عنها أى بفقدانها ليس تغيره لأجل حبه لها و تعلق القلب بها إذ لو كان كذلك لما كان عارفا و إنما تغيره لأجل تفريطه و تقصيره فى حفظه إياها فتغيره راجع إليه و إلى معبوده و محبوبه فكان بربه لا- بنفسه فالعارف لا يزول اضطراره و لا يقر مع غير اللّه

قراره و قد ذكر بعض أصحابه لنا أن الشيخ ذهب له ثور بان سرق له فلما أخبرناه بذلك تغير و تحير اشد التغير و غضب علينا أشد الغضب حتى ظننا أن الشيخ إنما غيره حب الثور و حزنه لذلك و قمنا نبحث عليه البحث العظيم الذى فوق الطاقة فوجدناه مذبوحا فى بنى و جهان فرجعنا بقيمته لما علموا انه للشيخ فلما وصلنا إليه و أخبرناه بذلك ليسر فغضب غضبا شديدا و تغير تغيرا عظيما أكثر من الأول بما لا نسبة له فقال من أمركم بالبحث عنه هذا فضول منكم فاللّه صدقة على فكيف لا أرضى بصدقته و أنتم تردونها و تغيرى أولا- إنما هو لإضاعة المال و اللّه لا- يحب ذلك فتغيرت لتغير اللّه و كان رضى اللّه عنه يطعم الطعام لليتامى و الأيامى من النساء و المحتاج كل يوم كأنه وليمة عنده و أخبرن الولى الصالح الأستاذ تلميذه سيدى أحمد بن الحسين انه سمع من الشيخ يقول وجدت تحت الديار زيرين من ذهب أزال عنهما الستر السيل إزالة فهمت نفسى أن ترفعهما فمنعتها ذلك ورددت التراب عليهما فلما أخبرنا بذلك و نحن طلبة عنده فقلت له يا شيخى لو أتيت بذلك فان المحتاج عندك كثير فأجاب بأنى لو أتيت به و ربما قالت نفسى هذه الدار لا تصلح و كذا الفرس ابن غيرها و اشتر أجود منها إلى غير ذلك من شأنى كله فلما علمت حالها كان ترك ذلك هو أولى بى و أجدر و الإتيان به أمكر و أغدر فتركت ذلك و لقد سمعت من البعض أنه أتى له بمزود صغير من ذهب فقيل له أن أولياء اللّه يسلمون عليك و يقولون لك استعن بها فامتنع فقال أعطوها للشيخ سيدى أحمد بن عبد العظيم فامتنع أيضا فاتوا إلى بعض

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۸۸

الصالحين فى عروس فقال أعطوها لفلان فصاروا يترادونها إلى أن رجعت إلى هذا الشيخ فردها و لم يأخذها و من كراماته أنى سمعت العدل المبرز الصالح سيدى محمد بن الحاج العشبانى ثم التفرغونى انه قال مرض الشيخ و ذهبت لأعوده فلما وصلت إلى غنمه و إذا بالذئب معها قال فقلت للراعى أتترك الذئب مع غنم الشيخ فقال دعه فانه معها مدة طويلة يرعى معها قال فذهبت و تركته كذلك و كان رضى اللّه تعالى عنه يلبس المرقعة و ذات ليلة ذهب لزيارة بجاية و ذهب معه ركب كبير وصيته فى الأرض عال فلما و صلوا إلى بنى عبد الجبار عزم عليهم الشيخ يوسف بن مهنا رجاء فى بركة الشيخ و اغتناما لدعوته إذ كان يسمع به من غير معرفة شخصه و كذا جل الناس فلما حان وقت الطعام جمعوا الناس و رتبوهم على حسب عادتهم فاقعدوا المرابطين و ذوى الهيآت من الملابس الفاخرة على جهة و كان الشيخ بمرقعته معهم و لرثة هيأته قالوا له قم أنت لا تأكل مع هؤلاء بل كل من أوباش الركب و أسقاطهم فقام من ذلك و قال و اللّه حق ما تقولون ثم وقع النداء و الصياح بأن الذى قام هو الشيخ الذى صدر الإكرام من أجله فألحوا عليه بالرجوع فامتنع فأكل مع من ذكر رحمه اللّه و قدس روحه و أنى سمعت أيضا من بعض أولاده أنه قال كان ينهانا إذا سوغنا الخبز بالزيت أو غيره عن وضع الخبز من جهة باطنه فيقول إن ذلك إضاعة للمال و إنما يصلح وضعه من ظاهره اليابس إذ يحصل به المقصود من غير إضاعة المال و كان رحمه اللّه يصلح للتربية و تهذيب الأخلاق و قال والدى أنى لزمته و لم يكن الخير إلا منه فاغتنم بركته و صار فى اتباع السنة و الورع و التقشف أكثر منه و كان صديقا ملاطفا لجدى و الولى سيدى يحيى بن حمودى و سيدى على الصافى و غيرهم فذهبنا إليه ذات ليلة فلم نجد عنده طعاما فلم يتكلف شيئا بل أتى بخضرة الصحراء بعد طبخها و جعل عليها شيئا من السمن و الزيت فلما أتى لنا بها لم يعتذر و لم يقل شيئا و قال الوالد و اللّه لم يكن شىء أحلى منها عندهم إذ لو لا الحياء لا عتركوا عليها قالوا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۸۹

و أتينا مرة أخرى فأتى لنا بزير من عسل فوضعه بيننا فعلمنا صدق الشيخ و أخلاص نيته و سمعت أيضا انه أتى لزيارته فرحات بأى و عادة البايات يزارون و لا يزورون و ان اعتقدوا أحدا بعثوا إليه ليزوروه فى محلهم خوف الإزدراء و النقص فى حقهم فلما وصلوا أتى لهم بخبز و أظنه من شعير فكسره فى الزيت و شىء من التوابل يقال له اجعجوع و الزيت لا يأكله إلا الخماس و الراعى و من هانت عليه نفسه فأتى به هو إلى الملوك ثم قام الباى لما أتى به الشيخ ظننا أنه لا- يأكله أحد منها فلما بداناه حياء منه و أكلنا منه شيئا وجدناه و اللّه خيرا من سائر الأطعمة التى كانت فى الدنيا و لو لا الهيبة و الحياء لتقاتلنا عليه و غير ذلك من أموره نفعنا اللّه به و قيل له

أصلح بين القبائل الذين بينهم الفتنة فقال و اللّه أحمد اللّه و أشكره حين عصمنى اللّه منهم بحيث لا يمنعونى عن الصلاة فى المسجد فضلا عن أن أصلح بينهم و مع هذا إذا كان العرس ركب فرسه و لعب بها للسنة النبوية و كانت والدة أبى من الصالحات شريفة كوالدتى أيضا و كانت تقسم الليل أثلاثا ثلث للصلاة و ثلث للنوم و ثلث للذكر و جدى كان عنده الزيتون و سيدى الحسن لا قالت فجعل حظا من الزيتون للشيخ تلتقطه بطهارة و تعصره بطهارة أيضا لتتم معارف الشيخ و نوره و لتغتنم بركته أيضا رحمه اللّه و نفع به و أما أولاده فلا تجد فيهم ناقصا بل كلهم على الكمال و كذلك أولاد الشيخ سيدى محمد صالح جل أحوالهم على الهدى و سيدى عبد اللّه من الصالحين و ترك و لبيبن صالحين سيدى عبد الرحمن و سيدى أحمد و هما مفترقان فى السكنى و قد سمعت أنه قال لى لما تحيرت من أمر السكنى رأيت قائلا- يقول لى فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته الآية فسكن موضعا كذلك و هو المسمى اثروش مستندا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۹۰

إلى الكهف كما رآه فى النوم كذلك فظهر له الفضل و ولده صالحان سيدى عبد الوهاب و سيدى على قد قرأت على سيدى على الألفية حاصله أولاد سيدى محمد صالح لم يعدموا الفضل و إن كان بعضهم أولى من بعض و كذا أهله أولاد سيدى محمد صالح من قرية بيكنى كلهم على الفضل و العلم و الحلم و الخير خصوصا العالم الفاضل الخطيب المحقق فى علم الكلام و قد سمعت ممن سمع من تلميذه سيدى محمد العياضى أنه قال أن الشيخ قرأنا عليه شهرا بتمامه من قوله فعلى العاقل إلى الختم من غير تبطيل دائما إلى الليل نصا واحدا و قد سمعت أيضا أنه قال رأيت الشيخ السنوسى فى النوم يضرب برأسى و يقول أنت أولى بكلامى يا مسعود و هو العالم الفاضل سيدى المسعود بن عبد الرحمن آية من آيات اللّه تعالى و قد تزوجت بنتين من ولده سيدى السعدى و سيدى على ولده محقق فى علم الكلام غير انه لا يصل مرتبة أبيه و كذا سيدى محمد بن الفقيه محقق فى الكلام فاضل صالح مشتغل بنفسه و قد أخذ عنى الصغرى بأن قرأناها قراءة تحقيق بحاشية المحقق المراكشى و كذا أخذ منى الفقيه الفاضل العالم الأديب الحسيب و هو ليس منهم فنبهنا عليه لأنه من أجل الفضلاء و قد رأى الكاتب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فقال له يحيى بن حمزة من أحبابى و كفى به و من الصالحين سيدى الحسين بن حمزة إذ اشتغل بربه و نفسه إلى أن مات نفعنا اللّه بجميعهم و من هذه الفئة الأديب سيدى محمد بن حمو و أولاده مثله.

انعطاف بقى واحد من أولاد سيدى محمد صالح سيدى على بن محمد ظاهر الصلاح لا شك فيه إذ خصاله كلها محمودة و دعاؤه مستجاب كريم على الإطلاق اللهم ارزقه بذكر من صلبه يعمر محله بالعلم و السر و الولاية و الزهد و الكفاف

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۹۱

و العفاف نفعنا اللّه بجميعهم آمين بمنه و كرمه و قد قلت فيهم:

جدوا حقايا ذا الفضل فيض إذ شهر أنواركم تعطى لنا حلمكم

فقوت قربكم يبدى لنا دررا و حق أكرامكم يحظى لنا غررا

فكلهم أخلصوا الأعمال من حبهو أظهروا فضله كل قربه

أهلة أقمر فى ظلمة من دجىو علمهم أنوار للصبح منبلجا

فإنهم فى أنهار العلم يلتقطوامن در عرفانهم فالكل ينبسطوا

قد ركبوا من مطايا العزما وجدواو حازوا سبقا مضى فى كل ما شهدوا

بالفضل منهم زالت رعونة الأنفس بتمكين اللّه حقا غير ملتبس

و نورهم بالتقى فغير منعكس‌وجدهم بالوفا فغير منتكس

فاسلموا حالهم فى أيدى رب الملاو خلوا حقا لهم فى كل ما يبتلى

فرفعوا جملة لكل من قد أتىبحضرة العز سعيا ليس من قد عتا

عن جادة و طريق الحق مشرقةقد عد ذو القصر حزما كل مقصورة

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۹۲ و مد كلا من الممدود فيما علاو ساروا من سرها يدنون من حوقلا

فازالوا حجبا عن لكك مستورةفرأوها عيانا فى كل مرئية

فمنهم أحد مؤيد من سماو منهم من سلب العقل ليس عمى

فأذهبت قوة لكل ذى صحةو احزنت جذلا لكل ذى قوة

و حركت ساكنا بسطوة الهمةو طيرت أرواحا بريح عاصفة

و حيرت ثابتا بكل ما قد دهشفأبصرت جاهلا بل ما دق خدش

حتى أوتوا كلهم حكمة رب العلاو صيروا آمنا فى ذروة قد خلا

سواهم معدوم و لن يرموا قلى لمخلوق أبدا خصوصا من قد علا

قد عم و بلهم تحقيقا من فى الوطنو كلهم بالرضى من ربهم مؤتمن

عزهم محبوب بكل ما حققوا و أعلنوا صدقهم بما به وفقوا

و أظهروا مظهرا لنوره كل ماقد ضاق منهم رحب فناؤه قد سما

من صغرهم أجادوا فحققوا ما أتوا من أوصاف إلى غير أنهم بغتوا

رضى المولى عنهم فى كل مسألةسم الخياط أتى أوسع دائرة

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۹۳ دمهم شيم يطفى اشتعال نارأحوالهم فى الوغى ترد سخط جار

يا رب جد سيدى قبل نزول العذابحق من قد سما فى كل من انتساب

و ان تعفو رجلا يرعى خواطركملعل من نفحة أرقى بها إليكم

وجد لنا بالرضى و الفوز بالمقعدللنسك متصل و الكل فى مصعد

فى جنة الخلد حقا منه أن ينظروالوجهه بالرضى مع منحه اعتبروا

للوالدين و للبنين مع من أحبمن أخوان و جيران حق من اقترب

علاقة الأزواج و كل من انتمىمن أشياخ آخذ من طالب النعما

ثم الصلاة على محمد ما فى السماكذا السلام عليه ماجدا أفخما

و آله شرفا و صحبه حججاما دام شمس النهار تقطع الأبرجا

و من أولاد هذا الشيخ نفعناه اللّه به آمين سيدى على بن محمد حى فاضل ذو ظن و حب فى اللّه و فى كل منتسب إليه أفاض اللّه علينا من بركاتهم آمين.

و منهم الشيخ الفاضل العالم كبير السن عظيم الشأن سيدى على الصافى من ذرية الولى الصالح سيدى موسى و سيدى على هذا أدركناه كان عابدا أقبل على مولاه ضريحه فى قريته و أما جده فضريحه عند بنى إبراهيم معظم قبره يزار و أولاد سيدى على هذا أفاضل إلى الآن و هم على خير إلى قيام الساعة إن شاء اللّه نفعنا اللّه بكلهم آمين.

و منهم الولى الصالح و البدر الواضح سيدى السعيد بن الحبيب و من قرابته

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۹۴

الفاضل الصالح سيدى يحيى بن الحبيب و كذا من حلاه اللّه بجلية القبول و قد غلبت عليه صحبة الرسول منّ اللّه بفضله قريب سيدى عيسى بن الحبيب و قد أدركته صغيرا و كان عالما فاضلا كريما مهد اللّه له خلقه و نصره على ملوك زمانه بحيث لا يتعدى الغالب

منهم كلامه و قد كان صغيرا طالبا عند الشيخ سيدى الحسن و أشار بولايته و كان إذا أراد أن يذهب إلى بيته يعطى له فرسه يركبها دون سائر الطلبة قيل له فى ذلك قال عيسى مرابط و كان كذلك لأن أنفاس سيدى الحسن ما كذبت قط و سيدى عيسى هذا أعطى من الحلم ما لا يمكن أن يعبر عنه و كذا كرمه و قد سمعت من عم أبى قال إنى بت عند سيدى عيسى هذا ليلة فلما حان وقت صلاة الفجر و إذا بالشيخ يقول أرأيت بنى يعلى فقد انكسروا و أصابتهم جائحة الفتنة و كان الأمر كما ذكر و قال أن بنى أحمد أيضا قد أتاهم ذل و فتنة عظيمة و سببهم الشيخ الفلانى الذى حرمه اللّه من نعائم الدنيا إذ كان يصوم الدهر كله غير أنه من العرفاء [أعنى عليا ابن جنى إذ قال صلى اللّه عليه و سلم أكثر العرفاء للنار و أما قليلهم فالمجنة و العراقة المشيخة] و قال أيضا أن جميع الرؤساء من الشيوخ أتوا إليه و كل واحد يسره بكلام فإذا قام لى يا سيدى أبا القاسم الشريف كل واحد من هؤلاء إلى النار إلا واحدا أتاه من الشيوخ كلم الشيخ بالجهر و رفع الصوت بين يديه و الشيخ كالمغضب عليه فلما انفصل عنه قال هذا من أهل الجنة يا شريف و الشيخ هذا [هو عبد الرحمن بن أحمد بن امقدس] حاصله كلما قال كان إلا إن البعض فى حياته و البعض بعد موته و هو نفعنا اللّه به يحب الأشراف غاية المحبة يعمل بقوله تعالى قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى و قال صاحب المواهب اللدنية من المعاصى التى لا بد أن يعذب عليها بغض الأشراف و استدل بقوله تعالى قل إن كان آباؤكم و أبناؤكم و إخوانكم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۹۵

إلى قوله أحب إليكم من اللّه و رسوله و جهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى اللّه بأمره و اللّه لا يهدى القوم الفاسقين يعنى نفى الهداية عن هذا الفاسق و هو مبغض الأشراف فكان حينئذ الغضب قطعا و هذا سيدى عيسى نصره اللّه على الخلق زمانه و قد قال بعض العارفين إذا كان المرء عبد اللّه تعالى أن أظهره نصره و إن أخفاه ستره إذ عبد الظهور عبد الظهور و عبد الخفاء عبد له و اللائق أن يكون عبدا للّه تعالى أظهره أو أخفاه غير أن الإخفاء هو الكثير إذ الظهور هذا من أوصاف الإله سبحانه لا يشاركه فيه أحد غير أن الخلق عيال اللّه فلا بد من أحد يصلح شأنهم و شنآنهم و ذات البين طوبى لمن كان كذلك فيظهر اللّه بعض عبيده لذلك بأن يخلقهم لمصالح خلقه و يكسوهم من هذه الملابس لتبدو هذه الحكمة النورانية و الفائدة الروحانية ليصح نظام العالم الصمدانى و ليتم الوعد الربانى و سيدى السعيد ذا له قبران قبر عندنا و قبر فى برباشة و المدة بينهما نحو من مسافة يوم بالإجمال المثقلة فى الأيام القصار أو نصف يوم فى غير ذلك و لما تنازعوا على دفنه و كل منهما يسرقه ليلا فيقّظ اللّه كلهم فوجد كلا الفريقين الشيخ فى قبره فحصل المقصود للكل و الشيخ سيدى السعيد تاريخه من أول الحادى عشر و أولاده و قرابته على الفضل و الخير نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم سيدى ناصر الخلقى كان فقيها مفتيا حافظا للأنقال و هو من قرننا هذا و من الحادى عشر معاصر لجيد والد والدى و أولاده على الفضل و الحلم و العلم و الحمد للّه نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم سيدى أحمد بن سعيد ولى معظم عند بنى عفيف ضريحه مشهور يزار و أولاده أفاضل على الخير و الطاعة و من أولاده محب النبى صلى اللّه عليه و سلم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۹۶

و أصحابه به الشغف القوى من أجله حتى ظهر ذلك للعامة و الخاصة بحيث لا يشك أحد فى ولايته و هو من قرننا هذا من الحادى عشر و هو سيدى على بن حصانة نعم الزوار و فقراء زماننا انتفعوا به أى انتفاع و سمعت من بعضهم انه قال الشيخ على كان يجتمع مع رجال الغيب و يحضر ديوانهم و اللّه اعلم و كان كريما إذا لم تأته الضيوف يبعث إليهم إذ مهمى ابطؤا عليه ضاق و حزن و ان أتوا إليه سر و فرح و قد سمعت حكاية عنه أن صحت و هى مشهورة لدى العامة و نصها أن الشيخ على المهاجرى كان زمارا فى الأعراس بأن بلغ الغاية فى صنعته بحيث يشترطه أهل الأعراس دائما فقد فاق أهل صنعته و هذه صنعة محرمة لأن مثل زمارته تلهى كل اللهو على ما حكوا عنه و لو على قول ابن كنانة الذى يقول بجوازها أن لم تله كل اللهو سيما مع انضمام مفاسد إليها كحضور النساء و الشبان و الرقص و ذكر الخدود و القدود فان كان كذلك فحرام فلا يقول أحد بحليته أبدا أتى إلى هذا الشيخ فى حاجة عرس أو

غيرها فقضى الحاجة للشيخ على حسن المراد و إذا هو عطفه اللّه عليه و قال أن مررت بمحل كذا من طريقك تمرغ بالموضع الفلانى فلما وصل إليه تمرغ فيه و كان قبله اجتمع الأولياء ديوانا هنالك فأثر فيه الحب للّه بأن صبغ حينئذ قال و بعد ذلك لا أحضر إلا عند رفع العروس لزوجها و أما بعد فاذهب إلى المسجد فاشتغل بالصلاة و العبادة إلى أن يطلع الفجر أو ما شاء اللّه و الناس يظنون انه هو الذى يرفض و يشطح و يغنى و ليس كذلك و إنما خلق اللّه صورة شيطانية مثل صورته (مع أنه لا آثم عليه فضل منه) و دليله خلق اللّه الملائكة على صورة الإنسان تفعل الطاعة و يكون الثواب للإنسان فقد قال صلى اللّه عليه و سلم أن الإنسان إذا اغتسل من حلال يخلق اللّه من كل قطرة منه ملكا يعبد اللّه تعالى إلى قيام الساعة و ثواب ذلك للمغتسل أو كما قال صلى اللّه عليه و سلم أى تفعل ما يفعل و هذا أن صح عنه فغير بعيد غير أنه واقع و اللّه أعلم و يدل عليه أنى صغير فى بنى عيدل فذهب كلب إلى قبره

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۹۷

فاستخرجه منه فلم يتغير منه شىء و المدة التى بين إخراجه و أقباره سبعون أو ثمانون سنة فالغالب من ذلك أنه من الذين يحبهم اللّه و من أحبه فلا سبيل للأرض عليه و أحوال الشيخ كثيرة نفعنا اللّه به آمين و ولداه على الطاعة و الخير و الحمد للّه و قد أدركتهما أحدهما سيدى إبراهيم و هو كبير السن و الناس يعتقدونه و يعظمونه و الأخر قد مات و كانت طريقه كأبيه سيدى محمد السعيد نفعنا اللّه بهم.

و منهم الولى الصالح ذو الكشف الواضح سيدى محمد و مثله فى ذلك مع زيادة فى العبادة سيدى محمد بن على و مثلهما فى ذلك أو أعظم سيدى يخلف إذ كلهم فى القرن الحادى عشر متعاصرون نفعنا اللّه بهم غير أن طريقهم مختلفة أما الشيخ سيدى محمد بن على يتبع لسان العلم و كثرت عليه المجاهدة حتى أثرت فيه تأثيرا قويا إذ غلب عليه حال الخوف و أما سيدى محمد أمشالى فقد غلب عليه الجمال و أما سيدى يخلف فقد كثرت عليه الخلوة و الاعتزال بحيث إذا بقى فى موضع مرئى للناس جازوا عليه و لا يرونه أصلا و هو صاحب كشف عظيم لا يكاد يخفى عليه أمركما أخبرنى من رآه و صحبه و هو أمى لا يقرأ و هو من المغرب و مثله ولده سيدى الطاهر فى الخلوة و الاعتزال و رؤية رجال الغيب و قوة الكشف و أما امشالى فانه من بنى يعدل أى بنى جعفر و أما سيدى محمد بن على فمن بنى يعلى و أولاد الجميع على الخير و الطاعة و الحمد للّه.

تتمة أما سيدى محمد صالح فجده أبو محمد صالح الدكالى المعلوم و أما سيدى أحمد ابن سعيد و أولاده فمن أولاد دراج لأن طائفة من بنى عفيف منهم و أما سيدى السعيد بن الحبيب فمن و انوغة و أما سيدى على الصافى فلا أدرى ذلك و اللّه أعلم.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۹۸

و منهم سيدى يدير الحاج فولى من أولياء اللّه تعالى شريف و أولاده فحول و ذوو فضل و علم و حلم و عبادة منهم سيدى على بن الطيب و سيدى محمد بن الطيب و غيرهما و سيدى محمد السعيد بن أبى القاسم و سيدى الموفق و أولاده و غيرهم فهم أهل خير و عبادة وجد فيها و هم من بنى يعدل نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم سيدى محمد الشريف و أولاده سيدى عبد اللّه و غيره فهو رجل صالح و هم قرباء لسيدى الصادق و إنهم من بجاية و كذلك سيدى الصادق من بجاية أيضا.

و منهم أولاد صالح فهم على الخير و الفضل و القراءة و هم من جبل عياض نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم الولى الصالح و البدر الواضح سيدى يحيى بن موسى فقد ظهر أمره ظهورا فاشيا يزار دائما و سيفه ماض لمن يتعدى على أولاده و ذلك مجرب صحيح لا يكاد يخفى على أوباش العامة فضلا عن الخاصة و قد علمت من أهل بلدنا أن دعاء سيدى يحيى بن موسى هو سبب الشر الذى أصابهم حتى افتتنوا و مات من جميعهم نحو الثلاثمائة من غير حق و إنما هو أمر الشيخ جار عليهم و هو من تلامذة الشيخ سيدى يحيى العيدلى و سببه انه ذهب للشيخ ليسرقه فدخل موضعا مختفيا و أظنه موضع الدواب ظنا منه أن دار سيدى يحيى مملوءة بالأمانات و لعله يتصل بشىء منها و هو ممن سبقت له السعادة و العناية فلا تضره حينئذ الجناية فيعد العشاء اجتمع

الأولياء عند الشيخ على واحد من الأولياء مات لينظروا من يرجع فى محله و مقامه و لما استقر بهم المجلس و قربهم الأنس سألوا الشيخ سيدى يحيى عمن يصلح فقال ايتونى بذلك الذى كان مختفيا فاطلعوه و عقدوا له ذلك فوصل من حينه لأن الولى إذا أراد؟؟ و قالوا أيضا عزم الولى اقطع من السيف و قال أبو الحسن الشاذلى نعم الرجل

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۹۹

أبو العباس المرسى يأتيه الرجل البدوى يبول على ساقيه فلا يمر عليه يومه حتى يبلغه للّه فكذلك عمل الشيخ سيدى يحيى لهذا الشيخ قيل انه لما رجع صبيحة تلك الليلة كان كل من لقيه من الرعاة أو غيرهم قبل يده و طلب منه دعوة الخير بعد أن كانوا اليوم الذى قبل ذلك يتحاذرون منه و يتناذرون من أجله بالكك سى يحيى بن موسى و اللّه سبحانه يفعل ما يشاء نفعنا اللّه به آمين و هو من القرن التاسع و أولاده على القراءة و إطعام الضيف و الطاعة و الفضل سيما العالم الفاضل الولى الكامل سيدى يحيى بن حمود و قيد قيل انه يجتمع مع رجال الغيب و انه يشترى لهم قدرا معلوما من الثياب و هو تلميذ سيدى على بن طالب و هو طامة كبرى و كذا أولاد سيدى يحيى بن حمود سيدى أبو القاسم و سيدى أحمد كلاهما على العلم و الفضل و الكرم و النصيحة و الأخلاق السنية نفعنا اللّه بهم.

و منهم أولاد العقارى فيهم العمل و العلم و الصلاح غير أنهم قد انقرضوا فهم من أولاد سيدى عمر العجيسى.

و منهم أولاد سيدى على امداح ظاهر الصلاح أيضا و ولد ولده فيه الفضل و القراءة و النجاح نفعنا اللّه بجميعهم آمين.

و منه الشيخ الولى الصالح العلامة الواضح سيدى محمد الصغير صاحب جد و اجتهاد فى العبادة أولاده و قرابته على الخير و الطاعة و الصلاح و كان رحمه اللّه تعالى يحب الأشراف حبا قويا بخلاف غيره و هو من الحادى عشر.

و منهم الولى الصالح العلامة الفاضل و المحقق الكامل و النقاد الأبريز سيدى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۰۰

على بن عبد العزيز من ذرية سيدى أبى الحسن الشاذلى كما كان بخط الجم الغفير و العدد الكثير انه من ذريته و هو نجل الشيخ الولى الصالح سيدى عبد العزيز الخراز أما قبر سيدى على فهو فى بنى إبراهيم و أما ضريح أبيه سيدى عبد العزيز فهو فى الزاب أى فى الصحراء و هو معلوم فى بلد الدوس نفعنا اله بهم و كراماته ظاهرة و أسراره باهرة صاحب العناية و قد سمعت أنه أخذ علمه عن الشيخ الولى سيدى عمر الوزان القسنطينى و كان رضى اللّه عنه بنى دارا واسعة عظيمة بحيث لا يكفيها جذوع الأرض و الذى رآها يتعجب بما يكون به السقف و قد رأيت رسمها فلما كملت أصبحت الجذوع على الدار أى القناطيس من جبل الزان و بيننا و بينه يوم كامل و قد عملوا ذلك من خرق العادة و قد رأيت المورد العذب لابن الجوزى بخطه و أولاده أفاضل على الخير و الطاعة و الحمد للّه و هو من القرن العاشر أى أوله و لا أدرى هل أخذ من التاسع أم لا نفعنا اللّه ببركته و جعلنا فى زمرته آمين.

و منهم الولى الصالح جدنا سيدى أحمد الشريف نسبا إذ ثبت ذلك و هو الشريف الحسنى و الذى سمعناه من أعالى أسلافنا انه من شرفاء تفلالت و أما مقره و مقر أوائله فمن بجاية وجدنا هذا نجل الشيخ سيدى على البكاى و كانت له زاوية عظيمة و قد سمعنا انه قدم بخمسمائة طالب إن صح و قد ثبت عن بعض الثقات من بنى يعدلى أن طلبة الشيخ فى محله إذا قرءوا الحزب سمعوهم من بنى يعلى يعنى من مدشر الخميس و هو الكدية و مدشر الذراع و كان رحمه اللّه يجتمع مع النبى صلى اللّه عليه و سلم و المحل الذى يجتمع فيه إلى الآن معروف بعلامة ظاهرة و قبره يزار و قد سمعت العدل الصالح بلا شك سيدى محمد الحاج حين بتنا معه ليلة الجمعة فى روضته فلما أخذنا النوم و استولى علينا و لا أدرى جاز الليل على النصف و هو الظاهر

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۰۱

مع جماعة من الطلبة فاستيقظنا من النوم و أتينا إلى محل الافتراق ثم إن بعض الطلبة سأله عن الحكمة فى إتياننا نصف الليل و ثلث الليل الأخير أولى فقال أعلمكم غير أنكم لا تخبروا أحدا إلا بعد موتى فعاهدناه على ذلك فقال لما نمتم و إذا برجال الغيب يجتمعون إلى أن امتلأ الموضع ثم أتى النبى صلى اللّه عليه و سلم و سيدى عبد القادر الجيلانى أيقظتكم و الحمد للّه على ذلك و قد سمعناه

أن الديوان يكون ليلة الاثنين و الجمعة غير أن الاثنين بالشيخ سيدى عبد القادر و ليلة الجمعة بالنبى صلى اللّه عليه و سلم و لما بنى داره قال لبانيها أرسل نفسك من غير سلم فأبى فقال له و اللّه لو أرسلت نفسك لوقعت فى الكعبة و قد سمعنا أيضا إن من بات عنده فى روضته سبع جمعات متواليات قضيت حاجته أى حاجة كانت دينية أو دنيوية و من كراماته أن سيدى محمد الجوادى أعنى الذى كان فى صدوق المشهور ولايته أخذ عنه و كان شيخا له فلما قربت وفاته قال له إذا مت من أشاوره بعدك فقال له أنا قبل و بعد فلما مات كان الأمر كذلك فصار يكلمه من قبره إلا مرة واحدة أتى إليه ليشاوره فى أمر فنادى الشيخ على عادته فلم يستجب له أى لم يجبه فبكى من ذلك و ظن أن المانع منه فمكث غير بعيد و ناداه مرة أخرى فأجابه فقال له أين كنت قال كنت عند الشيخ سيدى يحيى كان غائبا أمدا طويلا عن الأرض فلما رجع ذهب الأولياء إليه فذهبت إليه و كان ولده سيدى يحيى فى مجانة. [أما بنو عشاش من بقية عبيد جدنا و قد خرجوا عن طاعتنا و طاعة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و قد خرجت طائفة باغية من بنى إبراهيم و هى و سر و أولاد الخلف و من أراد الحرابة و الزنى و السرقة فليتحصل بهؤلاء العروش أخلى اللّه منهم الأرض و قد أعاننى فيهم المجاهد فى سبيل

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۰۲

الله القامع للمتمردين سيدى أحمد باى إذ نصرنى و أعطى أمر المحلة فى يدى و أحرقت أولاد الخلف و قرية و سر و سكانها و بنى عشاش و فى تلك السنة جعلت عليهم و أمرت الخليفة أن يأخذ منهم مائة و سبعين إلى أن يتوبوا للّه و لرسوله و يرجعوا إلى الأحكام الشرعية أزال اللّه منهم ذلك و لنرجع إلى ما كنا بصدده و كان جدنا سيدى يحيى فى مجانة] بأهله مكث فيها عشرين سنة و كان يركب معه من ممالكه ثمانون عبدا فأرادوا غدره فقال الشيخ له قل لولدى يحيى أنت نائم و أرادوا قتلك فأنا الذى أيقظتك حتى ركبت فرسك و نجوت منهم و كان يقول أن يحيى يحيى الدار ثم بعد ذلك رجع إلى وطنه لما قضى اللّه أمرا كان مفعولا و كانت عنده بنتان كل واحدة منهما نسخت التوضيح و قد سمعت سيدى الطاهر الشريف انه قال أحد المنسوخين فى فملال إلى الآن و كانت عنده خزانة عظيمة بحيث لا توجد عند غيره و لما سلط عليهم الوباء و لم يبق إلا ولدان صغيران ضاعت الكتب و الأملاك البرانية التى فى بنى عبد الجبار و سلالته أولاد عيسى بن عبد اللّه فأن بقية منها فى الزاوية و ادعوا بعد ذلك أنها لهم نفعنا اللّه بهم و من أولاده الفاضل الكامل الفقيه الورع سيدى الحسين جدى إذ كان مدرسا دائما يحفظ الشيخ سالما ينسخ منه كل ليلة نصف كراسة فى القالب الكبير أخبرتنى بذلك زوجته والدة أبى و هو يدرس إلى أن مات و كان يفتى و لا يقبل الهدية من أحد و كان النبى صلى اللّه عليه و سلم هو الذى أمره بالفتيا على لسان بعض من يراه يقظة من المحبين له و كذا والدى فى غاية الاتباع

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۰۳

أكثر من أبيه تؤخذ السنة من كلامه و من أفعاله فالمدخل و الشيخ عبد اللّه بن أبى جمرة و ابن عطاء اللّه و الشيخ زروق أمامه و قد علمت من جعل واحدا منهم قدوة كفاه فكيف بالجميع قلت و قد أخبرنى بان قال رأيت جدى هذا قال فقلت له أعطنى سرك فقال سرى مقسوم بين أولادى و لا أدرى هل زاد له و أنت لك الحظ الوفر أم لا نفعنا اللّه بهم آمين.

و منهم الولى الصالح سيدى محمد بن على إذ كان هو المتصرف فى الأوطان بإذن من له الحكم من بجاية و هو الذى مسك جدى فى هذه البلدة و زوج بنته له و هو الذى أمر الناس بأن بنوا له و هم بنو يعلى قيل أنه هو الذى تسبب فى إزالة الميراث بان كانت البلاد فى أيدى الخوارج فلما حاربوهم و قاتلوهم أجلوهم من بلادهم فبقيت فى أيديهم فجعلها للرجال فقط فلما سمع الشيخ الفقيه الولى الصالح سيدى محمد بن مصباح أنكر ذلك إنكار كليا و قال الشيخ يبقى هذا سنة إلى قيام الساعة فقال الذى قاتل هم الرجال فالآن لهم و يكون بعد على فرائض اللّه تعالى و الحق ما قاله الشيخ قدس اللّه روحهما و نفعنا بالجميع بمنه و كرمه.

لطيفة فان قلت و كل ما ذكرته من الأولاد على خير و فضل و علم و حال و حلم مع أن فى ذلك أمورا لا- تليق و أكثرهم على المخالفة و البدعة بل ربما على ذلك قتل النفس بغير حق فما وجه صنيعك قلت الأمر كما ذكرت غير أنى قصدت أمرين أحدهما

الستر على سبيل الجملة لأنك إذا سئلت عن قوم فيما بينهم و بين اللّه فقل هم بخير خصوصا أولاد الصالحين و أيضا أردت زيارتهم بالثناء عليهم فهم أحياء فى قبورهم و من ذم ولدك و أنت تسمع تغيرت عليه و إذا تغيرت لا ينتفع منك من تغير عليه و أيضا مرادى من كان على طريق الجد المذكور و الابن الخارج عن نمط الأب

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۰۴

ليس بابن قلب الآن ولد القلب يرث الباقى و ولد الصلب يرث الفانى و إذا كان ولدك على طريقتك فانه يرثهما معا و ان كان ولد الصلب فانه يرث الفانى فقط و بالجملة فانى ذكرت أولياء اللّه فى وطننا و لعل اللّه بذكرهم يزيل الحجاب عنا و يرزقنا الوهب الربانى لى و لذريتى و لمن تعلق بى و ان يحفظنى من العوائق عن الوصول إلى اللّه و إن يجمع شملنا و يرزقنا ما زرق به أهل وده و ليس لك إلا بالتسليم لهم مع محبتهم و كذلك بالتعظيم لأولادهم لقوله تعالى و كان أبوهما صالحا قيل الجد التاسع و نسبة المفضول للكامل من باب نسبة ما للجزء للكل مجاز كما ذكر اه.

انعطاف بعد ذكر أهل وطننا فإن فيه زيادة و تنبيها على بعض أوصافهم الحسنة لتزداد النفس رغبة فيهم و رجاء أن تكون همتك كهمتهم فإن الرحمة تنزل عند ذكرهم.

فلما حان السفر و آن حاله ذكرنا بعض ما ورد ذكره و صلينا الصلاة الواردة و ختمنا بالصلاة فى المسجد ثم أتينا أهل البيت و الخدام و الطلبة و الجيران و من أتى يودعنا و دعوا لنا و دعونا لهم و عند ذلك رفعنا ما يحتاج الرفع و انفصلنا على حسن الانفصال و وقع البكاء و الصراخ من أهل البلد لما كان من أنسهم بنا إذ اعتقادهم ما دمنا معهم لا يقع بهم إلا الخير و البركة و كل ذا بعد التحيل على المنع من السفر أصلا و رأسا فلما امتنعت كل الامتناع لم يبق إلا الصبر و التسليم للّه فى حكمه و إبرامه و قدرته و أرادته و علمه لأن القلوب قد تعلقت بالمصطفى صلى اللّه عليه و سلم فسهل عليها الفراق من أجل ذلك قال تعالى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم الآية فإذا كان النبى أولى من النفس فكيف يبقى التعلق بالأزواج و الذرية و المال بل المتروك كالعدم بالقياس إلى المطلوب إلا ما ألزمتك به الشريعة من الوصية على

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۰۵

الأولاد و النفقة على من تلزمك نفقته لأن الذى ذهبت إليه هو الذى ألزمك بها فلما جهزنا الأمور، و وفينا المسطور، أخذنا فى الظعن و الذهاب، و مع ذلك كثر من الناس الارتقاب، و بعضهم لا ربه بعضهم لزوال الأرتياب، فأكثرها بالإحالة إن شاء اللّه على الاياب، فحينئذ نمشى خطوة بعد خطوة مع التوديع جملة و تفصيلا و قد قلت:

حقى على الأوطان بالرعايةو حقهم على بالهداية

ما أصعب التوديع للأحبابو عنده بالحزن و اكتئاب

و كل نفس تزعج للافتراقلفقدان المألوف باختناق

حبيبكم بويل منه قد رجع و سمه للعظم منكم قد قطع

فالعين قد تبخل بالدموعو الكبد محروق من المودوع

دموع يخشى عليه منذ فرق كالمجنون المصاب حقا بالقلق

و نفسه كأنها فى النزعو قلبه منصدع بالروع

فأشد النيران نار بافتراقلعمركم قد هبت نار باحتراق

فتحويل الوجه عن الوداعبشدة يرجع بانصداع

أيتها النفس تحملى و اصطبرىلتوديع الصحب لخير و خير الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۰۶ فموتهم أحلى بالاتفاقو سيرهم يسير بارتفاق

لا كنه الحبيب منك قد نسخما قد عسى يكون مما قد رسخ

بل حبه اشغلكم على الدوامفانه غيبكم عن الآلام

فلم ترض الأزواج غير من قصدو لم تسع لغيره مما ترید

و إن طال العهد عن المودوعفلم يضرنا هذا المتبوع

و كيف ذا منا لنا مما ذكرا من أولياء و صلحاء قد يعتبر

فناء محبوب من الإرسالفانه الكل بالابتهال

بجاهه و جاه من زبرتهمن عالم و فاضل قيدته

بنصيب و حظ منه وافرو عودة عديدة و ناصر

على الذى أحييته من سنةو انشرن لواءها بعزة

على ساق الجد تكون قائمهمع شدة الحزم تكون دائمه

بحقه مما بنا قد اعتلق من أولاد و من بنا قد انتسق

خالدة تليدة لا تنزع كلية العلوم حقا تنبع

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۰۷ من أبناء و أبناء الأبناءلغابر الدهر من أولاء

و اغفر لنا ربنا ثم الوالدينو أخوان و جيران و المسلمين

ثم الصلاة و السلام ما طلع شمس و نجم فى سماء قد سطع

و آله و صحبه ذوى التقىو الزهد و العلم و من قد ارتقى

نعم خرجنا يوم الخميس لما فيه من التيمن و البركة، فى كل سكون و حركة، كما روى عنه صلى اللّه عليه و سلم ثم بقينا كذلك على التوديع إلى أن غربت الشمس بل إلى صلاة العشاء و الناس تقدم إلينا لتذكرنا الانفصال، و الافتراق و الانتقال، فحصل مبيتنا فى بنى حافظ، فودعنا كل حبيب و عدو و رافض ، هذا و ان أولى القربى من أهلنا الأشراف، حصل منهم اللطف و الألطاف، و قد قاموا بمن نزل بهم بحق الضيافة، و بات عندهم أضعاف مضاعفة، كثر اللّه رزقهم، و من كل بلاء حفظهم، فلما أصبح الصبح و تنفس، أخذنا فى الرحيل أمننا اللّه من كل بأس، و ظعنا من تلك القرية مودعين كل فاضل و عشير و عشيرة و عترة و انفصلنا عن الأفاضل و غيرهم قاصدين بنى يعلى فبلغنا محل المدرس الفاضل، و العلامة الكامل، المحب على الدوام، المحقق الهمام، ذى الفضل و النجاح سيدى الحسن بن مصباح رحب الفناء، عالى السناء، شامخ البناء، كل خير منه قد دنا، و قد فرح بوصولنا و احضر الطعام، فأكل منه القانع و المعتر بالتمام، و وصولنا عند الضحى الأعلى، فكان محل الرفيع قد امتلأ بأفاضل الخاصة و العامة من بنى يعلى، ثم سألنا اللّه جميعا بقلوب خاشعة، و السن متضرعة، و اجباح خاضعة، بلوغ المنى، و الوصول إلى مكة و منى، و غير ذلك

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۰۸

مما به الاعتناء، فودعنا بعد ذلك من يريد الرجوع، ثم بعد أخذنا فى الطلوع، لدار طب الزمان، و قمر الأوان، ولى على الإطلاق، و زاهد بالاتفاق، من يطلب رضى الرحمان، باتباع النبى العدنانى، ناصح الأمة، و ناصر الجماعة، ظاهر البركات، سيدى بركات، فدخلت بيته، و زرت زوجته، نخبة تعلى، و هى صهرة لى، من الصالحات القانتات، الصادقات الصابرات ، فلم تملك نفسها عند المفارقة، و هى بقدرة اللّه مشتاقة، فدعت لنا من صميم القلب، و خلوص اللب، و كذا أولادها ثم ودعناها أيضا، نطلب اللّه الرضى، فخرجت و ما زلت أودع، الأحبة و المتبع، فمشينا تلك العقبة، فوصلنا قبر كامل من النقبة، ذى الهيبة و الحيا، سيدى محمد بن يحيى، بخشوع و ارتقاب، و الدعاء عنده مستجاب، فصلينا الظهر عنده، طالبين رضاه و وده، وصلت تلك الجموع، فرجع المودع و ذهب المودوع، طالبين الأمان، و ودعنا سيدى الحسين و من معه من الإخوان، فذهبنا إلى زمورة فبتنا فيها ثلاث ليال، لتكميل ما خص من حالهم و

حالى، و ليلحق أيضا ما بقى من التالى، فخرجنا يوم الأحد، معتمدين على اللّه الصمد.

و زمورة كثيرة المياه، و أرضها ذات زرع و ضرع بلا اشتباه، طعامها جيد، و سوقها عامر مفيد، و فيها برج للنوبة من الترك، حفظها اللّه تعالى من أكابر المعاصى و الشرك، و فيها قائد، و لأهلها سائد، بهم يظلم، و كيدهم فى نحورهم دائم، يسعون ببعضهم بعضا، قد أهلكوا و لم يكن من اللّه الرضى، و بسبب ذلك اضطرمت نار الفتنة، و حقت عليهم كلمة اللعنة، فليس يقبل منهم الاعتذار، لأن القاتل و المقتول فى النار، بأنفسهم عذبوان و برأيهم أصيبوا، أزال اللّه منهم هذه الأوصاف، و رزقهم تحف الألطاف، رزقها رغد، و خيرها مدد، و قال الشيخ سيدى على بن أبى زيد فيا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۰۹

فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون قليلة الأشجار، [كثيرة الإسفار ، و أما بلدنا فهى قريبة منها على مسيرة أقل من يوم وبلنا كثيرة الشجر من زيتون و عنب و تين كثيرة الفواكه إلا النخل و الليم فليس فيها و ما ذكرنا من بنى يعلى و زمورة وطن واحد كثير الأمطار و العيون و مع ذلك كثير المعاصى و البدع، و قل الحكم فيها و ارتفع، و زاد لما ذكر فنساؤهم باديات مكشوفات، هداهم اللّه لحجبهن لأنه من أعظم الأفات، و إنها كثيرة الثلج و مع ذلك يقولون انه زبل البلد و مهما كثر كثر الزيتون و زمورة علمها قليل، و جهلها جليل، كثيرة اللهو اللعب، نائية التواضع و القرب، قل فيها الاعتبار، و الزاهد فى هذه الدار، و الشارب من كأس الحب بالإكثار، و فيها من أجل الطلبة و أفاضلها من قل أن يأتى به الزمان، و يسمح به الأوان، فاضل على الإطلاق، و محب بالاشتياق، مشارك الفنون، أديب متمكن فى المعالى فحلا فى العيون، و مقبول عند الوجوه، له طلاوة و حلاوة بما لا يعنيه لا يفوه، ولى إن شاء اللّه عن كل ما يشين بعيد، سيدى محمد السعيد، و مثله بل زاد عليه حسن الخلق، الفائز بتادية الحقوق، سيدى محمد بن عبد اللّه و مثلهما سيدى المبروك الشوثرى فانه أمثل أهل زمانه كثير الحفظ إلا أنه لم يستمد من الأشياخ و هو أنسب من غيره فتح اللّه عليه و كذا سيدى الطاهر الشوثرى فقد رأيت رسومه فلا بأس بها و فيه الفقيه المسن ذو الأخلاق العلية و الأوصاف السنية سيدى أحمد الشوثرى و قد انتقل و تركته متوطنا فيها و فيها سيدى على بن الطيب فقيه حافظ للأنفال، و فقه اللّه و إيانا إلى صالح القول و الأعمال، و غيرهم مما لا نسبة له من العلم و إن قلّت.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۱۰

ثم مشينا من زمورة صبيحة الأحد و مع ذلك خرج معنا جموع من الناس فمنهم من وصل إلى أطراف العمارة و منهم من وصل إلى قرب الوادى و منهم من وصل إلى عقبة زمورة و كلهم محبة فى اللّه و رسوله صلى اللّه عليه و سلم و أمة محمد بخير فلا بد لهم من المحبة و هى على قدر الإيمان و منهم من ذهب معنا إلى أولاد يحيى فوصلنا قرب المغرب فلما سمع شيخهم و هو الفاضل الشيخ ابن عثمان فأقام بضيافتنا و أحسن و أكرم الحجاج و أطعمهم فى بيوت الشعر إلا أنها بيوت المستقر و أقرهم و أنسهم و تأدب معهم فلما تنفس الصبح، أتانا و إياهم بالربح، أخذنا الطريق، و ودعنا من بقى من الرفيق، و هو سويد اللب، و ولد القلب، سيدى محمد بن عبد اللّه و من معه من أصحابه و من معنا من المحبين من أولاد سيدى أحمد بن التواتى و صاروا إلى بيوتهم منيبين، و إلى بيت ربنا كنا متوجهين، إلى أن نزلنا عند قائد العزلة فى وادى بوسلام، و أقام بضيافتنا بالإكرام التام، و البسط العام، الشيخ ابن حمود ثم ظعنا صبيحة يوم الثلاثاء إلى أن وصلنا إلى قصر الطير، فحططنا به الرحال مع الغير، و تلاقينا مع الحجاج، و من يريد الزيارة بلا احتجاج، و وصلنا عند الظهر، و انتفى علينا و عليكم البأس و الضر، فوجدنا هنالك ما كان كالشقيق، سيدى أحمد الطيب و أولاده و سيدى أحمد بن حمود و أصحابه فكان ما رمناه بالتصديق، فاجتمع هناك فضلاء و نبلاء و أولياء و صلحاء بالتحقيق، و كل يوم و الحجاج تأتى من كل فج عميق، فلما اجتمعوا، و اشتروا و باعوا، اهتموا بالرحيل ثم إن كل فاضل و عالم و ذى خير و راغب من قصر الطير إلا أتى إلى الركب يزوره و يقتبس نوره إلا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۱۱

أن قائده و شيخه الأول ابن يلس و الشيخ أحمد بن الصخرى نجل الشيخ أبى عبد اللّه بن سعد بن السعد و لم يرد اللّه بهما خيرا فلم يتكرم أحد منهما بطعامه و لا بشعيره على الحجاج فانهم وفد اللّه و وفد رسوله صلى اللّه عليه و سلم و قال تعالى و من يبخل فإنما يبخل عن نفسه و اللّه الغنى حرموا فحرموا.

و قصر الطير بادية و هو من أحسن الأوطان و أكرمها قل ألا يكون فيه الخصب و عشبه أخضر و لو فى الصيف و الخريف و فيه مكان يقال له المرجة من حفر فيه مقدار ذراع وجد الماء عذبا سائغا شرابه و زرعه كثير و كذا ضرعه و بالجملة فخير هذا المكان منتشر مشهور و أهل الخير فيه كذلك غير أنهم من العامة و أما الخاصة فلا غرابة فى حصول الخير منهم حاصله هذا الوطن ينبغى أن يكون مدينة إذ جمع فأوعى نعم قل إن يشكر أهل نعم اللّه و الاستقامة أيضا فتجدهم لا يدوم لهم الحال، و لا يستقر لهم النوال، بل يسرع إليهم التبديل و الزوال، و السلب لأموالهم و الانتقال، و قد قال صلى اللّه عليه و سلم لم يكن شىء أسرع بصاحبه كالظلم فان خرجوا من وطنهم تشبثوا و تعلقوا، و إن رجعوا مكروا و تزندقوا، فسلطوا بأعمالهم، و أصيبوا بأحوالهم، اللهم أرحم جميعهم و أهدهم إلى الصراط المستقيم و من الأفاضل أولاد الكتف سيما عوض ولدنا العلامة سيدى محمد الكتفى و مثله سيدى يحيى و سيدى محمد الزواوى و ابن عمه سيدى محمد بن جد و سيدى محمد الصحراوى و أولاد عبد الواحد فيهم أفاضل و أما الفقراء المخمرون بحب اللّه و حب رسوله لا يحصى عددهم من أولاد سى أحمد و أولاد الكتف و أولاد الزعيم و أولاد المداس

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۱۲

و صاحب القبر المشهور فى رأس الوادى نفعنا اللّه بجميعهم ثم ظعنا إلى أولاد موسى بن يحيى و كانوا محاربين لا يمر أحد على طريقهم و هم على ذلك إلى أن سلط اللّه عليهم الشر حتى عاشرتهم مع حسن ظنهم فينا فأمرتهم بترك ذلك ليكثر عندهم الخير فامتثلوا فأفاض اللّه عليهم بكثرة الأموال و رأوا الشىء عيانا فنزل الحاج فى وادى رأس إسلى عند العين فى رأس الوادى و أنا و أصحابى مررت إلى أن وصلت إلى الولجة فى أرض الحضنة لأولاد دراج أعنى أولاد ناصر عند أولاد الشيخ الولى الصالح، و البدر الواضح، سيدى رحاب محل العلم و الحلم و الفضل و الأدب و الشرف، خلفا عن سلف، فقد زاد الفضل و الحمد للّه فى الأواخر و استقر بنا الحال فى بيت الفاضل الفقيه سيدى عبد اللّه بن رحاب و كلهم فضلاء و أدركت منهم الأخيار سيدى محمد الحاج ما رأيت مثله أصلا و سيدى عبد القادر و سيدى رحاب و سيدى محمد بن إبراهيم و إخوانهم نفعنا اللّه بهم.

و وصلنا قرب العصر إليهم و أقمنا عندهم يومين فاشترينا بعض الجمال هناك و أولاد دراج طائفة من العرب و قد رأيت فى بعض الطرر انهم من ربيعة و كذا مقدم و أولاد رحمة و أولاد مخلوف فمهما طغت أحدى الطوائف إلا أغرمت الأخرى و بلد هؤلاء الصحراء و حرثهم على الحى أعنى أودية تتحدر إليهم من الجبال إذ فيها أعين هذا غالب أمرهم و يغلب على العامة منهم الجهل و الجفاء و التعدى و هم أكثر من أن يحصوا و هم فوق و قد تحصل الفتنة بينهم فيموت الثلاثون و الأربعون فى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۱۳

يوم واحد و فيهم أهل الخير من العامة و الخاصة لا ينقطعون و قد أدركت أفاضل و صلحاء منهم أولاد العريب و ولد الشيخ سيدى محمد بن إبراهيم و الولى الصالح سيدى عبد اللّه بن صوشة و إخوانه و هو حى إلى الآن و أولاد سيدى الطيب بن صوشة و أهله و أولاده سيدى على بن خلف اللّه و أولاد سيدى أبى الفضل النحوى و الشرفاء من أنور و الشيخ احليتم شاعر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و كان يرى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و يرى الشيخ عبد القادر مرارا و انه ولى من أولياء اللّه و أولاده و إخوانه و أولاد سيدى غانم.

فمنهم سيدى ابن المقندوز و أولاده سيدى محمد و سيدى أحمد ما رأيت مثلهما أصلا سيما الكبير فقد فاق أهل زماننا و على نمطه ابنه سيدى محمد و إخوانهم و أولاد سيدى عبد القادر كلهم و الحمد للّه على خير و أولاد سيدى عمر كذلك و سيدى عمر أهل وطنه زادوا فيه هيبة و إجلالا لأولاد سيدى رحاب السابقين فقد سمعت ابن زيان انه قال رأى رجل النبى صلى اللّه عليه و سلم فسأله

عن الأشراف من فقال أولاد رحاب و ما شابهم و كذا المرابطون من جبل بو طالب أهل خير و أولاد سيدى عمر و غيرهم نفعنا اللّه بهم.

و كذا سيدى مبارك بن عمار و سيدى محمد بن بو خالفة و غيرهم نفعنا اللّه بهم و أفاض علينا و على أولادنا من بركاتهم آمين و أولاد سيدى رحاب تزوجت بنتهم ثم ظعنا من عندهم و الركب سابق إلى مدوكال فتبعناه و سيدى عبد اللّه بن رحاب ذهب معنا إلى الحج و ذهبت بعيالى بنته و بنت سيدى السعد نجل الشيخ سيدى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۱۴

المسعود بن عبد الرحمن و زوج ابنى محمد بنت سيدى عبد اللّه أيضا.

فنزلنا قرب بريكة و هى أرض طيبة و فيها نهر جار مثل النيل و هى لسيدى محمد الحاج يتقاتل عليها أولاد دراج بينهم أزال اللّه ظلمهم و أهلك من أرادها منهم من غير رضى أولاد الشيخ و صبيحة تلك الليلة ظعنا إلى أن وصلنا قرية مدوكال التى أمير الركب منها و هو الفقيه المحب الفاضل الكامل سيدى محمد المسعود نجل الشيخ سيدى الموهوب أسعده اللّه و جعل البركة فى أولاده و قرية مدوكال فيها نخل و لم يكن من بلادنا نخل إلا فيها ثم كذلك إلى الزاب و هى قرية كبيرة فيها جمعة و عين عظيمة عند رأس البلد و فيها تضع العرب أثقالها و هم قد طغوا عليها سيما أولاد دراج إلا- أن بركة سيدى محمد الحاج و السيد الحاج بودابة و أشياخهما ظاهرة تنوب عليهم و طريقة أولاد سيدى محمد الحاج ربانية لا يشك فيها أحد فلا يشوبها شوائب الملك أصلا خصوصا أسلافهم حسبما أخبروا عنهم و كذا هؤلاء الأواخر و مدة بقاء الحاج فيها يشترون الرواحل، متعنا اللّه برؤيته صلى اللّه عليه و سلم بجاه الأوائل، فلما استقربهم الحال اجتمعت فيه أفاضل، فيحق فى ذلك ذكرهم فى الفضل و بالجملة فهذه القرية طيبة و أهلها فيهم الصلاح كما رأيت بعض المرابطين كامام مسجد الشيخ و بعض أولاده و بعض الطلبة و أما أكثرهم فقد فسقوا فيها بالسرقة و التعدى و المشى بالنميمة بين أكابرهم حتى نزل بهم ما نزل و قد صار البغض العظيم بينهم و اللّه يقول و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول و قطعوا صلة ما أمر اللّه به أن يوصل من صلة الرحم أن لا اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم أصلح اللّه حالهم و أزال العداوة بينهم و رزقهم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۱۵

المودة و الرحمة بينهم بمنه و كرمه هذا و إنى و عظتهم و أمرتهم بما يكون فيه خيرهم نعم هم أفضل من غيرهم فإنهم كالماء يجوّز اللقمة إذا غصت و أما الماء إذا غص فما المجوز له لكن ببركة أسلافهم يهديهم اللّه و يعينهم على طريقة أسلافهم و محلهم محل خير و علم و حلم و فضل اللهم أجعله كذلك إلى قيام الساعة و لا تبدله بالضد إذ أكثر المواضع كذلك أحيى اللّه قلوبنا و قلوبهم و رحم ضعيفا و ضعيفهم آمين و أكرم الشيخ الركب ليلة واحدة و أما أنا و بعض أصحابى و سيدى أحمد الطيب فقد أكرمنا كثيرا و الحمد للّه.

ثم ظعنا منها إلى مدينة بسكرة ذاهبين فبتنا فى الطريق ليلة واحدة و صبيحتها ظعنا و وصلنا عند الضحى غير انه عاق الناس الماء فلا يجدون سبيلا إلى الخروج إلا بتعسف فطال بنا ذلك إلى الظهر إلا القليل أخذوا الطريق من بدء الوادى فلما قطعنا الوادى نزلنا حافين بالنهر و هذه البلدة أعنى بسكرة كثيرة المياه بين خلال البيوت فكل باب عنده ساقية من الماء تجرى من ماء حلو كالعسل و نخلها عظيم و غلتها كثيرة أيضا أى زرعها و كذا الفواكه خصوصا الزيتون فانه كثير جدا و هذه المدينة كانت قاهرة عظيمة البنيان و الجامع الأعظم يدل على ذلك فانه لا نظير له و صومعته ما أحسنها و ما أوسعها غير أن القديمة أى المدينة قد خربت و صارت دكا و سبب ذلك فتنة بينهم فادخلوا الترك فأهلكوها حتى بقى القليل منها حاصله أن الناس قد خرجوا إلى البساتين فبنوا هناك من ذلك العهد إلى الآن ثم نزل عليهم الوباء فلم يبق فيها إلا حثالة من الناس و فيها برجان للترك عامران أحدهما فى البلد و الآخر خارجها و بالجملة فهذه أوصافها الحسنة التى لا- تحصى و قد اجتمعت فيها مع الأفاضل كالفقيه الفاضل سيدى محمد بن الجودى و سيدى محمد

الشريف و القاضى و المفتى و كذا بعض شهود العدالة و الطالب الفاضل سيدى مصطفى و سيدى بركات و غيرهم من العامة و الخاصة و قد أخذ كثير منهم العهد عنا و لقيت أيضا فيها

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۱۶

قبل الفاضل الصادق فى الجد المقتفى للسنة النبوية نفعنا اللّه به آمين.

و أما الموتى ففيها العجب العجاب نفعنا اله بهم و جعلنا فى زمرتهم بمنه و كرمه و هو من العارفين و قد زرت قبر الشيخ سيدى عبد الرحمن الأخضرى و له تآليف كثيرة مفيدة و هو من العارفين باللّه تعالى و من تآليفه السلّم فى النطق أنعكف الناس عليه شرقا و غربا سيما فى مصر فمنهم من حشى و منهم من فرر و طرر و قد شرحه رحمه اللّه و ألف الجوهر المكنون فى البيان لخص فيه التلخيص و شرحه و قد أقبل الناس عليه أيضا فى مغربنا و نظم قصائد عديدة فى التصوف أعظمها القدسية و قد شرحها و الحمد للّه و له قصيدة فى علم الفلك سماها السراج و شرحه و الدرة البيضاء فى علم الفرائض و الحساب نظما فهى فى غاية الحسن و هو من القرن العاشر كما أخبر بذلك و زرت قبر النبى سيدى عبد الرحمن انه نبى رسول و كذا حكى فيه الخلاف الخفاجى شارح الشفاء بان قال على القول برسالته فانه أرسل إلى جبل أوراس و كانت معجزته نارا و قد سمعنا أن الشيخ سيدى عبد الرحمن هو الذى أظهره بالتربيع و كذا زرت سيدى محمد بن يحيى و إخوانه و ولده و محله محل العلم و الفضل و الكرم و الجود إذ هم ظاهرون عند الخاصة و العامة مشتغلون بتدريس الفقه نفعوا و انتفعوا نفعنا اللّه بهم.

و فيهم أيضا سيدى البار فانه فقيه فاضل و هم أشراف و هو ليس منهم و الحمد للّه و قد لقيت الزاهد على الإطلاق، المتجرد للعبادة باتفاق، كأنه من الموتى سيدى المبروك نفعنا به و بأمثاله.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۱۷

و الزاب و الحمد للّه عامر بالخير و الفضل و ذلك فى العامة و الخاصة و إن كثر الفساد و العصيان و الظلم و عم و انتشر غير أن بعض الأوطان ينعدم فيه الخير رأسا و بعضهم فيه الشر الكثير مع وجود الخير من بعض الأفراد و قد دخلت.

طولقة و هم أهل الجود و الفضل أطال اللّه سعدهم خصوصا أولاد بوزيان فقد عم فضلهم الخلق فان لم يصبهم و ابلهم فطل أحسن اللّه إليهم بمنه و كرمه و لكن هذا الوطن أعنى الزاب منوط ببلدة بسكرة و هى الكافية بالجميع قلت قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد ابن ناصر ما نصه بعد ذكره كلاما يخصه وزرنا مسجدا و طلعنا إلى مآذنته و هى فى غاية الإتقان و الطول و السعة تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها و إدراجها مائة و أربع و عشرون درجة و المسجد فى غاية السعة و إتقان البناء إلا أنه قل عامروه و ضعف ساكنوه فلا ترى فيهم مدرسا و لا فقيها و لا قارئا مع أن هذه المدينة من أعجب المدن و أجمعها لمنافع كثيرة مع توفر أسباب العمر ان فيها قد جمعت من التل و الصحراء ذات نخيل كثيرة و زرع كثيف و زيتون ناعم و كتان جيد و ماء جار فى نواحيها و ارحاء متعددة تطحن بالماء و مزارع حناء إلى غير ذلك من الفواكه و الخضر و البقول و كثرة اللحم و السمن فى أسواقها. و بالجملة كما قال الإمام العياشى فى رحلته ما رأيت فى البلاد التى سلكتها شرقا و غربا أحسن منها و لا أحصل و لا أجمع لأسباب المعاش إلا أنها ابتليت بتخالف الترك عليها و عساكر العرب فيستولى عليها هؤلاء تارة و هؤلاء تارة إلى أن بنى الترك حصنا حصينا على رأس العين التى يأتى الماء منها إلى بسكرة فملكوا البلد و أضروا بأهلها و اجحفوا بهم فى الخراج و لم يقدروا على الخروج عليهم لتمكنهم من الماء الذى به حياة البلد و أهله اجتمعت عليها غارات العرب من خارج و ظلم الأتراك من داخل و قد أشرفت على الخراب

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۱۸

و قاربت أن تكون فقراء يبابا لو لا ما تماثل من أسباب عمرانها الموجبة لرغبة الناس فى سكناها قال و لقد لقيت بها سنة تسع و خمسين رجلا من الصالحين ممن جمع بين العلم و العمل به الزهد و الورع و صدق التوجه إلى اللّه تعالى و اسمه سيدى أبو طيب الناصرى لم ترعينى قبله و لا بعده أمثل منه فى هديه و سمته تخشع القلوب لوعظه و تلين لكلامه و لو كانت أقسى من الحجر قال و

لما رجعت من الحجاز فی سنة الستين وجدته قد توفی بالوباء الواقع فی تلك السنة و كان وباء مفرطا مات به بسكرة علی ما قيل لنا نحو سبعين ألف نفس و قد دخلنا المدينة عقبه فوجدنا أكثر حوماتها خالية و مساجدها داثرة و لقيت بهذه المدينة سيدی محمد الصالح و هو رجل من أهل الخير منفرد فی مسجد له بازاء داره يلازم فيه الصلوات الخمس و يجتمع إليه أناس من أصحابه يذكرهم و يعلمهم قال و خرج إلينا أيضا من فقهاء البلد سيدی عبد الواحد الرمانی و هو أيضا رجل من أهل الخير غلبت عليه الديانة و الانقطاع عن الخلق و قرأ علی أول صحيح البخاری بروايۀ أبی ذر و ذهب معنا إلی زيارة سيدی أبی الفضل و صلينا العصر فی مسجد سيدی أبی الفضل و فی الغد يوم الخميس ارتحلنا و دخلنا البلد ثانيا لزيارة سيدی محمد بن علی فوجدناه علی سطح دار يشرف علی الطريق و لم ينزل إلينا و قرأ لنا الفاتحة من هناك و نحن بالطريق و دعا لنا و هو رجل من أهل الأحوال الصالحة مغلوب عليه فی أكثر أوقاته تؤثر عنه كرامات قال و لقد لقيته بداره سنة خمس و ستين و هو فی مرمة له فی داره يعمل بها بيده يسنج الثياب و أخبرنا أن فوقه من كسب يده و أخبرنا بحاله و مبدأ أمره مع شيخه و قد انتشر صيته فی هذا الوقت بتلك البلاد و له أتباع و أصحاب يجتمعون إليه فی أوقات السماع و الذكر و سمعنا من بعض الحجاج ممن زاره بعد ذلك أنه قال لهم أن النبی صلی اللّه عليه و سلم قال له أن النار لا تمس كل من رآك و زعموا أنه قال له و من رأی من رآك

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۱۹

مراتب متعددة و اللّه اعلم بحقيقة لك فان صح انه قال له فهو فی الغالب لا يكذب إلا أن كلامهم يحتاج إلی تأويل و يبعد حمله علی ظاهره و أن المراد مجرد الرؤية البصرية فان القواعد تأبی بقاءه علی عمومه فانه يراه البر و الفاجر و المصر علی الكبائر و المفارق لها بل و الجاهل الذی يتطرق إلی إيمانه الخلل لغلبة الجهل و الآراء الفاسدة و لكثرتهم جدا يبعد موت جميعهم علی التوبة النصوح الموجبة لغفران الذنوب كلها الموجبة للنجاة من النار إلا أن كلام أولياء اللّه لا ينبغی أن يرمی به جزافا فليحرص المرء جهده علی لقائهم و رؤيتهم و التبرك بهم فعسی أن يصادف نفحة من نفحات الحق فيسعد بها دنيا و أخری فإن للّه عبادا إذا نظروا إلی أحد أغنوه و مع ذلك فلا يركن إلی ظواهر ما يجری علی ألسنتهم كل الركون حتی يعتقد أن من رأی أحدهم ممن قال مثل ما تقدم قد أمن من النار فإن لكلامهم وجوها و احتمالات تدق علی إفهام أكثر الخلق ممن لم يسكت طريقهم قال و أقرب ما يحمل عليه كلام المتقدم أن تحمل الرؤية علی القلبية و المرأی علی صورته الباطنة التی توجب العلم بما هو عليه من سنیّ الأحوال و سميّ الأوصاف و رفيع المقامات و لا- شك أن من منح شهود ذلك و أشرف عليه فله نصيب وافر من التخلق بأخلاق الأولياء و الورود من موارد الأصفياء و حينئذ يكون جديرا بأن لا تمسه النار و هذا من معنی ما اشتهر عن قطب الزمان مولای عبد القادر الجيلانی أنه قال أخذت العهد من ربی أن لا يدخل أحد من أتباعی النار إلی يوم القيامة فيحمل علی من اتبع طريقه لا علی مجرد الانتساب باللسان قال و لو صح حمل الكلام المتقدم علی ظاهره و عمومه لكان أولی بذلك الأنبياء صلوات اللّه و سلامه عليهم و كثير من رآهم رؤية بصرية لم يوفق للاهتداء بهديهم فحرم بركة رؤيتهم و كل مقام ناله ولی من أولياء اللّه فهو ميراث اتباعه لنبيه صلی اللّه عليه و سلم و ما كان ميراثا لا يصح أن يكون شيئا لم يكن لموروثه بل يستحيل عند أرباب القلوب أن ينال ولی و لو ذرة من مقام أو حال لم تكن بكمالها

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۲۰

لمتبوعه و معلوم أن هذه الحال لم تكن لأحد قط فلا بد من التأويل قال و ما أطنبت فی هذا إلا أنی رأيت كثيرا من الجهلة يغتر بأمثال هذا و يحمله علی ظاهره و إلا فإنا و الحمد للّه ممن يعتقد تنزيه ساحة الأئمة الصوفية عن الكذب و الافتراء و يثق بأقوالهم و يصدق كراماتهم و يحمل ما أشكل علی أحسن محامله و لا أطعن فيه بوجه و أسلم لهم فيما لم يتبين لی وجهه و المنة فی ذلك للّه وحده اه- كلامه و نقلته علی طوله لحسنه فی بابه وزرنا فی تلك الحجة أولاد سيدی محمد الصالح و أخرج لنا ولده سيدی علی ترما و لبنا و أكل أصحابنا ما أرادوا منه و شربوا وزرنا أيضا سيدی قاسم و ذكر لنا الأخ سيدی محمد بن عبد الواحد الرمانی أن هذا السيد كان رجلا صالحا و كان أمير الركب فی زمانه و سيدی عبد الواحد والد سيدی محمد المحدث عن صلاح هذا السيد كان من أصحاب

والـدنا رحم اللّه جميعهم و كان فى حجتنا الأولى التى حججناها مع الوالد رحم اللّه جميعهم عام (۱۰۷۶) ستة و سبعين و ألف فى قيد الحياة و ولـده هـذا هو الـذى تقـدم بنا لزيارة صالحى هذه البلدة وزرنا أيضا سـيدى عبد الرحمن و سـيدى أبا الفضل و سـيدى محمد الموفق و سـيدى الصـحابى و سـيدى محمد ابن أبى على و سـيدى عليا الأوراسـى و أخبرنا سيدى محمد بن عبد الواحد أن أبا الفضل هـذا هو تلميـذ أبى الفضل النحوى و ان أبا الفضل المـذكور مدفون فى بلد بينه و بين بسـكرة يومان وراء الجبل رسالته عن البسـكرى الذى خشى على المرادى فذكر لنا أنه مدفون فى الزاب.

و أما سـيدى محمـد بن أبى على فذكر لى عمى سـيدى حسـين رحمه اللّه أنه قال كان حيا عام حج و انه لما وصل بسـكرة ألح عليهم الأخ الحاج محمد بن عبد الملك السجلماسـى أحد تلامذة الوالد رحمه اللّه و المقدم على الفقراء فى بلده فى زيارة السيد المذكور و تقـديم الصدقـة له بين أيديهم و طلب ضـمانة الطريق و عادته لهم كما كان وقع ذلك مع بعض الحجاج فصار محفوظا فى طريقه إلى أن وصل بلده و منزله و كره العم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۲۱

مخالفته و مشـى مساعـدا له مع عـدم قصـد ذلك و تقـديم صدقـة فزاروه و أطعمهم تمرا و ماء و أقاموا عنده ساعة فلما جن الليل رأى أسـتاذه سـيدى أحمـد بن إبراهيم فى عالم النوم فقال له زلقت و زللت يا صبى قلت أنا البركة التى يشـرب فيها الإنسان يواظبها و يقيم عليهـا و لاـ يكـدرها و يطلب غيرهـا [فقـال] اتحسب و تظن أنـك لم تبلغ فى تعبى و مشـقتى و اللّه لقـد كنت تنام معوجا فأتيك حتى أقومك أتريد ملاقاة الشـيخ الأعظم سـيدى عبد اللّه فقلت نعم يا سـيدى فذهب بى حتى لقيته فسـلمنا عليه و قال لى سـيدى أحمد أن حان وفاة أحـدكم يعنى فى الطريق فإن لم أحضـره فسـيدى عبـد اللّه بن الحسـين يحضـره لا محالـة قال سـيدى عمى المذكور و مات جماعة من فقراء الأستاذ فى الطريق رحم اللّه الجميع اه-.

و لما دخلت مسـجدها لم أجد فارقا و لا مدرسا سوى رجل واحد متى يقرأ لوحه و هو ملقى أمامه يقرأه على غير أدب و لا اسـتقامة و أخبرنى بعض أصـحابنا انه وجد رجلا واحدا يسرد البخارى وحده و وقف عنده و قال له رح يا حاج و وجد آخر كذلك و لعمرى أن هذا أدل دليل على الخراب و أقرب الأسباب له بدليل ما روى عن النبى صلى اللّه عليه و سلم أنه قال إذا أراد اللّه عمارة قوم بدأ بما له فيهم و إذا أراد خرابهم بدأ بما له فيهم أو كما قال صـلى اللّه عليه و سـلم و لقد بدأ اللّه هذه البلدة بخراب بيته، فهو أقوى الدلائل على خراب البلـد و موته، و لقد مرضت من ذلك الأحشاء، و اللّه تعالى يفعل فى ملكه ما يشاء، و يعذب من يشاء، و يرحم من يشاء، و لقد وددنـا عمارتهـا بـالعلم و العمـل، و رفع الحرج عنها برفع ذوى الزيع و الزلل، و تـدريس العلم و ذكر اللّه آناء الليل و أطراف النهار فى ذلك المسجد المشيد، فإن لأهل هذه المدينة تاهلا لهذا كله و لاكن اللّه يفعل ما يريد.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۲۲

و فى مثـل مـا وقع لنا من التحزن و التحسـر، و التألم و التضـجر، من قلـة العلم و أهله، فى مواطن حسـنة من محله، يصـدق قول العلامة الإمام الهمام أبى على اليوسى من أجل أصحاب الوالد، و ممن ظهرت بركاته عليه فى المصادر و الموارد.

و أود لو كانت مجالس بينهميضحين فى سبل الهداية معلما

و شجا الحشا أن لم أجد من عالميهدى الوراء بها و لا متعلما

و فى الاستبصار فى أخبار الأمصار و الزاب كورة فيها مدن كثيرة و قاعدتها بسكرة و هى مدينة كبيرة كثيرة النخل و الزيتون و أصناف الثمار و هى مدينـة مسورة عليها خنـدق و بها جامع و مساجـد و حمامات كثيرة و حواليها بساتين كثيرة و فيها غابـة كبيرة مقـدار سـتة أميـال فيهـا أجنـاس التمر منها جنس يعرف بالكسـبة و هو الصيحانى يضـرب به المثل لفضـله على غيره و جنس يعرف بالبازى أبيض أملس كـان عبيـد اللّه الشـيعى يـأمر عمـاله بـالمنع من بيعه و التحريض عليه و بعث مـا هنالك منه إليه و أجناس كثيرة يطول ذكرها لا يعـدل بهـا و حول بسـكرة ريـاض خارجـة عن الخنـدق المـذكور و بسـكرة فيها علم كثير و أهلها على مـذهب أهل المدينـة و لها من

الأبواب باب المقبرة و باب الحمام و باب ثالث يسكنه المولدون و داخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة منها فى الجامع بئر لا ينزف و داخل المدينة جنات يدخل إليها الماء من النهر و بها جبل ملح يقطع منه صخور جليلة و منها كان عبيد اللّه الشيعى و بنوه يستعملون فى أطعمتهم و تعرف ببسكرة النخيل و شرب بسكرة من نهر كبير يجرى فى جوفها ينحدر من جبل أوراس و روى أن فى الطريق إلى بسكرة جبلا يعرف بزينير

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۲۳

و قيل زنفير فى وسطه كهف فيه رجل قتيل يقدر انه مات منذ يومين لم يغيره مرّ الدهر و لا تقادم الأزمان تبص جراحه دما لا يشك أحد انه قتيل يومين و تخبر الكافة عن الكافة أنهم لا يعلمون متى قتل قدما و قد نقله أهل تلك النواحى و دفنوه بأفنيتهم ليتبركوا به ثم لم يلبثوا أن وجدوه فى الكهف على حالته و حدث بذلك ثقات أهل تلك الناحية و اللّه فعال لما يشاء و قال محمد بن يوسف فى كتابه أن هذا القتيل فى شق جبل بشرقى عين اوبان و هذه العين بين مدينة قرطاجنة و مدينة سبتة و ذكر انه يظهر كما ذبح من يومه و أنه هناك من قبل فتوح افريقية و لم يذكر من دفنه و اللّه اعلم بأمره اه- كلامه.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۲۴

ذكر خروجنا من بسكرة

ثم لما فرغ الناس من قضاء أوطارهم من بيع و شراء و أزدياد زاد ظعنا ضحى الثلاثاء خامس و عشرين من رجب و عشرين من شتنبر و نزلنا سيدى عقبة عصرا و هو عقبة بن نافع الفهرى التابعى القرشى ولد فى زمن النبى صلى اللّه عليه و سلم و لذلك عده بعضهم من الصحابة ولاه معاوية بن أبى سفيان على أفريقية و وجهه إليها فى عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها و قاتل من بها من النصارى حتى أفنى أكثرهم ثم قال أنى أرى أفريقية إذ دخلها أمام أمر أهلها بالإسلام و إذا خرج رجع كل من أجاب دين اللّه فهل لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة [القيروان] تكون لنا عزا للأبد فأجابه الناس لذلك و اتفقوا على أن يكون أهلها مرابطين و قالوا نقربها من البحر ليتم الجهاد ثم رأوا أن ذلك لا يؤمن معه من كيد الروم لها فأبعدوها عن البحر مخافة من ملك القسطنطينية و قالوا قربوها من السبخة فإن أكثر دوابكم الإبل فتكون فى مراعيها على بابها آمنة من البربر و النصارى و لما اتفق رأيهم على ذلك و كان موضع المدينة غيضة نادى عقبة جميع الوحوش و الهوام التى كانت بالغيضة و قال لهم أنا أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و نريد أن نبنى هنا مدينة و أردنا أحراق هذه الغيضة فاخرجوا منها بإذن اللّه فخرج كل من كان فيها و اختلف أصحابه فى موضع القبلة و جعلوا ينظرون مطالع النجوم ليهتدوا إلى سمتها فبات عقبة مهتما فرأى فى المنام قائلا يقول له خذ اللواء بيدك إذا أصبحت فإنك تسمع تكبيرا و لا يسمعه احد غيرك فاتبعه فحيثما انقطع التكبير فاركز اللواء فانه موضع القبلة ففعل ذلك و سأل أصحابه هل تسمعون شيئا فقالوا لا- فأتبعه حتى انقطع التكبير فركز اللواء بموضع القبلة و لما كانت سنة إحدى و خمسين عزل معاوية عقبة بن نافع عن أفريقية و ولى مسلمة بن مخلد مصر و أفريقية فنزل مسلمة مصر و استعمل على أفريقية مولى له يسمى دينارا و يكنى أبا المهاجر انتهى إلى أفريقية كره أن ينزل

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۲۵

بلدا اختطه عقبة فمضى خلفه بميلين مما يلى تونس فاختط هناك مدينة و بناها فسماها البربر بتكيرو ان و أخذ الناس بعمارتها و إخلاء القيروان فدعا عقبة أن يمكنه اللّه عز و جل منه و كان مجاب الدعوة و لم يزل أبو المهاجر خائفا من دعوة عقبة و فى مدة أبى المهاجر افتتحت جزيرة شريك و هى بمقربة من مدينة تونس حرسها اللّه و إليها ينسب باب الجزيرة من أبواب تونس و هى مشتملة على قصور كثيرة و مزارع فسيحة و خيرات جمة افتتحها حنش بن عبد اللّه الصنعانى بعثه أبو المهاجر فافتتحها و قتل أهلها و نهض عقبة إلى المشرق فلما دخل على معاوية رضى اللّه عنه و عاتبه فقال افتتحت البلاد و أتانى غلام الأنصار فأساء عشرتى فاعتذر له

معاوية رضى اللّه عنه و وعده بالرجوع إلى عمله و تراخى الأمر إلى أن توفى معاوية رضى اللّه عنه سنة ستين و قيل إحدى و ستين و ولى ابنه يزيد فولى عقبة بن نافع أفريقية و قطعها عن مسلمة بن مخلد و أقره على مصر فخرج عقبة إلى أفريقية فى سنة اثنتين و ستين فمر سريعا حنقا على أبى المهاجر فأوثقه فى الحديد و أمر بتخريب المدينة التى بناها و الرجوع إلى القيروان و عمارتها و أجمع على الغزو فى سبيل اللّه عز و جل و ترك بالقيروان زهير بن قيس البلوى و ودع أولاده و قال لهم أنى بعت نفسى من اللّه عز و جل و أوصاهم بما أحب و مضى فى عسكر عظيم حتى بلغ مدينة باغية و جمع النصارى بها فقاتلهم قتالا عظيما فانهزموا و أخذ لهم خيلا كثيرة فلم ير المسلمون فى مغازيهم أصلب و لا أصبر منها و كانت من نتاج جبل أوراس المطل عليها و مدينة باغية مدينة جليلة أولية ذات أنهار و ثمار و مزارع و مسارح و على مقربة منها جبل أوراس و هو المتصل بالسوس فلما هزمهم و قاتلهم قتالا ذريعا رحل عنهم و لم يقم عليهم كراهية أن يشتغل بهم على غيرهم فمضى إلى مدينة لميس باللام و الميم و الياء و كانت فى ذلك الزمان من أعظم مدائن الروم فخرج إليه أهلها فقاتلهم قتالا شديدا فانهزموا و اتبعهم إلى باب حصنهم و أصاب مغانم كثيرة و كره المقام عليها فرحل إلى بلاد الزاب فسأل عن

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۲۶

أعظم مدائنهم قدرا فقيل له مدينة يقال لها أذنة و بها الملك بجمع ملوك الزاب و كان حولها ثلاثمائة و ستون قرية كلها عامرة قال اليعقوبى أذنة هذه أعظم مدن الزاب مما يلى المغرب و هى كثيرة الأنهار و العيون العذبة فالتقى أهلها فقاتلوه قتالا شديدا حتى يئس المسلمون من أنفسهم ثم أعطاه اللّه عز و جل الظفر فانهزم القوم و قتل أكثرهم و ذهب عزهم من الزاب و ذلوا إلى آخر الدهر ثم سار إلى تاهرت فلما بلغ الروم خبره استغاثوا بالبربر فاغاثوهم و بادروا إلى نصرتهم فالتقوا مع المسلمين فاقتتلوا قتالا شديدا فلم يكن للبربر و الروم بقتال المسلمين طاقة فولوا منهزمين و اتبعهم المسلمون فقاتلوهم قتالا ذريعا و انقضت جموع البربر و قتلوا حيث ما وجدوا و غنم المسلمون أموالهم و ذراريهم ثم سار عقبة حتى بلغ طنجة و كان بها ملك من ملوك الروم و كان شريفا فى قومه فأهدى إلى عقبة و لاطفه فنزل على حكمه فسأله عن الأندلس فقال له دونها هذا البحر الذى لا يرام فقال له دلنى على رجال البربر و الروم فقال تركت الروم خلفك و ليس أمامك إلا البربر و همه فى عدد لا يحصى و لا يعلمه إلا اللّه و هم انجاد فقال فأين موقعهم قال له السوس الأدنى و ليس لهم دين يأكلون الميتة و يشربون الدم و هم أمثال البهائم يكفرون باللّه و لا يعرفونه فرحل عقبة حتى أتى جموعهم بمقربة من فأس فقاتلهم قتالا ذريعا و فرت بقيتهم و مرت خيل فى آثارهم و مر حتى بلغ السوس الأقصى و هى بلاد درعة و نزل إلى الصحراء و هى لمتونة و سبى منها سبيا لم يدخل المشرق أغلى منه ربما بيعت الجارية منه بألف وفر الناس أمامه لا يدانيه أحد و لا يعارضه حتى بلغ البحر الأعظم المحيط فأدخل فيه قوائم فرسه و جعل يقول و عليكم السلام فقال له أصحابه على من تسلم يا ولى اللّه فقال على قوم يونس و لو لا البحر لأريتكم إياهم ثم قال اللهم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۲۷

أنك تعلم أنى إنما أطلب السبب الذى طلبه عبدك و وليك ذو القرنين فقيل له ما الذى طلبه ذو القرنين قال أن لا يعبد فى الأرض إلا اللّه اللهم إنى مدافع عن دينك معاند من كفر بك ثم قال لأصحابه انصرفوا على بركة اللّه فتخلى الروم و البربر عن طريق عقبة خوفا من جيوشه سنة ثلاث و ستين من الهجرة.

و لما وصل طنجة أمر أصحابه فتقدموا ثقة بما دوّخ من البلاد و أنه ليس بأفريقية إلا من يخافه فتقدمت الجيوش و بقى نفر يسير من أصحابه فسار يريد تهودة و بادس لينظر إليهما و يترك بهما من الفرسان ما يحتاج إليه فلما انتهى إليها يعنى تهودة فيمن بقى من أصحابه و كانوا قليلا نظر إليهم الروم فطمعوا فيهم و أغلقوا أبواب حصونهم و جعلوا يشتمون عقبة و يرمونه بالحجارة و يدعوهم إلى اللّه عز و جل فلما توسط البلاد بعث الروم كسيلة البرنسى و كان كسيلة ممن أسلم على يد أبى المهاجر و ذلك أن أبا المهاجر نهض إلى المغرب فنزل عيونا عند تلمسان تعرف بعيون أبى المهاجر فزحف إليه كسيلة فى جمع من البرنس فظفر به أبو المهاجر و عرض

عليه الإسلام و كان أبو المهاجر يحسن إليه فلما عزل أبو المهاجر و قد عقبة عرفه أبو المهاجر بحال كسيلة فاستخف به عقبة و أتى عقبة بغنم فأمر بذبحها للعسكر فأمر كسيلة أن يسلخ مع السلاخين فقال له كسيلة أصلح اللّه الأمير هؤلاء غلمانى و فتيانى يكفوننى ذلك فقال له عقبة قم فقام مغضبا فكان كلما دحس يده فى الشاة مسح بلحيته و جعل العرب يهزؤون به و يقولون له يا بربرى ما هذا الذى تصنع فيقول انه جيد فيسكتون إلى أن مر به شيخ من العرب فقال لهم كلا أن البربرى يتوعدكم فعاتب أبو المهاجر عقبة على ما صنع من ذلك و قال له كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يتألف جبابرة العرب كالأفرع بن حابس و عيينة بن حصن و تأتى أنت إلى رجل جبار فى دار قومه و مكان عزه و هو قريب عهد بالشكر فتهينه و تذله فتهاون عقبة بكلامه فلما راسلت الروم كسيلة أمكنته الفرصة فانتهزها فقال أبو المهاجر لعقبة عاجله قبل أن

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۲۸

يجتمع إليه أمره فزحف إليه عقبة فتنحى أمامه فقال له قومه لم تتنحى عنه و الرجل فى خمسة آلاف و نحن فى خمسين ألفا فقال لهم نعم لكنهم فى الزيادة و الرجل قد افترق عليه عسكره و ليس عنده من يمده فلما صار عقبة يريد أفريقية زحف إليه البربرى و كان أكثر المسلمين بالقيروان مع زهير بن قيس فوافى كسيلة عقبة بمقربة من تهودة فنزل و ركع ركعتين و قال أطلقوا أبا المهاجر فأطلق فقال له ألحق بالمسلمين و قم بأمرهم و أنا أغتنم الشهادة فقال له أبو المهاجر و أنا أغتنمها معك و كسر كل واحد منهما جفن سيفه و كسر المسلمون أجفان سيوفهم و أمرهم أن ينزلوا و لا يركب منهم أحد و قاتل المسلمون قتالا شديدا حتى بلغ منهم الجهد و كثرت فيهم الجراح و تكاثر عليهم العدو و قتل عقبة و أبو المهاجر و من معهما من المسلمين و لم يفلت منهم أحد و أسر محمد بن أوس الأنصارى و يزيد بن خلف القيسى و نفر معهما ففاداهم صاحب ففصه و بعث بهم إلى زهير بن قيس و من معه من المسلمين بالقيروان و أراد زهير الانصراف من أفريقية إلى مصر فقيل له أهزيمة من أفريقية إلى مصر فعزم على القتال و كان تبيع ربيب كعب الأحبار فقال له لمن تراها فقال لرجل من بلىّ و أنت رجل من غسان فقال زهير اللّه أكبر أنا و اللّه رجل من بلىّ جنى جدى جناية فى قومه فلجأ إلى غسان فاجتمع إلى كسيلة جمع أهل المغرب فزحف يريد القيروان فاضطرمت أفريقية نارا و عظم البلاء فقام زهير فى الناس خطيبا قال يا معشر المسلمين أصحابكم قد دخلوا الجنة إن شاء اللّه و قد منّ عليهم بالشهادة و هذه أبواب الجنة مفتوحة فأسلكوا مسلك أصحابكم أو يفتح اللّه عليكم دون ذلك فقام حنش الصنعانى فقال لا و اللّه لا نرى قولك و لا لك علينا من طاعة و لا ولاية و لا نرى أفضل من النجاة بهذه العصبة من المؤمنين فمن أراد منكم القفول فليتبعنى ثم رحل فنزل بقصر الماء و اتبعه الناس و لم يبق مع زهير إلا أهل بيته فى عدد قليل فلما رأى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۲۹

ذلك زهير تبعهم و أقبل كسيلة بجنوده فلما قرب من القيروان خرج العرب منها هاربين لم يكن لهم بقتاله طاقة لعظم ما كان معه من البربر و الروم فأسلموا لهم القيروان لم يبق فيها إلا الذرارى و الأثقال و الضعفاء فأرسلوا إلى كسيلة يطلبون منه الأمان فأمنهم و أقبل كسيلة حتى دخل القيروان فى محرم سنة أربع و ستين و أقام زهير مرابطا ببرقة إلى أن توفى يزيد بن معاوية فى النصف من صفر من عام أربعة و ستين و بويع لأبنه معاوية الأصغر بعده ثم توفى معاوية بعد شهر و عشرة أيام من بيعته و اجتمع الناس بالشام على مروان بن الحكم و توفى فى رمضان سنة خمس و ستين و ولى بعده ابنه عبد الملك بن مروان فلما اشتد سلطانه اجتمع أكابر المسلمين و سألوه أن ينظر فى خبر أفريقية و تخليصها و من بها من المسلمين من يد كسيلة فقال لهم لا يصلح لدم عقبة إلا مثله فى الدين فاتفق رأيهم على زهير بن قيس البلوى و قالوا هذا صاحب عقبة و أعرف الناس بسيرتهم و أولادهم بمطالبة دمه فوجه إليه عبد الملك يأمره بالخروج إلى أفريقية ليستنقذ من بالقيروان من المسلمين فكتب إليه زهير يعرفه بأمر كسيلة و من معهم من جموع البربر فحشد له وجوه العرب و أهل الشام و بعث إليه بالأموال فلما ترادفت عليه الجنود أقبل فى عسكر عظيم إلى أفريقية و ذلك فى سنة تسع و ستين فلما بلغ كسيلة قدوم زهير دعا أشراف قومه فقال إنى رأيت أن أرحل عن هذه المدينة حوطة على أهلها من المسلمين فإن لهم عهدا و

خشيت أن يكون النصر مع المسلمين و لا- كنا ننزل ممس على ماء كثير يحلم عساكرنا فان هزمناهم اتبعناهم إلى طرابلس و قطعنا أثرهم و تكون لنا أفريقية إلى آخر الدهر و إن هزمونا كان الجبل منا قريبا نتحصن به فارتحل عنها نزل ممس و بلغ

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۳۰

ذلك زهيرا فلم يدخل القيروان و نزلوا على باب سلع و أقام ثلاثة أيام حتى استراح الجيش و زحف فى اليوم الرابع حتى أشرف على كسيلة آخر النهار فلما نزل الناس باتوا على مصافهم فلما أصبح صلى ثم زحف إليهم فالتحمت الحرب فانهزم كسيلة و قتل بممس و لم يجاوزها و مضى الناس فى طلب البربر فقتلوهم قتلا ذريعا و رجع زهير إلى القيروان مخافة من بأفريقية و اشتد جزعهم و لجؤا إلى الحصون و الاقلاع ثم أن زهيرا رأى بأفريقية ملكا عظيما فكره الإقامة بها فقال إنما خرجت للجهاد و أخاف أن تملكنى الدنيا فأهلكت و لست أرضى بها و لا بملكها و رغد عيشها و كان رحمه اللّه من رؤساء العابدين و كبار الزاهدين فرجع قافلا إلى المشرق فلما انتهى إلى برقة و كان الروم حين سمعوا برحيله منها إلى أفريقية خرجوا إليها بمراكب فغاروا و أخذوا نساء و قتلوا و نهبوا و وافق ذلك قدوم زهير من أفريقية فأخبر بذلك فأمر العسكر بالسير على الطريق و سار هو على الساحل طمعا أن يدرك سبى المسلمين فأشرف على الروم و هم فى خلق عظيم فلم يقدر على الرجوع و استغاث به الأسارى و الروم يدخلونهم المراكب فأمر أصحابه بالنزول فنزلوا و قصدوا الروم و التحم القتال حتى عانق بعضهم بعضا و كثرت النصارى فقتل زهير و من معه و ادخل الروم جميع السبى مراكبهم و ارتحلوا إلى القسطنطينية و لما انتهى الخبر إلى عبد الملك عظم ذلك عليه و بلغ منه لفضل زهير و دينه و كانت مصيبته كمصيبة عقبة رحمهما اللّه تعالى و غضب أشراف المسلمين و سألوا عبد الملك أن ينظر فى سد ثغر أفريقية فقال لا أعلم أعظم من حسان بن النعمان الغسانى و كان حسان بمصر فى عسكر عدده أربعون ألفا عدة لما يحدث فكتب إليه عبد الملك يأمره بالتوجه إلى أفريقية و أطلق يده فى أموال مصر يعطى منها من ورد عليه من الناس ما شاء فقدم حسان بن عسكر عظيم لم يدخل أفريقية قط مثله و ذلك فى سنة تسع

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۳۱

و سبعين و سار حتى بلغ القيروان فسأل أهل أفريقية عن أعظم ملك فقالوا له صاحب قرطاجنة و كانت مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها و هى من توسن على اثنى عشر ميلا- و بين تونس و القيروان مائة ميل فغزا حسان بن النعمان قرطاجنة و بها خلق عظيم فإنها كانت دار الملك بأفريقية فبعث الخيل إليها و كان البحر لم يخرق إلى تونس و إنما خرق بعد ذلك و عملت دار الصناعة فالتقى الفريقان و التحم الحرب بينهم و ضيق عليهم حسان فقتل مقاتلتهم و رجالهم فاجتمع رأيهم على الهروب و كانت لهم مراكب قد أعدوها فارتحلوا فيها بأهلهم و أموالهم فمنهم من ذهب إلى جزيرة صقيلة و منهم من ذهب إلى الأندلس فلما انصرف حسان علم أهل بواديها بهروب أهل الملك فتحصنوا بها فوجه إليهم حسان فاحاصرهم حصارا شديدا حتى دخل بالسيف و قاتلهم قتلا ذريعا و أرسل من حولها فأمرهم بهدمها و كسر القناة التى كان يأتيهم الماء عليها ثم إن حسانا بلغه أن النصارى تجمعوا لقتاله و أمدهم البربر فزحف إليهم فقاتلهم قتالا- شديدا فانهزموا و هرب البربر إلى إقليم برقة و قدم حسنا مدينة القيروان فلما استراح الناس قال لهم دلونى على أعظم ملك بقى بأفريقية إذا قتل خاف البربر و النصارى و هابت المسلمين فلا تقدم عليهم فقالوا ليس بأفريقية أعظم من امرأة بجبل أوراس يقال لها الكاهنة و البربر و النصارى لها مطيعون و منها خائفون فلما اخبروه بذلك توجه لقتال الكاهنة فبلغ الكاهنة أمره فارتحلت من جبل أوراس فى عدد عظيم إلى مدينة باغية فأخرجت منها الروم و أخربت حصنها و ظنت أن حسانا إنما يريد معقلا يتحصن فيه و أقبل حسان فى جيوشه حتى دنا بعضهم من بعض و ذلك فى آخر النهار فكره حسان لقاءها فى ذلك الوقت فبات الناس على سروجهم حتى أصبح اللّه بخير الصباح فزحف بعضهم إلى بعض و اقتتلوا اشد قتال و قتل من العرب خلق كثير و أسرت الكاهنة من أصحاب حسان ثلاثين رجلا منهم خالد بن يزيد العبسى و كان رجلا شريفا و اتبعت الكاهنة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۳۲

حسانا حتى خرج من عمل قابس و أسلم أفريقية و كتب إلى عبد الملك يخبره بما لقى المسلمون فوافاه كتابه يأمره بالمقام حيث يدركه الجواب فأدركه و هو بعمل برقة فأقام هنالك خمسة أعوام بموضع يعرف بقصور حسان [و له نسبت قصور حسان] ثم أعمل عبد الملك رأيه فيمن يبعث لأفريقية و استشار فى ذلك فلم يجد مثل حسان فبعث إليه جيشا عظيما و مالا و سلاحا و كانت الكاهنة أطلقت أصحابه الذين أسرتهم و أحسنت إليهم إلا خالد بن يزيد فإنها أمسكته و كان لها ولدنا فقالت له أنى أريد أن أرضعك مع ولدىّ هاذين فقال لها كيف يكون ذلك و قد ذهب منك الرضاع فقالت أنّا جماعة من البربر لنا رضاع تتوارث به إذا صنعناه ثم عمدت إلى دقيق الشعير فلثته بزيت ثم جعلته على ثديها ثم أمرت ولديها أن يأكلاـ منه مع خالد فأكلوه و قالت لم أنتم أخوة من الرضاع ثم إن حسانا وفدت إليه العرب و رجالها فدعا رجلا منهم يبعث كتابا إلى خالد و كان واثقا بأن خالدا لا يرجع عن الإسلام فلما أتى رسول حسان خالدا فوقف إليه فى زى سائل فعلم خالد أنه رسول فاعتذر له و قال له تعود فى غير هذا الوقت فلما انقضى المجلس أتاه و أخذ الكتاب فقرأه و كتب له فى ظهره أن البربر متفرقون لاـ نظام و لا رأى لهم و إنما ابتلينا بأمر أراد اللّه أن يكرم به من مضى فاطو المراحل وجد فى السير فإن الأمر للّه و لن يسلمك اللّه و لا حول و لا قوة إلا باللّه و جعل الكتاب فى خبز و مضى الرسول فلم تلبث الكاهنة بعد ذهابه إلى أن خرجت ناشرة شعرها تضرب صدرها و تقول ويلكم ذهب ملككم فيما يؤكل فافترقوا يمينا و شمالا يطلبون ذلك فستره اللّه عز و جل فلما وصل إلى حسان أخرج الكتاب من الخبزة قد أحترق فقال له حسان أرجع فقال له أنى أخاف على

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۳۳

نفسى فالمرأة كاهنة فكتب له كتابا و جعله فى نقرة نقرت فى قربوس سرجه و غطاه بالشمع فمضى الرسول حتى أتى خالدا فدفع إليه الكتاب و عرفه أن الأول أحرقته النار فرد جوابه و أعاده فى قربوس سرجه و مضى فخرجت ناشرة شعرها تضرب صدرها و تقول ذهب ملككم فى نبات الأرض و أراه بين لوحين و كانت الكاهنة قد ملكت أفريقية خمس سنين منذ أنصرف حسان عنها و لما رأت إبطاء العرب قالت للبربر أن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن و الذهب و الفضة و الشجر و نحن إنما نطلب منها المزارع و المراعى و لا نرى لكم إلا خراب أفريقية حتى ييئسوا منها و يقل طمعهم منها فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الزيتون و الشجر و يهدمون الحصون فحكى بعض المؤرخين عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رحمه اللّه أنه قال و كانت أفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا قرى متصلة و عامرة و أخربت جميع ذلك قال الشيخ محمد بن على شارح الشقراطسية سمعت من يقول انه كان بأفريقية فى القديم مائة ألف حصن من بين قصر و مدينة و أما ملكها إذا أراد الغزو بعث إلى كل حصن فيأتيه منه فارس و دينار فيجتمع له مائة ألف فارس و مائة ألف دينار و لا ينقص من بلده شىء و اللّه أعلم بصحة ذلك و من تأمل أثر المدن و القصور الخربة بأفريقية و تدانى بعضها من بعض رأى من ذلك ما يقضى منه العجب و يستدل على كثرة عمرانها فى السالف و كذلك الشعارى التى بها إذا تأمل أشجارها فى مواضع على اعتدال و ترتيب تنبئ أنها مغروسة لإنبات و يقال أن ما فيها الآن من بطم إنما كان فستقا و إنما استحال إلى الصغر و إلى طعم آخر لطول ما أتى عليه من السنين و لا شك أن من أكل البطم أخضر وجد طعمه كطعم الفستق قال فلما بلغ كتاب خالد إلى حسان رحمه اللّه خرج بالجيوش فلقى فى طريقه ثلاثمائة رجل من النصارى يستغيثون من الكاهنة فيما نزل بهم من الخراب و اخراب ضيعهم و وصل

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۳۴

إلى قابس فخرج إليه أهلها و طلبوا منه الأمان و كانوا قبل ذلك يتحصنون و يتمنعون من كل من مر بهم و ترك عامله عليهم و قاطعهم على مال معلوم و استطال طريق القيروان فمال إلى قصور قفصة فنزلها و أهدى إليه ملوكها و ملوك قفصة و قسطيلية و نفزاوة و بعثوا إليه يستغيثون من الكاهنة فسره ذلك و بلغ الكاهنة قدومه فرحلت من جبل أوراس تريده فى خلق عظيم فلما كان الليل دعت أبنيها و أخبرتهما أنها مقتولة و كأنها تنظر إلى رأسها يركض به فرسان إلى ناحية المشرق و كأنها ترى رأسها بين يدى ملك العرب

الذى بعث بهذا الرجل فقال لها خالد فإذا كان هكذا فارحلى بنا و خلى لهم عن البلاد و أشار عليها أولادها بمثل ذلك فقالت كيف أفر و أنا ملكة و الملوك لا تفر و أورث قومى عارا فقالوا لها إنما تخافين على قومك فقالت إذا أنا مت فلا أبقى اللّه منهم أحدا فقال لها أبناها و خالد فما نحن صانعون فقالت أما أنت يا خالد فستدرك ملكا عظيما عند الملك الأعظم و أما أولادى فسيدركون سلطانا عند هذا الرجل و يعقد لهم على البربر ثم أمرتهم أن يركبوا و يستأمنوا إليه فركبوا و توجهوا إلى حسان فاعلمه خالد بقولها و أنها مقتولة و بوصول ولديها فأمر بحفظهما و أمر خالدا على أعنّة الخيل ثم خرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول انظروا ما دهاكم انظروا لأنفسكم فإنها مقتولة و التحمت الحرب و اشتد القتال و استحرّ القتل فى الفريقين حتى ظن الناس أنه الفناء ثم انهزمت الكاهنة و تبعها حسان حتى قتلها و قطع رأسها عند بئر يعرف ببئر الكاهنة و ولى حسان الأكبر من ولدى الكاهنة على جماعة من البربر ثم أن البربر استأمنوا إلى حسان فلم يقبل إلا أن يعطوا من قبائلهم اثنى عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين فأجابوا و أسلموا على يديه فعقد لكل واحد من ولدى الكاهنة على ستة آلاف و أخرجهم مع العرب يجاهدون فى سبيل اللّه عز و جل بأفريقية و يقتلون الكفرة من الروم و البربر و النصارى و انصرف حسان

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۳۵

إلى القيروان و ذلك فى سنة أربع و ثمانين و قد دانت له أفريقية و كتب الخراج على من بها من النصارى و من كان على دين النصرانية من البربر و غيرهم و أقام بأفريقية لا ينازعه بشر إلى أن عزل عنها و وليها موسى بن نصير اه- ملخصا من شرح السقراطسية للشيخ محمد بن على و بعضه بالمعنى و التقديم و التأخير.

ثم دخلنا لزيارته مع جملة وافرة من أصحابنا أصفرارا و قبره بالبسيط الذى تحت جبل أوراس الذى قتل به و هو مشهور يزار و عليه مسجد عجيب و حوله قرية عجيبة و فى وسط هذا البسيط و فى مسجده مأذنة كبيرة عظيمة متقنة البناء و فى أعلاها عمود يزعم الحجاج أن من تمسك بذلك العمود و حركه و قال أقسمت عليك أيتها المأذنة بحق سيدى عقبة إلا ما تحركت فتهتز و فى حجة سنة ۹۶ ست و تسعين طلع إليها بعض أصحابنا كالقاضى سيدى أحمد بن إبراهيم المراكشى و الفقيه سيدى عبد اللّه بن إبراهيم السملالى إمام مسجد طلحة و سيدى محمد بن عبد العزيز الرسموكى و شاهدوا ذلك و صدقوه و أنكر ذلك الإمام شيخنا سيدى عبد اللّه العياشى قال و طلعت إليها و رأيت ذلك و ليس كما زعموا و إنما هو من إتقان البناء و فرط طوله فإذا صودم بقوة ظهر فيه شبه اهتزاز و ذلك يقع فى كل بناء و قال و غالب من دخل المسجد من الحجاج يكتب خطه على أساطين المسجد و حيطانه و يكتب اسمه و اتخذوا ذلك ديدنا و عادة مستمرة انتهى و قد دخلت إليه مرارا و صليت فيه سبحة الضحى و هذه المرة زرناه أصفرارا فى وقت لا تحل فيه النافلة.

انعطاف للمقصود و هو أننا ارتحلنا من سيدى عقبة [صبيحة] و توجهنا إلى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۳۶

الزرائب فبتنا قبل وصولها و كنا فى ذلك اليوم قد توافينا بإبل كثيرة للبيع فاشترى منها أخونا سيدى أحمد الطيب ما شاء اللّه و مع ذلك هى أرفق مما سبق من بسكرة و قرية مدوكال و فى هذا اليوم لقينا ولد الشيخ الجيد الذى أزمة العرب فى يده و أيضا كلمته مقبولة و منفذة عند التركى الحاج بن فانة و كان رجلا عاقلا مطمئنا فى نفسه ثقيلا يأخذ كثيرا بيد الضعيف و لذا لم يخب سعيه و لا أنكشف رأيه قدام ما معه من الستر و العافية عليه مع تداول أولى الأمر على وطن قسنطينة و عادتهم إذا جاء وال جديد غير أهل الدولة الأولى ورد ما يصلح به من أصحابه و هو و الحمد للّه مقبول محبوب عند كل متول و سبب ذلك دعوة أهل الخير وفق اللّه الكل إلى صالح القول و العمل ثم بعد ذلك ارتحلنا و وصلنا قرب الزرائب بل نحن البغالة تقدمنا إلى القرية فخرج ألها إلينا متسوقين بالبنادق و الحياك و الغنم غير أن بعضهم فهمنا منه أنه يريد الخطفة لأنه قد كثر الراكب من أهل الركب و نحن كذلك حتى وصل آخر الناس إذ جاؤا مفترقين فأتوا من غير بقاء أحد عندهم خوفا من الخطفة على أنهم منعوا أن يمر أحد وسط القرية خوفا من غوائل الركب.

نعم الطريق التى يهبط الناس معها ضيفة إلى الوادى و الركب و الحمد للّه لم يكن أعظم منه و ما طلع ركب من المغرب مثله فى الكثرة فلما ضاق الطريق بالناس ذهب الناس واحدا بعد واحد و مر حولا بعد مر حول و قد تقدمت أنا و جماعة من الفضلاء إلى أن وصلنا إلى روضة الشيخ سيدى حسن الكوفى الذى قبره قرب الوادى فنزلنا عنده و زرناه و من بركته أن الوادى أخذ أطراف الأرض القريبة له لقوته حين حمله و هو إذا وصل قرب الشيخ نكص على عقبيه و رجع على حاله

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۳۷

و هى بركة عظيمة نعم تخلف الفضلاء سيدى أحمد بن حمود و سيدى عبد الكريم و سيدى عيسى الشريف و الحاج محمد بن على و الحاج عمر بن يوسف و الحاج عبد اللّه بن عمر فأتى رجل فأخذ مكحلة من يد سيدى أحمد بن حمود خطفة و لم يأخذها منه لأنه اشتد مسكه لها فاظهر من حضر هنالك الشجاعة بحيث هرب الرجل إلى وسط القرية و تعبته الجماعة فى أثره وجهوا المكاحل فى اثر المذكور بالبنادق إلى القرية و اخذوا منهم سيفا ممن كان معه لأنهم قد تمالوا فى الواقع على ذلك و لم يقع منهم ضرب و لا غيره و مع هذا أن أصحابنا قد كان معهم دراهم كثيرة لم يصلوا إليهم مع كثرتهم و المنة للّه و لرسوله.

نعم قد نزلنا عند ذلك الشيخ إلى قرب الظهر و هذا الشيخ ولى للّه تعالى شريف زعم أهل بلده أنه طار من الكوفة [قلت قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر فى رحلته ما نصه و جلسنا هنالك و قيلنا فى قبة ولى اللّه الشريف سيدى حسن الكوفى و زعم أهل تلك النواحى أنه طار من الكوفة] و قد قيل له ذات يوم من لنا بأنك شريف فذهب ساعتئذ فرجع قريبا فإذا بيده صك فيه نسبه كما كتب بخط كوفى و كان واديهم لا يجرى فشكوا إليه ذلك فقال لهم جرونى فيه ففعلوا فكان الوادى بعد ذلك يجرى إلى الآن أخبرنا بهذا جماعة ممن يوثق بهم من أولاد سيدى ناجى الخ اه- و لنرجع إلى ما كنا بصدده و هو انه ركبنا من ذلك السيد نفعنا اللّه به بعد زيارتنا ثم بتنا فى الطريق قبل غزران على وزن عمران و به واد جار و وجدنا عرب النماشة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۳۸

فهم أقبح الناس و أكثرهم شرا فمنهم من يأتى للسرقة و منهم من يأتى للخطفة و لا- يحكم بعضهم فى بعض و مع ذلك إنهم لم يكونوا فى حكم سلطان تونس و لا فى حكم بأى قسنطينة فإنهم هاربون فى الصحراء و أخذوا منها بغلة و جملين و نحن أخذنا منهم فرسا و مكاحل أعطيناهم لصاحب البغلة و الجملين من غير رضى الشيخ خوفا منهم أن يرجع على طريقهم فيأخذونه غير أنه القصاص مطلوب شرعا.

ثم ظعنا و نزلنا غزران ثم نزلنا مرة أخرى قبل الحامة ثم بتنا فيها و كان قبل ذلك أتانا شيخ الخنقة مع طائفة من التراك هاربين من الجزائر ليذهبوا مع الركب أتى بهم ليلا فخرجت إليه خوفا من دخول الركب ليلا فلقيته فطلبنا فى الدعاء الصالح و طلبناه أيضا ثم رجع إلى وطنه و كنت دخلت الخنقة فى الحجة الأولى مع أمير الحجاج سيدى أحمد بن الطيب نجل الشيخ سيدى أحمد بن يوسف الذى كانت ولايته ظاهرة شرقا و غربا و كراماته [و خوارق عادته] نفعنا اللّه به آمين و رضى عنه لا تكاد أن تحصى و قد ألف الصباغ تأليفا حسنا نحو الثلاثين كراسا [فى كراماته و خوارق عادته نفعنا اللّه به آمين] و الصباغ هذا ليس الصباغ الذى شرح الوغليسية و اللّه اعلم و قد سمعت ممن يوثق به أنه أخذ عن الشيخ زروق فصار يترقى حتى أخذ زروق عنه و قد وشى به فى زمانه إلى سلطان فاس فبعث الشيخ إليه سيدى أحمد بن يوسف رمزا فقال الذى يقدر على حله يعترضنى و هو قوله نسجت برنسا من ماء، فغطيت به من الأرض إلى السماء، و جعلت عمامة من ثلج، و قناديل

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۳۹

من ريح، و فتائل من ضباب، ثم بعث به إلى السلطان فجمع أهل دولته مع من كان من العلماء فى فاس ليفهموا ذلك الرمز فلم يكشف لأحد معناه و لم يفتح لهم فيه لأنهم لم يعتقدوا الشيخ فحرموا بركته لعدم تسليمهم له ثم قالوا للأمير هذا كلام لا يفهمه إلا ذووه و قد جعلت رسالة فى شرحه و حاصل معناه باختصار و اللّه اعلم بأسرار أوليائه أن البرنس المجعول من الماء هو قوله صلى اللّه

علیه و سلم من أسر سریرة مع اللّه کساه اللّه رداءها و سریرته هو الأنس بالمحبوب بزوال الحجب و برد الرضی به لأن بدایات الحب بالحرارة و کذا مقدمات الرضی أیضا فلما اتصف ببرد الرضی و أنس المحبوب نسج من ذلک برنسا و کنی عن ذلک بالماء و غطاؤه من الأرض إلی السماء قوله صلی اللّه علیه و سلم إذا أحب اللّه عبدا نادی به فی السماء فان فلانا أحبه اللّه فیحبه أهل السماء و الأرض أو کما قال علیه الصلاة و السلام و فی روایة فیحبه أهل السماء و یضع له القبول فی الأرض جعلنا اللّه ممن یحبه فلا محنة دنیا و أخری بمنه و کرمه آمین.

و أما العمامة من ثلج فهی ما تقلده من أنوار الشریعة و سواطع الحقیقة إذ یظهر ذلک علی صاحبها کالعمامة و التاج و لا شک أنهما کالثلج لقوله صلی اللّه علیه و سلم فیها المحبة البیضاء و لا شک أیضا أن مقتضی الشریعة و أمثالها یبرد حرارة النفس فی طلب رضاها فالشریعة کالثلج فی البیاض و الابراد لما ذکر.

و أما القنادیل من الریح فهی معانی الصفات و استنشاق شذا معنی الذات من غیر مریة أن ذلک أعظم من القنادیل فی الإشراق.

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۱۴۰

و أما الریح فهو الوارد علی القلب الذی یوجب حبا للمحب و شوقا للشائق و عشقا لذی عشق و خوفا و رجاء و بسطا و هیبة و أنسا و غیر ذلک من المقامات إذ الوارد ریح قطعا.

و أما الفتائل من ضباب فهی معانی الأسماء و الأذکار.

و أما الضباب فهی الحالة المستمدة منها المعانی فإنها کالضباب و لذلک کانت بدایة للمبتدی إذ هو جاهل للعواقب و قد علمت أن الضباب یمنع بعض الإشراق بحیث لا یصفو لصاحبه وقت و لا یعلم حقیقة مقامة الخ فإذا علمت هذا علمت أن کلام الأولیاء متشابه فلا یعلمه إلا اللّه الذی أورده علیهم و الراسخون فی العلم و المعرفة و لذلک لا یجزم بان هذا معناه بل إنما یقال لهذا أشار و اللّه أعلم من غیر جزم لأن مشربهم قد یکون خاصا بهم فلا- یفهم ما عبر به عنه إلا- تلویحا و قد یکون عاما فیفهمه کل من کان فی ذلک المشرب لقوله تعالی قد علم کل أناس مشربهم فلم یبق إلا الاستسلام و التفویض لأمر اللّه تعالی غیر أن باب الفتح لیس مسدودا عن العارفین انتهی.

انعطاف فی تکمیل ما تعلق بأحوالنا ببسکرة فإننا قد بقینا فیها یومین فی شراء الرواحل و ما یختص من جهاز النواقل و مع ذلک نحن مشتغلون بزیارة الأفاضل الأحیاء و الأموات مثل الشیخ الولی الصالح البدر الواضح سیدی أبی الفضل تلمیذ أبی الفضل النحوی المشهور و الشیخ سیدی زرزور مع من فیها من الأولیاء و إن کان عن بعد مع دخولنا المسجد الجامع الأکبر الواسع ذی البنیان الشاخ فلم یوجد فیما علمت أحسن منه و لا أوسع و لا لا أعظم فی المساجد المعلومة غیر انه کالعدم فی

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۱۴۱

زماننا لا ندراس العلم و أهله إذ لا تجد طالبا یقرأ القرآن أو یتعلم مسألة من العلم فیه إذ مثله لا یخلو عن ذلک و هذه المدینة قدیمة مشهورة بالعلم و الولایة و الجد فی طلبهما فلما خربت و انجلی أهلها من جواره بان سکنوا و استقروا فی البساتین انعدم ذلک منه فساء أمره و إن عظم جرمه نعم حتی صلاة الفرض بالراتب انقطعت منه فلم یبق فیه إلا صلاة الجمعة و قد علمت ما فیه من التردد و أما بعد المسجد من العمارة الآن فلا- یضر فی صلاة الجمعة فما عسی أن یخدش فی ذلک فمردود لأن اتصال الخراب بمسجد الجمعة کاتصال العمارة به و إن بعد جدا کمسجد عمرو بن العاص بمصر العتیق و انعکاس الدخان علی الخراب کانعکاسه علی العمارة و لا یشترط انعکاسه حقیقة بل انعکاسه حکما کاف و ان لم توجد عمارة أصلا فضلا عن الخراب کتوسطه فی البلد بان تکون العمارة محفوفة به أی بجوانبه کأکثر مساجد المنشیة فأن أکثر مساجدها کذلک و کذا غیره خارج طرابلس کالساحل و مسراتة و ما فیه البساتین المسکونة و لا- شک فی انعکاس الدخان علیه و ذلک کأبی فلم یبق لقائل ما یقول فلا یشک عاقل فی صحة الجمعة فی مسجد بحدوس فی زمورة و ما زعمه بعض الطلبة کما کنت اسمعه من القدح فی الصلاة فیه لعدم انعکاس الدخان ظنا منه أن دخان

العمارة لا بد أن يتصل بجداره و ذلك غير صحيح إذ الحق ما سمعته أنظر تلامذة الأجهورى كالعلامة المحقق الشيخ عبد الباقى و شرح الزروق على القرطبية و غيرهما من دواوين المالكية و إياك و الإسراع إلى الإنكار فانه غرة و مكر لصاحبه فيها عجبا لمن لم يشاهد النقول و لا الأوطان التى استقر فيها ذوو التصانيف المشهورة و التآليف المعتبرة فإنهم أمروا بتلك المساجد البعيدة المحفوفة بعمارة بحيث إذا انعكس الدخان لا يصل إليها البتة و إنما المراد بانعكاسه بحيث يكون متوسطا فى العمارة و ان لم يصل دخانه لجداره هذا هو المراد بدليل رؤية العلماء لذلك

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۴۲

و مشاهدتهم لما هنالك و الإقرار عليه كاف و مأذنته عظيمة و قد تقدم بيان ما فيها من الدرج و مع ذلك أنها واسعة بحيث يصعد إليها الدواب بالأحمال المثقلة من غير تعسف و لا تكلف لكن أقول كما قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر اجتمع عليها أمران ظلم الأتراك و ظلم الأعراب فكانت بينهما كالكرة فى أيدى الصبيان مع نفوذ الوعيد فيها من أمر الوباء حتى صارت فى قلة بحيث انسلخت عن أوصاف الأمصار بل عن أوصاف المدن الصغار فهى الآن لا حمام فيها و لا سوق يعتبر منها غير أن الأتراك استولوا عليها استيلاء عظيما و ما كان من المدارس و الأحباس التى لم توجد فى الأمصار هى فى أيديهم يأكلون منها و ينتفعون بها أتم انتفاع كالأملاك الحقيقة المباحة بل هى ليست لهم و لا أنهم من أهلها بل لما تمردوا و طغوا جعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما و عدوانا و هذا و العياذ باللّه سبب اندراس العلم و أهله من كل وطن يوجد فيه ذلك.

و قد سمعت أن القاضى و المفتى فيها لا يتولى إلا بإعطاء لهم و ارتشاء لديهم و كذلك فى غيرها من عمالة الجزائر و قد قال بعض الفقهاء ممن شرح على المختصر كالشيخ إبراهيم الشبرخيتى أن المتولى للأحكام الشرعية بإعطاء منه فإحكامه مردودة و إن وافقت الحق و صلاته للجمعة باطلة إن كان إماما فإن بطلت عليه بطلت على جميع من اقتدى به فينبغى للإنسان أن ينظر من كان سالما من هذه الجرأة الكبيرة و الفرية العظيمة فيقتدى به أقول قد كان والدى رحمه اللّه و نفعنا به متبعا للسنة النبوية و مقتفيا للأحكام الشرعية حتى صارت له السنة طبيعة من طبائعه وصفة من أوصافه جعل المدخل و ابن أبى جرمة أمامه بحيث تؤخذ السنة من فعله و قوله و حركته و سكونه و اعتقاده إذا ذهب إلى بجاية و أدرك الجمعة هناك فلا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۴۳

يصليها مع أئمتها لما علم منهم ذلك و إنما يصليها ظهرا معتذرا بما ذكرناه و ينهى مريد الصلاة معهم على انه راغب فى تحصيل فضلها و قد اهتم بشأنها إذ يقول بوجوبها فى أكثر القرى من بلدنا و كان رضى اللّه عنه يذهب لتحصيل فضلا لا بعد المساجد فى وطننا نحو الثمانية أميال أو أقل لقلة الاعتناء [بمن قرب منه بها و كذلك الأحكام الشرعية فإنهم لا اعتناء] لهم بها إذ كم من شعيرة من شعائر الإسلام قد تركت و نبذت فى وطننا بان بدلت بالضد و العياذ باللّه تعالى و مع هذا فان أهل وطننا لم يعدموا علماء و لا إفادة فى كل العلوم أو جلها قراءة تحقيق و بحث غير أن النفع مقصور على الإذعان أى الامتثال نعم الآن و الحمد للّه قد رجعت الناس إلى الإذعان بها و إقامة الجمعة فى أكثر الأوطان و المواطن على الوجه الشرعى بل أكثر الأحكام العادية من أحكام الجاهلية قد تركوها و نبذوها وراء ظهورهم و الحمد للّه على ذلك فإنهم كانوا قبل ذلك يتخذون رؤساء جهالا فافتوا بغير علم فضلوا و أضلوا الغير و من عادتهم القبيحة و أفعالهم الشنيعة قطع الميراث للنساء بل زادوا فى الضلال أن الرجل ذا مات ورث أخوه ماله و زوجته كما كان فى الجاهلية قبل الإسلام إذ المشرع تلك الأحكام و هو الشيطان حى لم يمت فقويت دسائسهم بكثرة المخالفة نعم الإنسان إذا رأى أخا له أو ابن عمه ذا مال قتله و أخذ ماله و أهله إلى غير ذلك من أوصافهم الردية و العياذ باللّه.

تتمة و انعطاف إلى ما كنا بصدده من الإقامة بالمدينة المذكورة و زيارة الفضلاء فيها الأحياء و الأموات على سبيل الجملة و التفصيل من غير تخصيص عن العامة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۴۴

و الخاصة و الأفاضل و الأوباش من النساء و الرجال حقق اللّه لنا بركة الجميع بمنه و كرمه هذا و أن التعبير عما سبق لهذه المدينة من الفضل و الاعتبار، و الاشتغال بالعلم و الأذكار، و من كان فيها من المقربين الأخيار، أفاض اللّه علينا من بركاتهم، و رزقنا من نفحاتهم، التعبير و التفوه بمحاسن أهلها و ما فيها من البساتين المنتخبة، و الأشجار الطيبة، و الأحوال المزخرفة، و الأبنية المشرقة، العالية الشامخة المتلطفة، فالاليق الضرب عنه صفحا، و الطى عنه كشحا، بعد الاغتنام بما هو مقصود بالذات الذى هو الاقتباس من أنوارهم و التحلى بحللهم و الاستمداد من مددهم الذى كان سابقا و لا حقا بحسب الزمان و المكان و الأشخاص و الأنواع فجدير أن يكون لنا نصيب من ارض الكرام [أمر محقق و حال مشهور] نعم قد ظعنا بعد التمكين و الاستيفاء من أهلها ما قدر لنا حسا و معنى إلى القرية الطيبة الشريفة بتربة صاحب النبى المختار صلى اللّه عليه و سلم و سيدنا و مولانا ذى الفضل و المجد الأثيل عقبة بن نافع القرشى الخ فلما وصلنا إليها نزلنا تحتها و فرغنا من أشغالنا المتعلقة بالنزول من بناء الخيام و حط الرحال و رعى الإبل و الصلاة و شروطها إذ نزلنا فيها عند الظهر أوائل رجب سنة ۱۱۷۹ تسع و سبعين و مائة و ألف ذهبنا إلى زيارة المشار إليه ذى الأنوار، التى أقتبسها من صحبة النبى المختار، صلى اللّه عليه و سلم و كرم فكان الفتح منه لأنه باب اللّه الأعظم، و سلمه المضىء الأفخم، و قد قال تعالى و أتوا البيوت من أبوابها و هو أحسن الأبواب و الوسائل على أننا قد اعتصمنا بالعروة الوثقى و إن كان معنا بعض سىء الأدب معه لأن من أساء الأدب مع واحد

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۴۵

من أصحابه فقد أساء معه صلى اللّه عليه و سلم و لما وصلنا إلى قبرة الشريف، و تربه المنيف، أتينا إلى قبالة وجهه و جسده الظريف، كما ورد به الخبر و هو انه من أتى زائرا لضريح ولى من أوليائه أو نبى من أنبيائه أو صالح من صلحائه يقف عند رجليه أو عند وجهه مستقبلا المزور ثم يسأل اللّه تعالى بجاهه أن يمنّ عليه بغية المسئول و المأمول من خير الدنيا و الآخرة و قد رأيت فى بعض الأخبار و أظنه فى حلية أبى نعيم أنه يقول عند ذلك اللهم بجاه أنبيائك و أصفيائك و صهيب و عمار بن ياسر و أويس القرنى و عبد اللّه بن الحصين و عبد اللّه بن المبارك [و أبى يزيد البسطامى] و أبى القاسم الجنيد و لا أدرى هل زاد معروفا الكرخى أم لا و بجاه صاحب هذا الضريح فلان بن فلان أن تمنّ على بكذا و كذا أى بأن يعين حاجته دنيوية أو أخروية فانه يجاب لذلك بمنه و كرمه و جاههم و فضلهم و قد فعلنا ذلك و الحمد للّه على منته و التفضل ببركته، و الوصول إلى تربته، و التنعم بمشاهدته، فابتهلنا فى الدعاء بجاهه و بجاه من خلقت الدنيا و الآخرة من أجله صلى اللّه عليه و سلم.

[نعم عقبة هذا قد ولد فى زمانه صلى اللّه عليه و سلم و لذا قيل أنه صحابى] .

لطيفة فان الوقوف عند أبواب الأولياء و السؤال منهم و الاحتياج إليهم و النظر فى وجوههم أو مشاهدة قبورهم و التضرع للّه بين أيديهم و التحبب لديهم و التوثق

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۴۶

فيهم و الشعف بهم و الذل و المسكنة عندهم لقدر جليل عند اللّه و اللّه أجل و أعظم من أن يرد من هذا وصفه و عليه حاله خائبا حاشاه من كريم أن يفعله و ما عداه من ذى جود أن يعمله لأن المحبوب عند اللّه قريب لديه يستحى أن يرد من تشفع به و أيضا لا يوفق إلى زيارتهم و محبتهم و قضاء مآربهم إلا سعيد و أنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم لأنهم أحياء فى قبورهم و اللّه تعالى يقول و لا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل اللّه أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون الآية هذا فى شهداء القتل و شهداء المحبة أفضل لأن شهداء القتل أرواحهم فى حواصل طيور خضر يسرحون بها فى الجنة و شهداء المحبة بأجسادهم فى حواصل طيور خضر يسرحون بها فى الجنة أيضا فانظر هذا الفضل العظيم اللهم اجعلنا من أهله و حققنا بكرمه و منه انتهى.

و لما فرغنا من زيارته و زيارة مسجده و هو مسجد عظيم يستحسنه كل من رآه سيما أنوار هذا الصحابى مشرقة عليه و على زائره و على محبيه و محب محبه و مجاوره.

وزرنا من كان فى القريـة أيضا و قـد قيل أن بعض الصـحابة مـدفون فى بعض نواحيه و قد زرناه و الحمد للّه وزرنا من كان فى القرية جملـة و تفصـيلا أحياء و أمواتا خصوصا الأشـراف المسـتقرين فيها كمشائخهم و أفاضـلهم و هـذه القرية كثيرة النخل و المزارع و هى على ماء جار حلو عذب بارد فى الصـيف و مع ذلك فهى أرض حارة فى الصـحراء غير أن ماءها يأتى من الجبال مملوك لبعض أهل القرية و من كان خارجا منها و قد تشـرفت هذه القرية على سائر القرى من الزاب و على مدينة بسـكرة بهذا الصحابى العظيم افتخاره و السنى أنواره و العلى أسراره وهم فى عيش هنىء

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۴۷

و أمد سـنى غير أنه أصابت الشـرفاء جائحة الفتنة و عوائق العداوة فهم فريقان فريق فى القرية و هو المتمكن المعتصم بأولى الولاية من الـترك و المتمسـك بجاههم إذ من تمسـكت بهم تفرض على غيره و فريق آخر خـارج عنهـا مسـتقر بغيرهـا من قرى الزاب و مـدينة بسـكرة حتى يفتـح اللّه عليهم و هو خير الفاتحين لأن الـدهر قلّب إن دام لشـخص يوما فبعـده يتقلب قال تعالى: (وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ) الآيـة غير أن جدهم خير الخلق و أفضـلهم على العموم يذب عنهم و يحفظون لأجله فأن كان الصالح يراعى إليه فى أولاده فأولى النبى صلى اللّه عليه و سلم فى قرابته و كيف لا و اللّه يقول: (قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى).

لطيفـة قـال الشـيخ سـيدى أحمـد زروق نفعنـا اللّه به فى حقهم أنه يجب على الناس تعظيم الأشـراف أى تعظيم و محبتهم و اعتقادهم لوجه جدهم الذى انتموا إليه و انتسـبوا إليه و إن يعتقدوا أيضا أن اللّه يغفر لهم لا لشىء أسلفوه و لا لأمر فعلوه و إن وقعت منهم أذاية لأحـد فيجب أن يعتقدها كالأمر السـماوى من اللّه و كالغرق و الحرق و أما هم فيجب عليهم أن يعتقدوا أن معصـيتهم أكبر المعاصـى لأن الفلاح مع الملك يعمل ما ليس بصلاح و يقابل بالسماح و الوزير يجلس مع الملك على السرير و يخنق بالحرير اه-.

فأنت ترى أيها المخاطب إلى هذا الجانب الأعلى العظيم فكيف يبغضون و يؤذون و أن ذلك من أكبر المقت و قد قال القسطلانى فى المواهب اللدنيـة فى السيرة النبويـة من المعاصـى التى لا تغفر أصـلا و لا تقبل فيها التوبـة بغض آل النبى صـلى اللّه عليه و سـلم لقوله تعالى: (قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ) إلى قوله: (وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۴۸

الْفاسِقِينَ) انتهى.

فإن قلت كل الناس يدعى الشـرف و تعظيمهم مشـقة عظيمة و عسـر عظيم فى الدين و تصديقهم تعسف فيه فكيف العمل فهل يصدق الجميع أم يكـذب الجميع أم البعض دون البعض و تصـديق الأول باطل و كـذا الثانى لبطلان كون الجميع شـرفاء أو لا شـرف فيهم و كذا الثالث باطل للتحكم لاستواء الناس فى نظر العقل.

قلت الحق بين و الدواعى كلها باطلة فلزم أن يكون ممنوعا و سند المنع أن الأنوار النبوية ظاهرة بينة لا غبار عليها.

و قـد قيـل لبعض الأشـراف مـا منعـك أن تتوسم بعلامـة الشـرف فقال منعنى من ذلك أن أنوار النبوة هى أدل دليل فكيف يصـح أن يكون لها علامة من غيرها و لذا قيل:

جعلوا لأبناء الرسول علامة أن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة فى كريم وجوههم يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

فإن قلت هذا الأرباب القلوب و من يراعى الخواطر و كل الناس ليس عليه لغلبة الهوى و السـلطان الجهل و التعلق بالسوء و ذلك صدأ مرآة الضمائر و العقول فلا يظهر الشريف من غيره لكل الناس إذا فلا بد من علامة أخرى تشترك فيها الناس كلهم.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۴۹

قلت الأمر كما ذكرت غير أن الأحكام الشـرعية و القضايا الإلهية حكمت بأن الشريف مصدق فى نسبه كما يصدق فى ماله فإن حيازة الأموال معتبرة شـرعا كذلك حيازة النسب و الحيازة فى الأموال لا بد و أن تكون فى أمد طويل بحيث يقطع أن هذا لمن حازه و يقوم

الأمـد الطويل مقام البينة القاطعة به كذلك النسب فلا بد و أن يكون أمدا طويلا يقطع فيه العقل و العادة بأنه لا خلل فيه إذ لو كان من عنـد غير اللّه لوجـدوا فيه اختلافا كثيرا و حينئـذ الناس مصدقون فى أنسابهم لوجود الحيازة فيها كحيازة الأموال قاله الأجهورى إذ قال الناس على ما حازوا من أنسابهم فيصدقون فيها عملا بالحيازة كما يصدقون فى الأموال عملا بها انتهى بالمعنى.

قلت قال الشـيخ عبد الباقى فى باب مصـرف الزكاة بكسر الراء الشرف يثبت بالشهرة اه- فأنت ترى أن الشرف يثبت بالحيازة و بشهرته فتبنى عليه أحكامه من تحريم الصدقة و تعظيم جانبه لأجله و ثبوت حقه فيما لا حق فيه و غير ذلك فيما يثبت فيه اه-.

انعطاف إلى ما كنا بصـدده و هو انه لما فرغنا من زيارته و زيارة غيره رجعنا إلى الركب و أقمنا تلك الليلـة فى حفظه و عنايته إلى أن تنفس الصـبح قام الركب لتجهيز الرواحل من هذه القرية نعم هذه القرية ليس لها نظير فهى أحسن ما وجد فى البلاد مزارع و أشجار و مياها كما تقدم و حسنها فى المعنى أكثر بالسيد عقبة و إن كان ليس بصاحبى و إنما سمى صحابيا لكونه ولد فى زمان النبى صلى اللّه عليه و سلم فمن نظر إلى ذلك سماه صحابيا و إلا فالصحابى حقيقة هو من اجتمع بالنبى صلى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۵۰

اللّه عليه و سـلم اجتماعـا متعارفـا بحيث تقضـى العـادة أن ذلك الاجتماع يفيـد الصـحبة احترازا عن الاجتياز فلا تثبت به الصـحبة و لا يشترط فيها الرؤية و لا الرواية عنه و إنما هو تابعى لأن من رأى الصـحابة تابعى و نور النبوة إنما يشاهده شخص أو أشخاص و هو فتح إلهى و وهب ربانى و نور صمدانى لأن خواص النبوة و أنوار الولاية موكّلة لأهلها من المحبوبين لديه جعلنا اللّه منهم آمين.

انعطاف و الخنقة قرية مباركة طيبة ذات نخل و أشجار فى وسط واد بين جبلين و قد قيل أنها تشبه مكة فى وضعها و فى البركة غير أن التشبيه فى بعض التغـالى لكن كلام الأولياء مقبول فيؤوّل بما يوافق الشـريعة من غير تلبس و لا التباس نعم لها فضل عظيم سـيما إظهار العلم فيها فإنهم مشـتغلون بالنحو و الفقه و الحـديث خصوصا مختصـر البخارى لابن أبى جمرة و أما علم الكلام و المنطق فمنعـدم فى محلهم رأسا و قد سألتهم عن عدم الاشـتغال بعلم التوحيد فقالوا و هل يحتاج الشمس إلى دليل فى قوة قضية قائلة أن اللّه لا يحتاج فى معرفته إلى دليل و برهان و اتقان عقائد كأنه ضرورى عندهم زعما منهم أن أبى جمرة نهى عن الخوض فيه بأن قال يحرم الخوض فيه و إنما يقرأ على مذهب السلف الصالح أى الصحابة رضوان اللّه عليهم.

قلت هـذا من الحرمان البين و الخـذلان المتمكن و القساوة الجلية إذ لا يمكن هذا شـرعا فان العلم بحقائق الصـفات و الحكم بوجوبها للـذات العليـة أى الجزم بـذلك من غير دليـل عقلى و كـذا ما يسـتحيل عليه و ما يجوز فى حقه ظاهر الرد شـرعا إذ اختلف فيمن هـذا وصـفه هل هو مؤمن لكونه جزم بالعقائد و الحكم بها للمولى جل جلاله مع عصـيانه و هو الراجح عند الكثير من العلماء أو كافر يخلد فى النار مع سائر الكفرة و هو الذى رجحه الشيخ السنوسى فى شرح كبراه بان نسبه للمحققين [فى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۵۱

برهان الوحدانيـة] كالشـيخ الأشـعرى و إمام الحرمين و غيرهما إلى أن قال و هو رأيى فأنت ترى أيها المخاطب أن هذه دسـيسة دسـها اللعين لهم و لم يتفطنوا لما هم عليه من الكفر إجماعا أن لم يحصـلوا مرتبة التقليد أو على الخلاف أن حصـلوها و أى مصـيبة و بلوة و محنة أعظم من الكفر بالإجماع أو على الخلاف فإن قالوا هذا ممنوع فى حقنا و سـند المنع كوننا على العلم فإننا نحفظ القرآن و نفهم السنة و أدلتها كافية و تقليد المعصوم كاف حسبما صرح به غير واحد كابن عرفة و غيره فما هذا إلا تحامل منك.

قلت هـذا لا- يسـمن و لا- يغنى من جوع لما علمت أن بعض المعتقـدات كالوجود و السـلب غير الوحدانيـة فان فيها خلافا فى الاكتفاء بـدليل النقل فيها أو لا بـد من دليل العقل و هو الراجـح [فلا بد فيها من دليل العقل فلا يكفى فيها دليل النقل] إذ لو عرف بدليل النقل لـدار [و ما دار لا يحصل علما] و بيان الدور ليس هذا محله و كذا مصـححات الفعل كالقدرة و الإرادة و العلم و الحياة فلا بد فيها من دليـل العقـل أيضـا و حينئـذ مـا تخيلوه من الاكتفاء فى التوحيـد بأدلـة النقل واضـح الرد و ما ذكره ابن عرفـة من الاكتفاء به أما خاص بالمعتقدات كالذى يرجع للكمال كالسمع و البصر و الكلام و نفى النقائص عنه فإنه يكفى دليل النقل فيها و لذا قال بعضهم أعنى ابن

زكرى:

قالوا حديث النقص و الكمال‌من الخطابة فى الاستدلال

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۵۲

و الخطابة بفتح الخاء قضايا مقبولة تصدر من المقبول غير النبى كالصالح و العالم و العامل و من حلى بالمقبول من اللّه و عندهم أدلة النقول للمعقول من الخطابة أو كلام ابن عرفة عام فيها غير أنه ضعيف جدا فلا يصح الاستناد بل لا يصح ذلك لأن من لم يعلم اللّه كيف يعلم أن الكلام كلامه و لعله أن يكون الكلام المستدل به لغيره و ما ذكره ابن أبى جمرة أيضا من حرمة الخوض فى علم الكلام إنما هو بعد معرفة القدر الواجب فالقدر الواجب المكلف به البرهان العقلى و لو إجمالا هو ما يحصل للقلب اطمئنانا بحيث لا يقول سمعت الناس يقولون شيئا فقلته و الإجمالى هو المعجوز عن تقريره و حل شبهه و الذى يحرم الخوض فيه هو المختلط بشبه الفلاسفة ككتاب الفخر و طوالع البيضاوى و غيرهما هذا لغير راسخ فى السنة فلم يبق إلا كونهم على الخطأ فى الاعتقاد نعم كل أحد من الناس لا بد و أن يكون له ما يشعر بالنقص و العصمة للأنبياء و أما الكمال فهو للّه عز و جل.

تتمة أولاد الشيخ سيدى ناجى قد حازوا المعالى من قديم الزمان و قد وجدت كثيرا من الفضلاء منهم فى محلهم كسيدى محمد بن الطيب و سيدى أحمد بن ناصر و فقهاء و قراء و فيها الولى الصالح تلميذ الشيخ سيدى أحمد بن ناصر و هو سيدى عبد الحفيظ أعنى أولاده و أما هو فقد وجدته ميتا قبلى بنحو شهرين و قد أخذ عنه مباشرة و إنما أدركت الذى أخذ طريقه و هو سيدى بركات و إخوانه و أولاده و سيدى السعيد و مدرس المسجد و غيرهم من طلبة العلم و فضلاء الوقت فإن النحو عندهم يعتنى به الكبير و الصغير حتى أنهم اشتهروا به اشتهارا بينا و بالجملة فمحلهم مشهور بالفضل و العلم و الهمة غير أنه يتحاسدن عن تولية الرئاسة التى كانت بأمر ربانى و الآن صارت بالضد و العياذ باللّه أصلح اللّه حالهم و وفق كلمتهم و نفعنا ببركة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۵۳

أسلافهم و بركتهم آمين.

و فى تلك الحجة و هى عام ثلاثة و خمسين و مائة ألف (۱۱۵۳) ذهب معنا العلامة الفاضل و المنور الكامل تلميذ سيدى عبد الحفيظ المذكور سيدى أحمد التليلى كان كريما فاضلا بحيث لا صبر له عن إطعام الطعام فى الطريق و كان يعرف السير كثيرا على أنى زرت معهم فى بدر و مكة و المدينة المشرفة فكأنه هو الذى وضعهم فى التراب و له يد فى العلوم كلها من غير تخصيص أى العلوم الظاهرة فقد كان واحد عصره و فريد زمانه و كذا علوم الحقائق و مثله علم الأوفاق فانه لا نظير له فيما علمت و مع ذلك أنه موفق غاية التوفيق، و أقبل على اللّه بكله بالتحقيق، و قد طلبنى لعلم الأوفاق لأخذه عنه فامتنعت لكون قلبى حينئذ متعلقا باللّه بحيث لم يترك لى سواه بان غلب على سطوة الوارد و كان رضى اللّه تعالى عنه يكتب المعارف يسمعها منى حين يتقوى على سلطان الوجد و كان بديع الخط سريع اليد فيه و كان ينسخ كراسا و أظنه من القالب الكبير فى برقة و نحن مسافرون و أما يوم الإقامة فكان أكثر من ذلك و قد زبر فى برقة رحلة الشيخ سيدى أحمد بن ناصر و زاد كتاب الصباغ فى كرامات الشيخ سيدى أحمد بن يوسف و قدر الجميع ما يقرب من ستين كراسا و رجعنا إلى أن نزلنا توزر و نفطة إلى أن زرنا جميعا الولى الصالح، و القطب الواضح، سيدى عبد الحق فيها و لم تكن له طريق و إنما طريقه من قابس إلى قفصة ثم إلى محله فريانة و هى بين قفصة و تبسة و قد زرت محله و الحمد للّه و انفصلنا عنه حين أرتحلنا من نقطة و عند الافتراق أزال جبة صوف عن جسده فالبسها لى و علمت أن اللّه تفضل على بذلك ثم انه عند الانفصال قال لى أخاف عليكم من المحاربين بان قال قد ثبت عندى بأنهم خارجون إليكم و لا أدرى أذلك من طريق الكشف و هو

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۵۴

الأنسب به و الأليق بمقامه أو سمع ذلك ممن يوثق به فلما أخبرنى بهذا رسم جدولا فى الأرض و خط خطا و أمر جميع الحجاج أن يمروا بذلك الخط فمر عليه جميعهم إلا كاتب الشيخ كان متخلفا عنا لم يمر به.

و فی ذلک الیوم تلاقینا مع عدو نفسه المحارب للّه و لرسوله الشیخ ابن روب و هو شیخ من شیوخ نفزاوة خارجا عن ولایة صاحب تونس بان استقر فی وادی ریغ و اللّه اعلم فی ثلاثین من الخیل و عشرین رجلا و معهم السلاح القوی و الزاد علی الإبل و أتی إلینا عند صلاة العصر فأعلمناه بأننا حجاج و وفد من وفود اللّه و رسوله و أظن أن الشیخ أعطی له شیئا أحسبه فضة فذهب عنها و نحن جددنا فی السیر خوفا من شره إلی ثلث اللیل أو نصفه فلما ارتحلنا و الماء عندنا قلیل و وصلنا إلی الماء عند الضحی فغاروا علینا و نهبوا فرسا للشیخ فردها منهم بالقهر ثم غلبونا علی الماء بان نزلوا علیه و نحن خارجه و مع هذا قد عدمنا الماء من الرکب غیر انه موجود عند بعض الناس نحو الخمسة أزقة و کذا المکاحل نحو العشرة و قد داروا بنا کالحلقة و کثر الرصاص بأن ینزل علینا کالمطر و مع ذلک و الحمد للّه أن من وقعت فیه رصاصة نزلت کالطین بحیث لم تضر أحدا إلا الکاتب الذی لم یمر علی الخط أتت بندقة و وقعت فیه تحت السرة بان دخلت فی الجلد مقدار أنملتین فرجعت بإذن اللّه غیر انه مکث أیاما فتضرر من ذلک ثم عفی و الحمد للّه و أما هم فقد مات منهم و اللّه أعلم اثنان أحدهما أصیب برأسه و الضارب له الحاج خلیل بن قاصد علی

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۱۵۵

الزموری ثم الترکی هذا هو المحقق و قیل انه الحاج محمد بن معمر اللمدانی صهر و الی الجزائر کور عبدی و الآخر لا علم لنا بضاربه و لا- بمحل الإصابة و أما الخیل فقد مات منها نحو ثلاثة أو أقل و الحرب من الصبح إلی قرب العصر نعم صلینا علی نحو صلاة المسایفة بالقسمة فرقة کانت تجاه العدو و الأخری تصلی مع الإمام فلما فرغت ذهبت تجاه العدو حتی صلت الأخری ثم حدث لنا العزم التام و الحزم العام أن نذهب إلیهم دفعة إلی المطعن و یکون القتال علی الماء أما أخذونا أو أخذناهم فلما رأوا تصلبنا و عدم الإذلال له بل لا نزال نزاد فی الشجاعة ذهب إلیهم فقیر سیدی أحمد بن الشیخ الدراوی فوجدهم خائفین مرعوبین ثم رجع الفقیر فمکثنا غیر بعید حتی أتی إلینا شیخهم مع فارس من فرسانه یطلب العفو و الدخول إلینا و نحن نمتنع من ذلک فاشترطنا علیه أن دخل یترک فرسه عن بعد منا و یأتی إلینا علی رجلیه بلا سلاح فالتزم ذلک ثم دنا منا علی نحو ما اشترطناه فیه فلما وصل إلینا عزمت علی قتله لأن لم یأت تائبا إلا بعد القدرة علیهم و اللّه یقول: (إِلَّا الَّذِینَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ) فمسکنی الحجاج و منعونی من قتله ثم اشترطوا علیه أن لا یبیتوا علی الماء فقبل ذلک و التزم العمل به ثم طلب البارود من الشیخ إذ المزود منه بین یدیه فامتنع من إعطائه و قال و اللّه لا- أعطیه إلا فی بطونکم فلما انصرف من عندنا ارتحلوا عن الماء بنفس وصوله و بتنا علیه نحن إلی الصبح ثم ظعنا إلی الحامة المذکورة و علمنا أن نصر اللّه لنا إنما هو ببرکة الشیخ نفعنا اللّه به و بأمثاله بمنه و کرمه اه-.

انعطاف إلی التکلم فیما نحن بصدده و هو أننا نزلنا قریة الحامة فیها نخل کثیر

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۱۵۶

و میاه عظیمة طیبة و فیها حمام یجری ماؤه قوی بحیث عم غالب القریة و ماؤه حار کأنه تحته نار عظیمة بحیث من أراد الاغتسال فیه لا یقدر علی الاغتسال فیه بغتة لشدة سخونته و غیر ذلک من أوصافها.

ثم ارتحلنا منها فنزلنا توزر وقت الضحی و هی بلدة عظیمة من قواعد الجرید کثیرة النخل مع جودة تمرها إذ لا نظیر له فی سائر بلد الجرید قویة المیاه فیها إنها و ماؤها عذب و بناؤها شامخ مستحسن مرونق فهی أفضل من بسکرة لأن بناءها بالطوب و هی بناؤها بالأجر و الجیر و الجبس فی غایة الإتقان مع طول البنیان إلی العلو وسعة عرضه حاصله أنها قریة طیبة جیدة و ذلک عام فی الدور و المساجد بخلاف بسکرة فإن حسنها فی مسجدها فقط.

و قد قال سیدی أحمد بن ناصر فی رحلته ما نصه و توزر هذه هی قاعدة بلاد الجرید من عمالة تونس و وافینا بها فی الحجة التی قبل هذه عام تسعة أمیر تونس رمضان بای بمحلته جاء لقبض الخراج الموظف علی البلد کما هی سنتهم و سنة من اقتدی بهم قطعها اللّه من سنة و أخلی منها جمیع أراضی الإسلام بلا محنة و ملاها بالعدل المستقیم و الدین القویم و ما رأیت ببلاد الجرید أکثر منها نخلا و أحسن منها بناء و أوسع بعد بسکرة ساحة و أغزر ماء و بناؤهم بالأجر فلذلک کان أحسن من بناء بسکرة ما عدا المسجد و المنارة

فقد قدمنا من وصفهما ما يغنى عن الإعادة و بها من الثمار ما لا يحصى عدده إلا اللّه يرد عليها من الأعراب الآلاف المتؤلفة و يملأ كل واحد أبله بما شاء من الثمار و تمرها من أجود تمر الجريد و مياهها غزيرة و جناتها كثيرة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۵۷

ينساب فيها واد كبير منبعه من غربيها و أعرابها أهل بادية مخصبة يرخص فيها غالبا سعر السمن و اللحم و أما التمر فيها فرخيص جدا لا يكاد يكون كدرعة و أمثالها و لكن اضر بأهلها جور الولاة حتى كاد الخراب يستولى عليها لضعف أهلها بالجبايات الظلمية و قد بنى بها محمد باى عفا اللّه عنها و عنه مدرسة للطلبة جيدة بإزاء مسجد جيد متقن ببناء رائق أعمدتها كلها رخام و بنى أخرى بقابس مثلها أو أحسن عفا اللّه عنا و عنه.

و قد كثر جور الأتراك بهذه البلاد، و شاع بها الظلم و الفساد، أخبرنى بعضهم إنهم كانوا يعطون ستة نواصر على كل نخلة و أربعة على كل زيتونة و الناصرى اسم لسكة عندهم معروفة اثنان و خمسون فى كل ريال لكل عام.

و أخبرنى بعض الشرطيين فى الحجة قبل هذه أن خراج الجريد من نفطة إلى قابس خمسمائة ألف ريال لكل عام و خراج جربة وحدها ستون ألفا و مئونة مائتى صبايحى من البر و الأزر و السمن و الخل و الزيت و اللحم فاللّه تعالى يقطع جور الجائرين ، و لا يصلح عمل المفسدين.

و نفطة أيضا مدينة كبيرة قريبة من توزر و لها واد مثل واديها و يقال إن خراجها مثل ثلثى خراج توزر اه-.

تتمة فى الحجة الأولى عام ثلاثة و خمسين و مائة ألف (۱۱۵۳) نزلنا بها فى الرجعة فوجدناها كما يليق من كثرة الأرزاق و كثرة الخلائق و قد قدم معنا من

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۵۸

الحجاج من توزر من أكابرها و من ذوى رئاستها فأكرموا من كان فى الركب فى ديارهم و ما رأينا مثلها فى البناء الرائق و الوسع الذى يذهل العقول و مع ذلك اخرجوا موائد كل مائدة تكفى الجم الغفير و العدد الكثير كثر اللّه خيرهم و وجدت فيها أفاضل من العلماء و الصلحاء و ما رأيت أرق قلوبا و أسخى دمعة من أهل الجريد على أنى تخلفت مع شيخ الركب فى بعض نواحى توزر بان ادخله بعض الناس إلى بيته مع أصحابه و بقيت أنا فى الزقاق انتظر خروجه إذ لم يرنى عند الدخول و لما بقيت وحدى و إذا برجل من القرية عزم على و ذهب بى إلى بيته بعد امتناعى خوفا من المكر و لما وصلت بيته فوجدته أحسن البيوت و وجدت زوجته من أحسن النساء دينا و حالا و صيانة يظهر عليها أثر الديانة فإذا تكلم أحدهما أصابته عبرة مع انسجام الدمعة و انهمارها فعلمت أنهم من أهل الصلاح و أهل الخير تفضل اللّه على بهما و ما رأيت مثلهما أصلا ثم قامت المرأة و جعلت لى خبزة ثم كسرتها فى الحليب أعنى لبن الغنم و وضعت عليه شيئا من الزبدة ثم أخذت فى الأكل فما وجدت أحلى من ذلك الطعام و لا أذوق منه طعما كأنه من الجنة فلما كانت فى أثناء الأكل و إذا بصاحب البيت قال لى كل هذا طعام بلدك فقلت من أى بلدة فقال من ميلة و خطر لى أنه أوتى له من الغيب ثم خرجت من بيته مذعورا بان الشيخ يتركنى وحدى إذ لم يعلم بتخلفى فقال لى لا- تخف فإن الشيخ لم يخرج من ذلك البيت فلما خرجنا و وصلنا إلى الزقاق و إذا بالشيخ خارج فقال لى على بركة اللّه و هو يبكى و كذا زوجته فإنها تبكى عند انفصالى من محلهم رضى اللّه عنهم و نفعنا بهم و وجدت فى تلك الحجة العلامة الفاضل و الفهامة الكامل سيدى عبد القادر الفاسى يقرأ فى مسجد توزر فى التفسير فى قوله تعالى: (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ) الآية و كان رضى اللّه تعالى عنه حافظا للروايات ناقلا مذاهب العلماء

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۵۹

عبارته سلسة فصيح اللسان حلو الكلام ما أحسنه فى وقته قل نظيره ثم بعد ذلك مات رحمه اللّه و هى ثلمة فى الإسلام لا يسدها إلا خلف مثله و هو حديث مروى عنه صلى اللّه عليه و سلم بان قال إذا مات العالم انثلمت ثلمة فى الإسلام لا يسدها إلا خلف مثله و فى

تلك الحجة زرنا سيدى أحمد الزريبى و هو ولى صالح يخبر بالمغيبات كثيرا و قد غلب عليه الغيب عن حسه بمحبة ربه بل أظنه قد زال عنه عقل التكليف و بقى فيه عقل التعريف و ذلك أن من ذاق شيئا من كنه الذات أو الصفات قل أن يبقى معه عقله نعم هو فى الحضرة دائما متصل بها يشاهد محبوبه و حينئذ يكون محبوبه سمعه و بصره و نطقه فإن تكلم فمنه و إليه و به و إن سكت فكذلك و هذا الشيخ ممن عظم قدره عند اللّه و كان منعزلا فى خلوة فى بيته مدة أربعين سنة لم يخرج منها على ما سمعت ممن يوثق به من أصحابه و لما وصلت إليه مع طلبتى مسكنى من حاشية البرنس و زفرنى زفرة عظيمة و جذبنى جذبا قويا و قطع لى البرنس من جهة صدرى نحو الشبر حتى أصاب الروع من ذلك جميع الحاضرين و أما أنا فى نفسى أنتظر عاقبته و إنما توهمت أن يكون غضبه من غضب اللّه علينا أعوذ باللّه من غضبه و غضب أوليائه و كذلك أخونا فى اللّه سيدى ابن نوّة قاضى المدية لما قبل يده قال يا لطيف حين رآه فقال الشيخ ما اللطف و ما لطف اللطف و ما اللطف فى اللطف ثم كرر العبارات مرارا متعددة ثم بعد ذلك انبسط إلينا و انشرح فعند ذلك قال له بعض أصحابه لما ذا عملت بفلان يعنى نفسى ذلك الزفر فقال إنكم إذا أردتم غسل الثوب الجديد فلا بد من عصره و ضربه بالرجل ضربا شديدا لتزول أوساخه فيطلى بالصابون و لذلك فعلت به ما فعلت فدعا لنا و أخبرنا بأمور تكون لنا فى المستقبل و أظنه قال لى تريد السياحة قال و إنما يكون ذلك فى عاقبة أمرك نفعنا اللّه به و بأمثاله

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۶۰

آمين.

و فى هذه الحجة وجدته ميتا مقبورا عند منزل الركب و عليه روضة عظيمة و قبره يزار و قد اجتمعت أهل توزر على تعظيمه و محبته لاعتقاده فيه و أنه ولى من أولياء اللّه من غير شك وزرنا ذلك العام الأفاضل و دخلنا بيت سيدى إبراهيم الخليل مع أولاد الشيخ السيد الغوث و هو من أولاد سيدى سالم و اللّه اعلم تلميذ الشاذلى و إنهم اخبرونا بموت هذا الشيخ فعند موته رأى واحد من أولاده و هو صغير غايته أن يكون مميزا النبى صلى اللّه عليه و سلم و هو يقول عليكم به صلى اللّه عليه و سلم فانه هنا عند رأس أبى بان ينادى بتلك المقالة الجالسين مرارا نفعنا اللّه بهم و من هذه الطائفة خديم الطلبة و العلم سيدى أحمد بوطيّبة المستقر الآن فى قفصة و هو من توزر من أولاد تلميذ الشاذلى المذكور و أحواله طيبة و قد ظننا أنه من أصحاب الوقت و فى الحجة الأولى دخلت قفصة وزرت فيها الأفاضل سيما من بلغ درجة التأليف المشهور علمه و فقهه و قد سمعنا أنه تعرض لشرح الشيخ خليل و هو الشيخ المنصورى و كذا الشيخ المنصورى آخر أقل منه درجة و وجدت فيها أيضا سيدى أحمد بن نفيس و شهدنا له كشفنا بينا بان كنا عنده فى الخلوة يكلمنا بطريق التصرف و أحوال الرجال و طال فى ذلك فقلنا له الركب تركناه أخذ فى الرحيل فقال الركب لا يرحل اليوم فمكثنا عنده لقرب الظهر فلما خرجنا من عنده و جدن الركب مقيما نفعنا اللّه بهم و أما فى هذه الحجة فقد زرناه فى توزر مع من قبر فيها أى توزر و الأخر فى قلعة آل حماد و قد زرتهما معا و الحمد للّه و كذا زرنا فيها العالم الكبير ابن

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۶۱

شباط الشقراطسى و غيرهم من المؤلفين وزرنا أيضا الشيخ.

ثم ظعنا منها صبيحة فلما انفصلنا عن الوادى المملوء بالعمارة و أمطرنا فى ذلك اليوم مطرا شديدا كادت النفس تزهق من شدته و شدة برده فبتنا هناك ثم منه إلى أولاد يعقوب و فى ذلك اليوم مررنا على ولد الشيخ بو عزيز الحناشى و هو الشيخ إبراهيم قد فر من باى قسنطينة لما تبعه بعساكره يريد الانتقام منه لأمر دينى و هو استطالته على المسلمين و تمرده على الأحكام الشرعية و انه كان يتزوج أكثر من أربع و قد سمع انه بلغ اثنتى عشرة امرأة عدو نفسه فلما وصلناه خاف منهم الركب فخرج إلينا مع بعض أصحابه فأتى إلينا و نحن السابقون فسلم علينا و طلبنا فى الدعاء فدعونا له بالهداية و الرجوع إلى بلده و انه أمرنا بالنزول عنده فامتنعنا من ذلك لأنه أول النهار ثم سرنا فبتنا عند أولاد يعقوب ثم رحلنا عند الضحى فجاؤا إلينا بجيوشهم ظنا منهم أن العرب غارب عليهم فلما التقى الجمعان علموا بنا أننا حجاج فرجعوا و نزلنا قرب السبخة عند صلاة العصر ثم رحلنا صبيحة فقطعنا السبخة بعسر و شدة فكثير من الإبل قد

وقعت فى السبخة و كذا البغال تداركنا اللّه بفضله فنزلنا فى حامة قابس و هى قرية ذات نخل و ماء و فيها حمام من اللّه تعالى سخن كأنه يغلى بالنار فلا يستطيع أحد أن يدخله بغتة إلا بعد الألفة و فيه بيت يستر المغتسلين و خارجه نهر منه يجتمع فيه الرجال و النساء من غير ستر فى النهر كل واحد يرى عورة الأخرى من غير تغيير و لا نكير فلما رأيتهم اقشعر جلدى و تحركت فرائصى فملأت حجرى بالأحجار و صرت أضرب كل من هناك من النساء

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۶۲

و الرجال فقالوا ما هذا الرجل و ظنوا أنى خرجت من عقلى ففر الكل و لم يبق أحد فى ذلك الوقت إلا هرب ثم مر على شخص فقال لى رحمك اللّه لو كنت معنا دائما لزالت هذه الأمور العظيمة إذ يحرم ذلك إجماعا.

و أما أهل القرية فلم يعجبهم صنعى بان ظهر التغير على وجوههم غير أنهم سكتوا إذ العاصى ذليل ثم حممنا منه فى محل الستر و كذا أهلنا ليلا- فمنها ظعنا لقابس و نزلنا خارجه عن بعد منه فلما أصبح اللّه بخير الصباح أتى أهل قابس يتسوقون مع الركب إلى صلاة الظهر فأتى الأعراب فغاروا على أبل الركب فنهبوا جملين لصاحب سيدى أحمد بن حمودة ثم ذهبت أنا و سيدى أحمد بن الطيب لأمير المحلة هناك و فضلاء الحمارية نشكو بما صار بنا و إذا بطائفة أخرى أخذوا بغل سيدى يحيى بن صالح من وطننا فلما سمع الركب بذلك نهبوا من كان بقابس فى الركب و أخذوا الفضة و غيرها فدخلنا على القائد بين المغرب و العشاء فأخبرناه الخبر و قال لا بأس عليكم فغدا إن شاء اللّه يرجع ما لكم فخرجنا من عنده فوجدنا جماعة منهم ينتظروننا ليمسكونا فى الركب فلما عرفونى تركونى فذهبوا إلى سيدى أحمد الطيب فلما زجرتهم تركوه و أتوا إلى العلام فوجدوه هاربا قبل ذلك فأمنا ذلك فمكثنا غير بعيد إلا و الإجمال رجعوا على يد الحمارية رزقهم اللّه البركة و أعانهم و نصرهم على الظالمين.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۶۳

و توزر و قابس محل الخطفة بل توزر أعظم فكل من غفل عن حاجة فى يده إلا و خطفوها فإياك و الغفلة فيهما بل و فى غيرهما فإن الغفلة فيها مظنة التلف و قد زرنا الصحابى أبا لبابة الذى هو من الصحابة رضى اللّه عنه و قد زرناه مرارا و أعلمنا به بعض أصحابنا من الركب فانه من الصحابة قطعا و انه هو هذا إذ ثبت عندهم بالتواتر و هو من أسباب العلم و قد فضلت هذه القرية على سائر القرى بقبر هذا الصحابى.

أقول قال شيخ شيوخنا فيه ما نصه.

نكتة و أبو لبابة هذا من أصحاب سيدنا محمد صلى اللّه عليه و سلم ذكره ابن ناجى فى اختصار معالم الإيمان و روضات الرضوان فى مناقب المشهورين من صلحاء القيروان و هو كتاب مجتمع فى سفر و الأصل لأبى يزيد الدباغ القيروانى و ذكر البلوى فى رحلته أنه لقى صاحب هذا التأليف و أثنى عليه و على تأليفه هذا و قد أطال فى خبره و ذكر أن قبره مما تواتر عند أهل بلده و ذكر أن من لم يذكره من ألف فى أسماء الصحابة و أمكنة و فياتهم فانه لم يبلغه العلم به و التواتر المذكور مقدم على ذلك و كاف فى إثبات أن ذلك قبره و قد بنى عليه أمير تونس حمودة بنيانا عظيما أثابه اللّه على قصده و بإزائه مدرسة بناها محمد باى فى غاية الجودة و الإتقان و الحسن و مسجده كذلك و جعل لهذه المدرسة احباسا و رتب فيها عشرين طالبا يعطى كل واحد منهم ريالا على رأس كل شهر و استأجر فقيها يعلمهم و يصلى الصلوات الخمس بالمسجد المذكور إماما به فاللّه تعالى يرحمه به و يعفو عنه فلقد خلف ما يذكر عنه من الآثار الحسنة و اللّه تعالى برحمته يبدل لمن يشاء السيئة بالحسنة.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۶۴

و أنشدنا هنالك لنفسه صهرنا الأحب أبو العباس البرنسى الشفشاونى عام تسعة:

نزلنا بقابس فشفينا فيهغليل القلب من شوق اصهابة

وزرنا به ضريح إمام برو بحر فى السخاء أبى لبابه

هو البحر المعين لواردیهفرد ما شئت من بحر الصحابة

فایقنّا بنیل القصد حقاو صدّقنا بإسراع الإجابة

أنلنا یا إلهی کل خیرو إحسان و زودنا الإنابة

و عاملنا فإنا قد أسأنابفضل لا تغلّق عنا بابه

و أمددنا بوافر مالعطایاأدرّ علینا من درّ السحابة

و نوّر قلبنا و أملاه حباو صدقا و لتزل عنا حجابه

بلغه اللّه جمیع مراده و جعله من خواص أهل محبته و وداده و أخبرت بأن المدرسة التی یدرس بها سیدی إبراهیم الجمنی بجربة هو الذی بناها أیضا وصلینا الظهر عند أبی لبابة و العصر بمنزل الرکب و هو آخر البلاد التی فیها ماء واد جار و فیها رحاء ماء غریبة الصنعة إلا أنها تتعطل کثیرا اه-.

تتمة فإننا أقمنا یومین فی قابس و زرنا أبا لبابة المذکور وزرنا جمیع من فیها من الأحیاء و الأموات و اجتمعنا مع بعض فضلائها من طلبة العلم و صلحاء البلد کالمدرس سیدی عمر فی المدرسة المذکورة و کذا اجتمعنا مع بعض فضلاء الحماریة و فعلوا معنا خیرا عظیما و هو رد الجمال لأصحابنا و وصیناهم علی السعی فی رد البغل الذی انتبه العرب من ید بعض أصحابنا بإزاء الرکب بین العشاءین جزام اللّه

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۱۶۵

أحسن جزاء بمنه و کرمه.

ثم ظعنا منه و نزلنا قریة عرام بعد أن زرنا ما فیها من قبور صلحائها ثم ظعنا منها و سرنا نحو الثلاث مراحل فنزلنا الشیخ الصیاح فزرناه ثم منه نحو المرحلتین نزلنا قرب برج الملح فأصاب الرکب عطش تلک اللیلة فأصبحنا و الحمد للّه فی الزوارة الخالیة فسقینا الماء و أوردنا الخیل و البغال و الإبل و ماؤها عذب حلوا حسن المیاه من عرام إلیه و کلها خبیثة المیاه إلا بئر السلطان فانه أیضا طیب و تلاقینا قبل الصباح بفضلاء أولاد مریم و ما أحسنهم من فضلاء و کرماء و لقد کانوا متبعین للسنة جمعوا الخیر و وعه و حبهم لنا قوی و اعتقادهم فینا سنی جعلهم اللّه أفضل الناس علما و عملا و جاها و حالا و أدام ذلک فیهم إلی یوم القیامة و قد أتوا لنا بشعیر و مع ذلک انه مفقود فی ذلک الوقت و إنما حملهم علی ذلک حبنا و أکرمونا باللحم و ما معه من الضیافة [فخف فی الرکب و هم بعداء منا] غیر أنهم الحجة الثانیة ضیفونا ضیافة عظیمة و ذهبوا معنا من طرابلس إلی قابس بل إلی الشیخ سیدی مهذب أنا و جماعتی قد قدمنا مع الرکب الفاسی و تخلف فی طرابلس إلی انصرام رمضان و نحن أردنا العجلة فذهبوا معنا رضی اللّه عنهم و جزاهم عنا خیرا بمنه و کرمه.

تتمة فبعد السقی ذهبنا إلی أن خرجنا إلی الزوارة العامرة فنزلنا عند العصر بین السبخة و النبکة ثم منها إلی زواغة و کانت مدینة عظیمة هی أصل طرابلس و بها کان ملکها و طرابلس کانت عامرة بالنصاری ثم انتقلت العمارة إلیها بعد انجلاء النصاری منها ثم منها إلی المایة و مررنا علی الزاویة الغربیة و هی کثیرة النخل قویة

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۱۶۶

العمارة فیها أفاضل و علماء و عباد و زهاد معلومة بأهل الصلاح الأحیاء و الأموات غیر أن الرکب لم ینزلها و إنما اجتاز عنها فقط و مررنا علی زنزور أیضا ثم منه إلی طرابلس و بینها و بین زنزور نحو اثنی عشر میلا و الحمد للّه أولا و آخرا.

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۱۶۷

ذکر وصولنا إلی طرابلس

وصلنا فی أول شعبان صبیحة و سمع الإخوان بوصولنا و إتياننا فحرکهم العزم و الشوق إلی ملاقاتنا و منهم من لقينا عن بعد کالأخ فی اللّه سيدی محمد بن عبد الخالق إذ نزلنا قرب بلاده و أتانا بخروف ضيافة لنا جزاه اللّه عنا خيرا و أکثر الإخوان إنما أتونا لزنزور کالمحب حقا و الأخ فی اللّه صدقا سيدی محمد الشريف البلغيثی النوفلی و جميع أخوانه من الشرفاء و کذا جميع أحبابه کسيدی محمد بن عثمان کاتب الدار الکريمة و الشيخ المفتی ابن مقيل و جميع أحبابه و کذا خديم العلم و أهله الذی فاز عن أمثاله قائد عمورة فی زنزور خرج إلينا بشوق و عشق يبحث فی الرکب بحثا شديدا و اختلفنا معه فی الطريق أنا و سيدی أحمد الطيب و جماعة من الإخوان أخذنا وسط البلد إلی أن خرجنا إلی قرب المنشية و لما تلاقينا مع سيدی محمد الشريف صار يبکی و أنا أبکی بالفرح مع ما فقد فيما مضی من الاجتماع و أما قائد عمورة فقد خرج عن أجناسه من العمال إذ بنی مدرسة عظيمة متقنة ما رأيت أظرف منها و أحسن من صنعتها و جعل فيها بيوتا متعددة و مطهرة طيبة و مسجدا فی غاية يستحسنه الناظر و جعل أيضا بيتا للتدريس و غرس النخل الجيد و حبسها علی المدرسة و زاد أحباسا عليها عظيمة و حاصل خدمته إنما هی علی طلبة القرآن و طلبة العلم بأن جعل معلما للقرآن و معلما للعلم و هو الفاضل و التقی الکامل تلميذ الشيخ النورانی سيدی إبراهيم الجمنی أی الکبير الذی هو تلميذ الشيخ الخرشی و هو نور جربة إذ غالبها خوارج فان الشيخ سيدی إبراهيم شمس الحق فی هذه البلدة فقد أفاد و استفيد منه بان نفع الناس شرقا و غربا و جوفا و قبلة و تلميذه المدرس فی هذه المدرسة هو سيدی

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۶۸

عبد اللّه و قد اجتمعنا معه فی هذه المدرسة فی الرجعة مع الطلبة و القائد المذکور [و الشيخ المفتی ابن مقيل و أصحابه فی ضيافة القائد المذکور] جزاه اللّه عنا خيرا و تقبل منه و رزقه التقوی و اللّه يقول إنما يتقبل اللّه من المتقين.

فإن قلت ما هذا الثناء الذی تثنی علی صاحبک قائد عمورة فإن هذا الرجل لو کان يبنی من ملکه و هو من جملة من يبنی المساجد و الطرق و القناطر [لکان الثناء عليه فی محله] و الذی يبنی به ليس ملکا له شرعا لأنه إنما بناها من مال المسلمين الذی أخذه منهم ظلما و عدوانا لما علمت أن ما عنده إنما هو بطريق الغصب و التوظيف الشرعی مفقود فی زماننا هذا فهم کالزانية تزنی و تتصدق و قد قال صلی اللّه عليه و سلم ليتها لم تزن و لم تتصدق الحديث و حينئذ ليتهم لم يبنوا و لم يأخذوا مال المسلمين فما هذا المدح منکم إذ يحرم عليهم فضلا عن الثواب.

قلت قال الشيخ عبد الکريم الزواوی فی شرح الوغليسية ما حاصل معناه أن ولاة هذا الزمان إن حصل منهم أفعال الخير المتعددة کالصدقة و الهبة و الوقف و بناء المساجد و المدارس و غيرها کالإحسان إلی العلماء و الطلبة و الفقراء هل يحصل لهم الثواب عما فعلوه من الحسنات صورة لإدخالهم السرور علی المسلمين و إبقاء أثار فعلهم بعدهم و هو حسنة أولا يثابون لأن ذلک من مال غيرهم بل يحرم عليهم ذلک إذ يجب عليهم رده لأربابه فإعطاؤه لغيرهم تعد آخر فيکون غصبا بعد غصب إذ الوقت و ما معه إنما يثمر شرعا بعد حصول الملک قال و الحکم فی ذلک أنهم يمدحون شرعا من جهة دعوة المسلمين لهم بالخير و ذلک غنيمة عظيمة إذ من وصله المعروف منهم يدعو لهم بالخير و الرحمة و العفو و الغفران فإن استجيب لهم فاللّه يتولی إعطاء

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۶۹

المظلوم فيما أظلم من عنده يوم القيامة لا سيما إذا تعذر الرد لأربابه لفقدهم أو لجهل أعيانهم فالواجب عليهم حينئذ التصدق به و قد فعلوه فلم يبق عليهم حق يسألون عنه و إما إذا تيسر الرد ببقاء عين المغصوب و تعين المغصوب منه فيجب عليهم رده باتفاق و إذا وقع و نزل و صرفه فيما ذکر فيثاب من جهة و هو توفية عن ربه و يثاب من أخری و هو تحصيل المنافع لمن حصلت له هذه الأشياء مع اغتنام دعائهم و حصول الميل منهم إليهم اه- بالمعنی.

قلت الغالب وجود الوجه الأول و هو تعذر الرد لجهل أربابه و حينئذ يجب شرعا صرفه فی مصالح المسلمين فيکون فعل هذا القائد ممدوحا شرعا نعم بقی له أمر لا بد له من فعله و هو أن ينکف عن الأخذ بهذا الوجه من المسلمين رزق اللّه لنا و لهم الهداية و الإنابة

بمنه و كرمه.

فإن قلت هل يجوز لمن كان فى تلك المدرسة من عالم أو متعلم الأخذ من تلك المدرسة و الانتفاع بما فيها و إن كان غنيا كتحصيل الطهارة منها و الصلاة فيها لأنها قد وقعت بوجه مباح بل بوجه مطلوب إذ الفاعل لذلك يطلب منه صرف ما أخذه فى منافع المسلمين فيجوز حينئذ الأخذ و الطهارة و الصلاة [لأن ذمته عامرة به فيجب عليه إبراء نفسه من ذلك و ما حصل منه يعد كصورة المتسلف] أو لا يجوز لعلمهم بأنه مغصوب و مشتريه و وارثه و موهوبه أن علموا كهو فتجرى عليه أحكام الغصب.

قلت الحق الجواز من غير شك إذ قال صاحب المدخل أن المدرسة إذا بنيت من مال حرام و جهلت أربابه فيجوز للعالم أن يأخذ منها بوجه العلم انظره فأنت ترى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۷۰

أيها المخاطب أن نصه هذا إنما هو فى عين النازلة فهو طوق فى عنق و مع ذلك انه لم يجعل كتابه إلا فيما وافق الأثر و بعضهم يجعله أى صاحب المدخل مشددا فى الدين لا مترخصا فإذا علمت هذا فاعلم أن ما يحصل من المدارس و المساجد من أحباس الملوك و العمال عليها و كذا ما يعطونه للمدرسين و من فيه مصالح المسلمين يجوز من غير شك إذ ما جهل أربابه [للعلماء و الفقراء و من فيه نفع الخلائق و] ليس طريقه إلا هذا و إما قولهم المشترى و ما معه أن علموا كهو فخاص بتعيين المغصوب منه و المغصوب و هذا فى غيره و كذلك الدراهم و الأموال الموجودة فى أيديهم إن جهلت أربابها [سبيلها هو هذا لأن المال إذا جهل ربه] يجب وضعه فى بيت المال إن كان منتظما فلا أقل حينئذ من كونها للعلماء و الفقراء و من فيه نفع للخلق فلا يحل لمسلم فضلا عن عالم أن يقدح أو يسمع لمن هذا وصفه بأن يقول يأكل الحرام بل هو من الحلال البين لأن الذى يأخذه المدرس أو المتعلم أو غيرهما حلال قطعا لأنه من أعظم وجوهه حسبك صاحب المدخل حجة بينك و بين اللّه تعالى و الذى فيه الخلاف من مال المستغرقين للذمة بأموال المسلمين بان كان ماله حراما كله أو جله أو أقله على ما فيه من الخلاف بين العلماء إنما هو فى غير من يأخذه [منهم بوجه العلم أو الفقراء أو النفع للمسلمين و إلا فالذى يأخذه] بذلك الوجه جائز من غير خلاف ألا ترى عبد اللّه بن عمر لم يكن أورع منه و لا أظلم من الحجاج بن يوسف فى زمانه إذ كان يتعدى على النفس فضلا عن المال و هو يقبل الهدية منه لوجود الوجه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۷۱

الذى يأخذها به و هو العلم أو النفع للمسلمين انظر الخطاب عند قول خليل لا أن أخذ من العمال أو أكل عندهم بخلاف الخلفاء و المراد بالعمال من ينيبه الخليفة على الجباية فقط و ليس له الإعطاء فلا يجوز الأخذ منه و لا الأكل عنده و إلا كان جرحة فى شهادته و المراد بالخليفة من أذن له فى الأخذ و العطاء فيدخل القواد و سائر العمال فيجوز الأكل عندهم و الأخذ منهم و ذلك ليس بجرحة و هذا كله فى غير من يأخذ ذلك بوجه العلم و ما معه كما سبق و إنما نبهت على هذه المسألة لكثرة الجهل من الطلبة فيها فمنهم من يبالغ بالإباحة و هو خطاء و منهم من يبالغ من التحريم و هو خطاء و منهم من يجعل الخلاف فى كل الناس و هو غفلة و جهل أيضا و منهم من يجعل الخلاف أيضا فيمن جهل أربابه أو لا و هو أيضا خطاء و إنما المغصوب إذا كان ربه معينا فيجب رده لربه و لا يجوز لأحد أخذه اتفاقا و إذا فوته عن صاحبه و ترتبت فى ذمته القيمة كذبحه مثلا فهل يجوز لأحد الانتفاع به بأى وجه من وجوه الانتفاع كالأكل و غيره إذ ترتبت القيمة فى ذمته و هو ظاهر كلام خليل و كلام ابن ناجى أو يمنع و هو الذى صرح به غير واحد من الفقهاء و بالجملة فالمال المجهول أربابه يجوز للعالم و من فيه وجه من وجوه الأخذ أخذه و الانتفاع به. و أما غيرهم فإن كان من الخليفة لا العمال فيجوز أيضا و أما المعين ربه قبل فواته فيجب رده لربه و لا يجوز لأحد أخذه مطلقا من عالم و غيره و إما أن فات بيد غاصبه بمفوّت مع بقاء العين كطبخه فهل يجوز الانتفاع به أم لا فقد تقدم ما فيه و إما من كان كل ماله حراما أو جله أو أقله فى غير ما ذكر من الولاة ففيه الخلاف الذى ذكره التنائى فى كبيره و عليه نظمه فإذا أحطت بهذه المسألة علما فليس كل أن تعترض على أحد من العلماء العاملين المشتغلين بإعطاء العلم أو أخذه بأخذهم من ولاة زماننا ما جهل أربابه فنزل قدمك لما تقدم من نص المدخل و

الخطاب و كذا غيره من المال المختلف فيه فانه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۷۲

لا ينكر على العلماء و الفقهاء و أهل السنة إلا ما كان مجمعا عليه فحينئذ علماء مصر فى وقتنا هذا أعنى المقتدى بهم و كذا شيخنا سيدى عبد اللّه السوسى و سيدى محمد الغريانى بتونس و غيره من علماء الأمصار و القرى و البادية ممن عرف بالعلم و العمل به ممن يأخذ من الولاة ما يستعين به على نفسه و أهله فجائز لهم أخذه بلا شك كما تقدم النص عليه و من أراد الإنصاف و الانتصاف فقد نقلنا له ما يبنى عليه فى نفسه و يحمل عليه غيره من العلماء المقتدى بهم فلا يحتاج إلى التأويل لأنه نص صريح فى الإباحة و إلا أصابه ما أصاب المعترضين على أهل اللّه فيخاف عليه سوء الخامة و العياذ باللّه و قد علمت عظم الوقيعة فيهم و الاعتراض عليهم من غير قصد دواء لهم و لا الشفقة عليهم و الرأفة بهم يرد من باب اللّه و إن كان محقا فى اعتراضه قاله الشيخ زروق فى قواعده.

انعطاف فى الرجوع إلى المقصود من ذكر أحوالنا و إخواننا فى طرابلس إذ قد اجتمعنا بعامته و خاصتهم إذ لهم مزيد فى المحبة و الاعتقاد فى أهل الخير و التشبث بهم و لا شك أن هذه خصلة عظيمة شرعا لأن من أحب قوما كان منهم و حشر معم و التحبب لهم و مودتهم لقدر عظيم عند اللّه و للّه رد القائل فى قوله:

لى سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه

إن لم أكن منهم فلى فى حبهم عز و جاه

و المعتقد و المحب كالمحسن إذا لم يقدر على الإحسان لقوله صلى اللّه عليه و سلم يبلغ المرء بنيته ما لا يبلغه بعمله و بيان هذا الحديث أن المؤمن لو كان يخلد فى الدنيا لتمنى بقاء الإيمان معه على الدوام فجزاه اللّه بالخلود فى الجنة و كذا الكافر لو كان

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۷۳

يخلد فى الدنيا لتمنى بقاء الشرك و الكفر معه فيجازى بالخلود فى النار جزاء على نيته و أما المحسن فيجازى بالإحسان و اللّه لا يضيع أجر المحسنين و قد قال تعالى: (إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) و قال أيضا (ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) و أما المسىء فتكفيه إساءته إذ لا يخلو الإنسان من ضد و لو خاول العزلة فى رأس جبل و النبى صلى اللّه عليه و سلم يقول و لا بد لكل مؤمن من منافق فى جواره يبغضه على إيمانه أو كما قال ذكره الخازن فى تفسير قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ) و قال أيضا صلى اللّه عليه و سلم لو دخل المؤمن جحر ضب لسلط عليه من يؤذيه لكن أهل الأذية فاللّه يكفينا شرهم و نقول حسبنا اللّه و نعم الوكيل منهم و إما المحسنون فاللّه يشكر فضلهم و عملهم و يجازيهم بأحسن ما صنعوا نعم لم أصل إلى ما اعتقدوه فينا و لا أدعيه إذ الدعوى قد تكون أكثر مما عند الإنسان فى نفس الأمر فيكون ذلك قدحا بينه و بين محبوبه و إن أخذ بذلك الوصف كان غشا فى دينه كما ذكره الشبراخيتى و غيره قال و إنما يجب أن يبين عند الإعطاء أن هذا الوصف الذى أعطيتنى لأجله لم أنصف به فى نفس الأمر فإن قال أعطيت للّه لا لهذا الوصف فخذه فاللّه لا يؤاخذه و هو يجازيه عن صنعه و إلا فيجب رده لصاحبه لأنه غش فى الدين و النبى صلى اللّه عليه و سلم يقول من غشنا فليس منا.

و أما أهل الخير و الصلاح فلا أستطيع عدهم لكثرتهم جدا لا سيما الساكنون بخارج المدينة و أما من فى المدينة فالصادق الملاطف [من يؤثرنا على نفسه جعل اللّه البكرة فيه و فى ذريته إذ ما أنفقه علينا خير من نفسه] أعنى الشيخ المفتى سيدى محمد بن مقيل و أصحابه كالفقيه المدرس سيدى عبد العزيز و أولاده و قد أخذوا من

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۷۴

قلبى مجامعه و لنا ما لهم و علينا ما عليهم حبا فى اللّه و والد الشيخ كان صديقا لنا فى الحجة الأولى إذ هم محل الفضل و العلم من الزمان القديم نور اللّه محلهم بنور العلم إلى قيام الساعة و كذا الذكران من أصلابهم فقد أجادوا فى احساننا كسوة و إطعاما و شراء ما نحتاجه من الحوائج كان اللّه لهم وليا و نصيرا أسأله سبحانه أن يدخله حضرته و يحفظه من كل حاسد مع بسط النعم عليه و على

ذريته إلى غابر الدهر بمنه و كرمه.

و من أحبابنا حقا صبغة اللّه العالم العامل الفاضل الفهامة محب السنة و أهلها صاحب اعتقاد فى أهل السنة سيدى محمد العربى الفرجانى الشريف النورانى و أصحابه و أولاده على الإطلاق خصوصا العلامة الفاضل الفهامة الكامل سيدى محمد عوض ولدنا أصلح اللّه حاله و أظهر عليه فضله و كذال على إخوانه و قد سألت اللّه فى غنى أبيهم و غناهم إلى قيام الساعة و تيقنا إن اللّه أجابنا كان اللّه فى عونهم آمين.

و ممن اجتمعت معه من الفقهاء القاضى و مقدم القاضى من الحنفية و الفقيه الأجل سيدى عمر السودانى و الشيخ الصكلانى و أصحابهما و من هو أخونا فى اللّه حقا و صدقا، و كان لنا الود فيه حبا و شوقا، و نية و رفقا، صاحب الجد و الاجتهاد فى الأمور كلها على وفق السنة النبوية، و الحقيقة النورانية، سيدى حسن السعداوى، بلغه اللّه غاية الأمانى، و قد عقدت معه الأخوة بان الناجى يأخذ بيد أخيه رضى اللّه تعالى عنه و نفعنا به آمين فإنه يعلم الصبيان قلّ مثل فى عصرنا من حبه الصدق و أهله، و ما أحسن نصحا و ديانة و صدقا و زهدا، ما كان فيه، ظهر على فيه، يعلوه نور و مع ذلك أنه ارئق، فى العلوم و الدقائق، بلغ اللّه أماله، و تعلم حاله من كلامه، و صدقه من جده و اجتهاده، رضى اللّه عنه و ارضاه.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۷۵

و كذا من أحبابنا الشيخ مصطفى الخطيب إذا رقم أحسن، و إذا تكلم بين و أعلن، [و من السعادة الغوث الحسن] ، و حاصله قد تعلق بنا، جميع الفضلاء فى المدينة من لم يحسن إلينا، أحسن ظنه فينا، اللهم قابل الجميع بالخير و الفضل و الرضى، و اغفر لنا و لهم ما سلف و مضى، و أصلح حالنا استقبالا بما يرتضى، بمنك و كرمك.

تتمة فى الانعطاف إلى ما كان خارج المدينة منهم سويداء القلب و خلوص الود الذى هو أولى من نفسى، أتذكره فى كل نفسى، أحيى باجتماعه، و أموت بافتراقه، و روحى روحه، و جبحى جبحه ، و هو أولى من نفسى، تغمدنى اللّه و إياه برحمته فى رمسه و رمسى، ذو الفتح الربانى، و الفهم الرحمانى، سيدى محمد الشريف النوارنى، جعل اللّه الفضل و العلم و الولاية و الغنى و الزهد و الكفاف و العفاف فى ذريته و قرابته إلى غابر الدهر آمين و فضائله و أحواله الطيبة و أعماله الحسنة و مقاصده الزكية لا تحصى ذو طب للقلوب، بفتح من علام الغيوب، جمع اللّه بيننا و بينه بالانتفاع، و لا جعل ما وقع من الفراق آخر وداع، بجاه من فضل بالاقتفاء و الإتباع، هذا و إن يدنا و يده فى ماله سواء، و أولادى و أولاده و عيال الجميع على حد الاستواء، و من تعلق بى و به من قريب و حبيب و صديق و شيخ و أخ فى اللّه و أحد رضى اللّه عنه و سدده، و على الخير و الطاعة أعانه و بالفتح و النصر أمده، آمين، قد أحسن الإحسان التام إلينا، و أجرى ما لا عين رأت من الكرم لدينا، و لكنه أحسن إلى نفسه إذ أنا نفسه و هو نفسى حاصله العبارة تقصر عما بينى و بينه من الحب و المودة فالإيجاز أولى، و الاختصار أعلى، و التقصير أحلى، إذ الإطناب، بين الأحباب، ضباب

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۷۶

و سحاب، و بالجملة فكل من يحبه يحبنا، و من قرب إليه بالدم قريب إلينا، و صهره صهر لنا، و أولاده كذلك فماله لنا، و ما عليه علينا، رزق اللّه الجميع الصدق مع الحق، و مع الخلق، بمنه و كرمه و كذا أولاد الشيخ المعز سيدى محمد و سيدى أحمد و سيدى عبد اللّه و أحبابه و أصهاره و قرابته كلهم من النفس من أحباب الجميع و سيدى محمد ابن عزوز و إخوانه و سيدى إبراهيم و إخوانه و سيدى سلامة و أصحابه و سيدى أحمد بن إبراهيم و من انتمى إليه و سيدى عبد الرحمان و من تشبث به و سيدى عبد اللّه أمام الجمعة عندهم و أخوه سيدى أحمد الشريف و أولاده و سيدى محمد أخوه و سيدى أبو بكر و غيرهم من الشرفاء كأولاد عمه سيدى على كلهم منا و إلينا و من الفقهاء سيدى عبد النور فهو فقيه فاضل عالم نظم قصيدة فى علم التوحيد لا بأس بها و أن يسر اللّه على اشرحها و أولاد الشيخ سيدى الصيد الولى الصالح و البدر الواضح و أولاده لا سيما من هو كبير السن عظيم الشأن سيدى عبد اللطيف و ولده سيدى على رحمه اللّه و سيدى الصيد و ولد ولده سيدى أحمد و أولاد أعمامه جملة و تفصيلا إذ طبعت على حبهم و حب من

يحبهم و أولاد الشيخ سيدى محمد بن سعيد و أولاد المرغنى و أولاد الشيخ ابن جابر و كل من هو من أهل الفضل فى الهنشير و الساحل المنشية و لو زرناه مرة واحدة أو زارنا كذلك فهو منا سواء عينت اسمه أم لا و كذا أولاد الشيخ النعاس سيدى محمد و أولاد أخيه سيدى عبد الرحمان و سيدى إبراهيم و ولده و طلبة محلهم على العموم من ذهب أو بقى و من إخواننا حقا سيدى محمد بن عبد الخالق و أعمامه و قرابته فإنهم منا و نحن منهم و بالجملة فمن اجتمعنا معه و لو ساعة حبا فى اللّه فهو له ما لنا و عليه ما علينا و لنا نصيب منه سواء سميناه أم لا- إذ من تحقق بحالة لا- يخلو الحاضرون منها نفعنا اللّه بهم و بإسلافهم بمنه و كرمه و بالجملة فأحبابنا كثيرون جعل اللّه الحب لأجله.

و أما الحجة الأولى فقد أدركنا فيها محقق الصلاح، و صاحب النجاح، نجم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۷۷

الصباح، ذا الأرباح، صاحب الورع و العلم الصحيح، و الزهد و الدواء لإخوانه ممن هو بالحب جريح، العالم فى كل المذاهب، الذى طاعت و انقادتا له المواهب، سيدى محمد المعزى و مثله فى الفقه سيدى محمد النعاس و كذا من البله سيدى عبد الخالق و كذا الذى هو تلميذ الشيخ سيدى محمد بن سعيد و هو الذى أعطى له كتابا مزبورا بالتركية و قال أقرأه فأخذه فقرأه و سمعت منه أنه قال لى من حينئذ أقرأ مكتوب التركى نفعنا اللّه بهم و بأمثالهم آمين و سيدى محمد المعزى أظنه كل عرفة يحج من بيته رضى اللّه عنه و أرضاه و قد استفدنا منه إفادة عظيمة و لقد علمت أنه طيب الدين و الدنيا لا يغادر شيئا إلا عرف سببه و طبه فمن جلس معه عرف أحكام الشريعة و أوصاف الحقيقة و ما يخصه فى أمر دينه و دنياه و حاله و وارده و مقامه حاصله يغترف من بحر اللّه فحدث عنه و لا حرج و كيف لا و شيخه الشيخ ابن سعيد إذ هو سلطان العارفين، و ملاك زمام السالكين، و مربى المريدين، و الآخذ بيد المجذوبين، إذ قيل عنه انه يسبغ فى لمحة و أصحابه كلهم قد ظهر عليهم فضل اللّه لا سيما المعارف الإلهية، و المواهب الربانية، و اللطائف الرحمانية، و قد رأيت بعض كلامه فى التوحيد الخاص و كذا تجريد التوحيد و تفريده يظاهى كلام الشيخ عبد القادر الجيلانى و كلام عبد الكريم منه أيضا و إنما يأتيه الكلام عند ورود الوجد عليه، و الحال لديه، فيكتبه أصحابه نفعنا اللّه به و بأصحابه و أفاض علينا من بركاته آمين و الحمد للّه على زيارته و زيارة معاصرة الشيخ المرغنى و الشيخ الصيد و السيد ابن جابر بالنية و المحبة و كلهم متعاصرون أفاض اللّه علينا من بركاتهم آمين.

و كذا زرت من كان بالمدينة كسيدى عبد الوهاب و سيدى درغوث الذى اخذ المدينة من أيدى النصارى حاصله من ثبتت له عناية إلهية حيا أو ميتا فيها فقد زرناه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۷۸

فعلا- أو نية اللهم بجاه من دخلها من أول عمارتها إلى أن يرث اللّه الأرض و من عليها و هو خير الوارثين أن تجعلنى و أولادى و أزواجى و إخوانى و طلبتى و أحبائى محبوبين عندك، و عند رسولك و أوليائك، و محبين من غير محنة، و لا مشقة و لا فضيحة، و لا تسلط علينا جبارا عنيدا، و لا أحدا من عبادك و لا شيطانا مريدا، و لا نفسا متعدية علينا، يا أرحم الراحمين، يا حى يا قيوم برحمتك استغيث آمين يا رب العالمين.

تنبيه إنما نذكر من ذكر من الإخوان و المحبين و بيان أوصافهم ليتحقق السامع بأحوالهم و يتصف بأوصافهم و الأقل أن تحضر عنده بركاتهم و أما ذكر أوصاف الطريق و بيان المواضع فان فيه اعتبارا و دلالة على أثار قدرة اللّه تعالى و تسخير الأكوان لنا و التنقل من حالة لحالة ليترقى بذلك صاحب السلوك إذ هذه الطريق أشبه شىء بطريق الآخرة فمنها يعرف الترقى فى مقامات اللّه تعالى حتى يتحقق بحضرته و يكون فى دائرته و ناهيك بشىء يكون سببا للوصول إلى مرضاته و فيه أيضا التصبر و التسلى و التأسى بهذه الأفاضل فى طريقهم إلى الحج و لا- شىء أعظم من هذه لأن من رأى أحوالهم فى الطريق و معاملتهم فى البيع و الشراء و الهبة و الصدقة و الضيافة و زيارة الإخوان و القيام بحقوقهم و وضع الأمانة و تولى الشراء و البيع بنفسه أو بائعه منهم أو من غيرهم يتحقق به

الناظر و السامع بذلك أيضا فيقوى نوره و يتسع مدده لأن أوصاف النبى صلى اللّه عليه و سلم سارية فى أحبابه و قائم مثلها فيهم و كما تخلفوا بخلفه صلى اللّه عليه و سلم انتدب الكلام عليهم إذ ذكر أوصافهم ذكر لأوصافه و قد علمت ما فى ذكره صلى اللّه عليه و سلم من الثواب و ذكره صلى اللّه عليه و سلم ذكر للّه و لذكر اللّه أكبر و أما ذكر طريق الحج فهو كذكر الطريق الموصلة إلى اللّه قل هذه سبيلى أدعو إلى اللّه على بصيرة أنا و من اتبعنى فلا يقال أن ذكر هذا ذكر لما لا يعنى أولا فائدة فيه فنقول هذا ذكر اللّه تعالى كما سبق فإن قلت سلمنا ذكر ما ذكر فيه ذكر النبى صلى اللّه عليه و سلم و ذكره ذكر اللّه تعالى فما أحسن

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۷۹

بيته و ما أحسن ذكر الطريق الموصلة إليه كالطرق الموصلة إلى رب البيت [فاعلم هذا فانه لم يهمل على شىء] و شرف العلم بشرف معلومه و لم يكن شىء أعز من بيت اللّه تعالى و لا شىء أعظم منه و لا أعظم من الطريق الموصلة إليه و أما ذكر المدن و القرى و بيان أوصافها و ذكر الفلوات و الصحارى و الأنهار و العيون و حسن بناء المدن و الأسوار و الحوانيت و الأسواق و الأزقة و المساجد و اتقانها و الصوامع و أوصاف ما ذكر و ملاقاة الرفاق و الرجال من عامة المؤمنين و بيع الحوائج و شرائها فى خاصة نفسه إذ لا فائدة تعود إلى غيره إذ هذه الأمور خاصة بمؤلف الرحلة فلا نفع فيها يتعدى لغيره من العلم أو المصالح لتجتلب أو المضار لتجتنب فذكرها عبث و هؤلاء المؤلفون مصونون عن العبث إذ مقامهم يتحاشى عن ذلك و لأنهم مشرعون و النبى صلى اللّه عليه و سلم ذكر أحواله للتشريع إذ هو بشر لا كالبشر فذكر أحواله من بيع و شراء و نزول و صعود و هبوط و شرب من بئر فلان و دخول بيت لفلان و صفة مسجده و بيته و دابته و لباسه و مأكله و مشربه و غير ذلك علم يفيد مصلحة أى مصلحة و أما هؤلاء فليس كذلك قلت نعم الأمر كما ذكرت لكن اتفق أهل الرحلة على ذكر ذلك قديما و حديثا فحينئذ لا يخلو عن فائدة بينة أما ما كان فى خاصة نفسه إن كان خيرا فكذا مثله أن وقع بك فتشكر اللّه تعالى ليزيدك المعونة و الخير لقوله تعالى و لئن شكرتم لأزيدنكم و إن كان مصيبة و امتحانا و اختبارا فتتسلى به و تصبر كما صبر أولو العزم من الرسل فيسهل عليك حمل أعباء المصائب و اللّه يقول إن اللّه مع الصابرين و لقوله أيضا (وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ) الآية و أما ذكر أوصاف المدن و القرى فلا اعتبار و قد قال بعض العلماء إنما سكن الأكابر الأمصار لتذكر آيات اللّه و الاعتبار و حينئذ فمن لم يرها حصل له ذلك بسماع أوصافها و قد علمت أن تفكر ساعة خير

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۸۰

من عبادة كذا و كذا سنة كما فى الحديث عنه صلى اللّه عليه و سلم و كفى بهذا شرفا و فضلا و أما ذكر بيع حاجة كقوله بعت جملا، ودعته و غير ذلك من الأخبار بما يخصه فلان تعلم أن الفضل و الشرف ليس بترك الأسباب و إن التوكل لا ينافى ذلك لقوله تعالى (رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) و لم يقل رجال لا يتجرون و لا يبيعون و أيضا الفاضل لا يقف عن خدمة نفسه و دابته و ضيفه و شيخه و أهل الخير و الصلاح بل الشرف ذلك لأن النبى صلى اللّه عليه و سلم كان يتولى ذلك بنفسه فكيف بغيره فصاحب الرحلة حين أخبرك بأنه فعل كذا كأنه قال لك السنة فى هذا الطرق فعله إذ التوكل فى القلب و هو لا ينافى الأسباب بل فعلها يقويه و يؤيده لأن النبى صلى اللّه عليه و سلم أعظم المتوكلين فانه يبيع و يشترى و يأخذ الزاد و يلاقى الرفاق و يصحب الرفقة و ينزل على الماء و يتزود منه و أخبار صاحب الرحلة بأنه فعل ذلك ليقتدى به كما اقتدى هو به صلى اللّه عليه و سلم و قد قال الإمام الشافعى الشريف لا يأنف من ثلاث خدمته لنفسه و لدابته و لضيفه كما ذكره الشعراوى فإذا علمت هذا علمت أن ذكر ذلك ذكر لأحوال النبى صلى اللّه عليه و سلم و كفى بذلك فائدة و شرفا لهذا اللم فلا يحل لامرئ مسلم أن يقول تأليف هذا من العبث إذ هو الطريق و بيانها كبيان الطريق الموصلة إلى اللّه تعالى لأنها توصل إلى بيته بل توصل إلى رضاه و أى علم أشرف من هذا العلم و فائدته ظاهرة هذا و أن علم أمور الرحلة و بعض علم التاريخ يرجع إلى علم سيره صلى اللّه عليه و سلم فاعلم هذا فان فيه فضلا عظيما و أيضا النفس إذا علمت الطريق اشتاقت إلى الذهاب إلى بيت اللّه الحرام و أيضا معرفة الاستطاعة و عدمها إنما تكون ببيان المراحل و صعب

الأماكن و سهلها و بيان المسافة بين المطاعن و بيان العذب منها و غيره ليعرف ما يتزود من الماء و قدر ما يعرفه من الأحمال و كل ذلك يحتاج فيه إلى تصور الطريق بالتفصيل ليعرف الإنسان حصول الاستطاعة لنفسه فيجب عليه أو عدمها فلا لأن الحكم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۸۱

بالاستطاعة فرع التصور للطريق فاحتيج إلى بيان الرحلة فان قلت كتاب واحد يكفى قلت لأن الزمان و المكان يتغير فاحتيج إلى التعدد و أما بيان الأشجار ليستعد الإنسان إلى الشراء من وطنها لأن كثرته توجب كثرة الثمرة و كثرتها توجب رخاء الأسعار فينبغى للإنسان كثرة التزود منه و مثله القلة فى الضد و أما غير الثمر فبيانه لاحتياج الدواب إليه فكل ذلك فيه إعانة للحاج و اللّه يقول: (وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى) الآية و بالجملة فهذا العلم شرف لشرف معلومه فالمنصف يظهر له الحق بأول إشارة و المعاند لو ملأت له الأرض حججا ما قبلها.

و إذا البينات لم تغن شيئافالتماس الهدى بهن عناء

تتمة و ممن أقبل إلينا و وفق لمحبتنا الأجل الأعظم الحليم المشفق ذو الأخلاق الطيبة و الطبائع السنية و دفع السيئة بالحسنة لقوله تعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) و كذا كفاه اللّه مئونة أعدائه من غير حرب و لا عسكر و لما اجتمعت معه قلت له امتثل الخير و لو من عدوك، و لا تقبل الشر لو من صديقك، و قلت له أيضا المحسن يجازى الإحسان، و المسيء تكفيه إساءته، زاده اللّه عقلا و علما و حلما و صبرا و هداية و رعاية حسنة و أن يخلد الولاية فى ذريته إلى قيام الساعة مع العدل و الحلم حسبما فيه غيره من أهل العدل و الإحسان و الرحمة للأمة المحمدية و ذلك سيدى على باشا نجل الوالى محمد باشا نجل الوالى أحمد باشا و فى الحجة الأولى أدركت جده و فى الثانية أدركت أباه فى الطلعة و فى الرجعة أدركته هو جعل اللّه عاقبته خيرا من أوله و أصلح حضرته لأن قلب الأمير على قلوب قواعده و صلاحه بصلاحهم و فساده بفسادهم لأنه لا يخرج عن دار الملك حتى يتبين له المحسن من المسيء و الصديق من العدو و الطائع من العاصى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۸۲

و هلاك الخلق إنما هو بهم فكان حقا عليه أن لا يقبل الشر من أحد إلا إذا حصل له العلم بذلك و إلا كان كرة فى أيديهم فيهلكون به من شاءوا من عباد اللّه من غير موجب شرعى نعم العاقل من عقل عن اللّه ما يفعل إذا علمت هذا علمت أن الأمور نسبية الأمثال فالأمثل و إلا فأن نظر إلى العصر الأول فتجد أهل الطاعة منا كأهل المعاصى منهم غير أنك إذا نسبت من كان من أهل الزمان الأول و الزمان الأتى إلى زماننا هذا فتجده أولى من غيره و الأمر اعتبارى و إلا فالظلم قد عم و الجهل قد انتشر و البدعة قد صارت سنة و السنة قد صارت بدعة و الحكم للّه الواحد القهار ألا له الخلق و الأمر تبارك اللّه رب العلمين فياللّه و تاللّه مثلى لا يصلح بهم و لا للاجتماع معهم إذ لا دين لنا نتحصن به و أما هذا الرجل و مثله فى محل الرفعة و التعظيم أن تعلق بمثلنا فيربح قطعا إذ من خذل من الأمراء لا يلتفت إلى أهل الخير بل يعدونهم كالهباء المنثور الحمد له على مثله فاللّه يحفظنا و إياه من كل حسود و أذاقه ما أذاق أصفياءه لأنه على كل شيء قدير، و بالإجابة جدير، يؤتى الملك من يشاء بالتصريف، و يعز من يشاء بالتعريف، و يذل من يشاء بالتسويف، بيديه الخير من غير وجوب و لا إيجاب و لا تخويف.

تنبيه آخر قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه فائدة قال الشيخ محمد بن على شارخ الشقراطسية ناقلا عن البكرى و يذكر أن تفسير طرابلس بالعجمية ثلاث مدن قال و على مدينة طرابلس سور ضخم جليل البناء و هو على شاطئ البحر و بها أسواق حافلة و حمامات كثيرة فاضلة و فيها رباطات كثيرة يأوى إليها الصالحون و مرساها مأمون من أكثر الرياح و مدينة طرابلس كثيرة الثمار و الخيرات و بها بساتين جليلة فى شرقيها و يتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير و من طرابلس إلى جبل نفوسه ثلاثة أيام و ذكر الليث ابن سعد قال غزا عمرو بن العاص مدينة طرابلس سنة ثلاث و عشرين حتى نزل القبة على الشرف من شرقيها فحاصرها

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۸۳

شهرا لا يقدر منهم على شيء فخرج رجل من بنى مدلج ذات يوم من عسكر عمرو يتصيد فى سبعة نفر فمضوا غربى المدينة فاشتد عليهم الحر فأخذوا راجعين على ضفة البحر و كان البحر لا- صقا بالمدينة و لم يكن بين البحر و المدينة سور و كانت سفن البحر شارعة فى مرساها إلى بيوتهم فنظر المدلجى و أصحابه فإذا البحر قد غاص من ناجية المدينة فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا فلم يكن للروم مفزع إلا- إلى سفنهم و أقبل عمرو بجيوشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم إلا بما خف عليهم فى مراكبهم و غنم عمرو ما كان بالمدينة و سور المدينة مما يلى البحر غير أصل إنما بناه هرثمة بن أعين فى حين ولايته القيروان و بعث عمرو بن العاص إلى ودان بشر بن أرطأة و هو محاصر طرابلس فافتتحها و ذلك سنة ثلاث و عشرين و أكثر معيشة أهل ودان التمر و لهم زرع يسقونه بالنضح و افتتح عمرو بن العاص نفوسة و كانوا نصارى و أم قرى جبل نفوسة شروين مدينة كبيرة آهلة جليلة و بين طرابلس و مدينة شروين خمسة أيام و بينهما حصن لبدة من بنيان الأوائل بالأجر و الحجر حوله آثار عجيبة و خرائبى كثيرة يسكن هذا الحصن قوم من المغرب حماتهم نحو الألف فارس و هم محاربون لجميع من يحاربهم من قبائل البربر أزيد من عشرين ألفا بين راجل و فارس و ظاهرون عليهم و فى وسط جبل نفوسة النخيل و الزيتون الكثير و الفواكه و يجتمع فيما حوله من القبائل ستة عشر ألف رجل و طول جبل نفوسة من المشرق إلى المغرب ستة أيام اه- كلامه مع بعض اختصار و تغيير و فى رحلة أبى سالم العياشى و هى مدينة مساحتها صغيرة، و خيراتها كثيرة، و نكايتها للعدو شهيرة، و مآثرها جليلة، و معائبها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طريقها، سهل طروقها، إلى ما جمع لأهلها من زكاء الأوصاف، و جميل الإنصاف، و سماحة على المعتاد زائدة، و على المتعاقبين بأنواع المبرة عائدة، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما، و لو لمن استحق ملاما، لا سيما مع

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۸۴

الحجاج الواردين، و من انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون فى إكرامهم، و لا- يألون جهدا فى أفضالهم عليهم و أنعامهم، و لهذه المدينة بابان باب إلى البر و باب إلى البحر لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها و الحصن الذى فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر بينه و بين البحر و لأمير هذه المدينة نكاية للعدو دمرهم اللّه و لو مراكب قل نظيرها معدة للجهاد فى البحر فلما تسافر و ترجع بلا غنيمة و فلما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد فجزاهم اللّه خيرا و أعانهم على ما أولاهم من ذلك و سائر بلاد المسلمين أجمعين.

قال و كان عادة الركب إذا نزل هذه المدينة لا سيما فى الذهاب أن يقيموا بها نحوا من شهر يستعدون فيها لدخول المفازة التى قل نظيرها و هى مفازة برقة و من هذه المدينة يشترى الحجاج ما يحتاجون من الإبل و القرب الخ ما حاصل معناه أن الركب كان يمشى مشيا رويدا لأن مقصودهم الحج و الشوق لتلك الأماكن و يشفقون على الضعيف فالآن و العياذ باللّه صارت حالة الركب تجارة فمسيرة شهرين صارت أربعين يوما غبطة لحصول الحوايج الدنيوية حتى انقطعت الصعاليك عن المشى أنا للّه و أنا إليه راجعون.

و أما الإبل فأبل هذه البلدة أجود من غيرها لأنها ألفت العمل و الخدمة الكثيرة و أنهم يستعملونها فى كبير الأعمال حتى الحراثة و الدراسة و الرحى فتمرنت بذلك على المشاق العظيمة مع طبيب هواء البلد و قد قيل إن هواء الدنيا كلها فى هواء هذه البلدة مع صفاء مرعاها فيقل حينئذ فيها الغش و تندر أمراضها و قد قيل للحجاج عليكم بجمال طرابلسية و قربة مصرية لأن قرب هذا البلد ردية الدباغ و ماؤها خبيث المساغ و مع ذلك لا تمسك الماء إلا كما يمسكه الغربال و مع ذلك يحتاج صاحبها إلى كثير منها بل قد تؤديه إلى العطب و التلف فى بعض المفاوز لكونها تضيع الماء

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۸۵

برشحها كثيرا. ثم قال و هذه المدينة قد شاهد أهلها بركة الحجاج و المجاهدين فى أمر معاشهم فربما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين و الائبين خمسة أو ستة و يصادف ذلك فى كثير من الأحيان خروج عسكر البحر للجهاد و مع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان فى كل مطعوم بل ربما نقص فى الغالب مع أن البلد فى كثير أحواله معروف بغلاء الأسعار بالنسبة إلى أرياف النيل و سواحل المغرب

و جباله إلى أن أهلها مستكفون بها غايـة و راضون بها نهايـة و هى جـديرة بـذلك إذا اجتمع الأركاب فيها كثير الزحام على الأراحى غاية فيلاقى الحجاج من ذلك مشقة و لو لا ما جبل عليها أهلها من السماحة و حسن الخلق لما تهيأ للحجاج اتخاذ الزاد منها لصغرها و كثرة الواردين لاـ سيما من لم تطـل أقـامته اه- قلت ركبنا لم تطل إقامته فى هـذه السـنة و إنما أقمنا بها نحو العشـرة أيام و ذلك شأن الأركاب فى هذا الزمان لأن الناس يستصحبون معهم الزاد فلا يحتاجون إلا إلى ما قل و قد ذكر شيخ شيوخنا المذكور أنه بعد استقرار المنزل به ذهب لزيارة شـيخه الفاضل مفتى البلـد سـيدى محمـد بن أحمد بن مساهل رضـى اللّه تعالى عنه قد اسـتعفى عن الفتوى فى آخر عمره و تبتل للعبادة و تدريس العلم مع ملازمة كتب الوعظ و التذكير و له مشاركة فى العلوم ملازم التدريس و له سـيمة حسنة و حالـة مرضـية بأن قال ما رأينا سـيمة حسـنة أولى منه و لا أصـدق قولا و لا فعلا منهم و له باع فى المطالعـة و انقال فى المذهب و كان منقطعا عن الاشتغال و التكاليف بحيث لا يفتر عن إقراء العلم صباحا و مساء و صيفا و شتاء بمعنى أنه يديم القراءة و قد اشتغل بالفتوى نحو الأربعين سـنة و مع ذلك حمدت سيرته و قد أخذ طريقته عن الولى بلا نزاع بين تلك البقاع سيدى محمد الصيد رضى اللّه عنه و الصـيد فى لغتهم الأسد و سـمى بذلك لكثرة ردعه للظلام و قهره للجبابرة و هو أخذ عن سـيدى عيسـى بن محمد التلمسانى المشهور بأبى معزة و هو أخذ عن الولى الكبير و العلم الشهير سيدى أبى عمرو القسطلانى المراكشى و كان هذا الشيخ

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۸۶

رضـى اللّه عنه لا يجترئ أحد على معارضته فيما أمر به و لا يتعرض لمن انتسب إليه و ظهرت له كرامات و قد ظهر فضله بسبب شيخه سيدى عيسى المذكور و لذا لم يزل ولده سيدى عبد الحفيظ يبالغ فى تعظيم أولاد سيدى أبى عمرو بل فى تعظيم كل من انتمى إليهم بقرابـة أو خدمـة أو جوار أو غير ذلـك و قال و لقـد أخبرنى من حضـره ذات يوم و قـد غسل سـيدى محمـد بن أبى القاسم من أولاد سيدى أبى القاسم يده صـباحا و رأسه من حناء كان بها فى إنائه فأخذ سيدى عبد الحفيظ ما اجتمع من الغسالة فى ذلك الإناء و شربه نفعه اللّه بحسن اعتقاده و لهـذا السـيد مزيد اعتقاد فى كل من ينتسب إلى الصـلاح و قد نفعه اللّه بذلك فطار صـيته و انتشـر ذكره فى البلاد أكثر من أبيه وهابه الولاة فمن دونهم كما قيل له دنيا عريضة من كل المال قد أتاه نعما و حرثا و غيرهما يطعم منهما الواردين و يواسـى المحتاجين أعانه اللّه على ما به تولاه و رزقه الشـكر على ما أولاه و توفى أبوه سيدى الصيد سنة خمسين و ألف (۱۰۵۰) و قال أيضا لقد أخبرنى محمد بن مساهل المذكور بان قال منذ عرفت الشـيخ سيدى الصيد ما تركت جمعة فى مسجده نحو أربعين سنة آنية ضحى و أصـلى الجمعة و أرجع إلى المدينة إلا لعذر ظاهر و أبقى فى مسـجده إلى أن أصلى العصر فى محلى المسمى بالهنشير و بينه و بين المدينة ستة أميال.

لطيفـة قال أخبرنى أيضا شـيخنا هـذا أن شـيخه المذكور قال أن لأهل اللّه مراغة كمراغة الإبل لا يمر بها أحد منهم إلا تمرغ بها و أنى لأرجو أن يجعلك اللّه مراغـة لأوليائه و لأجل دعوة هـذا الشـيخ لا يـدخل أحد هذه المدينة ممن فيه انتساب لهذا الطريق المبارك إلا كـان أيواؤه إلى هـذا الشـيخ أما بالنزول عنـده أو بالتردد إليه و كان رضـى اللّه عنه يقوم بحوائجهم قـدر الإمكان و يواسـيهم نفعه اللّه بقصده الجميل.

نادرة قال و أخبرنى شيخنا ابن مساهل عن بعض مشائخه أنه قال إذا أذن خلف

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۱۸۷

مسافر فذلك أمان له حتى يرجع من سـفره و روى لنا فى ذلك حديثا و قد فعل لنا ذلك رضـى اللّه عنه حين ودعنا خارج داره فرأينا بركته و الحمد للّه اه-.

أقول

لطيفة و كذا إذا قرأ وراء المسافر قوله:

و حيث اتجهت صادفتك عنايةو ينصرك الرحمان من كل جانب

رجع سالما بإذن اللّه تعالى و قائله هو جبريل عليه السلام إذ قرأه وراء النبى صلى اللّه عليه و سلم حكاه الخفاجى فى شرح الشفاء قال ما قرئ وراء مسافر إلا رجع سالما.

ثم قال

غريبة أخبرنى أيضا أن سيدى على بن الخضر العمروسى ذكره فى شرحه على المختصر أن الزباد المسمى فى عرف غربنا بالغالية نجس و إن كان عرق حى لمروره بمحل البول قال و كان بعض الصالحين لا يتطيب به لذلك و أظنه الشيخ اللقانى قال شيخنا و كنت أتوهم ذلك إلى أن بعث بحضرة سيدى عبد الحفيظ إلى فطاط من الفطوط التى يستخرج منها الزباد و كان عند بعض الأتراك فلما أحضر أمرنا متولى استخراج الزباد منه باستخراجه بحضرتنا ففعل فشاهدنا محل اجتماع ذلك منه خارجا عن محل البول لا يمر به أصلا و إنما هو جليدة رقيقة عن يمين المحل أو يساره يجتمع فيه ذلك العرق و تشتد عليه و تنطوى حتى يؤخذ منها قال فحينئذ أطمأنت نفوسنا و أيقنا بطهارته.

قلت و فى شرح المختصر للشيخ بعد الباقى الزباد كالمسك لخروجه من غير

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۸۸

مخرج البول و الروث و لا- يصل إلى محل خروج بوله و لا روثه كما أخبرنى به مسلم ثقة فى ذلك كذا قال الأجهورى فى كبيره و من خطه نقلت فيكون طاهرا و به أفتى الشيخ سالم بعد التوقف حتى أخبره من له به معرفة و كذا له كما للأجهورى و هو خلاف من هذه الأماكن بملعقة صغيرة أو بدرهم رقيق اه- و اقتصر صاحب القاموس على ما نصه و غلط الفقهاء و اللغويون فى قولهم الزباد دابة يجلب منها الطيب و إنما الدابة السنور و الزباد الطيب و هو رشح يجتمع تحت ذنبها على المخرج فتمسك الدابة و تمنع الاضطراب و يسلت ذلك الوسخ المجتمع هنا بليطة أو بخرقة انتهى كلام الزرقانى بزيادة.

قلت و يؤيد ما للزرقانى ما عاينه الشيخ ابن مساهل المذكور مع من معه فلا يرتاب فى طهارته إذا لبعده عن محل النجاسة لانطواء تلك الجلدة و اشتدادها عليه بعد اجتماعه حتى يؤخذ منها.

ثم قال

غريبة أخبرنى الشيخ سيدى محمد بن مساهل سنة أربع و ستين فى الرحلة التى قبل هذه أنهم سمعوا فى سنة اثنتين و ستين و ألف (۱۰۶۲) صوتا هائلا- فى ناحية البحر كصوت المدافع الكبار من قرب الضحى إلى الليل قال وظنناه سفنا للمسلمين تلاقت مع بعض السفن للنصارى و كما سمعنا ذلك الصوت سمعه أهل هذا الساحل إلى مراتة و سمعه حتى أهل فزان و الإسكندرية و سمعه من الناحية الغربية أهل جربة وسوسة و تونس و كل يظن أنه قريب منه و بعد شهر أو شهرين قدمت مراكب من بر الترك و أخبروا أن ذلك الصوت لأمر هائل و ذلك أن جزيرة من الجزائر خرجت فى بعض نواحيها حجارة تطلع من البحر حتى إذا ارتفعت على الماء و علت فى الهواء تصدعت فيخرج منها نار و يسمع لها ذلك الصوت فإذا خرجت

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۸۹

النار وقعت الحجارة على الماء خفيفة كهيئة الجفافة و دام ذلك إلى الليل و ارتفع من ذلك الجو دخان كثير فيه رائحة الكبريت و أعجب من هذا انهم قالوا أنه أصبح فى ذلك البلد كل ما عندهم من الفضة نحاسا فى تلك الليلة و اللّه أعلم بغيبه قال و هذه المدينة معروفة بأهل الصدق فى الأحوال من المجاذيب و قد أدركنا بها رجلين أو ثلاثة من المجاذيب تؤثر عليهم كرامات و حكايات غريبة تدل على صدقهم فى مواجدهم و كانت فيما مضى فيها مزارات كثيرة لكثير من أكابر الصالحين و لا يعرف منهم الآن إلا القليل كسيدى سالم المشاط صاحب المسجد الجامع الذى بأقصى المدينة و قبره يزار.

قال و سبب خفاء كثير من قبور الصالحين المدفونين أن البلد تداولته أيدى المسلمين و النصارى مرارا عديدة فقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته أن النصارى استولوا عليها فى أيام السلطان أبى عنان و افتداها منهم بخمسة قناطير من الذهب العين فعد ذلك من مآثره انتهى

قال و قد استولى عليها النصارى أيضا فى القرن العاشر. الرحلة الورثيلانية ؛ ج۱ ؛ ص۱۸۹

ت و فى رحلتنا للحرمين الشريفين سنة ست و تسعين و ألف (۱۰۹۶) حاصرها الكفار دمرهم اللّه تدميرا و ذلك أن يوم نزولنا بها بمنزل الركب بسق البحر إذا بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر ثم تتابعت الفك فى اليوم نفسه إلى أن كملت اثنتين و عشرين سفينة فأقاموا عليها دمرهم اللّه بقية الثلاثاء و الأربعاء و الخميس و الجمعة و أهل المدينة فى تلك المدة فى هول عظيم و نكد جسيم و عناء شديد و ليس فيهم مدبر و لا ذو رأى حميد أو نظر سديد بل أخذوا فى نقل أمتعتهم من المدينة لخارجها و حريمهم إلى سوانيهم بالمنشية و لما رأينا ذلك تكلمنا مع وجوههم على فعلهم الغير اللائق فيما يبدو لنا من إظهار الجزع و الجبن لأعداء اللّه الكفرة اللآم الفجرة و قلنا لهم إن هذا الصنع الذميم مما يغريهم عليكم فاصبروا و لا تظهروا لهم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹۰

الوهن و الجبن فقالوا هذا و اللّه منها ليس بجبن و إنما حملنا على ما رأيتم ما أتوا به مما لا طاقة لنا به من البنبة يضربون بها و لا تقع على شىء كائن من كان إلا و هدمته و دكته و المسلمون فى هذه الليالى كلها لا ينامون بل يحرسون على البحر و يطوفون حوله و نحن و ركبنا معهم فى ذلك مستهلون بالشهادة رافعون أصواتنا بالتبكير و ملعنون بالصلاة على البشير النذير عليه أفضل الصلوات و أزكى التحيات من الملك القدير و على آله و صحابته ذوى المنهاج الواضح المنير فلما كان بعد صلاة العشاء ليلة السبت ضربت الكفرة دمرهم اللّه بمدافعهم فرأينا من ذلك ما لم نره قط و لا سمعنا به ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع فإذا بكرة محماة تحكى الشهب خرجت منه صعدت ثم يرمون بأخرى و ترتفع أكثر من الأولى ثم تتدلى هابطة فإذا وقعت بالأرض سمع لها صوت هائل تصمنه الأذان فتصدع فى الموضع الذى وقعت فيه و تتفرق و لا تقع على بناء إلا هدمته و لا على بسيط مستو إلا و حفرته و لا على علية أو أسطوانة إلا و هدمتها و لا على شجرة إلا و أحرقتها أو قلعتها فتمكث فى أعماق الأرض سويعة فتتكسر فيسمع لها صوت هائل أعظم من الأول و نحن فى ذلك كله رافعو الأكف بالذلة و الافتقار و الخضوع و التضرع إلى اللّه تعالى الليل كله و لا نكتحل بنوم قط و ما خرج مدفع من مدافعهم إلا وظننا أنه يقع علينا فتارة تقع حذاءنا و تارة تمر علينا و أكثر ما تقع بالمدينة أو البحر أو قرب المدينة خارجا و فى بعض الليالى و هى من الليالى الهائلة أخذوا فى الضرب الليل كله إلى الصباح بل إلى الضحى لا يفترون عنه ساعة و ضربوا فيما أخبرنى به بعض فقهاء البلد بأزيد من تسعمائة كرة فلما رأينا هو لهم العظيم و معنا النساء و الصبيان و فيهن الحوامل خشينا عليهن أن يقذفن ما فى أرحامهن مما يعاينّ فتحولنا لبعض البساتين المسورة فنزل الركب بها و أدخلنا حريمنا لبعض الديار ثم امسكوا عن الضرب إلى أن صلينا العشاء فضربوا أيضا دفعة واحدة فهاجت عليهم أرياح عاصفة و أفسدت كراهم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹۱

بإخماد ما تعلق بها من نار و عند الفىء عادوا للرمى إلى الضحى فلما قرب الزوال زحفوا إلى المرسى فعافهم من بالبرجين اللذين على البحر من المرابطين بهما البائعين أنفسهم من اللّه و قد لا يخلوان من حارس فى السلم و الحرب وردوهم على أعقابهم بما قذفوهم به من الكرى و المدافع حتى كسروا لهم صندلا صغيرا فنكصوا على أعقابهم و ولوا أدبارهم، و عانقوا أدبارهم، و الحمد للّه رب العالمين فكثر اللغط و العويل بالبلد، فجاء أهل الإسلام من كل وجهة مشاة و ركبانا بعدد و عدد، كل بحسب وسعه، فاكفهرت وجوه الأبطال، و كلحت شفاه الرجال، و شمروا للنزال، و تهيئوا للدفاع و القتال، و احمرت الحدق، فكسا الكفرة الفرق، فارتحلوا إلى أبعد مكان فأبعدهم اللّه و أسحقهم، و أذلهم و أقلقهم، فكاد الإسلام يقتحم بأهله البحر إليهم و أشد الناس حنقا عليهم الحجيج فعملوا على النجاز، و النصال و البراز، و لو لا البحر لأراهم اللّه من أهل الإسلام ما يسوءهم فكتب كل وصيته و أعد الشهادة مغنما، و فواتها مغرما، كل يرجو أن تخرج الكفرة للبر و اجتمعت آلاف مؤلفة من أهل الإسلام الأبطال من أهل الدفاع و القتال و ما رد الكفرة من الخروج إلا ما رأوا من شدة الحزم و قوة العزم، و أبلغ الغيظ من أهل الكفر و الظلم، حتى قالوا يكون بيننا و بينهم صلح على أن يدفع لهم المسلمون جميع ما عددهم من أسراهم و شرط عليهم المسلمون مثل ذلك و الكفار على المسلمين يردوا لهم ما أخذوا منهم قبل

ذلك الزمان فى البحر فى هدنة بينهم و قبل المسلمون لهم ذلك و قدره و اللّه أعلم مائتا ألف ريال فرملية فحينئذ دخل الكفرة المدينة للتسوق و ربما أغلظوا على بعض المسلمين فى القول لتوعد أمير البلد من العثمانى على من أساء على كافر و لو بكلمة بعقاب شديد و هو علج فأغرى ذلك الكفار على المسلمين فصبر أهل المدينة لذلك و أما المغاربة و جميع الحجيج فاغلظوا على الكفرة فاخشنوا لهم فى القول و ربما ضربوهم و لا ألقوا إليهم بالا إعزازا لدين اللّه و إعلاء لكلمة اللّه فرفع الكفرة ذلك لأمير البلد العلج

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹۲

المذكور فقال إن المغاربة شداد على النصارى فاتركوهم لئلا يقع فيكم القتل و لا يد لى عليهم فدعوهم عنكم و تحملوا منهم ما واجهوكم به فأخذوا فى دفع ما شرط عليهم الأمير و صاروا يدفعون لهم الخيل و الزرع و الإبل و لا حول و لا قوة إلا باللّه العلى العظيم و كلمنا علماءهم المالكية فقالوا إن هذا و اللّه هو الصغار بعينه و لا قدرة لنا على ما فعله هؤلاء الأتراك و خرجوا تلك الأيام خارج المدينة مخافة حضور هذا الفعل الذميم.

تنبيه من جملة الدواهى المعضلات أننا دخلنا المدينة للجمعة فجلسنا نتظر الإمام فإذا برجال من أهل الدولتلى أرسلهم بالنداء لا تصلى الجمعة فقام لهم صاحبنا الفقيه سيدى أحمد بن محمد الهشتوكى فقال لهم أن هذا و اللّه حرام لا يجوز كيف تترك الجمعة من غير عذر بيّن و أكثر من ذلك فقام فقيه منهم فقال هذا جائز عندنا فخرجنا من مسجدهم فأتينا مسجدا آخر تصلى به الجمعة المالكية فإذا برسول الدولتلى أتى ينادى بما نادى به أولا فأبى الإمام المالكى فصلاها رضى اللّه عنه قائلا و اللّه حتى أصليها و لو تنفذ سالفتى فصلياها معه جزاه اللّه خيرا و وقانا و إياه ضيرا ثم أجلى اللّه الكفرة عن المدينة يوم الخميس بعد تمام المهادنة و إمضاء شروطها و فرح المسلمون بانتقالهم عنهم و إقلاعهم عن البحر غاية الفرح أخرى اللّه الكفرة و أذلهم و أعز أهل الإسلام و أحاطهم.

نكتة أخبرنى بعض من يوثق به أن هذه الآلة التى يرمى بها الكفرة كانت تصنع من نحاس و حديد و ذهب و فضة و أنواع أخرى من المعادن و يفرغونها على قدر القدر المتوسطة المسماة فى عرف أهل بلدنا بالمقلاة و لها يدان مثلها و بابها ضيق قدر ما يدخل فيه الإنسان ثلاثة أصابع أو أربعة و يأخذون عود الكلخ و يثقبون وسطه طولا و يجعلون فيه فتيلة تخرج من فوقه و أسفله و يملئونها بارودا و مسامير و قطع الحديد

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹۳

و عقاقير و يجعلون هذا العود فى فمها و يسدون عليه بحلقة الحديد و يجعلونها فى مدفع على هيئة المهراس بعد ما يجعلون فيه البارود و يرفعون فم هذا المدفع نحو السماء فإذا مس بنار خرجت النار مشتعلة فى الفتيلة و هى طالعة فى الجو و الريح تنفخها و النار فى الفتيلة و عود الكلخ يزيد اشتعالا بما يصيبه من الريح و ترى فى الجو على هيئة النجم فلا تصل النار إليها حتى تسقط حيث تسقط اه-.

تتمة هذه المدينة و أن نقصت حسا لأنها الآن لم يوجد فيها إلا حمامان و كذا الرباط فيها و مثلها الأسواق غير أنها لم تنقص معنى فإن خيرها كثير و نورها جدير نعم قد وجدنا فيها فرقا من أهل الخير و الدين من طلبة العلم و غيرهم و بالجملة فمن يذوق أحوالهم، و ألقى السمع إليهم، يرى بنور اللّه أفاضل أجلة، و ذوى المعرفة كالأهلة، فليس لك أن تقول قل الخير و أهله، و إنما قل على المحجوب و المعلول أفعاله، و إلا فحضرة هؤلاء كاملة الأنوار ساطعة الأسرار، لا تخلوا مواطنهم من المقربين و الأبرار، فيحق السعى إليهم، مع خدمتهم و مودتهم و التحبب إليهم، ليستمد منهم و يستفيد من أحوالهم، و يقتبس من أنوارهم، ليدخل فى حضرتهم، و يشرب من كأس قربهم، و حينئذ يتخلق بخلق النبى صلى اللّه عليه و سلم فتسرى فيه روحه الكريمة بل تسرى فيه معانى أسماء اللّه و صفاته و ينكشف له بالذوق عن كنه ذاته فترد عليه شطحات إلهية، و مواهب صمدانية، و أنوار فردانية، فيغيب عن الأكوان بقدرة المكون حتى لا- يراها إلا فتنة و بلوى إذ تقول بلسان حالها إنما نحن فتنة فلا تكفر فلا يسير حينئذ سيرة المهل غير أنه لو لا سلطان التمكين لطاش عقله لفجاءة البعث فيقويه اللّه تبارك و تعالى فى مقام الشهود و إلا اضمحلت نفسه لمشاهدة الذات و كذا وصفه لمشاهدة وصفه و فعله لمشاهدة فعله فلا يرى السائر إلا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹۴

ذات المحبوب و صفاته و أفعاله فيصحبه فى ذلك الوقت بعض المحو فيقول الجاهل تكدر وقته، و عظمت محنته، و عالت مصيبته، و المعترض صاحب الحرمان، و غلبت عليه النفس و الشيطان، و إلا- لسلم لمن هذا وصفه إذ هو فى تجليات المحبوب، و الغيب عن المربوب، فجدير أن يؤيد فى ذلك المقام و إلا- فلا- يستطيع أن يحمل ما للباقى إذ الفانى لا قدرة له على ذلك، و لا يتحمل ما هنالك، فيجول قلبه فى معارف اللّه تعالى و إذا تليت عليه آيات القرآن زادته إيمانا و على ربه يتوكل فإذا تقوى عليه اللّه الشهود و سار فى الأرواح ذهب سر الأسرار فى قائمة عروس التجلى فلا ينعكس أصلا فذلك إسراء الأرواح لربهم فيحليها بما حلى به المقربين من عباده و حينئذ تكون له شطحات يشطح بما حلى به أما بسر الذات أو بمعنى الصفات أو بشذاء الأسماء فإذا تغذى بها ظهر ذلك على الأجباح و لذا قال بعض العارفين إذ نزل الوجد على الرأس حركه و على العين أدمعها و على اللسان انطقه بما به شطح و على اليد بطش بها و على الرجل رقصت فحينئذ يغيب الناس بسر اللهوت فينادى لسان الحقيقة بما يشبه الاتحاد فيقول مثلا أنا هو فإذا دام شربه ظهرت أنوار الحق عليه لأن ما فيك، ظهر على فيك، كل إناء بما فيه يرشح، هذا و إن وسع التجلى لا يعرف قدره إلا صاحب التأييد من العزيز المقتدر هيهات من هو دون مقامه، أن يشم رائحة أنعامه، و لا- أن يكون فى قسمة من أقسامه، نعم لا يفهم كلام الأخرس إلا أمه، و فى ذلك الغيب و جمع الجمع يصير ملتقطا لدرر التوحيد، و غرر التجريد، لتجلى بها فى منصة التوحيد، فلا يعلم ما هو عليه إلا من شرب من مشربه، و شرابه يرقيه إلى محبوبه، و إن إلى ربك المنتهى، فيصير هو سمعا له و بصرا و نطقا، و إلى هذا المعنى أشار ابن مالك بقوله «و ذو ارتفاع و انفصال أنا هو» أى الضمير بسر اللهوت المنفصل عن الخلق، المتصل بالحق، فإذا غاب بمحبوبه، يقول فى حال غيبه و محوه، إذ لا يرى إلا ذات المحبوب و أوصافها فلم يبق له سواه ينظر إليه و لذا يقولون الوجود واحد إذ لو

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹۵

تعدد لهلكت العوام و أما من غلب عليه سطوة التجلى تلاشى كل شىء سواه و قال أنا هو غير أنه ممزوج بكدر الاتحاد و لذا لا تسمح الشريعة فى مثل هذا القول نعم صاحب الحال محمول لا حامل فإذا رجع إلى صحوه قال أنت أذلو قال أنا هو مع الصحو لكفر بإجماع لأن اللّه تبارك و تعالى قسم أهل الحق قسمين متلونا و متمكنا فصاحب التلوين ملكه الحال و هو أول مقامات النبى صلى اللّه عليه و سلم و بدايته بدليل قوله زملونى زملونى الحديث إذ التكاليف و التصاريف لا يستطيع البشر حملها و لذا طلب المعونة بالتغطية و الضم ليتيسر حمل أعبائها فلما تمكن يأتيه الملك و لا- يتغير و دليل التلوين قوله تعالى: (الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) الآية و أما التمكين فقوله تعالى: (أَلا- بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) و لقوله أيضا: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) الآية فلما تحقق بعض الفقراء من زماننا بهذا و ظهرت عليه آثار الغيب و المحو لما صاحبهم من الشهود بملاحظة المعبود تحركت همتهم بالشطحات السالفة من أنواع الواردات المختلفة فمن رزق الإنابة سلم لهم أحوالهم، و وكل أمرهم إلى مولاهم، و من حرم و العياذ باللّه كفاه الحرمان و هو أصل كل شقاوة نازعهم فى تواجدهم و أحوالهم و صار يبطلها بأدلة و همية، و تخيلات واهية، و نزغات شيطانية، عله أن يسقطهم فى عين الخلق و من كان فى عين الحق لا يسقطه عن الخلق و اللّه يقول: (تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (۷)) و الذين كفروا بمشاهدة الحق و تحلية القلوب بالحق فتعسا لهم لما تحملوه من الحجاب العظيم غير أن هذا لا يكون إلا من الفقيه الفجّ الذى سولت له نفسه الحمقاء أن يقول ما يوجب الرجوع عن باب اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹۶

تعالى إذ تبت يده أن تصل إلى هذه الأنوار، و انكشفت شمسه عن هذه الأسرار، فحرم الوصول إلى هذه الدار، فخاب سعيه، و طاش عقله، فضل و أضل أن اللّه تولاهم، و لم يتركهم لسواهم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هو أن بعض المنتسبين و الفقراء المتجردين قد برز فى صورة ما ذكر من الأحوال و الواردات و المواجد

فقام بعض الفقهاء ينزح البحر بلسانه هيهات أن يصل إلى بعض معانيه و قد قال أبو يزيد البسطامى أعلى الولاية التصديق بأحوال اللّه أهل اللّه و أدناها التسليم لهم و لذلك نبهنا على أمر هؤلاء فإن فيهم من فتح له فى باب [المعرفة أشراب على الخط السابق] من ورود الشهود على قلوبهم فأوردوها ورود الاتحاد لغيبتهم عن الأكوان بمشاهدة المكون فنطق الكل بحسب شهوده، و تحرك على قدر وجده و صعوده، فلما حلاهم اللّه فى بواطنهم بتلك الحقائق، و عظم أمرهم بتلك الدقائق، و زين ظواهرهم بالإشراق فسقاهم من كأس حبه، و كساه بحلة قبوله، فكانت تنادى بلسان حالها إن هذا مقبول عندنا، و مفتاح لدينا، فمن أحسن إليه أحسن إلينا، و من أساء عليه فقد أساء علينا، فمن أخذ بيده قلبناه، و من تشفع به شفعناه، و من أحبه أسعدناه، و من اعترض عليه رددناه، فصار خليفة فى أرضه، و نائبا عن أحكامه و إبرامه، فمن تعلق به دخل، و من قصده بلغ الأمل، و بالجملة فأسواق الحق عامرة، و أهلها مشهورة، فأهل وروده مذكورة، فإن سعيت إليهم بحسن اعتقاد قضيت مآربك منهم، لأن اللّه يستحى أن يردهم، و كذا يقصم بالهلاك من يبغضهم، لقوله صلى اللّه عليه و سلم من عادى لى وليا فقد آذنته بالمحاربة و من حارب اللّه و رسوله هلك و إنما ذكرت هذا لعلمى بهؤلاء فى هذه المدينة غير أن بعضهم يدعى ما لم يصل إليه و بعضهم يعترف بأقل ما لنفسه و بعضهم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹۷

ينكر مما للّه عليه خوفا من طغيان النفس الأمارة بالسوء حتى يتعجب فيسقط من عين اللّه و إن جحد فحلية اللّه أظهرته، و كرامة اللّه شهرته، و لو أغلق الباب عليه لكسروه، و كذا لو اختفى فى جحر ضب لأظهروه.

و قال الشيخ زروق ما خامر القلوب فعلى الوجه يلوح و آثار الأسرة تدل على السريرة و قال ذلك الرجل للنبى صلى اللّه عليه و سلم لما رأيته عرفته أنه ليس بوجه كذاب و قال تعالى فى حق الصديقين (تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ) و فى حق المنافقين و لتعرفنهم فى لحن القول، الناس حوانيت مغلقة فإذا تكلم الرجلان تبين العطار من البيطار لأن الكلام صفة المتكلم، ما كان فيك ظهر على فيك، و يعرف صدق المرء بثلاث عند مغاضبته أن لزم الحق و اتصف بالصدق و سامح الخلق فهو ذاك و إلا فليس هناك.

فإذا تمهد هذا فأعلم أن مدينة طرابلس خصها اللّه بالصالحين و محبة أهل الخير حتى أنهم لا يصبرون عليهم فإذا شموا رائحة المعرفة فى أحد سعوا إليه بالإحسان جزاهم اللّه أحسن الجزاء و ذلك عام فى عمالة طرابلس لا سيما الزاوية الغربية فإن فيها من الصالحين الموتى ما لا يستطيع أحد أن يعدهم و أما الأحياء فبحسب زماننا هم أكثر من غيرهم و قد قيل إنها تنبت الصالحين كما تنبت الأرض العشب هذا و إن أولاد قد بالغوا فى حبنا وصفوا فى مودتنا حتى أنهم تمنوا أن يكون ما عندهم قد بذلوه لنا و جعلوه قرى لأصحابنا خصوصا سيدى محمد و سيدى بو بكر و سيدى على حاصله تعلقوا بنا صغيرا و كبيرا ظنا أن لنا فيضة إن فاضت عمهم و أبلها نعم من لم يصبه من المحسنين و ابل منا فطل بجاهه صلى اللّه عليه و سلم الذى تعلقنا به و ذهبنا و تعبنا من أجله و إلا فو اللّه علمنا أنفسنا و أيقنا أنها مفلسة قال بعض

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹۸

العارفين ويل لمن ترك يقين نفسه لظن غيره و الويل واد فى جهنم تستعيذ منه جهنم فى كل يوم سبعين مرة و بالجملة ففيها أفاضل لا سيما سيدى ناصر الذى أعتزل بأهله و سكن بيت اخصاص إذ هو و زوجه عجوزة خفيف الحال أى لا مال له و لا أهل و قد تجرد للعبادة و أطعم لنا بسيسة من كديده رضى اللّه عنه و أرضاه بمنه و كرمه و أما سيدى محمد [فانه] أتى إلينا بحمل جمل شعيرا و ضيافة من لحم و غيره نعم أولاد سيدى البشت و أولاد القمود كلهم فى الزاوية الغربية على خير.

فإذا تمهد هذا العلم فاعلم أن فى الزاوية الغربية الصالحين و أهل الخير لا نظير لهم فيما علمت غير أن أهل الجزائر يعنى من سكن المدينة و كذا أهل وطننا فإنهم أعظم منهم لا سيما جبال زواوة فإنهم أكرم شىء فى الوجود إذ يأكلون الردى و يطعمون الضيف الطيب و وطنهم فى غاية الضيق من المعيشة إذ هم خلق كثير لم يكن وطن أكثر منه و قد سمعت ممن يوثق به ممن علم أرض مصر و جبال زواوة فقال هم أكثر من مصر فأضعاف و قد استنشقت بعض الأدلة على وجود الطائفة التى على الحق و لا يضرهم من خالفهم

إلى قيام الساعة أن الكثير منها فى عمالة طرابلس و عمالة زواوة من عمالة الجزائر فلا يشك من خالطهم و ثابنهم أفاض اللّه علينا من بركاتهم و جعلنا فى زمرتهم.

تنبيه مخالطة المتمكن فى طريق من طرق الحق تفيد صاحبها ذلك إذ من تحقق بحالة لا يخلو الحاضرون منها لأن المرء على دين خليله و كل خير و كل شرفى الخلطة و اللقمة و كل ما شئت فمثله تفعل و صاحب من شئت فأنت على دينه انظر قواعد الشيخ زروق و قد منحت بعض الفتح منهم و من غيرهم من الذين رأيناهم فى مكة و المدينة و مصر و غيرها نعم من اعتقد فيهم و أحسن إليهم و سلم لهم و صدقهم رزق

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۱۹۹

عطفهم فلم يبق إلا التعلق بهم فلا يقال قد انعدم هؤلاء الآن و قد قل وجودهم أو على تقدير وجودهم قد ستروا بظلمة الزور و البهتان و دعاوى الزنادقة أو أنهم فى الفلوات من الأرض أو ظهر بعضهم فقد منع الناس منهم الطعن فيهم لا سيما الفقهاء فإنهم قد طبعوا على القدح فى جانبهم و الخدش فيهم نعم لا- تجد فيهم منورا من أجل ذلك إذ الفقهاء إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك و إن بغضوك ذموك بما لم تتصف به و قبله العامة منهم و بالجملة فإن وجدت من فيه رائحة الذوق و ظهرت علامة المعرفة فشد يدك عليه و لا- تصبك غفلة و تفريط حتى تندم عليه لأنه أكسير زمانك فلا تهمل أمرك من هذا و ألق السمع لما نبهناك عليه إذ هم الكعبة للزوار و لا تغمضهم بعين الأزدراء و سوء الاعتقاد فتصير محروما مخذولا ممنوعا خصوصا إن أصابتك الواقعة فيهم فيخاف عليك سوء الخاتمة و العياذ باللّه تعالى هذا و إن من أحسن ظنه فيهم وجد فى طلبهم مع الصدق وجدهم أقرب إليه من ريقه لفيه فى محل لا يظنهم فيه فيحصل له سلم يرقى به إلى حضرة اللّه تعالى يعلم ذلك باليقين و إنما يجدهم مستورين بالقدح و الخدش من هو مثل من يتعاطى الفقه و التطلب إذ خبرة خال عن الخميرة فهم الأسد، فى اجام الحسد، و غيضة الاعتراض، و غابة الانتقاض، و قد علمت ما قالوا فى الزباد من كونه نجسا لقربه من محل النجاسة و معلوم كما سبق انه يحصل من غيره بمعاينة صدوره من قطعة من المبرزين فى العدالة إذ عاينوه كذلك فهؤلاء أعظم منه نفعنا اللّه بهم.

تتمة فق لقى شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر من فضلاء طرابلس سيدى أحمد بن عبد الواحد بن يوسف الزنزورى ثم الفزانى و هو ساكن بزاوية زنزور و أنشد له لنفسه حين وداع الشيخ:

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۰۰ أيا سيدى خفق بانى عبيدكمذليل حقير بين قوم أراذل

و نفس له شيطانية قد بلى بهاهواه و إبليس و دنيا العلائل

أفيضوا عليه سيدى من نوالكمعسى و عسى يعلو على كل كاهل

و يفهم مولاى علوما دقيقةو يمشى خلى القلب من كل شاغل

و من جملة أهل وده هناك من الأئمة الأعلام أبو عبد اللّه سيدى محمد بن مقيل و صهر الأجل سيدى أحمد بن محمد المكنى تقبل اللّه عملهم و أصلح فعلهم إذ أحسنا إلينا غاية الإحسان و فى تلك السنة لحقه الشيخ أحمد بن محمد الهشتوكى أخ له فى اللّه و فى تلك الأيام قرأ هو و أصحابه على شيخه أبى العباس سيدى أحمد القصرى تآليف على الربع المجيب نفعنا اللّه بهم.

نكتة تقدم لنا أن ترجمة لفظة طرابلس ثلاث مدن و الأشهر فى ضبطها فتح الطاء و ضم الباء و اللام و بعضهم يزيد ألفا و يسكن الطاء و قال التجانى فى رحلته و كذلك رأيت الأجدابى يكتبها حيثها وقعت فى خطه و على ذلك قول أحمد بن يحيى من قديم شعرائها فى قصيدة له و هى:

لقد طال شوقى إلى فتيةحسان الوجوه باطرابلس

و قد عيل صبرى فما مسعدى على الشوق إلا دموعى الحبس

قال بعضهم المختار أن تكتب بزيادة ألف فرقا بينها و بين طرابلس الشام فإنها بغير ألف و بخارج البلد محارس قديمة و مساجد كثيرة

مشهورة الفضل و البركة و أثنى البكرى على المسجد المعروف منها بمسجد الشعاب إذ قال إنه أعمرها و أشهرها فى ذلك الزمان و أما الآن فهو خال لا عمارة به و أما زماننا هذا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۰۱

فلم أسمع له ذكرا و فيه فيما مضى جملة وافرة من أكابر الصالحين و العلماء العاملين و مزارات مشهورة من جملتهم أبو محمد عبد اللّه الشعاب [أحد الصلحاء و الفضلاء من أهل طرابلس و كان نجارا فحضرت له نية فى إتمام هذا المسجد الذى نسب إليه و كان بعض الناس قبله ابتدأ بناءه ثم عجز عنه فرمى الشعاب الآلة من يده] و توجه لإتمامه فأتمه و سكن به و يذكر أن الخضر كان يزوره و يحادثه و إنهما رئيا مجتمعين فى المسجد المذكور و سمع يوما بكاء امرأة عند باب المسجد فسألها ما السبب فأخبرت أن لها ولدا أسره العدو و سألته الدعاء فدعا لها و أمنت على دعائه ثم انصرفت لبيتها فأصبح ولدها فى السكك يسأل عن دار أمه فسئل فأخبر بفراره فى البحر و سلامته و وصوله عن عهد قريب فتوجهت أمه إلى الشيخ تشكره و تعرفه بوصول ولدها و ان ذلك إنما كان بدعائه فهنأها بسلامته و قال لها إنما نجاه اللّه بدعائك لما علم اضطرارك و كانت وفاته و رحمه اللّه سنة ثلاث و أربعين و مائتين و منهم الشيخ حطاب البرقى الرجل الصالح يكنى أبا نزار و كان ذا كرامات و خصوصا فى باب المرائى ظهرت له فى ذلك عجائب و كان يخاطب فى النوم بجميع ما يكون فى اليقظة قبل وجوده و التقى بالخضر عليه السلام و ذكر أنه عارضه سبع فقال له أبا الحارث إن كنت قد أمرت فينا بشىء فدونك و إلا فالطريق قال فقرب منى و وقف هنيئة ثم انصرف و حكى أنه قال بينما أنا فى البرية إذ رأيت شخصا فاستغربت وجوده هناك و قصدته فوجدته مفرج بن بياضة فقلت له أبا عبد السلام هاهنا فقال نعم يا أبا نزار فاستغربت معرفته بى مع انه مكفوف البصر و كان مفرج هذا رجلا صالحا من أهل جزيرة تونس المعروفة بجزيرة باش و كان يخرج وحده من بلده إلى مكة فيحج ثم يعود قال فبتنا جميعا و تآنست به و سألته كيف يتهيأ له الحج مفردا فقال يا أبا نزار أنى إذا خرجت من موضعى أسمع قائلا يقول لى يمينك

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۰۲

شمالك أمامك خلفك حتى أصل إلى مكة أو كما قال و منه أبو عثمان سعيد بن خلفون الحسانى المعروف بالمستجاب و أصله من قرية حسان من قرى طرابلس كان زاهدا فاضلا منقطعا إلى اللّه سبحانه و ظهرت بركته غاية فعرف بالمستجاب و قد قال الشيخ أبو عبد اللّه الخشاب القاضى رحمه اللّه خرجت مع أبى الحسن ابن النمر من طرابلس لزيارة الفقيه ابن أبى زيد رحمه اللّه تعالى و سماع العلم عليه فبينما نحن عنده يوما إذ تحدث أبو الحسن فقال أراد الشيخ أبو عثمان الحسانى الحج مرة فاتفق مع جماعة من إخوانه أهل الدين و الفضل و كنت معهم فخرجنا على الوحدة فقطعنا صدرا من الطريق و أقمنا ثلاثة لم نطعم فأنى الشيخ أبو عثمان إلى ربوة فمسح بوجهها بيده و جعل يأخذ من ترابها و يجعل فى إناء كان معه ثم ثراه بشىء من ماء فقرأ عليه أو سمى و قال لنا سموا و كلوا قال فجعلنا نأكل و نتطعم منه طعم السويق قال فطرق الشيخ أبو محمد بن أبى زيد ساعة ثم رفع رأسه و قال هذا داخل فى الإمكان لا سيما و قد ذكرتم أنكم أقمتم ثلاثا لم تطعموا و قرأ قوله تعالى: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ).

و لما رجع المؤدب محرز بن خلف من الحج قيل له من رأيت فى طريقك من الصالحين قال رأيت بطرابلس رجلا و امرأة فأما الرجل فأبو عثمان الحسانى و أما المرأة فسمدونة و كانت عجوزا صالحة تسكن مسجد الشعاب المذكور و كان أبو نزار حطاب الرجل الصالح المذكور يزورها و يعتقد بركتها و هذا كما يحكى أن سحنون بن سعيد لما رجع من الحج قيل له من رأيت من الصالحين فقال لقد رأيت بطرابلس رجالا ما الفضيل بن عياض بأفضل منهم.

و منهم أبو الحسن على بن أحمد الخطيب الطرابلسى أقام ساكنا بمسجد المجاز بها فيما يقال أربعين سنة و كان فقيها صالحا عالما زاهدا و له فى الفقه و الفرائض و الشروط

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۰۳

تأليف مفيدة و أقام أربعين سنة لم يضحك و نحو خمسين سنة لم يحلف باللّه يمينا و قال له ابن أخيه عند ما أملى وصيته أنسيت

الكفارة فقال لو لا أنى فى الموت ما أخبرتك ما حلفت باللّه منذ كذا و كذا محقا و لا مبطلا و ما علمت أن على يمينا أكفرها.

و منهم الشيخ الصالح أبو محمد عبد الوهاب القيسى رحمه اللّه و قبره خارج المدينة بين شرق و شمال يزار و أهل البلد يعظمونه كثيرا و حكى لى جماعة منهم أنه رأى النبى صلى اللّه عليه و سلم فى المنام نحوا من أربعمائة مرة و انه كان يشاور النبى صلى اللّه عليه و سلم فى أكثر أموره فلا يفعل ما يفعل إلا بإشارته قالوا و لم يسمع منه هذا فى حياته و لكنه وجد بعد موته مكتوبا عنده بتواريخه يذكر كل ليلة و ما رأى فيها ثم أوقفنى بعد ذلك بعض أهل البلد على جزء من هذه المرائى و ذكر أنه نقلها من خطه فرأيت فيها غرائب من سؤاله النبى صلى اللّه عليه و سلم عما يفعله فى جميع ما يعرض له من أموره و إشارة النبى صلى اللّه عليه و سلم بذلك بما يراه و دوام ذلك و استمراره فى كل جزئية من جزئياته.

و منهم الفقيه الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد اللّه الأجذابى اللواتى الطرابلسى و قبره معظم يكثر الناس من زيارته و الدعاء عنده و كان من أعلم زمانه بجميع العلوم كلاما و فقها و نحوا و لغة و عروضا و نظما و نثرا و له تآليف جليلة و أسئلة مفيدة فى الفقه و غيره من جملة تآليفه كتابه المتداول المسمى بكفاية المتحفظ و كتابه فى العروض و ناهيك به حسنا و تهذيبا و هو نسختان كبرى و صغرى و كتابه فى الرد على أبى حفص بن مكى فى تثقيف اللسان و كتابه فى شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء و بيان اعتلال هذه الياء استوفى فيه جميع أحكام هذه الياء على اختلاف أحوالها من تصغير و تكسير و غير ذلك و لما استوفى فيه ذلك استيفاء جمليا تعرض لشرح مقاطع الآى الواقعة فى سورة مريم لاشتمالها على كثير

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۰۴

من تلك الأحكام فجاء هذا التأليف فى غاية الإفادة و التحقيق و كتابه المختصر فى علم الأنساب و له تأليف مختصر فى الأنواء على مذهب العرب و رسالته المعروفة برسالة الحول تعرب عن أدب كثير و حفظ غزير و كان الفقيه أبو إسحاق هذا أحول و سبب تأليفه لها أنه حضر يوما طرابلس عند القاضى بها أبى عبد اللّه محمد بن محمد بن إبراهيم بن هانش الطرابلسى فحكم أبو محمد بحكم أخطأ فيه فرد عليه أبو إسحاق فقال له أسكت يا أحول فما استدعيت و لا استفتيت فألف تلك الرسالة و أكثر هذه التآليف ملكتها بخطه و كان رحمه اللّه من أحسن الناس خطا و أخبرت أن الأمير أبا زكرياء رحمه اللّه كان شديد البحث على خطه و سمع أن كتاب الفصيح بيع بخطه بطرابلس [فأبرد بريدا إليه فى البحث عليه و وجه به إليه] و أنه سمع أن بها من كتاب أمثلة الغريب لأبى الحسن على بن الحسين الهنائى المعروف بالكراع بخط الفقيه أبى إسحاق فى ملك بعض بنى النقاد من أعيان طرابلس فوجه إليه فيها فوجه النقادى بها إليه و ملكت بخطه أيضا تأليفه الذى اختصر فى كتاب أنساب قريش تأليف أبى عبد اللّه الزبير بن أبى بكر بن عبد اللّه بن مصعب بن ثابت بن عبد اللّه بن الزبير بن العوام رحمه اللّه تعالى و حسبك بهذا التأليف الجليل علما و فائدة و هو كما كان الشيخ أبو الحسن بن مغيث رحمه اللّه يقول هذا كتاب العجب لا- كتاب النسب و رأيت الفقيه أبا الحسن قد أدخل من حفظه فى نفس هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد نبّه عليها و كفى بهذا الرجل المعظم الغرد لهذا القطر و لم تكن له رحلة عن بلد طرابلس إلى غيرها و قد سئل أنّى لك هذا العلم و لم ترتحل فقال اكتسبته من بابى هوارة و زناتة و هما بابان من أبواب البلد نسبا إلى من نزل بهما أول الزمان يشير إلى أنه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۰۵

إنما استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس و يدخل من هذين البابين من المشرقين و المغربيين و كان له اعتناء بلقاء الوفود و قيام بضيافتهم و أخبرنى بعض الطلبة أن خط أبى إسحاق باق إلى الآن فى بعض جدر داره من طرابلس و هى فى وسط البلد بمقربة من الجامع الأعظم و على مسافة يسيرة منها من جهة غربيها دار الفقيه أبى الحسن على بن محمد بن النمر الطرابلسى [الفرضى المشهور بفضله و علمه و رئاسته و هى مواجهة لمسجد يعرف بمسجد ابن فرج أضيف إلى الفقيه أبى مسلم موسى بن فرج الهوارى الطرابلسى لا قرائه به و توفى أبو مسلم هذا سنة اثنتين و أربعين و أربعمائة] و كان مولد أبى الحسن بطرابلس قديما سنة ثمان و أربعين و ثلاثمائة

و له تآليف فى الحساب و الأزمنة و غير ذلك سوى كتابه المشهور المسمى بالكافى فى الفرائض و قد لقى الشيخ أبا محمد بن أبى زيد و قرأ عليه و ارتحل إلى مكة سنة تسع و ثمانين فلقى بها أحمد بن زريق البغدادى و روى عن أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه الجوهرى ثم عاد لطرابلس فلم يزل بها إلى سنة ثلاثين و أربعمائة فخرج منها لمحنة جرت عليه فتوجه إلى موضع يعرف بغنيمة بالغين المعجمة و النون قرية من قرى مسلانة فسكن بها إلى أن توفى هنالك سنة اثنتين و ثلاثين و قبره الآن على الطريق بها و الناس إلى الآن يزورون قبره و يتوسلون إلى اللّه عنده و يذكر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۰۶

أهل تلك الجهة إن كل رفقة استصحبت شيئا من تراب ذلك القبر فإنها لا يتعدى عليها أحد فيهم لا يزالون ينقلون ترابه فيجدده من يقصد الأجر من أهل تلك الجهة أو من المجتازين عليه و هو أول من أظهر السنة بطرابلس لما كانت فى أفريقية الوقعة المعروفة بوقعة الشارقة سنة سبع و أربعمائة قتل فيها الشيعة و اتباعهم و على يد الفقيه أبى الحسن قتل بطرابلس من قتل منهم و أول من قطع من الآذان حى على خير العمل و أذن فى ذلك اليوم أذان أهل السنة بنفسه و قد قتل بنو عبيد بشرا كثيرا أسقطوا هذه اللفظة من آذانهم تعمدا أو نسيانا و أول من أقام للناس بطرابلس صلاة القيام و قد كان رسم هذه الصلاة انمحى من أفريقية قال الشيخ أبو الحسن القابسى رحمه اللّه تعالى لما دخل بنو عبيد القيروان أرادوا أن يمنعوا الناس من هذه الصلاة قال و ليس شىء أشد على بنى عبيد من هذه الصلاة فقيل لهم أنكم توغرون بهذا الفعل قلوب العامة فإنهم يقولون منعونا من الصلاة فأمروا الأئمة أن يختموا كل ليلة ختمة كاملة و إن لا ينقصون شيئا منها فصلى الناس من أول ليلة بوفره فلما كانت الليلة الثانية نقصوا و لم يزالوا ينقصون لثقل ما كلفوا به حتى خلت المساجد منهم كما أرادوا و أسقط الناس القيام بهذه الصلاة فكان الشيخ أبو الحسن ابن النمر أول من أحيى رسمها بطرابلس و قدم أبا مسلم موسى بن فرج فصلاها بالجامع الأعظم و لم تكن قبل ذلك صليت به لأنه من بناء بنى عبيد و أول من أطلق للناس صلاة الضحى جهارا و لم يكن أحد فى مدة بنى عبيد يصليها إلا مستخفيا بها فإن ظهروا عليه قتلوه و مر بعض عمالهم برجل على شاطئ البحر يصلى وقت الضحى فسأله عن صلاته فذكر انه كان جنبا فلما مر بالبحر نزل و اغتسل و قضى صلاة الصبح فلم يقبل ذلك منه و أمر به فألقى فى البحر إلى أن مات انتهى كلامه .

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۰۷

نكتة و هذه المزارات كلها خفية مندرسة غير جلية و كذلك غيرها مع ما احتوت عليه المدينة من المزارات الكثيرة و ذوى المكانة المشهورة تأوى إليه الجهابذة من الزهاد [و الأئمة الأفراد] لقصد الرباط و حراسة الإسلام لكونها ثغرا من الثغور العظام و لما تداولتها أيدى الكفرة خفيت مراسمها و اندثرت معالمها و ذكروا أن الاستيلاء الأخير [الذى استولى الكفرة دمرهم اللّه] عليها كان سنة ست عشرة و تسعمائة يوم ستة عشر من المحرم و افتكت منهم عام ثمانية و خمسين و تسعمائة (۹۵۸) قال أبو سالم العياشى فى رحلته و تاريخه فقط قولك جاء الترك بسن و افتكها منهم درغوت باشا و كان بجربة و مراد باشا فى مسلانة و بقى بها درغوت إلى أن توفى بها و قبره الآن بها يزار و عليه بناء عظيم و سبب أخذها من العدو أن مراكب المسلمين جاءت من أصطنبول مددا للعمارة المحاصرة لحلق الوادى بتونس فمرت بساحل طرابلس فكلمهم أهل السواحل فى أعانتهم على النصارى فقالوا أنا لم نؤمر بذلك من السلطان فقال لهم الباشا مراد أعينونى فى هذا الأمر فإن كانت عقوبة من السلطان فأنا المؤاخذ بها دونكم فحاصروها برا و بحرا إلى أن أخذوها فذهب معهم مراد باشا إلى السلطان فقال له إن كانت عقوبة فأنا المؤاخذ بها دون هؤلاء الأمراء فرضى عنه و عنهم و أكرمهم.

و أما أخذ النصارى لها فذكروا لذلك قضية غريبة و هى أن أهل هذه المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فبينما يقال و ليس فيهم غناء و لا لهم بالحرب خبرة فبينما هم كذلك إذ قدمت عليهم سفن النصارى تجارا بسلع كثيرة فنزلت بالمرسى فخرج

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۰۸

إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع و نقد لهم ثمنها ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاما فاخرا فلما

أخرج لهم الطعام أخذا ياقوتة ثمينة فدقها دقا ناعما و ذرها على طعامهم فبهتوا من ذلك فلما فرغوا قدم لهم دلاعا فطلبوا سكينا لقطعها فلم توجد فى داره سكين و لا عند جاره إلى أن خرجوا إلى السوق فأتوا بسكين فلما رجعوا إلى بلدهم سأله ملكهم عن حال البلد الذى قدموا منه فقولوا ما رأينا بلادا أكثر منها مالا و أقل سلاحا و أعجز أهلها عن مدافعة عدو فحكوا له الحكايتين فتأهب ملكهم لدخولها فى مراكب فى البحر فدخلا فى ليلة واحدة بلا كثير مشقة و استولى عليها و لم ينج من أهلها إلا من تسور ليلا و انحاز المسلمون إلى تاجوراء و جبال غريان و مسلاتة فصارت المدينة للنصارى إلى أن كان من أمرها ما كان فى التاريخ المذكور انتهى أدامها اللّه للإسلام و حاطها بالنبى عليه السلام.

و من جملة أصحاب سيدى أحمد بن ناصر سيدى محمد المكنى كان من أعلم أهل هذا الساحل فقيها لوذعيا خير خلف عن خير سلف تولى الفتوى ببلده مرارا و اشتغل بالتدريس و له مشاركة حسنة فى فنون العلم مات قريبا من عام ستة و خمسين و ألف و له ولد اسمه محمد اشتغل بالقراءة على سيدى محمد بن مساهل و على غيره و كان له ذكاء عقل و زيارة نبل فتمهر فى كل فن و تولى القضاء بعد عزل شيخه فحمدت سيرته و ظهرت نجابته و سدده فى فتواه.

و من أحبابه أيضا سيدى محمد بن مقيل جد أخينا فى اللّه و أصدق الإخلاء سيدى محمد المفتى الآن و السيد عبد السلام بن عثمان و ممن أكرمه فى رحلته هذه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۰۹

سيدى محمد المكنى و سيدى محمد بن مقيل و أولاد ابن غلبون و أهل سيدى على النجار و سيدى أحمد بن جابر و صهره سيدى عبد الظاهر و سيدى محمد بن عبد اللّه بن فرج اللّه و غيرهم و سيدى عبد اللّه بن يحيى و سيدى حامد بن محمد التواتى و ابن عمه سيدى عبد اللطيف بن عبد القادر و كثير من الفضلاء ممن لقيه فاللّه ينظمنا و إياهم جميعا فى سلك أهل ولايته المحفوفين بعنايته المحفوظين منه برعايته آمين انتهى كلامه باختصار بعضه باللفظ و بعضه بالمعنى.

انعطاف إلى ما نحن بصدده فأنا أقمنا بها ثمانية أيام أولها يوم جمعة و آخرها مثله غير أن بعض الركب خرج يوم الخميس إلى تاجوراء و نحن قد تخلفنا مع بعض أفاضل أصحابنا إلى صبيحة يوم السبت مشتغلين بأمر الزاد المبعوث فى السفينة و من يركب فيها من أصحابنا فل ننفصل عنهم حتى خفف الركب أثقالهم بوضعه فى السفينة معتمدين علينا إذ عادة السفن فى تلك المدينة تتأخر إلى آخر رمضان فربما عاقهم ذلك عن الحج فلما علمنا ذلك حضضا الأمر من صاحب الولاية محبنا فى اللّه و معتقدنا الأجل محب الصالحين سيدى على باشا [بانفصالها] من غير تراخ بعد ذهابنا و أخذنا العهد منه على ذلك و قد أحسن إلينا هو و أصحابه بأن ركبوا فيها الفقراء و الصعاليك بغير عوض و إنما ذلك لوجه اللّه ثم لوجهنا نحو الخمسين رجلا أو ما يقرب منها و قد ركب فيها من إخواننا الفضلاء ولد الأخ سيدى أحمد الطيب سيدى محمد و الفقيه الفاضل سيدى أحمد بن أبى القاسم و مثله فى الفضل سيدى عبد الكريم و نظير الجميع سيدى محمد اليعلاوى و الشريف الفاضل الأجل محب الخير و أهله أمير زواوة سيدى محمد بن بوختوش رحمه اللّه إذ مات بعد رجوعنا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۱۰

من المدينة و سيدى محمد المحفوظ و غيرهم و أما العامة فنحو الثلاثمائة و الحمد للّه لم يمكثوا فى البحر إلا اثنى عشر يوما و نزلوا الإسكندرية عند الحاج أبى القاسم القراوى صاحب ولاية طرابلس إذ زبر له الأمير كتاب على ذلك فأكرمهم و أحسن إليهم جازاه اللّه أحسن الجزاء آمين و بالجملة فكان الإحسان من الأمير و عماله لنا و لأخواننا فى الركب و للفقراء فكل ما سألناه و طلبناه لهم منهم إلا وجد بحب و كرامة رغبة فى صالح الدعاء له و لذريته حتى انفصلنا عنها على أحسن حال و أكثر فرحى بهذا الأمير لما قام بحق الفقراء نعم أقام جماعة من بلد المنشية مع عامله القائد يحرسون الركب ليلا من السراق إلى أن ظعنا من عندهم و ما فعله قط بركب من الأركاب إلا لنا حبا فينا و رغبة فيما لدينا شكر اللّه سعيه و لا خيب قصده و أدام الستر عليه و على أولاده إلى قيام الساعة مع عدم

الضد و وجود الهداية و الشفقة و العدل و الرحمة لأنفسهم و للمؤمنين كان اللّه لنا و لهم وليا و نصير و قد أحسن إلينا جميع المحبين كل الإحسان بحيث أن من لم يصدر منه ضيافة تمنى أن يضيفنا أحسن اللّه إليهم لا سيما سيدى محمد بن مقيل و أصحابه و أما العارف باللّه الذى علمه اللّه العلم اللدنى فانه يفهم الدقائق من الحقائق و المعاريف إذا لهم لطلب كل داء فى الدين فلا يغفل طرفة عين عما يصلح به و بأحبائه حتى يكونوا على المحجة البيضاء يعلم ذلك من ثافنه و خالطه و أنى صاحبت كثيرا من الناس غربا و شرقا و جوفا و قبلة ما رأيت من يفهم عن اللّه مثله فانه له ملكة عظيمة يفهم بها المعاريف الإلهية حاصله قد فتح اللّه له فى التعرف ما لم يكن لغيره و مع ذلك ليس قاصرا فى العلم الظاهر فترى معاملته و مخالطته ليس إلا على الشريعة المحمدية و مع هذا لا يغفل عن المواساة لمن يعرفه و من لا يعرفه خصوصا المحتاج فإنه أزيد رحمة و أقوى شفقة و أحسن رفقة و ما

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۱۱

أشده صبرا و تحملا لإذاية الإخوان و الأحباب خصوصا فى السفر و هو الذى يؤدى حقوق الأخوة فيشاطر بالمال غير ما مرة إخوانه أولى من نفسه و هو معى بأزيد من هذا بحيث لا يملك لجانبا شيئا و من كان معنا فى الرفقة كان فى داره ذهابا و إيابا و كذا ما معنا من العيال و الدواب كل ذلك فى عياله و أوصافه تقصر العبارة عنها لكن التلويح يغنى عن التصريح نعم الكل شمل واحد و أمر الجميع متحد و مهما عزمت على شىء و وصلت إليه ذهب من غير موادعة و لا كلام منه إلى و لا منى إليه فى جميع ما حتجت إليه فحزمت و جزمت و جزم أن قرابتى و قرابته أيد اللّه الجميع بالتمكين و حلى جميعنا بحلية المتقين و ودعنا من فى المدينة من العلماء و الصلحاء لا أحصيهم عددا إذ كثير من يحبنا لا أعرف أسماءهم و أما فى المنشية فأكثر من أن يحصى هذا و إن أهل الصلاح بالمنشية و الساحل و الهنشير و أفرون بحيث من فيه قوة الشم يعلمهم بنفس رؤيتهم إلا من أصابه زكام المعاصى و تراكمت عليه الحجب فلا يظهر له أحد و قد قال على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه المرء مخبوء تحت لسانه إن تكلم فمن حينه و إن سكت فمن يومه اه- أى إذا تكلم عرف حاله من كلامه إذ ما كان فيك ظهر على فيك كل إناء بما فيه يرشح إن عسلا فعسل و إن خمرا فخمر و إن سكت فمن يومه أعرفه من أفعاله كحركاته و سكناته إذ كل ذلك لا بد و أن يكون موافقا للسنة المحمدية إذ لا يجوز للإنسان أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم اللّه فيه و لا شك أن كل حركة و سكون يصدر منك إلا و أنت مسئول عنه لم تحركت و لم سكنت و بالجملة فأهل هذا الوطن خيرهم ظاهر و حملهم بيّن و حبهم لأهل اللّه قوى.

و لما خرجنا من دار أخينا فى اللّه و الود من أجله سيدى محمد الشريف اجتمعت الشرفاء صغيرا و كبيرا و كذا جيرانهم و غيرهم من أهل الخير كالسوق و أعظم محبة فى اللّه و رغبة فيما عنده [فكنا فى التوديع من صبيحة ذلك اليوم حتى ارتفعت الشمس

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۱۲

ارتفاعا ظاهرا جليا ثم كذلك] فى التوديع إلى أن وصلنا إلى قرب الهنشير خرج لتوديعنا أولاد الشيخ سيدى الصيد كأولاد سيدى أبى بكر نجل الشيخ سيدى عبد الحفيظ و أولاد سيدى عبد اللطيف فودعونا أيضا مع أصحابهم و هم من المحسنين إلينا ثم ذهبنا بعد ذلك مع التوديع إلى أن وصلنا أطراف تاجوراء فدخلنا لزيارة الفاضل الكامل الصالح الكبير السن عظيم الشأن واضح النجاح ظاهر الصلاح سيدى عبد اللطيف أنا و جماعة من طرابلس سيدى الشيخ المفتى سيدى محمد بن مقيل و عوض ولدنا سيدى محمد نجل الفاضل العالم محبنا سيدى محمد بن محمد العربى و جماعتهما فدعا لنا بالخير و قد رغب فينا رغبة عظيمة إذ كان محبا لنا فيما مضى و محسنا إلينا غاية الإحسان فقد كان أصدق الناس لدينا غير أنه كان قبل ذلك يسمع و يبصر فالآن ثقل سمعه و ضعف بصره فلا بد من مسمع و المسمع له ولد بنته إذ هو الذى يخبره أن هذا فلان و فلان و لما علم بنا شد يدى شدا وثيقا رغبة و حبا و شوقا و عشقا فينا و قد سر بنا سرورا عظيما أظنه و اللّه أعلم انه من قوم لا يشقى بهم جليسهم حقق اللّه له ذلك بمنه و كرمه آمين فلما خرجنا من عنده لقينا جماعة من فضلاء تاجوراء كطلبة الشيخ سيدى محمد بن النعاس و بعض أولاده و أولاد أخيه و كذا أهل الفضل من تلك القرية من الفقراء و المرابطين و العلماء و الصلحاء و من فيه نسبة من النسب المعظمة شرعا إلا أتى إلينا رغبة فى الدعاء من جانبنا و نحن

كذلك بل أشد رغبة و الفقير المضطر الخائف من ذنبه الوجل من عذاب ربه زابر هذا الكتاب فانه متعلق بهم و مريض بحبهم فليس مقصدى و منيتى إلا السكنى فى أرضهم لكثرة خصب أهل المحبة بحيث لا يصيبك ضيق و وحشة فإن حى ليلى عندهم عامر بما فى القلب مشغوف إلا أن الموانع الشرعية منعتنى من الإقامة هناك و قد كثر عيالى أعنى بناتى و أولادى و محاجرى الذين قدّمت عليهم و نيّبت عنهم و لم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۱۳

تكن لى رغبة بعد المجاورة عنده صلى اللّه عليه و سلم إلا فى هذا المحل و إن كان وطننا كذلك فى الحب و أهله غير انه كثرت فيه العوائق و العلائق حاصله كلت العبارة عن النزر القليل من أوصافهم الحسنة غير أن ما ذكرناه فيه الكفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد.

[و تاجوراء هذه قرية طيبة فيها أشجار و فيها فاكهة و نخل و رمان نعم] رمانها لا نظير له فيما رأيت إلا فى مواضع قليلة و قد وجد فى قرية عندنا تسمى بقرية أمالو فإن رمانها أولى من هذا و أحلى منه و فيها مدرسة كان يقرأ فيها الشيخ النعاس و بعد ذلك قرابته و قد علمت أن محل العلم محل عظيم عند اللّه يجب علينا تعظيمه شرعا فإنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم نعم صليت الظهر فيها و ذهبنا منها.

تتمة أقول قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر ف رحلته ما نصه أقول تاجورة بوزن باكورة قال التجانى و هى قرية عامرة و بها قصر متسع يجتمع على دور كثيرة و فى وسط هذا القصر حصن أقدم منه بناء يقال أن حميد بن جازية ابتناه و شارك فيه فى العمل بنفسه ليحصن أهل الموضع على إتمامه و هو الذى عمر هذه القرية و نقل إليها أهلها من أرض هنالك تعرف بأرض عبد ربه و كان ابتداء عمارتها عام خمسين و خمسمائة (۵۵۰) و هم يدعون أنهم من العرب و ينتسبون إلى تميم و يذكرون أنهم سكنوا الأرض المعروفة فأرض عبد ربه من حين الفتح الإسلامى ثم نقله منها حميد إلى هذه القرية قال و بتاجورة السفرجل الذى لا يوجد فى بقاع الأرض مثله قال و ليس يقرب منه إلا السفرجل الموجود فى نفزاوة انتهى.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۱۴

قلت و الذى نعرفه فى ضبط هذه البلدة تاجوراء كعاشوراء انتهى.

تتمة أننا نزلنا فى وادى المسيد فوق المسجد و هو واد متسع و الركب سبقنا و نزل فى وادى الرمل و هو واد متسع ماؤه لا ينقطع فى جميع الأزمنة الأربعة و ذلك بأواخر شعبان و معنا جماعة من المحبين ذهبوا معنا لتوديعنا كالولد الصدوق الشيخ المفتى سيدى محمد و خواص أصحابه و صاحب معه طعاما و لحما وليما و غير ذلك من أنواع الأطعمة و معنا أصحاب سيدى محمد الشريف سيدى محمد بن عبد الخالق محب الجميع و بعض الأشراف و ولد المحب فى اللّه و هو أخ لنا و عوض ولدنا سيدى محمد نجل الشيخ الولى الصالح سيدى محمد ابن سيدى محمد المعزى ثم رجع الجميع عنا و ودعنا فى يد اللّه تعالى أقول قال شيخ شيوخنا المذكور ما نصه و نزلنا غافقا بعد العصر قال التجانى و هو قصر خرب خال من العمارة انتهى و به الآن بئر غزيرة الماء ينزل إليها بادرج و ماؤها لا بأس به.

ثمر ارتحلنا منه و مررنا بواد يقال له وادى الرمل و هو واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه كما ذكرنا و مبدؤه من الجبل قاطعا إلى البحر لا بد لكل مشرق يجعل الجبل يمينه و مغرب يسرته و هو واد مخصب من أعلاه فيه مزارع تخرج إليه ماشية أهل طرابلس و سواحلها أيام الربيع و ربما أخرج الحجاج إليه إبلهم مع رعاتها أيام أقامتهم بطرابلس واصل مائه من عيون تنبع فى أثنائه تبتدئ من مسافة قريبة من الجبل إلخ ثم قال و قال التجانى و فى عالية عند سفح الجبل قصر يعرف بصيبان بكسر الصاد المهملة تليها ياء معتلة ثم باء مفردة و هو معمور قال و بقرب البحر فى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۱۵

أسفل هذا الوادى بئر تعرف ببئر طشاتة بضم الطاء المهملة و تشديد الشين المعجمة بإزاء قبر يعرف هذا الموضع به فصار القبر علما له و هو لرجل من العرب ثم من ذباب ثم من بنى عيسى منهم و اسمه شهران بن عيسى بن عامر بن جابر بن فائد ابن رافع بن ذباب و

كان هذا الرجل ذا رئاسة فى قومه وصيت بعيد و اشتهر بالكرم فلم يذكر منه فى وقته غيره و فيه يقول شاعر العرب:

حمى الأرض شهران بن عيسى بن عامرو عرض الفتى أن ضيع المجد تالف

و الأعراب الآن نزلوا هناك و لم يكن لهم زاد أقاموا على قبره فنادوه يا شهران بن عيسى أقر ضيافك فيذكرون أنهم لم يبيتوا قط دون عشاء أما بصيد يباح لهم أو فضالة يلقونها أو بغير ذلك قال و هذا الأمر حدثنا به جماعة منهم و هو مشابه لما يذكره المؤرخون على حاتم الطائى أنهم كانا ينزلون بقبره فيقريهم و فى ذلك يقول الشاعر يمدح عدى ابن حاتم:

أبوك أبو سباقة الخير لم يزلدن شب حتى شاب فى الخير راغبا

قرى قبره الأضياف إذ نزلوا بهو لم يقر قبر قبله الدهر راكبا

و حكى أبو عبيدة قال نزل أبو الخيبرىّ فى نفر من قومه بقبر حاتم فجعل يناديه يا أبا عدى أقر ضيافك و قال له أصحابه كيف تنادى رمة بالية فقال أن طيئا تزعم انه لم ينزل به أحد قط إلا قراه فناموا فانتبه أبو الخيبرى مذعورا ينادى و اراحلتاه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۱۶

فاستفهمه أصحابه على أمره فقال خرج حاتم بالسيف و أنا أنظر إليه حتى نحر راحلتى فنظروا إلى راحلته تتشحط فى دمها فقالوا له قد و اللّه قراك و أخذوا يأكلون من لحمها ما شاءوا ثم ارتحلوا صباحا فنظروا إلى الركب يقود بعيرا و هو يسأل عن أبى الخيبرى فقالوا له من أنت فقال أنا عدى بن حاتم و إن حاتما أتانى الليلة فذكر ما تقدم من ذبح بعيره و أتى له حينئذ بعوضه و لذا قال الشاعر :

أبا الخيبرىّ و أنت امرؤ لوم العشيرة شتامها

أتيت بصحبك تبغى القرىلدى حفرة صرمت هامها

أتبغى لى الذم عند المبيتو حولى طى و انعامها

و أنا نشبع أضيافناو نأتى المطى و نعتامها

و قد أمرنى أن أحملك على بعير مكان راحلتك فدونكه اه-.

و مررنا بعد بوادى المسيد و هو كالذى قبله أو أخصب منه و ماؤه غزير لا ينقطع على الدوام أيضا و يكثر فى أوقات السيل لأنه يجتمع إليه ماء جبال مسلاتة من أعلاها إلى أن قال و بهذه المراحل شجر العشر كصرد القاموس فيه حرّاق كسرد و لم يقتدح الناس فى أجود منه و يحشى فى المخادّ و يخرج من زهره و عشبه سكر معروف و فيه مرارة قال التجانى و هو شجر ناعم النبات شديد الخضرة إلى السواد مائل هو ينبت صعدا و له أوراق عظيمة و نور مشرق حسن المنظر كنورة الدفلى و تمر أخضر تملأ الواحدة يد حاملها و هى مملوءة بشىء يشبه القطن تسميه العرب الخربع بضم الخاء المعجمة و سكون الراء و ضم الباء و ربما حشيت منه المرافق و الوسائد.

قال و أخبرنى من يوثق به أنه رأى ثيابا صنعت منه و لا يأكله حيوان و هو شجر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۱۷

كثير اللبن و ليس شىء من اللبن على اختلاف أنواعه أكثر لبنا منه و يجنى منه مغافير واحدها مغفور بضم الميم و هو صمغ حلو كريه الرائحة يقال له سكر العشر و فى الحديث أكلت مغافير و هو من هذا و لا تكون المغافير إلا فيه و فى العرفط و الرمث و الثمام أكثرها مغافير و ليس فى كلام العرب مفعول بضم الميم إلا مغفور هذا و مغرود بالغين المعجمة لضرب من الكمأة و منخور لغة فى المنخر و منابت الشعر القيعان و بطون الأودية و قد ينبت بالرمل.

قال ابن البيطار فى أدويته و لم أر منه شيئا بالأندلس و أول ما وفقت عليه بظاهر طرابلس الغرب بالجهة الشرقية منها يشير إلى هذا الموضع ثم قال بعد ذلك بديار مصر بظاهر القاهرة إلى أن قال ثم قال التجانى و كانت العرب تستجلب المطر إذا احتبس عنهم بشجر العشر و شجر السلع بفتح اللام و السين قلت و فى القاموس السلع محركة شجر مر أو سم أو ضرب من الصبر بفتح الصاد و كسر الباء و بقلة خبيثة الطعم قال يعمدون إليها فيأخذون منها أغصانا فيجعلونها فى أذناب البقر و يشعلون النار فيها ثم يصعدونها إلى الجبل

فيزعمون أنهم يمطرون فى وقتهم و هو قول أمية ابن أبى الصلت:

سنة أزمة تخيل بالناس مترى للعضاه منها صريرا

لا على كوكب يلوح و لا ريح مجنوب و لا ترى طخرورا

و يسوقون باقر السهل للطود ممهازيل أوشكت أن تبورا

عاقدين النيران فى ثكن الأذناب ممنها لكى تهيج البحورا

سلعا ما و مثله عشرا ماعائلا ما و عالت البيقورا

تخيل بالناس أى تطعمهم فى المطر و الطخرور القطعة من السحاب بالخاء المعجمة و بالحاء المهملة و البيقور جماعة البقر و هو ضرب من السحر و للّه در القائل

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۱۸

يعيب عليهم فعلهم هذا:

لا دردر رجال خاب سعيهممستجلبون نزل الغيث بالعشر

أجاعل أنت بيقورا مسلعةوسيلة لك بين اللّه و المطر

قلت و هذا من جهل العرب و هو كثيرا إلى أن قال و فى تورغت بئر عذب ماؤها حفرها الأخ فى اللّه سيدى عبد السلام بن عثمان و غرس عليها شجرة من شجر التوت لقصد ابن السبيل فيشرب من ماء البئر و يستظل بظل الشجرة تقبل اللّه منه و شكر سعيه و قد صدق فى ذلك لكون المحال معطشة فى زمان القيظ.

غريبة و ذكر شيخنا العياشى فى رحلته قال أخبرنى الشيخ الأجل قاضى مدينة المقدس محمد النفاتى التونسى أيام لقائى له بالقدس الشريف أنه حج فى صغره مع أخيه أبى الحسن النفانى أمير الركب فمروا بهذا المكان فى زمان القيظ فالجأهم العطش إلى بئر فى وادى ينّوت إلى أن قال يعنى أن الركب اضطرهم العطش إذ قليل ما يسقون منه فنزلوا عليها قائلة و وافقتهم هنالك فقول قدمت من فزان حاجتهم مثل حاجتهم فمن قائل يقول نرتحل هذا الوقت لندرك الماء قبل حلول الهلاك و من قائل نؤخر إلى آخر النهار قال لى الشيخ فدخلت على أخى فأخبرته بذلك و قلت له أن الناس قد اشرفوا على الهلاك و اضطرب أمرهم فى الرحيل فأمرهم بالرحيل لئلا يهلكوا قال فاغتم لذلك و استند فى خبائه كالنائم فلما أفاق قال لى ناد فى الناس بالإقامة و قل لهم يذهبوا لسقى الماء فقلت له أبك جنون أنا أخبرك أنه لا قطرة فيها و الناس قد اشرفوا على الهلاك فقال لى أفعل ما أمرتك به فقلت له لست بأحمق أنادى بالإقامة على غير ماء فلما أبيت نادى خديمه الغلام و قال له ناد فى الناس بالإقامة و الذهاب لسقى الماء فلما سمعت ذلك استحييت و تغيبت فأقام الناس و ذهبوا إلى البئر فوجدوها قد امتلأت بالماء حتى كاد أن يفيض من جوانبها فاستقى الحجاج

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۱۹

و جميع القوافل و الماء كما هو.

و قال لى الشيخ فلما رأيت ذلك ذهبت إليه و قصصت عليه الخبر فقال لى لما أغفيت عند ما أخبرتنى بخبر الناس رأيت النبى صلى اللّه عليه و سلم فى النوم فقال لى مر الناس بالإقامة فعلمت أن اللّه سيجعل لهم من أمرهم فرجا قلت و لا يستعبد هذا فى حق وفد اللّه وزوار نبيه صلى اللّه عليه و سلم فإن للّه بهم عناية و لهم منه أعظم وقاية.

و لقد أخبرنى عن أخيه هذا بأمور من جنس هذا فى سفرته تلك و فيها توفى بقرية الينبوع التى ينزلها الحاج و قبره إلى الآن ظاهر عليه بناء خفيف على تل مشرف بحرى منزل الركب المغربى و كنا نزور قبل ذلك المحل و لا نعلم من دفن فيه حتى أعلمنى القاضى المذكور و اللّه يغمرنا و إياه رحمته آمين اه-.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هو انه لما ودعنا أحباؤنا المذكورون توديع ذى كآبة عند الافتراق مررنا مسرعين لنلتحق الركب إذ سبقنا

بساعات فعند الاصفرار لحقنا به فوجدناه فى سفح الجبل أى قبل ابتداء محل الوعر فنزلنا عليه ففرح الركب بلحوقنا و نزولنا عليهم فلما أصبح اللّه بخير الصباح ظعنا منه و مررنا على تلك الأوعار ثم كذلك إلى وقت العصر فنزلنا ساحل حامد و فى تلك الأوعار كان أولاد الشيخ بو عصيدة الذين كانت عادتهم يضعون مائدة من العصيدة للركب بلحم و فى الحجة الأولى لقيت من أولاده الفاضلين الأخوين الشيخين ضل عنى أسماؤهما لطول العهد فقال لى أحدهما عند الافتراق أنت تجاور مصر فى شأن العلم و كنت قد عزمت على ذلك فأخبرنى بما فى قلبى و قال له الآخر فإنك لم تر شيئا و إنما هو إذا حج فيرجع فان فلانا قد مات أعنى صاحب الوهب الربانى و الجذب الصمدانى و هو أمى لا يقرأ سيدى عبد الرحمان المجذوب الخلادى الملقب أقطال من جبال بجاية من

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۲۰

عمالة الجزائر نفعنا اللّه به آمين و قد مات ذلك العام قبل وصولنا مصر و قبره هناك بقرب من قبرى الشيخ الخرشى و الشيخ عبد الباقى و الشيخ خليل المالكى فى القرافة الصغرى فيتولى هذا أمره و ينتفع به أهل بلده فسكت الآخر و سلم له نفعنا اللّه بهما و بأسلافهما.

ثم إن ساحل حامد بلدة طيبة ذات زيتون و نخل و عمارة يبدو حسنها للرائى و هى فى رأى العين لا نظير لها لكثرة مائها و اتساع أرضها مع استوائها وجودة ترابها فبساتينها روضة من الرياض مجدولة جداويل مع استواء بيوتها و تحسين أضلاعها فإن المرء إذا وصلها زال عليهم الهم و النكد لأن رؤية الخضرة و البحر و الوجه الحسن تزيل الهم عن القلب و تفرج الغم عن الصدر و فى هذا الساحل أفاضل أحياء و أموات.

منهم أولاد الشيخ الفاضل ذى الفضائل و الفواضل العلامة الكامل و الفهامة الناقل ذى التآليف الحسنة و التصانيف المتقنة و قد رأيت بعضا منها كشرحه لابن عاشر فانه قد أجاد فيه و كذا كتابا فى التنبيه على المحدثات فى هذا الزمان من رقص الفقراء و تواجدهم و معاملتهم فيما بينهم و ادعائهم ما لم يصلوا إليه و عصيانهم و عدم امتثالهم ما يقتضيه الشرع و عدم اتعاظهم و سماعهم لذلك و بعدهم عن العلم و أهله و أنهم ظنوا أن الفتح على أيديهم و ليس لغيرهم فيه نصيب غاية ما وصل إليه علماء زمانهم العلم الظاهر و السكون تحت النقول و ذلك طريق العامة و المعتبر فى زعمهم طريقهم إذ يعتقدون التنافى بين الشريعة و الحقيقة و الحق خلافه فإن الحقيقة لب الشريعة و غير ذلك من البدع.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۲۱

و قد سلك فى هذا التأليف مسلك أبى عبد اللّه ابن الحاج صاحب المدخل و ابن أبى جمرة فى شرحه لمختصر البخارى و الشيخ عبد الكريم الزواوى فى شرحه للوغليسية و الشيخ الأخضرى فى قصيدته القدسية و الشيخ زروق فى عمدة المريد و كتاب البدع و غيرهم ممن بين أصل البدع و حوادث الأوقات و له أيضا كتاب فى الطب و سمعت أيضا أن له شرحا على قصيدة البهلولى فى أحكام العزية و قد استعرناه من ولده العلامة الفاضل و الفهامة الكامل المحب الود فى اللّه و من أجله سيدى أحمد بن عبد الصادق من تونس لأنه قد سكن فيها و هو مدرس فى المدرسة الباشية و غير ذلك من تآليفه رضى اللّه عنه و ذلك السيد على بن الصادق و قد زرنا قبره و أولاد و أصحابه و جيرانه و كل على خير و فضل و كرم وجود و حلم و علم و مهما زرنا الشيخ إلا أحسن إلينا غاية الإحسان فى الضيافة أغناهم اللّه غناء لا يتبعه فقر آمين بل ربما زادوا علف الدواب زادهم اللّه شرفا نعم بركة الشيخ ظاهرة عليهم و لا شك أن الشيخ قد أصابه وابل من أشياخه نسأل اللّه تعالى أن يمن عليهم بالوسع و التوفيق إذ فيهم غاية السخاء و التكلف بما لا يستطيعونه و لذا كان أخونا فى اللّه طيب الدين سيدى محمد الشريف البلغيثى ثم النوفلى يستثقل زيارة الشيخ لما يعلم من وقوع أولاده فى كلفة عظيمة فترك الزيارة حينئذ بهذه النية الحسنة زيارة و نحو اعتبرنا الظاهر فكان الحق معه علما منا بضعفهم و قلة ذات يدهم غير أن المعطى حى غنى.

و قد ورد فى الشرع المنع من أمور مطلوب فعلها لمشاهدة المحظورات كحضور الولائم فإن النبى صلى اللّه عليه و سلم قال من دعى

إلى وليمة و لم يجب فقد عصى أبا القاسم غير أنها إذا كان فيها محرمات كاختلاط النساء و الرجال أو آلة محرمة يحرم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۲۲

اتفاقا كالتماثيل و صور لا يجوز مشاهدتها إن كانت مستقلة و لها ظل و فى الجبل الذى غرب الساحل يمنة الماشى فى الطلعة بلاد مسلاتة ذات زيتون كثير وزيته كاد أن لا تفرق بينه و بين السمن لا سيما الذى يضربونه فى الماء و قد بين صفته الأخ السابق سيدى محمد الشريف و له أملاك هناك زاده اللّه فيها حتى يكون مشطرا لأهلها مع نفض اليد من الدنيا رأسا حتى تكون من اللّه و إليه و على هذه الحالة علمته الآن نعم مكنه اللّه من الزهد الحقيقى إذ الزهد على ثلاث مراتب زهد العامة فى الدنيا فإنهم لا يفرحون إذا أتت و لا يحزنون إذا ذهبت و هذا الزهد أوجبه اللّه على كل مسلم و زهد الخاصة فإنهم يفرحون إذا ذهبت لأنها سم و يحزنون إذا أتت و أما الخاصة فلا يشاهدونها ذهابا و اتيانا لأنك إذا فرحت بذهاب أحد فليس ذلك إلا لكونه عظيما عندك و هذا معلوم فى الشاهد و أخونا هذا غيبه اللّه عن الأكوان بمشاهدة المكون حقق اللّه لنا معه ذلك بمنه و كرمه أقول قال شيخ شيوخنا المذكور ما نصه عند ذكر ذلك الجبل الذى هو غرب ساحل حامد و فيه مسلاتة و غيرهم.

قال أبو سالم فى رحلته و هو آخر الجبل الذى لا نظير له فى الدنيا طولا و عرضا و خصبا و ماء و قرى متصلة و عمرانا متراكبا و قبائل وافرة غالبها البربر و أوله من البحر المحيط أطراف السوس الأقصى ثم يمتد كذلك إلى أن يمر قبلى مراكش و هو المسمى جبل درن ثم يمتد كذلك إلى بلادنا ثم إلى أن يقارب البحر قرب تلمسان ثم لم يزل يساير البحر و إن كان يبعد عنه فى بعض المواضع و يسمى فى كل بلد باسم و ربما تعددت أطرافه فيسمى كل طرف باسم إلى أن ينتهى هنا بأطراف برقة و قال صاحب تقويم البلدان أنه يمتد من أطراف السوس الأقصى من البحر المحيط إلى أن يبقى بينه و بين الإسكندرية خمس مراحل.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۲۳

قلت و كأنه جعل بلاد برقة كلها و الجبل الأخضر منه لأن ارض برقة مرتفعة على ما يجاورها من بلاد فزان و نواحيها و البحر من الناحية الأخرى إلى العقبة الصغيرة و بينها و بين الإسكندرية خمس مراحل و الظاهر ما ذكرنها أولا و هو الذى اقتصر عليه غيره فغرب هذا الجبل فى كل البلاد بلاد مخصبة ذات أنهار و عيون و أشجار و قبلته صحراء ذات نخيل و رمال فى البحر المحيط من أطراف السوس الأقصى إلى آخر برقة انتهى إلى أن قال و فى سفح هذا الجبل الذى يلى ساحل حامد مدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة قد خلت فى العصور الأوائل و بقيت آثارها و رسومها قد أكل البحر كثيرا منها و فيها مبان عظيمة، و هياكل جسيمة، و أبراج مبنية بالحجر المنحوت فى غاية الإتقان قد هرم الدهر و ما هرمت، و تعاقبت عليها الأزمنة و ما ثملت، فترى الأبنية مائلة متقابلة على رؤوس الجبال مد البصر بحيث يحكم الحدس إن كل ما كان داخلها كان مدينة واحدة إلى البحر و ترى أعمدة الرخام و غيره واقفة فى وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث لا يرتاب أن البحر قد أكل كثيرا منها. و من هذه المدينة ينقل كثير من أعمدة الرخام إلى طرابلس و إلى مصر و إلى غيرهما من البلدان و يقال أن بانيها الملك دقيوس و بعد وفاته تملكتها امرأة اسمها رومية و بعضهم ذكر أن (دمشق ابن) النمرود لما بنى دمشق بقى ثلاث سنين و بعث ولده و أمره أن يبنى مدينة بالمغرب فبنى هذه المدينة و جلب إليها الماء من وادى كعام فى بناء متقن يحار الناظر فيه و أثر البناء و ممر الماء باق إلى اليوم متصل من جوف الوادى إلى أطراف المدينة إلا أن ماء هذا الوادى إلا قليل آجن و يزعم أهل البلد أن ماء هذا الوادى كان حلوا غزيرا أيام عمارة المدينة و كان مما يؤثر عند أهلها أنه إذا بدأت الملوحة فى ماء الوادى فذلك علامة خرابها فلما بدت فيه الملوحة أخذ أهلها فى الانتقال منها و اللّه أعلم أنى ذلك كان.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۲۴

و قد ذكر العبدرى فى رحلته هذه المدينة و ذكر انه وجدها خالية و الذى يظهر أنها خلت قبل الإسلام إذ لم يذكرها أحد ممن ذكر فتوح أفريقية و اللّه اعلم بغيبه.

غريبة أخبرنى بعض أهل تلك البلاد أن الملك الذى بنى هذه المدينة وقع موتان فى عسكره حتى تفانوا و لم يدر ما سببه فأمر بشق

بطن واحد منهم و شق قلبه فوجد فيه دودة فعلم أن ذلك سبب موتهم فأمر بصب جميع الأودية عليها واحدا فواحدا فلم تمت حتى أخرج زيتا كان عنده فى قارورة جاء بها من أرض الشام فصب عليها قطرة منه فماتت فعلم أن دواء ذلك المرض أكل لزيت فبعث إلى الشام و جاءه غرس الزيتون فأمر بغرسه فى تلك الأوطان كلها من مصر إلى سوسة و تونس و أعمالهما و من تلك الساعة بقى الزيتون فى هذه البلاد و اللّه اعلم انتهى كلامه.

قال (ابن ناصر) و فى غير هذه الحجة رأيناها و رأينا فيها العجب العجاب، و موعظة و ذكرى لأولى الألباب، و للّه در القائل :

لدوا للموت و أبنوا للخرابفكلكم يصير إلى ذهاب

ثم قال و نخل هذا الساحل ردى التمر كله لا يدخر و لا ييبس إلا بعد إزالة النوى منه فيبقى كقطع الجلدة لا قوة فيه و لا حلاوة و لا طعم قال الإمام أبو سالم لا تكاد تفرق بينه و بين لحاء الشجر.

قلت و فيه تمر جيد يجعلونه بمساليخ و أما جل ما يتقوتون به فكما قال قال

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۲۵

و بهذه البلدة قبر الولى الصالح ذى الكرامات الكثيرة، و المآثر الشهيرة، سيدى مفتاح و هو على تل مرتفع بساحل البحر بينه و بين البلد فى مكان يعلوه البهاء، و يتفجر منه السناء، تسكن النفوس إذا حلت به، و تطمئن به القلوب إذا نزلت بقربه، و هذا السيد ممن تؤثر عنه الكرامات الكثيرة و جربت إجابة الدعاء عند قبره فلا ينبغى لمن مر بذلك البلد أن يهمل زيارته و قد قيل أن قبره كان مختفيا و أظهره سيدى عبد السلام الأسمر و كان قد أظهر قبورا كثيرة للأولياء بذلك الساحل و أظهرت فرسه أيضا آخرين و ذلك انه إذا ركب على فرسه ربما تمر بمكان فتبحث برجلها فى الأرض فيقول لهم الشيخ احفروا فإن هنا قبر ولى فيجدونه فظهرت بذلك مزارات كثيرة و فقراء الساحل إلى الآن يعرفونها و يقولون هذا من الذين أظهرهم فرس الشيخ و لا بدع فى ذلك فإن الكرامة فى ذلك لراكب الفرس لا للفرس فقد بركت ناقة النبى صلى اللّه عليه و سلم فى مكان مسجده و عند ما دخلت الحرم يوم الحديبية و إذا كانت بركة النسبة للأنبياء عليهم السلام و للأولياء رضوان اللّه عليهم يظهر أثرها فى العجماوات فما بالك فى الآدمى الذى هو أشرف المخلوقات فلا تقصروا أخوانى من خدمة الصالحين و زياراتهم و ملاقاتهم و حبهم و حسن الاعتقاد فيهم فإن لذلك أثرا عجيبا فى تليين القلوب و تسخير النفوس و اللّه تبارك و تعالى يجعلنا من المحبين لأهل ولايته و يحشرنا مع حزبهم و فريقهم فى دنياهم و آخرتهم.

و بازاء روضة هذا السيد بئر عذبة الماء باردة ثم قال و مررنا على أثار ساقية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة من عين هناك يقال لها عين كعام و فيها صنعة عجيبة و أبنية غريبة بحجارة منحوتة عظيمة تحار فيها العقول منها أحجار من أربعة أذرع فأكثر منقورة فى وسطها نقرا متقنا و الحجر فى غاية الضلابة قريب من حجر الصوان.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۲۶

قال شيخنا العياشى و الحاصل أن من رأى ذلك استغرب أن تكون قدرة البشر واصلة إلى ذلك المقدار و علم أن دهرا أفنى أولائك الأقوام جدير بأن يستأصل شأفة الأنام قال و فى هذا البلد تلقانا الشيخ الأخ فى اللّه سيدى على بن عبد الصادق فى جماعة من طلبته و شيعنا و بات معنا و بالغ فى القرى و أحضر تمرا و شعيرا و خبزا و دجاجا و لحما جيدا و دلاعا كثر اللّه خيره و هذه البلدة مثل التى قبلها انتهى بالمعنى و أكثره باللفظ مع زيادة من عندى و نقصان بما يناسب كل مقام.

تنبيه ما ذكره سيدى أحمد بن ناصر شيخ شيوخنا من أن سيدى على بن عبد الصادق من بلدة زليتن فيه نظر أو أنه سبق قلم أو نسيان أو أنه أتى إليه و لقيه فى ذلك الوطن و ظن انه منه و أما احتمال أنه انتقل الشيخ من وطنه الذى هو ساحل حامد فأنى قد سألت عنه و فحصت عن هذا الخبر فقال لى من يوثق بخبره أنه لم ينتقل من ساحل حامد أصلا غير انه يحتمل فاللائق الذى يعتمد لعيه هو الأول و إلا فالشيخ لا طيش معه لأنه فى غاية التمكين رضى اللّه عنه و نفعنا به آمين.

تتمة بلدة زيلتن هذه الآن عامرة أكثر من ساحل حامد بزيادة عظيمة و شجرها أكثر منها و كذا كل نوع إلا أكثر ففيها الآن الخير

العظيم دينا و دنيا.

و فى هذه البلدة فضلاء و صلحاء و علماء و فى الرجعة اجتمعنا مع علماء الوقت كالفاضل الكامل الأديب الفقيه سيدى سالم و إخوانه و طلبته و قد عمر أوقاته بتدريس العلم نحوا و فقها و له فهم جيد.

و هذا سيدى سالم الفطيسى فانه أجاد فى إكرامنا نهارا و عزم بنا إلى بيته تبركا بنا أحسن اللّه إليه إحسانا كليا و أتم عليه ما هو به و على ذريته و إخوانه إلى قيام الساعة فقد أقرى لنا لحما و كسكسا و تمرا و رمانا بحيث عدد علينا أنواع القرى و القرى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۲۷

القوى هو الفرح و الرغبة فى العلم و أهله و كذا اجتمعنا مع فضلاء تلك البلدة كالمشارك فى العلوم سيدى إبراهيم نجل الشيخ سيدى سالم فإن له اشتغالا بالتدريس نفعه اللّه و نفع به آمين و كذا جماعة من أهل الخير لا أعرف أسماءهم إلا أن الخير و الفضل لائح على وجهوهم إذ أنوار اللّه لا تخفى على من له شم لرائحة الحقيقة و كذا لقينا إلى طريق الحاج محمدا رجل خير فاضل محب لصديقنا سيدى محمد الشريف البلغيثى و أتى إلينا بالرطب و الخبز و اللحم و جميع من مر من الركب أكل منه كثر اللّه خيره و بسط عليه رزقه.

هذا و أنا زرنا الولى الصالح و القطب الواضح سيدى عبد السلام الأسمر فى الطلعة و الرجعة أفاض اللّه علينا من بركاته و جعلنا فى زمرته بجاه النبى صلى اللّه عليه و سلم و آله و آل البخارى و رجاله و بالجملة فكراماته مشهورة و مآثره كثيرة و معاليه بينة عند الخاصة و العامة فلم يبق إلا التعلق به و بأمثاله لتجبر قلوبنا و تشفى أسقامنا لا سيما أسقام الدين فإنها قد عمت ظواهرنا و بواطننا مع أعظم المفسدات له و هو ادعاء النفس ما لم تصل إليه غير أن بعضهم لا يدعى ذلك قولا و إنما يدعيه حالا بحيث إذا ذم و حط عن ما تدعيه نفسه من المقامات العالية تغير و تكدر أمره غايته إن كان من أهل العلم سكت عن قول السوء و يحمل نفسه على الصبر و لو لا ادعاؤه ذلك ما تغير إذ غاية ما قيل فيه أنه كذلك فى الواقع و أما الجاهل فلا يصبر بل يبادر للسوء و يغلظ القول عليه بل ربما آل أمرهم إلى الضرب مع الشتم بل إلى القتال كما عينا ذلك من كثير من فتنة المرابطين فى وطننا و قتالهم فإن أهل ذلك كله هو رعونة الدعوى و تمكنا منه اللهم بجاهه عندك و بجاه أمثاله أن تمن علينا بالبرء من الدين و شفاء أسقامه و احفظنا من كل بلاء دينا و دنيا بمنك و كرمك.

نعم هو رجل كما قال أبو سالم فى رحلته من أهل المائة العاشرة كثير الكرامات

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۲۸

عالى المقامات من أجل تلامذة سيدى أحمد بن عروس نزيل تونس و الغالب عليه الجذب فى أول أمره و آخره و له تصرف قوى و يؤثر عند أهل البلد من تصرفاته آثار كثيرة يطول استقصاؤها و أخباره فى قهر الجبابرة و فك الأسارى من أيدى الفرنج فى حياته و بعد مماته شهيرة و هو من بلدة يقال لها الفواتر و أمه مغربية درعية و لم تزل هذه البلدة التى هو منها مأوى الصالحين و وكر العابدين من قديم الزمان تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة من أكابر الصالحين قالوا و هم ظاهرون بها حتى الآن و ليس عليهم سمة متفقرة الوقت بل هم على هيئة العوام فى ملابسهم و مساكنهم و حرفهم إلا أنهم قائمون على منهاج الشريعة و كل من رام أهل هذه البلدة بسوء يقصمه اللّه و لا يدخلها أحد بتجبر و تكبر إلا أذله اللّه و يذكر عن أهلها كرامات كثيرة.

قال و قد ذكر لى بعض الإخوان أن سيدى عبد الحفيظ قدم لزيارة أهل هذه البلدة و معه بشر كثير كما هو شأنه إذا خرج فلما قرب من البلد نزل عن فرسه و مشى راجلا متواضعا إلى أن زار و خرج فقيل له فى ذلك فقال لو دخلتها على الحالة التى كنت عليها خارجا من الركوب كهيئة المتبوع تخشيت على نفسى أو كلاما هذا معناها و بلدة الفواتر هذه بإزاء زاوية سيدى عبد السلام قريب منها بنحو من فرسخين و فيها مزارات كثيرة للأحياء و الأموات.

لطيفة أخبر الإمام العياشى فى رحلته أنه أخبره أخوه فى اللّه المجذوب السالك سيدى أحمد بن محمد بو نجيب انه لما حدج بقى

أمام النبى صلى اللّه عليه و سلم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۲۹

فقال فى نفسه أنى لا أذهب لزيارة حمزة و لا لغيره هذا يكفينى قال فأخذتنى سنة فرأيته صلى اللّه عليه و سلم فقال لى يا أحمد يا حبيبى عم الرجل عوض أبيه قال فقمت فى الحين و ذهبت لزيارة سيدنا حمزة وحدى و كان وقت خوف و لقيت هناك ثلاثة رجال أحدهم الخضر عليه السلام.

و نقل عنه عن اللقانى أن الوزغ يتغذى بعينيه و انه أى اللقانى كان ذات يوم يأكل و وزغ ينظر إليه من السقف فأمر من قلته قال و شقوا بطنه فوجدوا فيه من الخضرة التى كان الشيخ يأكل منها انتهى.

و ممن لقيه هذا الشيخ فى هذه البلدة سيدى محمد بن سالم الزليتنى و كان متبعا للسنة كثيرا و آثار الصلاح على وجهه تلوح و عرف الفلاح من بشره يتضوع و يفوح و كان من أهل الكشف نفعنا اللّه به ثم قال.

نادرة كان سيدى عبد السلام الأسمر الشيخ الأكبر يستعمل السماع بالدف إلا أنه كان رضى اللّه عنه ذا حال صادقة لا يقتدى به فى ذلك و أراد خلفه و المنتسبون إليه اقتفاء أثره فى ذلك فحقهم إتباع السنة و اجتناب مواقع الظنة و ليست الأحوال مما يورث و لا مما يصح فيه التقليد لأنها واردات من الحق تستعمل العبد بمقتضى وقته استعمالا جبريا فليس لغيره أتباعه فى ذلك إن لم تظهر له موافقته المشروع.

و مما يحكى من ذلك عن الشيخ سيدى عبد السلام انه سمع ذات يوم بالدف فلما نقره سمعه كل من حضره يقول اللّه اللّه بحيث لا يمترون فى ذلك قاله فى رحلته شيخنا أبو سالم قال و هذا شاهد صدق فى صحة سماعه و صدق حاله مع اللّه و مثل هذا له أن يسمع بأى شىء أراد من دف و مزمار لانقلاب سمة الملاهى فى حقه ترياقا فعادت المخالفة للمشروع بانعكاس الثمرة وفاقا فسبحان من يخرج من بين فرث

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۳۰

و دم لبنا خالصا سائغا للشاربين و من بين الدف و المزمار أحوالا سنية للمقربين.

و كان حج مع شيخنا الوالد رضى اللّه عنه و أرضاه بعض أهل زاويته و كان يسمع بالدف على عادتهم فبعث إليه الشيخ فقال له أن أردت مرافقتنا فأترك هذا السماع و إلا فاعتزلنا فاعتذر بان ذلك من عادة أسلافه فلم يقبل منه الشيخ ذلك و لم يزل به حتى ترك السماع.

قلت و قد عمت البلوى و العياذ باللّه بانكباب أبناء الطوائف على السماع بالدفوف و المزامير و سائر الآلات و الأشعار و الألحان و اتخذوا ذلك صراطا مستقيما، و أتبعوا فيه شيطانا رجيما، و نبذوا السنة وراء ظهورهم، و زالت هيئة الشريعة من صدورهم، و كان لهم ذلك ديدنا فى سائر الأزمان، فصاروا مسخرة للشيطان، و فى الرسالة لأبى إسحاق الاولاسى قال رأيت إبليس فى المنام على بعض سطوح الأولاس و أنا على سطح و على يمينه جماعة و على يساره جماعة و عليهم ثياب لطاف فقال لطائفة منهم قولوا فقالوا و غنوا فاستفزعنى صيته و هممت أن أطرح نفسى من السطح ثم قال ارقصوا فرقصوا أطيب ما يكون قال لى يا أبا الحارث ما أصبت شيئا أدخل به عليكم إلا هذا انتهى.

و لعمرى كيف تسلم ديانة من يتعاطى السماع بالأغانى و إنشاد الألحان و الأشعار إذ هو معشش الدسائس و أحق بالنزاع و مغرس التخليط و التلبيس و أدخل فى الابتداع إلا من عصمه اللّه و قليل ما هم فلذلك كان إنكار السماع من كثير من العلماء و تحذيرهم منه لا سيما فى حق العوام الباقية نفوسهم القائمة حظوظهم و كثير استعماله لكثرة الغرور و طفوح الجهل حتى ربما رأوه من أركان الطريق و ربما

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۳۱

توغلوا فيه حتى تعاطوه بالآلات الملهية و الأصوات الحسنة من الأحداث الملاح حتى كأنهم محاضر المنادمة و ما أبعد هذا عن الدين و أهله و قد يكون الفتى من أهل البطالة و الغواية و اللهو و الشرب ثم انه يتوب على أيديهم فيحضرونه فى أمثال هذه المجالس و هذا الغناء و هذا اللهو فلا تزداد نفسه إلا قوة و جموحا، و لا شهوته إلا كلبا و طفوحا، نعم كان قبل التوبة منكسر القلب معترفا على نفسه بالإساءة متمنيا للخير و الصلاح و اللحاق بأهله و الخير كله فى هذا الوصف و فى الحديث القدسى أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى ثم الحالة الأولى إلى الثانية و هذا العجب و الاغترار هو العيب كله و الشيطان يكتفى منه بذلك فلا- يوسوس له أن يتعاطى تلك المعاصى السابقة لأن هذا العجب و الاغترار أعجب إليه إذ لا يتمنى الانتقال و التوبة عن هذه الحالة أصلا و عدم الوسوسة بذلك تزيده اغترارا و إعجابا فيكون فى مرضاة إبليس ما دام على تلك الحال و فى سخط الكبير المتعال نسأله العافية.

و لهذا قال أمام الطريقة الجنيد رضى اللّه عنه إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة.

و قال الشيخ الإمام القدوة الهمام أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه سألت أستاذى رضى اللّه عنه عن السماع فأجابنى بقوله تعالى: (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (۶۹) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ).

و قال أيضا رضى اللّه عنه رأيت فى النوم كأن بين يدى كتاب الفقيه ابن عبد السلام و أوراقا فيها شعر مرجز و إذا بأستاذى رحمه اللّه واقف فتناول كتاب الفقيه بيمينه و تناول الأوراق بشماله فقال كالمنتهر أتعدلون عن العلوم العزية الزكية و أشار بيده إلى كتاب الفقيه إلى الأشعار ذوات الأهواء المردية و أشار بيده إلى أوراق الشعر ثم رمى بها الأرض و من أكثر من هذه فهو عبد مركوز لهواه، أسير شهوته و مناه،

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۳۲

يسترقون به قلوب الغفلة و النسوان، و لا- إرادة لهم فى الخير و اكتساب العرفان، يتمايلون عند سماعها تمايل اليهود، و لم يحظ أحد منهم بما حظى به أهل الشهود، لئن لم ينته الظالم ليقلبن أرضه سماء، فأخذنى حال وجد و بكاء، و أنا أقول إلا أن النفس أرضية، و الروح سماوية، فقال بلى إذا كانت الروح بأمطار العلوم دارة، و النفس بأعمال الصالحات نباتة، فقد ثبت الخير كله، و إذا كانت النفس غالبة، و الروح مغلوبة، فقد وقع القحط و الجدب و انقلب الأمر و جلب الشر كله فعليك بكتاب اللّه الهادى، و كلام رسوله الشافى، و لم تزل بخير ما لزمتهما، و قد أصاب الشر من عدل عنهما، و أهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه و إذا سمعوا الحق أقبلوا عليه و من يقترف حسنة نزد له فيها حسنا انتهى.

و قال الإمام أبو العباس زروق و قد اتفقوا على منعه لما حدث فيه و به من المفاسد حتى قال الشيخ محيى الدين رحمه اللّه السماع فى هذا الزمان لا يقول به مسلم و لا يقتدى بشيخ يعمله أو يقول به.

و قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه فى قوله تعالى: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ نزلت فى اليهود و من كان من فقراء هذا الزمان مؤثرا للسماع بهواه آكلا مما حرمه مولاه فهى نزعة يهودية لأن القوال يذكر العشق و ما هو بعاشق و يذكر المحبة و ما هو بمحب و الوجد و ما هو بمتواجد فالقول يقول الكذب و المستمع سماع له و من أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع يصدق عليه قوله تعالى: لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ الآية.

قال و عبر بعض الصحابة على بعض اليهود فسمعهم يقرأون التوراة فتخشعوا فلما دخلوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم نزل عليه جبريل عليه السلام فقال أقرأ قال و ما أقرأ قال أقرأ أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۳۳

فعوتبوا إذ تخشعوا من غيره و هم إنما تخشعوا من التوراة و هى كلام اللّه فما ظنك بهذا أتعرض عن كتاب اللّه و تخشع بالملاهى و الغناء انتهى كلامه.

و قال الإمام محيى الدين و كل ما سمع من الخشوع فهو على أحد أمرين أما قبل أو تحصل له مرتبة التمكين فالسماع عندنا حرام فى

ذلك الوقت أو سمع بعد التمكين بشروطه المعروفة التى قد ذكرناها فى غير هذا الموضع فيعلم من هذا انه قد نزل من المقام الأعلى إلى مقام هو أسفل و أدنى لحظ نفسه ثم ذكر السماع و انه نزول كله و إن من لم يجد حاله إلا فى السماع و يفقده إذا فقده فقد مكر به و استدرج فليبك على نفسه و ليبحث على ما جنته يده فيجد ذنبا ضرورة لا بد من ذلك ثم قال و اللّه يلبسنا و إياكم رداء التقوى و العافية، و يحلنا و إياكم المراتب السامية، و لا يجعلنا و إياكم ممن له إلى السماع أذن واعية، فيكون من أهل القلوب الملهية انتهى.

و له فى التدبيرات الإلهية السامعون شخصان شخص يسمع بنفسه و شخص يسمع بعقله و ليس من سامع آخر و من قال أنه يسمع بربه فهو نهاية درج سمع العقل لكن للعقل سمعان سمع من حيث فطرته و سمع من حيث الوضع فالذى له من حيث الوضع هو الذى قيل عنه أنه يسمع بربه وقوفا عند قوله عليه السلام عن ربه كنت سمعه الذى يسمع به فالذى يسمع بعقله يسمع فى كل شىء و من كل شىء و على كل شىء لا- يتقيد و علامته فى ذلك البهت و خمود البشرية و الذى يسمع بنفسه لا بعقله لا يسمع إلا فى النغمات و الأصوات العذبة الشهية و علامته أن يتحرك عند السماع بحالة فنائه عن الإحساس و مهما أحس المتحرك فى السماع فانه مسخرة للشيطان و إن لم يحس و فنى عن كل شىء فهو صاحب نفس و تحت سلطانها و حاله صحيح الفناء و لا يأتى بعلم أبدا عقب هذا الفناء و الحركة فى السماع فان ادعى انه أتى بعلم فلم يكن فانيا و لم يكن سمع بعقله فانه تحرك و لم يبق له إلا أن يكون كاذبا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۳۴

فإن سماع النفس لا يأتى بعلم البتة و سماع العقل لا تكون معه حركة فمن جمع بين الحركة و العلم فهو كاذب جاهل بالحقائق انتهى الغرض منه فقس هذا الكلام على أهل زمانك تر العجب العجاب و اللّه يلهمنا الصواب و يعصمنا من الزلل و يوفقنا لصالح القول و العمل.

قال الشيخ أبو القاسم القشيرى سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه اللّه تعالى يقول السماع حرام على العوم لبقاء نفوسهم مباح للزهاد لحصول مجاهدتهم مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم انتهى.

قلت و إلى هذا الكلام و اللّه اعلم يشير صاحب نظم المباحث الأصلية حيث يقول:

و إنما أبيح للزهادو ندبه إلى الشيوخ باد

فهو على العوام كالحرامعند الشيوخ الأجلة الأعلام

قال الإمام زروق أما أباحته للزهاد الذين لا أرب لهم فى الشهوات المستلذات و لم يبلغوا مرتبة التحقيق و الذوق فانه لا يضرهم فيمنع و لا- ينفعهم فيندب و أما الشيوخ فانه يثير منهم الحقائق فتنتشر فى عوالم الأجسام ثم تتسع فى ميادين الحضرة فيكون للحضار منها نصيب لأن من تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها و كل ما أفضى إلى الكمال فهو كمال و أما تحريمه على العوام فمن جهة انه يثير نفوسهم و يحرك شهواتهم و غيرها من الطبائع و العوائد الردية و هذا فيما يحتمل و صوّر له و فيما يوافق الحق بمعناه من حيث الطباع لأن الشعر من محامد النفس فهو يقويها ما لم تكن ميتة.

و فى ذلك قالوا أن الغناء مرقاة الزنى و انه ينبت النفاق فى القلب انتهى قلت و كلام أبى على الدقاق هذا هو فصل الخطاب و التوسط بين الخطاء و الصواب.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۳۵

و نحوه قول الشبلى و قد سئل عن السماع قال ظاهره فتنة و باطنه عبرة فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة و إلا فقد استدعى الفتنة و تعرض للبلية و قال بعضهم لا يصح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة و قلبه حى فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة و قلبه حى بنور الموافقة.

و اتفقوا انه لا بد للسماع من زمان و مكان و إخوان و لذلك قيل للجنيد رضى اللّه عنه ما لك لا تسمع فقال ممن قيل من اللّه فقال و مع من و قولوا السماع على قسمين سماع بشرط العلم و الصحو فمن شرط صاحبه معرفة الأسامى و الصفات و إلا وقع فى الكفر

المحض و سماع بشرط الحال فمن شرط سامعه الفناء عن أحوال البشرية و التنقى عن آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة و هذا و اللّه اعلم هو فى سماع الأشعار المشتملة على الأوصاف الصالحة لأهل النفوس و لأهل الأرواح قد علم كل أناس مشربهم كسماع أبى الحسن فى الطريق قول القائل:

رأى المجنون فى البيداء كلبا- الأبيات و القصة

و أما الأشعار الوعظية المشتملة على التذكير باللّه تعالى و الترغيب فيما عنده و التنفير عن الدنيا و التحضيض على التقوى فهى سليمة الجناب تصلح للعوام و العباد و الزهاد و بالجملة فالسماع ورطة لأهل النفوس و الشهوات و روضة لأهل الفهم عن اللّه تعالى و هؤلاء يسمعون من كل شىء و لا يتوقف سماعهم على طيب النغم كما تقدم عن صاحب التدبيرات و يشهد له حكاية يا ستعر برى و ما فهم منه كل من الثلاثة المذكورين فى حكاية أنظرها فى لطائف المنن انتهى.

أقول و حاصل معناه أن شخصا نادى آخر يبيع السعتر البرى فالمريد فهم أسع تر برى و السالك فهم الساعة ترى برى و الواصل فهم ما أوسع برى فكل قد فهم بحسب مقامه و شربه قد علم كل أناس مشربهم فالمريد مأمور بالعمل ليرى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۳۶

الإحسان من اللّه و البرور و السالك ينظر الفتح و لذلك فهم الساعة ترى برى و الواصل فى حال شهوده و تجلى المحبوب على قلب ففهم فى حال شهوده من هذا اللفظ ما أوسع برى.

هذا معنى قوله يسمع من كل شىء و لا شك أن فى كل شىء آية تدل على اللّه فى الجملة و عند أهل الحق لهم خطاب منهما يخصهم بحسب مقامهم من الحب و غيره.

و قد قال بعض العارفين مكثت أربعين سنة أخاطب الخلق بخطاب الحق و ذلك لغلبة الشهود عليه و الحضور لديه فلم يصح تصور الغفلة عليه و لا النسيان منه و لذلك كان به و منه و إليه فكان اللّه سمعه و بصره كما هو فى الحديث القدسى فليس عند هذا فى الوجود إلا الحق أن سمع سمع به و الباطل منعدم البتة فى حقه فلا تقسيم فيه و إنما التقسيم فيمن يغيب عن نفسه تارة بمشاهدة محبوبه و يشاهدها أخرى فإن كان يسمع باللّه و من اللّه فسماعه حق لا يقول مسلم بحرمته و إنما هو آثار عليه حال الشهود و إنما الكلام فى غيره و التفصيل فيه بين الزهاد و غيرهم و أهل التمكين و سواهم فاعلمه فانه مما يجب التفطن إليه و قد أشار إليه قبل غير أنه لا يفهم ما قاله كل قاصر فى هذا العلم و المتبصر يعلم الحقائق على حالها.

و بالجملة فالبحث بالإباحة و التحريم و الندب إنما هو فيمن يلتبس عنا قصده و حاله ففيه التفصيل السابق و الكلام حينئذ على أسلوبه و الجرى على نمطه نعم قرائن الأحوال تميز أحوال السامعين فمن علم انه قصد أمرا مذموما فى الشرع منع باتفاق و من علم أن قصده صحيح لا علة فيه شرعا كالزهاد و العباد جاز قطعا من غير خلاف لكونه ترياقا مجربا أقل ما فيه من الدواء استراحة النفس مما حصل لها من التعب فى حال المجاهدات و كذا أهل التمكين من الشيوخ فإنما سماعهم من الحق و لا شك أنه مطلوب منهم لتتسع دائرة علومهم و تتقوى أنوار معارفهم و هذا إذا سلم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۳۷

الموضع من الفتن الدينية كحضور الشبان الناعمة من النساء لا سيما إذا كانت مكشوفة العورة فإن ذلك حرام من غير خلاف إلا إذا كان صاحب الوجد زال عنه عقل التكليف و حركه الحق فلا أثم عليه لأنه ليس بمكلف إذ هو مضطر مقلوب و لا يقتدى به فلا بأس عليه من النساء و غيرهن و إنما الكلام مع من بقى معه التكليف.

حاصله أمر السماع فى زماننا و غيره مع القصد الصحيح بشروطه و انتفاء الموانع كخلو المكان ممن يفتتن به من النساء و الشبان ممن لا قصد له قصدا خبيثا فهو على التقسيم المتقدم بين الإباحة و الندب و إما مع القصد الفاسد فلا يجوز اتفاقا.

لطيفة و تنبيه مما يجب التنبه إليه اجتماع النساء و الرجال فى بلدنا فى الظاهر على طريق الخير و الصلاح و التشبه بالقوم الأول و فى

الواقع ما اتخذوا ذلك إلا للتوصل للزنى و مقدماته يشهد لذلك من رآه بالعيان لأنهم فساق فلما تعذر عليهم الوصول إلى الشر من بابه اتخذوا سلما يرقون به و هو السماع ليتوصلوا لأغراضهم الفاسدة و يتجردون للزنى نحو اليومين و الثلاثة ليتمكن لهم الاختلاء و قد قال صلى اللّه عليه و سلم ما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما و قال أيضا باعدوا بين أنفاس النساء و أنفاس الرجال و قال أيضا لو كان عرق الرجل فى المشرق و عرق المرأة فى المغرب أو بالعكس لتحانا أو كلاما هذا معناه فإذا كان الأمر كذلك فكيف يحل لمسلم يرى ذلك منهم أن يترك حريمه أى زوجته أو أخته أو ابنته أو ابنه معهم حاصله أى قريب كان ذكرا أو أنثى فلا يتركه أن يحضر ذلك السماع المعلوم بهذه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۳۸

المفاسد بل يمنعه منعا مؤزرا أن قدر عليه بنفسه و إلا طلب المعين أن يعينه فيه من جماعة المسلمين إن لم يكن حاكم إن كان فيهم إيمان و إن كان فيهم حاكم بلغ إليه الأمر فيجب على من ولاه اللّه أمور المسلمين أن يرفع ذلك بالسيف من كل وطن من أوطاننا لا سيما وطن عامر و بنى دراج وطننا أى بنى ورثيلان و كذا ما يصير فى بجاية آخر رمضان و مسجد البلوط فى بنى يعلى و كذا محل الأولياء فى كل مكان كقبر جدنا سيدى أحمد الشريف و سيدى يحيى العيدلى و سيدى على بن شداد و سيدى على بن موسى و سيدى عبد الرحمان الثعالبى فى الجزائر و سيدى سعيد السفرى فى قسنطينة و جبل المثقوب فى بنى ورثلان و غيرهم.

نعم الذى ذكرناه إنما هو فى حق المخذول الذى لم يخف اللّه و نبذ وراء ظهره حجاب الهيبة ففعل ما بدا له و إلا فمن غلبه الحال و الوارد و الشوق من وطننا أو غيره رجلا- أو امرأة مع الرجال أو النساء أم لا فلا كلام لى معه إذ هو مقهور و بحب اللّه مغلوب مضطر فحشاه أن أمس جانبه أو أشير إليه و كذا غيرى ممن نبه عليه ممن ذم السماع و حرمه إذ مقصودهم و مقصودنا سد الذرائع و سد الباب على مثل المجوزين ذلك مطلقا لا سيما المفتونين المخذولين المتحيلين للوصول إلى الأغراض الفاسدة أو يعتقد من له توجه صدق و رغبة فى الخيران ما هم عليه هو الدين القويم و الصراط المستقيم فيدخل فى زمرتهم و يجعل نفسه منهم فإن أصابه بعض الفتن و البلاء من الشغف بحب النساء ممن يحضر ذلك الموضع فيتشتت أمره و يتكدر عليه وقته حتى يغلبه حال الشيطان فيقع فى مهواة الضلال و ربما سقط من عين اللّه إلا أن يتداركه اللّه بفضله بان لا يجد سبيلا لمراده إذ من العصمة أن لا تجد موقعا فى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۳۹

فساد و ندم على ذلك و انكسر قلبه من أجله فيأخذ اللّه بيده لما علمه من قلبه فذل بسبب ذلك فتكون معصيته أولى من طاعة غيره لأن المعصية مع الذل و الاحتقار أولى من الطاعة مع العز و الاستكبار لأن المقصود من العبودية التذلل و الخضوع و الاحتقار فلما كانت المعصية بذلك صارت خيرا من الطاعة التى مع العلو و الاستكبار.

أقول قال الشيخ زروق الولى ولى و أن أتى حدا أى ما يستوجب الحد لأنه ليس بمعصوم إلا إذا أصر على ذلك فينتفى عنه الحكم بالولاية و بالجملة فالحذر مطلوب و السلامة فى الفرار من تلك الجموع أولى و الديانة فى عدم زيارة النساء و لا حضور سماعهن و أما السماع الخالى عنهن و عن الأحداث غير انه بذكر الغناء بالخدود و القدود مع الأصفياء الأتقياء ففيه الكلام بالإباحة و ضدها لا سيما مع آلة اللهو فمنهم من رغب فيه لما يزيد ذا الشوق شوقا و ذا المعرفة معرفة و منهم من ذمه نظرا لما يقتضيه اللفظ من المعانى المعلومة شرعا .

و بالجملة فالذى فيه الخلاف إنما هو ما كان بآلة اللهو و الغناء بالأشعار التى فيها ذكر الخدود و القدود و تسمية المحبوبة من النساء المرغوب فيها الفساد غير انه سالم من النساء التى يدعن من فتن و أهله أنقياء أنقياء و ليس لهم غرض إلا سماع ما يدل على الحب و الشوق هذا الذى فيه كلام مع أهل العلم فمنهم من يستدل على مدحه شرعا و منهم من يستدل على ذمه كذلك و أما إذا كان فيه النساء الأجانب التى فيهن الفتنة لا سيما مع الشبان فيحرم اتفاقا و فيه سخط اللّه قطعا إلا إذا كان الحاضر

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۴۰

له مغلوبا مقهورا بالوارد و الحال فلا حكم فى حقه إذ هو مكره غير انه لا يقتدى به فى ذلك لأنه مريض لما علمت من الفقه إذا تيمم المريض و إن كان ممالكا أو أبا حنيفة أو الشافعى أو أحمد فلا يأتى الصحيح و يتيمم اقتداء بهؤلاء الأئمة إذ هم مرضى و هو صحيح فالمغلوب لا حرج عليه دينا.

و أما السماع الذى فيه الوعظ و الذكر و مدح الرسول صلى اللّه عليه و سلم فلا خلاف فى ندبه و مطلوبيته و أما للزهاد و العباد الذى فيه الخلاف فمباح لهم من غير شك فافهمه و هذا حاصل ما فيه كلامهم و لو لا الإطالة لأتيت على كل قولة بدليل.

فأقول قال شيخ شيوخنا المذكور ما نصه و هذا كله مع شروطه المقررة و قد عدمت الآن فتعرض لمتعاطيه عند تعاطيه تر ما ذكرت لك عيانا نسأل اللّه تعالى السلامة و العافية و يتعاطون ذلك بآلات ملهيات و كيفيات منكرات و أما التصفيق و هز الرأس و الرقص و التحرك فإن كان بغلبة فالمغلوب معذور و إن كان بغير غلبة و هو للإيهام فهو حرام لما دخله من الرياء و التصنع و التظاهر بما ليس له حقيقة عنده و إن كان مع بيان الحال بحيث يعلم الحاضرون أنه غير مغلوب و إنما أراد إراحة نفسه فهو للباطل أقرب و ليس من الحق فى شىء و لذلك لما سئل بعض العلماء عمن يفعل ذلك ضحك حتى بدت أنيابه ثم قال أمجانين هم و أما الدفوف و الطنابير و المزامير و المزاهر و الطرور فكان الوالد يضرب فيها بالعصا و النعال و يجلى فيها و ينفى متعاطيه و يغرى عليهم و يبحث فى نفيهم و يبالغ فى زجرهم و لا يسكت عنهم بحال إلا أنه يخفف فى رفع أصواتهم بالأذكار عند الاجتماع المجرد عن الزعفات و الهاعات و صرب الأكف و غير ذلك من الآلات و إن طرأ شىء من ذلك سمعه بالغ فى الزجر بل المرضى عنده ترك كل شىء من ذلك و اختلاء المرء بسره و الإخفاء

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۴۱

لذكره و كان الفقراء ذات يوم مجتمعين بالزاوية على الكيفية التى ذكرنا انه يخففها و يسكت عنها و جلس وراءهم خفية عنه و ظفر به بعض أصحابه فقال له يا سيدى ما أجلسك هذا المجلس فقال أطلب اللّه فى هؤلاء و ادعو لهم و فى المباحث الأصلية.

و لا يجوز عنده التكلمو لا التلاهى لا و لا التبسم

قلت و إن كان و لا بد فمن أسلم الهيآت و أحسنها و أبعدها من الظنة و ذكر الإمام الساحلى رضى اللّه عنه و هو أن الفقير إذا اشتغل بالإرادة فحقه أن يقطع العلائق كلها و ينبذ اللذات و الراحات و يهجر المألوفات و يستعمل العزلة و الخلوة و ذلك أمر شاق على النفس فى الابتداء فإنها شديدة الحنين إلى ما تألفه من البطالة و الأنس بالخلق و يخشى عليها من هجم عليها بقطع جميع ذلك على الدوام أن تنفر فوجب ترويحها حينا بعد حين بالاجتماع ليكون ذلك استجماعا و لا يكون ذلك على الدوام لئلا ترجع إلى طبعها من الألفة بل يكون ذلك بحسب الحاجة ثم يجب أن لا يكون الاجتماع بالبطالة و ترك ما هو عليه فانه لا بد من مواصلة الأوراد و الدوام على العمل بلا فترة فلزم أن يكون الاجتماع على الذكر الذى كان يستعمله المريد فى خلوته بنفسه حتى كأنه لم يخرج عن خلوته و لم ينتقل عن حالته غير أن ما كان يعمله وحده عمله مع إخوانه ليفيد النفس تأنيسا بهم وصفة الاجتماع أن يعقدوا الميعاد ليوم معلوم فيحضرون و يجمعون من الطعام ما تيسر مع غاية البعد عن التكلف و الرياء و التباهى إلى أن قال وصفة الذكر أن يجلسوا حلقة ثم يرفعوا أصواتهم بذكر واحد من الأذكار التى عندهم كالهيللة و الصلاة على النبى صلى اللّه عليه و سلم خافضين رءوسهم غاضين أبصارهم على غاية الوقار و السكينة و الخشوع من غير اضطراب و لا حركة إلى أن ينزل على أحد حالة غالبة تزعجه من غير اختيار و ليس

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۴۲

لأحد أن يتمنى نزول ذلك و لا إن يتعاطاه بل يستعيذ باللّه من شر الوسواس و الخواطر الشيطانية.

و أما السماع بالأغانى و إنشاد الأشعار فهو أدخل فى الابتداع و أحق بالنزاع و هو معشش الوساويس و مغرس التخليط و التلبيس إلا من عصمه اللّه و قليل ما هم أنظر تمامه انتهى.

انعطاف و قد ظعنا من الساحل و نزلنا قرب السبخة ثم بعد ذلك ظعنا بعد ملاقاة الأفاضل و زيارة الشيخ الولى الكبير القطب الشهير سيدى عبد السلام كما تقدم لنا و نزلنا قرب مسراتة ثم بعد ذلك ارتحلنا و نزلنا أبعد من قبر الشيخ الولى الصالح، البدر الواضح، ذى التصانيف المفيدة، و التآليف العديدة، ذى الترياق و الدواء المجرب أبى العباس سيدى أحمد زروق البرنسى ثم الفاسى فبعد نزولنا هنيئة توجهنا لزيارته و التبرك بضريحه قدس اللّه روحه فانه لا شك أنه حى فى قبره يستشعر ذلك من له ذوق سليم، و طبع مستقيم، فأن الحواس الباطنية تشهد بذلك و تتخيل روحانية الداخل روحانية المزار فإنها تتلاقى بغير حجاب فى حضرة الشهود، فى مرقى الصعود بتأييد الرب المعبود، فتستفيد النفس الزيارة من الروح المزارة من الأمداد الإلهية و الأنوار الصمدانية و اللطائف الرحمانية و العلوم اللدنية ما كتب لها فتستعد بذلك للدخول فى زمرة النبئين و الصديقين، و الشهداء و الصالحين، فترجع ذات أنوار و أسرار تظهر بسبب المحقق العلامة المدقق العارف باللّه قطب مغربنا، و شمس سرائرنا، و إمام أئمتنا، و حضرة ودنا، و عروة اعتصامنا، و محل اعتقادنا، شيخ الطريقة، و أمام الحقيقة، سلطان العارفين، و المحققين، قوى اللّه فيه محبتنا، و حقق إليه نسبتنا، الشيخ المذكور فانه من قوم لا يشقى بهم جليسهم، و لا شك أن

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۴۳

زائرهم، و محبهم، و خديمهم، و متشبثهم، هو منهم، فإن هذا الولى قد ظهر أمره فى الأفاق، و اشتهر سره فى الأقطار و الرفاق، و تقوى نوره فى عصره إلى زماننا هذا بل علمه و أسراره قد عمت مشارق الأرض و مغاربها فصار مغيثا و معينا لكل من التجأ إليه نعم إليه يهرع المنكسرون على انه حصن للضعفاء و المساكين لأنه يأخذ بيد الجميع و لم تر فى الناس من رفيق، أولى منه فى إصابة الحق و بيان الطريق، و لا أدخل فى أتباعها بل أجد فى بيان البدع المضلة، و دسائس اللعين المعلة، حتى جمع بين الشريعة و الحقيقة جمعا متواطئا فالملازم لتآليفه بصدق التوجه و خلوص الاعتقاد يشرح اللّه نوره للإسلام فحينئذ يكون على نور من ربه و بالجملة هو طبيب نبوى، و ترياق ربانى، يعلم ذلك من شمر أزاره لمطالعة أحواله و أسراره و توجهاته و كلامه فى سائر تأليفه لأن تآليفه تكاد أن تكون معجزة إذ لا- يقدر و لا- يستطيع أحد أن ينقل كلامه و لا يسلمه إلا من طبع على قلبه إذ هو لسان الحق و عين التحقيق فلم يبق لمن كانت بصيرته نافذة إلا سلوك طريقه لتستنير سريرته و تعلو همته و يظهر أمره عند الأكوان فيكون شمسا لها و غيثا لقلوبها و دواء لعللها فيرحم اللّه به أمة ضعيفة و يسقى به قلوبا ضمآنة من لم يصبها وابل فطل و يغنى أشخاصا فقيرة و يعز أناسا ذليلة و يجبر أفئدة كسيرة فإن الشيخ المستمد منه بحر المعارف و سلطان العوارف إذ هو حجة اللّه فى أرضه فمن يصل إليه و يستعن به يعن به على أموره الظاهرة و الباطنة و ينتصر على أعدائه و ذلك مجرب عند العباد كلهم بل قد أرتفع صيته عند العامة و الخاصة فهو كعبة الزوار، و حرم الأنوار، و معدن الأسرار، جعله اللّه لنا و لذريتنا و لطلبتنا، و كل من تعلق بنا ذخرا فى دنيانا و ذخرا يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۴۴

و ها أنا أتوجه إلى اللّه و أسأله بجاه و علومه و إتباعه و محبته أن يشفى اللّه أسقامنا الظاهرة و الباطنة و بمنه و كرمه و أن لا يجعل فى رأينا ما يكون هلاكا فى ديننا و دنيانا و أن يرزقنا بجاه سره ما فيه رضاه مع العافية التامة و النعمة الشاملة و المغفرة الواسعة و الرحمة القوية لنا و لمن تشبث بنا مع الغنى عن الناس و الإياس مما فى أيديهم و حسن الخاتمة آمين يا رب العالمين.

أقول قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه لما نان بروضة الشيخ حجة تسع و تسعين و ألف خطر لنا ما سبب سكنى هذا الإمام الأعظم، و الشيخ المكرم، فى هذه البلدة البعيدة عن المدن و الحواضر فنطق أخونا فى اللّه سيدى عبد اللّه بن غلبون كأنه مطلع على ما فى ضمائرنا و اللّه عليم بذات الصدور فقال سئل الشيخ رضى اللّه عنه عن سكناه بهذه البلدة فقال أما ما ذكرت من استيطاننا فى هذه البلدة فأمر خارج عن قياس النظر غير مصحوب بالحزم و لا معقود لشىء نعلمه بل اتفاقى ظهر وجوده فلزم موجوده إلى ما يقتضيه الحق.

و ما أنا بالباغى بسلمى بديلةبليلى و لكن للضرورة أحكام

قلت و لعل فائدة استيطانه هذه البلدة و اللّه اعلم استيناس الأركاب بزيارته و استمدادهم من معونته و تقويتهم على ما هم بصدده بمطالعة حضرته.

و قد شاع عند الحجاج أن من مر بقبره و أودع عنده نفسه و ماله لا يصيبه مكروه حتى يرجع و يفعلون ذلك إذا مروا به فى البر أو حاذوه فى البحر فيجدون بركته و لا بدع فى ذلك و لا غرابة فإن اللّه تعالى حفيظ لا يضيع و دائع و الأولياء أبواب اللّه فمن أودع اللّه شيئا عند باب من أبوابه كيف لا يحفظه فيه و اللّه خير حفظا و هو أرحم

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۴۵

الراحمين.

و اطلعنا أصحابنا هنالك على نسخة من شرحه على الرسالة بخط يده الكريمة و على وصيته على أولاده لما حضرته الوفاة نفعنا اللّه به آمين.

فائدة قال أبو سالم فى رحلته وجدت ورقة فيها زمام تركة الشيخ وعدة أولاده و نسائه و من خلفه من بعده و عدد متخلفه من كتبه و أمتعته و لننقلها هنا بحروفها لما اشتملت عليه من الفوائد منها استفادة عدد أولاده و أين استوطنوا بعده فأنى لم أجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه و منها التأسى به فى قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا أولاد و نساء فى بلد يشق فيه العيش و لا يعوزه ما يخلفه لهم لو شاء لانتشار صيته و خدمة الدنيا و أهلها له و مع ذلك لم يخلف منها إلا ما ستراه.

و نصه بعد الافتتاح بعد أن توفى إلى عفو اللّه الشيخ الفقيه العالم العلامة الصالح العارف المحقق القدوة المتبرك به أبو الفضل أحمد بن الشيخ المقدس المرحوم أبى العباس بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى الشهير بزروق غفر اللّه له و لوالديه انحصر أرثه فى زوجته أمة اللّه الجليل ابنة أحمد المكرم أبى العباس أحمد بن الفقيه العدل أبى زكرياء الغليانى المسراتى و أولاده منهما أحمد أبى الفضل و أحمد أبى الفتح و عائشة و زوجته فاطمة ابنة أبى عبد اللّه محمد الزلاعية الفاسية و ولده منها الفقيه الشاب الطالب الأسعد أبى العباس أحمد الأصغر و ابنه الشيخ الفقيه القدوة المدرس أبى العباس أحمد الأكابر لا غيرهم فى علم شهوده.

ثم توفى أحمد أبو الفتح المذكور و انحصر أرثه فى والدته أمة الجليل و شقيقه أبى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۴۶

الفل و عائشة المذكورين و أخيه لأمه أحمد بن الشيخ الفقيه الأجل الأسعد الصالح أبى على منصور ابن أحمد بن محمد البجائى لا غيرهم فى علم شهوده.

ثم توفيت عائشة المذكورة و انحصر أرثها فى أمها أمة الجليل المذكورة و شقيقها أبى الفضل و أخيها لأمها أحمد بن الشيخ منصور المذكور ثم توفى أبو الفضل المذكور و انحصر أرثه فى والدته امة الجليلة و أخيه لأمه أحمد بن الشيخ منصور المذكورين و أخويه لأبيه أحمد الأكبر و أحمد الأصغر المذكورين لا غيرهم فى علم شهوده و كان من مخلف الشيخ أحمد المذكور نصف الفرس الشهباء كبيرة السن شركة بينه و بين الحاج عبد اللّه ابن عزازة التكيرانى المسراتى بالنصف الثانى مع برنس أبيض و جبة صوف بزرّ مختم مع ثوب بالغزل و سبحة فقل كان أخذها الشيخ أحمد المذكور من الشيخ سيدى أحمد بن عقبة الحضرمى اليمنى نفعنا اللّه به آمين مع أربعة عشر سفرا و كناش فمن الكتب فى الفقه من مختصر ابن عرفة رحمه اللّه و أسفار فى الكبير مع حاشية الوانوغى و المشد إلى على المدونة مع سفر فيه مختصر الشيخ خليل و الشامل للشيخ بهرام رحمهما اللّه مع شرح ابن عسكر فى الفقه للشيخ أحمد المذكور ألفه و من غير الفقه الديباج المذهب فى التعريف برجال المذهب لابن فرحون رحمه اللّه و معه تأليف للشيخ أحمد المذكور القواعد فى علم التصوف و معه شىء من علم الطب مع سفر فيه قواعد الوانشريسى و المذكور شىء من علم الطب مع سفر فيه الزركشى و السبكى فى أصول الفقه و بلوغ المرام لابن حجر و البلالى اختصار الأحياء مع سفر فيه شرح التفتازانى فى أصول

الدين و الحكم لابن عطاء اللّه و المنهل الروى فى علم الحديث و غيره مع سفر من ملتم الحديث بخط الشيخ أحمد المذكور و تأليف الشيخ سيدى عبد الرحمان الثعالبى مع إجازة له و شيء من ابن حجر فى علم اللغة رحمهم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۴۷

اللّه و سفر فيه تفسير القرآن و كناشه محتو على و طائفه و غير ذلك.

و قد كان استوطن الشيخ أحمد الأكبر بعد موت أبيه ببلاد المغرب و استقر آخر ذلك بمدينة قسنطينة حرسها اللّه و أرسل مراسيل للإتيان بالمخلف المذكور بخط يده و ثبت منها بالعدالة حسبما بيانه كما أذن بأن يوجه له ذلك مع من أمكن و كان جميع ذلك تحت يد الشيخ منصور المذكور و امتنع من ذلك لعدم الأمن و الأمين حتى وصل الفقيه الطالب أبو العباس أحمد الأصغر المذكور فى عام تاريخه لمدينة طرابلس حرسها اللّه تعالى و لم يأت بموجب يقتضى له قبض ذلك لأخيه فتوقف أصحاب الشيخ المذكور فطلب الشاب أحمد المذكوران يعطى ذلك فى زمامه يطلب نصيبه و نصيب والدته فاطمة المذكورة لكونه وراثها و نصيب أخيه أحمد الأكبر المذكور فوافقوه على ذلك بعد ثبوت الأذن المذكور بان يعطى ذلك لأخى حضر إلى شهيديه الفقيه أحمد المذكور الأصغر نائبا عن نفسه و عن أحمد الأكبر و أشهد أنه قبض جميع المخلف المذكور عدا نصف الفرس فانه قبض ثمن ذلك و هو ثمانية دنانير ذهبنا منجزة من الشيخ منصور المذكور قبضا تاما و أبراه بتاريخ أوائل ذى الحجة الحرام متم عام ثلاثة عشر و تسعمائة انتهى و صلى اللّه على سيدنا محمد و على آله نقلت الرسم المذكور بحروفه من غير زيادة و لا نقصان مع وجود بعض التصحيف به و لم أغير شيئا بل تركته كما وجدته و لم أكتب من الرسم الأصلى بل من رسم نقل منه و اللّه أعلم انتهى.

لطيفة أقول فى مدحه و الاستغاثة به لتزول عنا حجب الغفلة و كدرات النفس و غطاء البشريات و لعلى أرقى إلى مراتب التجليات و أشرب من عين اليقين و أتحلى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۴۸

بحلية المعارف و لذلك قلت و على اللّه اعتمدت :

ألا أيها القطب الهمام تعلقتمجامع قلبى بالسعيد المنور

شغفت بحبه لأنه مذبدايقوم بأوراد و يسعى باجدر

فقد دنفت نفسى بأوصاف ما بهتحلى أمامنا من كل مصور

من الذى أبدع الإله فى رسمهمن أحسن زينة و أحلى تذكر

فطبعه قد أسبى من الناس أفكاراو لفظه قد أعمى بصائر بالسحر

و لكنه سحر من الحق قد أتىليجذب أقواما تأيّدوا بالنصر

على عدو لسنا نراه تحققاو إنما يختفى ليقطع بالفكر

فصده قد بدا عن كل كريمة و لعنته حق من اللّه للغدر

فمكره بيّن لكل من الملاو غايته العصيان منهم إلى الكفر

و نفسنا قد جرت علينا بوصفهاو أخمدت أنوار لبعدها عن ذكر

فصحصحت فى نجوى الضلال نايئةعن الحق و التحقيق بل هى بالنكر

فاودعت سموما فليس لنا تخفى فقد مزجت بكل حلو مع الضر

و فى كل رتبة تلوح بفكرهاو أنها تثبط العباد عن الظفر

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۴۹ فكيدها قوى و ليس له دواءإلا عصمة من اللّه لى بالنصر

و دنياك عدو لترمى بحبلها بسجن من الهوى و قيد من الكبر

فكل خطيئة بحبها يا فتىو أنها تضليل و صد عن البر

و أنها لعنة من الحق بالقلافمن حيث أنها تصد عن الشكر

فيشكر ذو نعمى بخدمة ربهاو صرف من أجلها ليلحق بالظفر

و إلا فكفران من المولى ظاهرو ليس لها قيد يحدها بالجبر

و أكبر أعداء من الناس يا هذاعداوة حساد مليمة بالضر

فإنه لن يرضى من اللّه بشيءسوا نعمة تزول بالكشط بالظفر

عداوة إنسان تصد عن الهدىو ليس لها دوا إلا الطب بالصبر

فهذه أعداء لإنسان قد رمىبسهم من النوى و قطع عن الذكر

فصرت أسيرا للشقاوة و الهوىفمنعت أثوابا من التقى بالضجر

و لست أمورا من العلى بالدعوى و زعم ليس له من الحق ما يبرى

و لا شك أنه من الداء معضلو يمنع أذواقا من اللّه للسر

و يحجب أرواحا عن كل رائقةو يسرى إلى العمى عن الحق فى السير

فليس له فتح ما دام بزعمهو ليس له نور ما دام بذا السكر

و لا أنت تعتبر حلاوة كلمةفإنها عند اللّه أدهى من الصبر

فمدع كذبا من اللّه لا يرىفى دهره أحوالا تحق من النور

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۵۰ و إن كان واقعا بمكر نزل بهو حسبه من أفكه و علة فى الصدر

و مكر به أجل و وصمة بالهوىفأقوى فى قطعه من القطع للظهر

فدعوة كاذب تسد لأبوابمن الفتح من اللّه وقته بالعسر

فأوقاته مقت و قطع لوصلهو نوره ظلمة و صفوه بالكدر

و وصفه عجب و سمعة و ريا و كبر و بغض ثم حقد مع المكر

و بخل و جبن ثم أقباح خلقو سوء بظن فى العموم من الغير

و شك فى رزقه و ما به قد قضىمن السعد و الشقا و قدر من العمر

و ضدها أمال و طول فى حضهيعلل بسوف طول عمر من الدهر

فطبه تفويض لما به قد قضىو حقه تسليم لربه بالقدر

سعادة لامرئ و ضدها يا أخى عند اختتام الأعمال بالموت بالقهر

و كلها علل و أسقام للفتىو قاتلها سم و أسرع من سقر

و كلها آفة و نقمة أبداتنافى رضى المولى و توذيك فى القبر

وزد لها أمراضا من الدنيا تعتبرأمورا و علة مع الذل و الفقر

و هتك لأعراض من الناس مع أذىلنفس و مال فهو أبلغ للضر

و نقض لحق يستحقه ذو العلابعلم و قدر لا يعاين بالنكر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۵۱ و موته أحلى من حياته فى الورىلرافع مثله يعامل للخير

و عامله رفع و ليس بخافضفجره عصره بلا عامل الجر

فحزنه دائم و علته بدتفصبر جميل حتى يرفع بالنصر

فعلة كسره بلا سبب تریو تکن لالتقاء الساکنین بالضر

فهذه ثلمة و لیس یسدهاإلا عالم قد فاز فی الکون بالظفر

فانه ترياق لكل من البلاو طبه نبوی فیبری من الضر

فلا غرو أن نزلت ثم برحبهیکون لک طبا لأمراض فی السر

و یمنحکم عزا فی ذلک بالهوان و یبدلکم یسرا فی أزمنة العسر

و یغنی أقواما بفتح من المولیو یکسی عریانا بأجمل من ستر

و یظهر خاملا بأعظم سطوةو یجبر مکسورا فی وقت من الدهر

و یرفع مخفوضا و یروی من السماو أمواج نفعه أجل من البحر

فأنوار بحره تحق بأهلهاو أسرار علمه تعد من النهر

فأنواره تبدو فی کل من الفنونو أضواء شمسه تعالت عن البدر

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۲۵۲ فهو أبو السراج فی سماء العلاو لیس معه نجم یلوح إلی قطر

فإنه ضیغم لکل من العدافمن رآه حقا فیخضع بالصدر

قمین بعلمه و لیس بعارضیعارض أصله و فرعه بالنکر

و قد أطبق کل بصحة نقلهفلیس له نقض لما صح من خبر

فوده قد بدا یعظم فی الوریوده سید مع اسمه فی الذکر

فانه بقدر یبین فی الملا و لیست عبارة توفی بذی الفخر

فکل طنین المدح أعلی و أکملنفی علم عالم الکال فی السر و الجهر

فانه نبراس من اللّه فی الوریو یزداد شوقنا لعلمه بالذکر

و مذ رمی وصله إلی الهدی طائعافهو دلیل لیس ینقض بالغیر

و کم من ضعیف قد أذاق بحبهو قلبه عرش للتجلی من السر

فکل من انتمی إلیه فیرتقیو یسعی لحضرة مؤئدا بالنور

فیشهد أمور تغیب عن الفتیفی أیام غفلة و ذلک بالفقر

و یشرب من عین الیقین بعلمهو سطوة حبه مع الجد بالفکر

فیسکر من ذوق الحقیقة معلناو یفهم أسرارا فی حاله بالسکر

و یدعی بین الوری عزیزا مکرمابالحاظ شیخنا المعظم فی القدر

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۲۵۳ و یجلی أنوار من العلم فی العلاو یحظی بأسرار تعز عن النشر

فیسری بروحه إلی سماء السنافما ینطق إذا عن الهوی بالضر

فلیس لنا سعد إلا اللیث فی الوریو لیس بنا جاه إلا سید النصر

و قد شنف سمعی لذکره فی الملاو أضنانی حبه فی جسمی مع الصدر

و حرکنی ذکر الأغانی لحضرةیجول فیها المسکین من غیر ما زجر

و رؤیة علمه تذوق أرواحناو تذکر بالعهد القدیم من الظفر

و ذلک فی یوم الست بربکمو لم تنکر أبدا لعقدها المنتشر

فانه إنسان من الجسم فی الهویفلا حجب تبدو من القفص بالسر

فانه استار من الجسم مع هوىو ان هوان المرء من ذلك بالستر

إلا أيها الإنسان فاسأل بجاههو بالذى قد علاه فى كل مضمر

و عزه فى الورى بكل ما قد تروىو عظمه المولى بكل مسير

و قد أسمع صم القلوب بذكرهو أبصر أعينا بحكم المنور

و أنطق أفواها بذكر حبيبنافما هو فى السنا بأحسن مفخر

و حرك أرجلا لا زخر روضة و فيهن أعظم الخليفة فى القدر

على أنه حى يمتع بالرؤيا و يطعم بطعم الجنان مع الفكر

و كل موجه لقبره يا فتىيراه بعينه عيانا بلا خدر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۵۴ فحق لنا بالشكر من حيث أنناوفقنا بروضة الخليل بذا البحر

و فضله فى الورى يعمنا كلناو يحيى أموات القلوب من الذكر

طريقته تعلو على كل رتبةو أنوار سره تعد من الجهر

و ها أنا عبدكم قريع لبابكمليحظى بعزكم و يصحو من السكر

و قد اسكرتنى المعاصى من الشقاو خلفنى ذنبى عن الفوز بالظفر

و أنى ذو لؤم سفيه بين الوروىو أنى محجوب فى صرف من العمر

عساكم ترحموا عبيدكم قد أساتجوله منكم لضعفه كالسفر

و أنى خديكمم بما عله يكن محر ككم للجبر منا من الكسر

و لحظكم عز و منحكم رفعةوجودكم جمع فيغنى من الفقر

و لست أعنى به إلا الذى قد علاو هو الذى يدعى بالزروق فى النثر

و قد سألت رضى الكريم بجاههو توفيقى للهدى و حظا من النصر

و سترا من المولى مع الجد فى العملو رزقنا موسعا مقارنا بالستر

و سعدا من المولى فى كل مهمةو مغفرة لنا مع البرء فى الصدر

و خاتمة حسنى و أزكى عافيةوطفا جميلا فى اخترام و فى القبر

و كونه فى الدنيا يناسب حالناو يرفع قدرنا عن كل محذر

و هب لنا ربنا بعلم مع التقىلكل نجل لنا و طالب مضطر

و يا ربنا احفظنا من كل بليةمن الدين و الدنيا و خلق من الشر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۵۵ و يا ربنا سلم و صل على الذىبرحمته أهدى الخليقة بالأمر

وصل على آل و صحبه أجمعا فى مدة مرور الجديدين فى الدهر

أقول مدحت الشيخ زروق بهذه القصيدة و لعل اللّه أن يكسونى بكسوة المعارف و أن يحلينى بما حلى به أولياءه المقربين و يذيقنى ذوق العارفين باللّه تعالى و أن تكون لنا حجابا و براءة من نار الافتراق و نار الاحتراق و ان يورثنا بها سعادة الدارين و لكل من تعلق بنا مع النظر إلى وجه الكريم آمين يا رب العالمين.

لطيفة فائدة استقرار الشيخ فى هذه البلدة و هى بلدة مسراتة إذ هى ليست من الأمصار و مع ذلك أن الأكابر يختارون سكنى الأمصار للتذكر و الاعتبار قلت و فى المدن من الخيرات الدنيوية و الأخروية ما لا يحصى فإنها محل العلم و أهله و أنها أيضا مواطن الزيارة لما فيها من قبور الصالحين و المؤلفين لا سيما أفريقية و مصر و بغداد و دمشق و البصرة و الكوفة و غيرها من مدن المشرق و كذا مراكش

فی المغرب و فاس و أرض الجدار تسلمان لأن فیها أبا مدین الغوث و الشیخ السنوسی و الإمام ابن زکری و الإمام ابن مرزوق و العقبانیین و غیرهم و کذا بجایة لأنها من أعظم المدن و فیها أبو زکریاء یحیی الزواوی و الشیخ عبد الحق الأشبیلی صاحب العاقبة و أبو حامد الصغیر صاحب التذکرة و هو أبو علی المسیلی و الشیخ عبد الحق بن أبی ربیعة و الشیخ الوغلیسی و الشیخ الصباغ و الشیخ الفملی و غیرهم و هؤلاء کلهم مؤلفون إلا القلیل و إن الدعاء مقبول عندهم و قد زرنا جمعیهم و الحمد للّه.

و بجایة کانت من المدن المعتبرة و إن الإسکندریة کانت من عمالتها و کذا المغرب و ان عساکرها قد أحرقوا باب فاس و إلی الآن یسمی باب المحروق و قد أفردها

الرحلة الورثیلانیة، ج ۱، ص: ۲۵۶

بعض بالتألیف و من أراد العجب العجاب فلیطالع نبذة المحتاجة فی ملوک صنهاجة.

انعطاف إلی ما کنا بصدده فلما استقررنا بوطن مسراتة و أقمنا فیه یومین انتظارا لبعض الحجاج من الأشراف أعنی صهر أخینا فی اللّه سیدی محمد الشریف النوفلی المذکور البلغیثی و الحاج أحمد السعداوی و أن أهل مسراتة أقبلوا علینا بالزیارة و الکبیر و الصغیر لقوة اعتقادهم فینا أصلح اللّه حال الجمیع و زرق لهم الخصب و الرخاء بمنة العلیم السمیع و قد کثر فیهم محب الخیر و من فیه سیمة الصلاح و من کل صنف منهم من الطلبة و الفقراء و العامة و أولاد الأتراک.

حاصله بلدة طیبة و رب غفور و قد ظهر علیهم جاه الشیخ زروق إذا عنایته ظاهرة علی من زاره و عبر عنه فضلا عن جیرانه و قد شهدنا برکته معنا و انه من الذین یتصرفون بالخیر لدینا و ما مررنا علیه إلی الحج و أصابنا شیء إلا فرج فی الحین وق وقعت فی أیدی الحرامیة أی المحاربین من العرب و تمکنوا من هلاکی فنجانی اللّه منهم بجاهه و جاه أمثاله إذ محبتی فیه قویة و مددی منه عظیم و قد وجدته من نفسی و قد قلت فی بعض الأسفار فیه.

فیالها من بشرة تفوقلکوننا استودعنا الزروق

و من العلامات الظاهرة و الکرامات الباهرة أن أهل وطنه أقبلوا علینا و ظهرت محبتهم لدینا و أنهم أکرمونا غایة الإکرام بالأرزاق الحسیة و المعنویة و المعتبر الثانی قل یفضل اللّه برحمته فبذلک فلیفرحوا و هو خیر لهم مما یجمعون هذا و أن أرض الشیخ منورة به یشهد ذلک من له ذوق سلیم و طبع مستقیم.

ثم ظعنا منه أواخر شعبان عام التاریخ و هو عام تسعة و سبعین و مائة و ألف

الرحلة الورثیلانیة، ج ۱، ص: ۲۵۷

(۱۱۷۹) و ودعنا من فیها من الأحباب من صلاة الصبح إلی قرب الضحی فمنهم من رجع بالتودیع و منهم من سار معنا مدة لغلبة سلطان المحبة فی قلبه و هذا کله بعد أن ودع أصحابنا قضوا حوائجهم التی اشتغلوا علیها و کذا الإجمال الضعیفة عند أحبابنا فی اللّه تعالی من مسراتة و أن أهل الرکب أیضا رفعوا الماء من سیدی أحمد زروق إلی معطن الزعفران خمسة أیام و لا ماء فی هذه المدة إلا ما لا یصلح للشراب لمرارته و ملوحته.

ثم مررنا صبیحة ذلک الیوم بالشیخ الولی أبی شعیفة فی جماعة من الفضلاء و شیخ الرکب وصلینا الضحی عنده و قبره علی شاطئ البحر و قد ذکر شیخ شیوخنا سیدی أحمد بن ناصر أنه اجتمع مع الأفاضل فی وطن الشیخ زروق و سماهم.

تتمة و قد ذکر شیخ شیوخنا سیدی أحمد بن ناصر أیضا ما نصه خذوا ماء خمسة أیام إلی مورد الزعفران إذ لیس بینکم و بینه من الماء إلا ماء العریعر علی نصف میل وق ما یمر به الرکب و بالقرب منه ماء یسمی بالسمیرة و هو قلیل آجن و بعده بیوم و نصف ماء الهائشة و هو أقبح ماء لا یشربه إلا من اضطر إلیه وبعه بیوم بئر حسّان و قل أن یوجد فیها ماء و من هنا یستقبل الحاج مسافة برقة العریضة الطول و العرض و لا ترى العمارة من قصر أحمد إلی الإسکندریة إلا أن یلقی الناس أحیاء من العرب إلی أن قال و بإزاء روضة أبی شعیفة المذکور مزارة فی مغارة بساحل البحر یتعبد بها الصالحون لا یکاد یطلع علیها أحد إلا من عرفها لأنها صغیرة

مستقبلة البحر يغلب على الجالس بها الحضور إذ لا يرى إلا البحر و لا يسمع إلا تسبيحه و تحميده لربه و إن من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم لغفلتكم عنه و من امترج

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۵۸

تعظيم الحق و تسبيحه بلحمه و دمه و أنس بذلك سمع تسبيح كل شيء أما بحالة أو بمقالة و فى الفتوحات المكية للإمام الأكبر و العقلاء من الأنس أصحاب الأفكار من أهل النظر و الأدلة المقصورة على الحواس و الضرورات و البديهات يقولون لا بد أن يكون المكلف عاقلا بحيث يفهم ما يخاطب به و قد صدقوا و كذلك الأمر عندنا العالم كله عاقل حى ناطق من جهة الكشف بخرق العادة التى هم الناس عليها أعنى حصول العلم بهذا عندنا غير أنهم قالوا هذا جماد لا يعقل و وقفوا عند ما أعطاهم بصرهم و الأمر عندنا بخلاف ذلك فإذا جاء عن نبى أن حجرا كلمه و كتف شاة و جذع نخلة و بهيمة يقولون خلق اللّه فيه الحياة و العلم فى ذلك الوقت و الأمر عندنا ليس كذلك بل سر الحياة فى جميع العالم و ان كل من يسمع المؤذن من و رطب و يابس يشهد له و لا يشهد إلا من علم هذا عن كشف عندنا لا عن استنباط من فكر بما يقتضيه من ظاهر خير و لا غير ذلك و من أراد أن يقف عليه فليلزم طريقة الرجال و ليلزم الخلوة و الذكر فإن اللّه سيطلعه على ذلك كله عينا فيعلم أن الناس فى عماية عن إدراك هذه الحقائق انتهى كلامه.

قال الشعرانى فى لواقح الأنوار القدسية المتنقاة من الفتوحات المكية بعد ما تقدم و قد وقع لى ذلك سنة تسع و عشرين و تسعمائة فسمعت تسبيح الجمادات و الحيوانات كلها فى سائر أقطار الأرض و ذلك فى صلاة المغرب و استمر ذلك إلى آخر الليل حتى خفت على عقلى و سألت اللّه الحجاب عن سماع ذلك فحجبه عنى رحمة بى و أبقى على علم ذلك و كان من جملة ما سمعت من تسبيح الحيوانات فى البحر المحيط سبحان اللّه خالق الأرزاق و الأقوات و النبتات و الحيوانات انتهى كلامه.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۵۹

قال الشيخ أبو سالم وق أخبرنى سيدى أبو تركية مفتتح هذه المغارة رجل من العباد اسمه سيدى فرج و هو الآن بالجزائر و كانت قبل ذلك مغلقة لا علم لأحد بها انتهى.

قلت إلى أن قال و إنما زرنا أبا شعيفة على تل مرتفع على ساحل البحر ثم استقبلنا المغارة و توسلنا إلى اللّه تعالى بمن يأوى إليها من العباد و الزهاد و اعتمدنا على تلك الأقطاب و الأبدال انتهى.

قلت و لما زرنا أبا شعيفة و من معه رأينا سفينة مرساة بالبحر ذهب محبنا فى اللّه سيدى محمد بن قسوم من أصحاب المخزن غرير أنه يحب الخير و أهله و كان محبنا و ينتسب إلينا و هو رجل ذار متمسك بأهل السنة و قد حج بعياله و أولاده جميعا ذهب إلى تلك السفينة فلما رجع إلينا و لحق بنا فى الطريق طفق يخبرنا على ما شاهده من أمر المغارة إذ تعجب من أمرها و ما شاهد من تجليات الحق فيها كأنه أصابته هيبة و جلال حين رآها كاد أن لا يملك نفسه و نحن لا نعرفها و لذا استخففنا بأمرها و إلا لبحثنا عنها عند الرجوع نعم من عادتى إذا دخلت وطنا أو زرت مقبرة أو صالحا نويت من كان فى ذلك الوطن من الصالحين و أهل الخير جميعا سواء كان حيا أو ميتا ظاهرا أو خفيا ذكرا أو أنثى من أول عمارة ذلك المحل إلى أن يرث اللّه الأرض و من عليها و هو خير الوارثين.

و قد كان سيدى أحمد بن ناصر حين رجع مع أصحابه ذهبوا إلى تلك المغارة فلم يجدوها لعدم من يخبرهم بها و من أهل البلد فيزوروها و الشيخ من بعد هذا و أنا ركبنا من الشيخ أبى شعيفة و ذهبنا على ساحل البحر مع فضلاء الركب و الحمد للّه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۶۰

من حين خرجنا من بلدنا إلا و صلاة الجماعة لم تفتنا فى كل الأوقات ليلا و نهارا تقبل اللّه من جميعنا ذلك بمنه و كرمه آمين.

و نزلنا أبا كدية قبالة تورغا و هى بلدة عظيمة كثيرة النخل جدا و تمره أحسن من تمرها وطن طرابلس كلها و فى هذا الموضع ماء قبيح لا يشرب و أن أبا كدية هذا معلوم خبث مائه و تورغا هذه بلدة عظيمة كثيرة النخل.

قال سيدى أحمد بن ناصر ما نصه تورغا و هى بلدة منقطعة أول برقة و فيها نخيل كثير و تمرها أطيب من تمر غيرها من بلاد الساحل و

أجود منه و إن كان على وصفه من عدم اذخاره إلا بإزالة النوى و طيبه و اللّه اعلم لبعده شيئا ما عن البحر و رطوبته و دخوله قليلا إلى الصحراء حيث تكاد اليبوسة تستولى على أبدان الحيوانات فضلا عن النبات قاله الشيخ أبو سالم فى رحلته.

و ماء هذه البلدة غزير فى وسط السبخة و هم ساكنون فى الأخصاص و لا يبنون بالطين إلا مواضع الخزين يبنونها بالطين و الأحجار يحفرون عليها فيستخرجونها بنحت الأرض و هى أحجار سود و بناؤهم لا يكاد ينهدم و هى واسعة جدا لا يقدر الإنسان أن يحيط بها فى يوم واحد و عينهم غزيرة تسع ألف ساقية فيما ذكروا و لا يحرثون حرثا و لا يغرسون غرسا إلا النخل فقط و خراجهم للأتراك كل عام ثلاثمائة و صيف و خمسة آلاف ريال و هذا العدد الأخير أحد ثوه و لم يكن قبل عليهم و هى إلى الخراب أقرب للعداوة المغراة بينهم لا تخلو من فتنة وقت الخريف مع تداول الأتراك و الأعراب عليهم انتهى إلى أن قال قال سيدى العياشى و هى سبخة مستطيلة و على جوانبها بناء و قصور خالية و فيها نخل متفرق و كأنه رءوس الشياطين لا ترى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۶۱

أوحش منه و لا- أثقل طلعة على الحاج فى ذهابه لا سيما المعاود لما يستشعر بعده من المهامه و المفاوز و المعاطش التى يحار فيها الدليل كما لا- آنس منه و لا- أبهى منه فى منظر الائب أى الراجع من الحج لدلالته على انقضاء المفازة و قرب العمارة و نخيله آخر نخيل يراه الذاهب و أول ما يراه الحاج قال و بآخر الهائشة واد من الملح يجرى الماء على أرض من الملح فلا الماء يجمد ملحا و لا الملح يذوب ماء و أظن ذلك لقوة ملوحة الماء و نداوة الملح انتهى كلامه.

أقول وظعنا من أبى كدية و مررنا على العوينات و ماؤها كثير و مع كثرته متفرق غير أن فيه ملوحة إذ لا تستطيع الدواب شربه إلا واحدا أو أثنين من أطرافها من جهة تورغا فماؤه طيب إذ أهل البلد أخبرونا به و أيضا سيدى محمد الشريف صاحبنا يرصده فسقينا منه الدواب و كذا رفع منه من خصه الماء للزاد و ما أحسسنا بحر الشمس إلا فى هذه السبخة المذكورة إذ سافرنا بها زمان الشتاء و ان الإبل أيضا قد بقى منها كثير لأنها عطبت من حمل الأثقال العظيمة من مدينة بسكرة إلى طرابلس و إنما خفف الكرب من الأحمال ببعثها فى السفينة إلى الإسكندرية ثم إلى مصر غير أنها أضناها ذلك الثقل أيضا و أنها جاعت أيضا فى إقامة الركب فى طرابلس لقلة عيشها و بعد ذلك و بعد تلك المرحلة و المرحلتين بقى جمل للأخ فى اللّه الفاضل الفقيه سيدى محمد نجل الفقيه الشيخ سيدى أحمد بن المبارك و تركه فى الطريق إلى المبيت فلما أخبرنى بذلك أخبرت سيدى محمد الشريف فبعثنا إليه رجلا بدويا من عرب ذلك الوطن أعطيناه له بالنصف فلما رجعنا استخبرنا عنه قالوا أتى به و أعطاه إلى بعض أحبابنا من مسراتة ثم إن المكرم محب الصالحين آغة أعطى ناقة للفاضل الفقيه أخيه سيدى عبد الكريم لوجوهنا رغبة فى دعاء الخير منا و هو يتولى ذلك الجهل

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۶۲

وفقه اللّه و ستره و جعل البركة فى أولاده بفضله و رحمته.

و بعد السبخة بئر حسّان أقول فيه ما قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر بئر حسان بئر منقور فى حجر تجتمع فيه مياه المطر فإذا فرغ المجتمع فيه بقى محله يرشح بماء قليل يجم فى قعره يبل به الظمآن فمه و بإزاء هذا الماجل قرى خالية لم يبق إلا رسومها تسمى فيها مضى قرى حسان إضافة إلى بانيها و كان عاملا لبنى أمية لما نقض أهل أفريقية العهد فى آخر خلافة بنى مروان بنى هنالك قصورا و أقام فيها نحوا من ثلاثين سنين حتى افتتحها بعد ذلك حسبما ذكر من أرخ فتوح أفريقية و سمى المكان باسمه إلى الآن و قد تقدمت أشارة إلى شىء من ذلك أقول و بإزاء هذه الطريق بئر مطراو و قد اسقينا خيلنا منه فى الرجعة أنا و سيدى محمد الشريف و صهره الشريف من مسراتة و سيدى أحمد بن حمود و غيرهم و ماؤه طيب غير انه واحد و مع وحدته لا يكفى الركب و ليس لقلة مائه و إنما هو لكثرة الازدحام و التشاجر.

و بعد ذلك نزلنا الزعفران فوجدنا فيه الخصب العظيم ما رأيناه قط و أنوار النبات تغشى الناظر فلما نزلنا به و رأينا ذلك اطمأنت قلوب الحجاج لأن رؤية الخضرة و البحر و الوجه الحسن تزيل الهم و الغم و الأحزان و ماؤه أطيب المياه و أحسنها و هو أبيض كاللبن لكونه

فی رمل صاف ما علمت ماء فی برقة کهو فی جملة أبارها.

و ظعنا منه فلما وصلنا وقت الضحی مررنا علی معطن الأحمر و وجدنا فیه عربا کثیرا و هم عرب عبد الهادی و سیف النصر و هم عرفاؤهم و شیوخهم و هما قد

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۲۶۳

اصطلحا بعد العداوة البینة و طلبوا منها النزول للتسوق فامتنع الحجاج استعجالا و فی ذلک الموضع تلاقینا مع الرکب الفاسی و الفیلالی مغربین و وقفنا مع أمیرهما ساعة زمانیة استخبارا عن مصر و أرض الحجاز و أنهم طلبوا منا النزول و المبیت جمیعا لقضاء کل ما أراد غیر أن رکبنا لما رأی العرب نازلین هابوا منهم وجدوا فی السیر حتی فاتوا و لم یمکنا النزول فلما مکثنا معهم حینا افترق الکل علی أسعد حال و أتمه و بقی سیدی محمد الشریف و أصحابه یطلب شراء الإبل إذ جماله ضعیفة فتأخر من غیر علم منا ثم بعد قضاء حاجته جاء وراءنا و لم یلحق بنا إلا بعد النزول.

هذا و إن شیخ شیوخنا سیدی أحمد بن ناصر قال و فی قرب الزعفران رأینا سانیة غزیرة الماء إلا أن ماءها لیس بذلک فسقی الناس إبلهم و دوابهم و ملئوا أسقیتهم و هی أول عمالة سرت و اکتفی الناس بما ملئوا منها عن ماء الزعفران لضیق الوقت و حیدودته عن الطریق لناحیة البحر و هی أحساء فی ساحل البحر ماؤها طیب و علیها کثبان من رمل أحمر تظهر من بعید من وراء الکثبان من ناحیة البر قصور سرت تخزن فیها الأعراب میرتها أی أرزاقها و هی الآن خالیة لا عمارة بها.

و بلاد سرت هذه من أخصب البلاد و أمراها أی أکثر أرزاقها ذات مزارع کثیرة بالبعل أی بلا سقی و إنما تسقی بالمطر و عربها أهل رفاهیة إلا- أن الجور أجلاهم من بلادهم و شتت شملهم و لا یکاد أمرهم ینتظم و لهم جدار و عقار کثیرة بساحل أحمد ثم قصیر الذبان بعد المغرب انتهی.

ثم ظعنا و نزلنا النعیم و ماؤها حلو طیب أحلی ما یذاق و أرضه طیبة غیر أن الظلم أخلی هذه المواطن لقوله صلی اللّه علیه و سلم لم یکن شیء أسرع بصاحبه

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۲۶۴

کالظلم و لقوله عز و جل: وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَةً أَمَرْنا مُتْرَفِیها فَفَسَقُوا فِیها فَحَقَّ عَلَیْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِیراً الآیة.

و بعد النعیم مفازة عظیمة یعسر أمرها علی الحجاج لا سیما زمان الحرف إن الشّوب قل من یسلم منه الناس إذ مقطع الکبریت صراط الدنیا لقلة مائة مرارته علی تقدیر وجوده و الماشی فیها یستوحش من تغیر لون السماء أکثر من أغبرار الأرض و مع هذا فهو أخفض المفازات و أبعدها من تغیر الهواء و إنما ینجو منها الإنسان بفضل اللّه و کثرة التزود من ماء النعیم إلی معطن المنعم نعم سر اللّه مع وفده و إلا فبضاعة الإنسان لا تستطیع المفاوز و المعاطب و اللّه یقول: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ الَّذِینَ هُمْ مُحْسِنُونَ و لو لا فضل اللّه ما سلم فی مثلها أحد من المارین بها فإن الماشی بها کان الشمس نازلة إلیه و متوجهة لدیه فلا یکاد الإنسان یعبر عما أدرکه من ذلک و لا یعرف مقدار ما یصیبه إلا من ذاق من ذلک و شارکه فی ذلک السبب الخاص.

و لذا قال شیخ شیوخنا سیدی أحمد بن ناصر ما نصه و تسمی هذه المسافة مقطع الکبریت تغلیبا و إلا فالمسمی بذلک موضع واحد فی هذه المسافة میاه کثیرة إلا أنها تقل فی بعض الأحیان و بعضه أجاج فیحتاط الناس بأخذ الماء الطیب و هی مفازة قبیحة تهب فیها السموم إلی أن قال و نزلنا غربی الیهودیة ثم قال قال أبو سالم فی رحلته و فی الرسالة القشیریة عن بعض الفقراء انه قال دخلت مدینة الیهودیة بأرض المغرب و ساق الحکایة إلی آخرها و لعل تلک المدینة هی هذه إذ لا نعلم بأرض المغرب مدینة تسمی الیهودیة و اللّه اعلم بحقیقة ذلک قلت و أنی قد وقفت ببعض

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۲۶۵

مواضع قرب تونس قبر الشیخ البرکة الولی الصالح و البدر الواضح سیدی حسن السجومی نفعنا اللّه به و أفاض علینا من برکاته من

أصحاب القطب الربانى و الغوث الصمدانى أبى الحسن الشاذلى من الأربعين يسمى اليهودية حسبما اشتهر ذلك فى أول الزمان إلى الآن و يحتمل ما ذكر فى الرسالة هذين الموضعين إذ كلاهما من أفريقية غير أن سيدى أحمد بن ناصر لا يعلم هذا الموضع. ثم قال و ماؤها لا فرق بينه و بين ماء البحر ثم قال الشيخ بن ناصر قلت و برقة مسافة شهرين من الإسكندرية إلى أفريقية و كانت متصلة العمارة لا تكاد تسير فيها بريدا ليس فيه أثر بناء و رسوم عمارة داثرة و قد جاء الإسلام و غالبا عامر ثم لم تزل عمارتها تضعف من موج الرعية و ظلم بعضهم بعضا إلى أن خرج عرب هلال من مصر أواخر الرابعة و أوائل الخامسة فخربوا البلاد و استولوا على القرى فأفسدوها و خلت البلاد من يومئذ و البقاء للّه الواحد القهار و بعد اليهودية الكحيلة و ماؤها ذو حمأة لا يكاد يشرب و فى قربها الحدادية و هى بئر مستطيلة و ماؤها ذو حمأة أيضا و هذه السوانى كلها باقية إلى الآن و قد سقينا دوابنا من الجميع حال رجوعنا و أما الطلعة فقد كثر ماء السماء فاستغنينا به عن جميع الآبار إذ هذه المياه لا تصلح إلا للمضطر إذ ماؤها مر و مع ذلك فيه بعض الملوحة لكن يختلف ذوقه و قد يتقوى ذلك بحسب كثرة الأمطار و قلتها.

ثم بعد ذلك مررنا على سبخة مقطع الكبريت و فى أعلاها معدن الكبريت فى آبار كثيرة يحمل منها الطين و من هناك يحمل إلى طرابلس و كذلك إلى مصر و الإسكندرية و يذهب منها مع الركب إلى مصر فى كل سنة أحمال كثيرة غير أن الذى يريده يتقدم الركب إلى أن يقضى حاجته فيلحق الركب فى الذهاب و الإياب لما فى الكبريت من منافع الإبل.

و بعد ذلك نزلنا المنعم و هى أحساء بساحل البحر ماؤها طيب عليها كثبان من

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۶۶

الرمل ينزل الناس وراءها فيمرون إلى الماء من بينها و قل ما يخلو من عمارة الأعراب و سقينا و استقينا و ظعنا منه صبيحة.

و مررنا على السبخة و السبخة صعبة جدا كثيرة الوحل و فيها غور فى بعض المواضع و لا ينجو منه إلا من يعرفها أو يقدم خبيرا يعرف المسالك لأن طريقها أقرب و إلا فليترك سبيلها و ليذهب حذوها يمينا عنها حال الطلوع و بينها و بين البحر جبال من الرمل تصعب على الإبل طلوعا و هبوطا يعلم ذلك بالعيان و قد تشتت حال الركب فيها.

ثم سرنا يومين و نزلنا معطن اجدابية عند الزوال و سقى الناس و استقوا و ملئوا أسقيتهم مارين مستعجلين إلى سلوك و وقفنا على مسجد بها يزعم الناس أن الإمام سحنون درس فيه ثلاث سنين و من المنعم فارقنا البحر فلا تراه إلا عند التميمى.

أقول قال الشيخ العياشى و هذه اجدابية آثار عمارة كثيرة و آبار عظيمة منقورة فى الحجر و بنيان هائل بالحجر المنحوت و هناك رسم مسجد قديم تهدم و وجدنا فى بعض حجاراته تاريخ بنيانه منقوش سنة ثلاثمائة قال و هذه المدينة هى مدينة برقة المذكورة فى كتب الفقه و قيل أنها مدينة بالجبل الأخضر فى الجانب البحرى.

و قد أخبرنى صاحبنا سيدى عبد اللّه بن غلبون أنه رآها و أن رسومها تدل على عمارة قوية و بها آثار سور و أبراج و رخام كثير و قال أن بها قبرا مشهورا يزار و يزعم أعراب البلد انه قبر نبى فقلت له الغالب انه قبر صحابى فقد نص المؤرخون على أن رويفع بن ثابت بن السكن الأنصارى الصحابى قد توفى ببرقة و هو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد و قتل ببرقة أيضا من الصحابة زهير بن قيس البلوى ندبه عبد العزيز بن مروان إلى برقة فلقى الروم فقاتل حتى قتل و ما ذاك إلا قبر أحدهما فان

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۶۷

كثيرا من العوام يطلقون باسم النبى على الصحابى و قد شاهدنا كثيرا منهم يعتقدون فى أبى بكر و عمر و على أنهم أنبياء و يظنون أن أسم النبى و الصحابى مترادفان فلما أخبرته ب ذلك فرح و قال لى ليس الأمر إلا كما ذكرت.

قال و لما رجعنا من الحجاز سنة أربع و سبعين لقيته بمسراتة و قال لى ذهبت بعدك إلى المكان المذكور و تأملت القبر و عليه كتابة و أمارات ربما تدل على صحة ما ذكرت قال لى و ذكرت كلامك لبعض الأمراء فى درنة ففرح بذلك و أمر بالبناء على القبر و التنويه به و اللّه لا يضيع أجر من أحسن عملا و نية المؤمن ابلغ من عمله فان صح أن هذا القبر قبر الصحابى المذكور بتلك المدينة

هى برقة المشهورة لا أجدابية و الأمر فى ذلك قريب فان بين المدينتين نحوا من خمسة أيام فكلاهما يصح أن يقال بينها و بين كل من مصر و أفريقية شهر إذ بذلك يعرفها الفقهاء إلا أن التى بالجبل أقرب إلى مسمى المدينة لما بإزائها من المياه و الأماكن المخصبة و المزارع الكثيرة الغياض الملتقبة من أنواع الأشجار بخلاف اجدابية فإنها فى صحراء من الأرض مقفرة و اللّه اعلم بغيبه و مسمى برقة على التعيين عند عرب البلد اليوم هى مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سلوك و فيها رسم أبنية كثيرة و إطلاق برقة على ما سواها مجاز علاقته المجاورة (العلاقة بفتح العين المناسبة) و هذا مما يقوى أن مدينة برقة هى اجدابية و بإزاء المسجد الذى بها قبر محوط عليه بالحجارة يزار يقال لصاحبه سيدى يونس و هو من عرب الفواخر.

و قد وجدنا ركب أهل تونس الذين مروا أمامنا قد أوفدوا عليه شمعا كثيرا و بقيت منه بقية فأردنا أخذها للحاجة إليها ثم توقفت فى ذلك و بعد ذلك ظهر لى جواز أخذه فبعثت إليه فوجدت الغير أخذه انتهى كلام العياشى.

و ذكر شارح الشقراطسية الشيخ محمد بن على برقة فقال أما وصفها فقال

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۶۸

البكرى رحمه اللّه و اسم برقة بالرومية الإغريقية بنطابلس تفسيره خمس مدن و ذكر أن مدينة برقة فى صحراء حمراء التربة و المبانى فتحمر لذلك ثياب ساكنيها و المتصرفين لها و على ستة أميال منها الجبل و هى دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها الماشية و تنمى على مراعيها و أكثر ذبائح أهل مصر منها و يحمل منها إلى مصر الصوف و العسل و القطران و هو يعمل بها بقرية من قراها بقرب جبل و عر ما يرقى إليه فارس على حال و هى كثيرة الثمار من الجوز و الأترج و السفر جل و أصناف الفواكه و يتصل بها شعر عويصة من شجر العرعر و ببرقة قبر رويفع صاحب النبى صلى اللّه عليه و سلم.

و أما فتحها فاعلم أن عمرو بن العاص افتتحها فى زمن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه و ذلك سنة إحدى و عشرين و صالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار و على أن يبيعوا من أبنائهم فى جزيتهم.

قال و وجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة و صار ما بين برقة و زويلة للمسلمين و زويلة مدينة غير مسورة فى وسط الصحراء و هى أول حد بلاد السودان و بها جامع و حمام و أسواق يجتمع بها الرفاق من كل جهة منها يتفرق قاصدهم و يتشعب طريقهم و بها نخيل و بسيط الزرع و برقة بفتح الباء المنقوطة بواحدة و سكون الراء المهملة بعدها فاف و الإغريقية بكسر الهمزة و سكون الغين المعجمة و كسر الراء المهملة و كسر القاف و تشديد الباء قيل المراد بالرومية الإغريقية القديمة التى هى أصل لغة الروم و اللّه اعلم و بنطابلس بفتح الباء المنقوطة بواحدة و سكون النون بعها طاء مهملة و باء منقوطة بواحدة مضمومة و لام مضمومة و آخرها سين مهملة كذا وقع فى كتاب البكرى و الذى وقع فى المدونة انطابلس بالهمزة قال و جباب انطابلس و مراجل برقة إلا أن هذا الذى فى المدونة يؤذن أنهما مدينتان بخلاف ما قال البكرى لكن يحتمل أن تكون إحدى تلك المدن برقة

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۶۹

و انطابلس اسم لجميعها كما يقال قسطيلية و توزر لإحدى بلد قسطيلية و الشعر الشجر الكثير و أرض كثيرة الشعار أى الشجر انتهى كلامه.

قلت و فى رحلة شيخنا العياشى و أرض برقة منقسمة على أقسام أولها من حسان إلى ما وراء الأحمر بيومين يسمى سرت و من هناك إلى قرب المنعم يسمى برقة البيضاء و من هناك إلى سلوك يسمى برقة الحمراء و منه إلى التميمى يسمى الجبل الأخضر و منه إلى العقبة الكبرى يسمى البطنان و من العقبة الكبرى إلى الصغرى يسمى بين الأعقاب و من العقبة الصغرى إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغيرة و قد ذكر العبدرى تقسيما غير هذا جار على اصطلاح أهل زمانه انتهى.

قلت و سلوك المذكورة آبار متعددة كآبار اجدابية فى صفتها و مائها و بإزائها أيضا رسوم بناء إلا أنها قليلة بالنسبة إلى اجدابية و ماؤها يقل فى أيام الحر و به تتعرض الأعراب للإركاب لقصد التسوق و يجلبون إليها الكثير من السمن و الزرع و اللحم و الإبل و منه

يتوجه القاصد مرسى ابن غازى و هى مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر بينها و بين سلوك مسافة يوم و فيها عامل و عسكر لصاحب طرابلس و فى تلك المرسى تصب أودية السمن و العسل و الشحم و الودك من الجبل الأخضر الذى لا أخصب منه و لا أكثر منه أداما فيما رأينا من البلاد و تحمل كل ذلك السفن إلى طرابلس و جربة و ما بإزائهما من البلدان و من هذا الجبل غالبا أدامهم و لحمانهم قال شيخنا العياشى رحمه اللّه و قد دخلنا طرفا من هذا الجبل سنة تسع و خمسين فى شدة الحر و تسوقنا طائفة من أهله بما قضينا منه العجب من السمن و الغنم و الإبل لم نعهد مثل ذلك فى بلد من البلدان و لا رأينا أرخص منه سعرا و لا أقل معرفة بالبيع و الشراء من أهله يؤخذ منهم زهاء قنطار من السمن بالثمن التافه من بز أو عروض

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۷۰

أو غير ذلك من الحوائج و لا يعرفون للدراهم قدرا و كانوا لذلك كنعمهم غفلا لم يدخل التجار بلدهم و لا صادرتهم العمال عن أموالهم إذ لا حكم لأحد من العمال عليهم إلا أشياء قليلة يؤدونها فى بعض الأحيان لصاحب أو جيلة و أوجلة قرية كبيرة أو بلد عظيم لا- يخلو من العلماء و الصلحاء بقرب برقة تتسوقه الناس مع كل بلد و هو فى حكم طرابلس لأن غير أن حكمه فيه ضعيف نفعنا اللّه بأهله.

و أما صاحب طرابلس فلم يكن له عليهم إذ ذاك حكم و أما الآن فهم تحت أيالته و فى أسر طاعته يؤدون الخراج و يدخل التجار من أهل طرابلس و مسراتة بلدهم لشراء الإبل و البقر و الغنم و الصوف و الأدام فبذلك حصل لهم بعض الخبرة بقيم الأشياء و مقاديرها و عرفوا الدينار و الدرهم و أما قبل ذلك فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا.

غريبة عرب هذا الجبل من أشد العرب كفرا و نفاقا لا يعلمون حدود ما أنزل اللّه على رسوله ليس عندهم من الدين إلا اسمه لا حرفة لهم بعد تنمية المواشى إلا النهب و الغارة قل ما مر بهم ركب فسلم من انشاب الحرب بينهم و بينه بسبب غدرهم و فتكهم عن اشتغال الناس بالسوق معهم و قد وقع ذلك معهم مرارا قال و أغرب من ذلك أنهم لا يعرفون السرقة فيحترس الناس منهم نهارا خشية النهب و الغارة و بالليل يبيت الناس رقودا مطمئنين لا تسرق لهم حاجة و ما ذاك و اللّه اعلم إلا لانقطاعهم عن العمران و توحشهم و السرقة فى الغالب إنما تعهد حيث يكثر العمران و تجتمع أجناس من الناس و تعمر أسواق و يوجد بيع و شراء.

و أما هؤلاء فأعداؤهم بعيدون منهم لا يقدرون منهم إلا على الغارة المرة بعد المرة و فيما بينهم يامن بعضهم بعضا فالقوا ذلك نوادر هذا الجبل فى رخاء الأدام و غفلة أهله عن قيمته و كثرة خصبه و بيعهم لبناتهم و أخواتهم و غير ذلك أشهر من

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۷۱

أن يذكر و طول هذا الجبل نحو عشرة أيام من بحرّيه و سبعة أيام من الناحية الأخرى و أكثر شجر الناحية التى مررنا بها العرعر حتى انه من شدة اشتباكه و التفافه لا ينفذ الناس فيه إلا فى طرق معلومة و شعاب مسلوكة و من خالفها توعر و انتشب فى الغياض بحيث لا يخلص إلا بمشقة لا سيما إن كان ذا دابة و مع كثرة غلب هذا الجبل لا يوجد فيه الأسد و الحجاج يزعمون أن سيدى أبا محمد صالحا دعا عليه فأجلاه اللّه من هذا البلد لئلا يؤذى صعاليك الحجاج و ذلك أن صح غيض من فيض فيما لأولياء اللّه من الكرامات.

غريبة قال و مما شاهدناه فى عرب هذا الجبل من الغرائب ركوبهم على البقر و حمل الهوادج عليها و أناختها عند الركوب و النزول مثل الإبل من غير مشقة عليها و لا- عليهم فى الإناخة لاعتياد الكل لذلك و للّه فى أرضه عجائب و فى طباع الحيوانات غرائب و كذلك الغنم لا يسوقونها إنما يسير صاحبها أمامها قلت أو كثرت و هى تتبعه فإذا أمهل فى السير أمهلت و إذا أسرع أسرعت و إذا جرى جرت و يأتى أحدهم بالكبش إلى السوق و هو يتبعه كالكلب المعلم ثم سرنا من أجدابية بعد صلاة الظهر و زيارة مسجد سحنون لبقاء أثره لا سيما المحراب.

ثم نزلنا بعدها بصعدة و بتنا ثم ظعنا منه فسرنا مرحلتين فوصلنا إلى معطن سلوك و نزلناه وقت العصر فبتنا فيه و أقمنا يوما انتظارا للتسوق من أهل ابن غازى إذ بعثنا إليهم رسولا من المنعم فأتوا إلينا فى البلدة الثانية بالشعير و بالسمن و العسل و بعض الإبل.

و قدم إلينا بعض أحبابنا من قرية ابن غازى إذ بعثهم الود الصدوق و الخل

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۷۲

الفاروق سيدى عبد اللطيف بسمن و شعير و غير ذلك جزاه اللّه أحسن الجزاء ثم إنهم طلبونا فى الإقامة و امتنع الحجاج لكونهم مستعجلين لأن يدخلوا مصر فى أوائل شوال غير أننا أمهلناهم لوقت الضحى فانصرف الكل على خير و عافية و مع هذا ذهب معنا البعض منهم من الأتراك و غيرهم إلى مصر بالإبل للتجارة فأحسن الجميع بنا و المحسن يجازى بالإحسان و المسىء تكفيه إساءته و اللّه يقول ما على المحسنين من سبيل.

و لما سقى الناس و استقوا و ملئوا أسقيتهم ما يكفيهم سبعة أيام إلى التميمى لأن السروال أصعب شىء فى طريق الحج لانعدام الماء فيه أعنى الحى و أما ماء السماء فعلى فتح إلهى و وهب فردانى غير أن اللّه لا يدع وفده إذ هم ضيافة فحاشاه من كريم أن يتركهم عطاشا لأنه أما أن يرزقهم بماء السماء ينزل عليهم فى الحين أو يجدونه فى بعض الأودية و الغدران مخبوا لمثلهم منة من اللّه و فضلا على قاصديه إذ لا يخلوا وفده من أحبابه الذين حركهم الشوق و الوجد إلى تلك الأماكن الشريفة و المعاهد السنية و المواطن المحبوبة لتتصل بالساكن و تشاهد محبوبها فيها و يزيل ما بها من قلق الشوق و ترتاح من مرض العشق فيخف بعض ما بها لأن الروح يطير إلى المحبوب فيرده فقص البدن فيسكن بعض سكون بنسيم الوصلة و رؤية حى المحبوب لأن الجوار ترياق المريض أى دواء مجرب و الدرياق بالتاء أو الدال أى الدواء الجرب هكذا فسره القاضى زكرياء فى شرحه للرسالة القشيرية رضى اللّه عنه و نفعنا بهما آمين.

[إذ قال الأستاذ قبر معروف فى بغداد ترياق أو درياق مجرب أى دواء مجرب]

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۷۳

و لذا تتحرك النفس لإشراق محل النبوءة فلا تتعب بما حصل لها فى الطريق لغيبها بالمحبوب عن ذلك فلا تتألم فإذا تمهد هذا فلا تخيب رفقة من هذا وصفه فحينئذ أما أن يرزقهم اللّه بماء جديد أو مستعد أو يكون البركة فى أسقيتهم.

و قد شاهدنا الجميع مرارا و الشكر لمن له المنة و الفضل فلا تحسب الوفد خاليا فتكون فارغا إذ الجامد فارغ من الضمير المتعلق بهم فيحرم من بركتهم و هذا الذى يحصل له التعب لأنه إن وجد الماء فلا يجد الظرف و إن وجد الظرف فربما تتقطع و ان سلمت ربما عطبت الدابة الحاملة و غير ذلك مما يصيب المحروم المزكوم عن شم شذاهم و إلا فمن لم يصبه وابل منهم فطل.

و قد سمعت من العارف باللّه الصدر الأعظم، و العالم الأفخم، و الورع الأفهم، الجامع بين الشريعة و الحقيقة سيدى محمد المغربى الطرابلسى عام (۱۱۵۴) أربعة و خمسين و مائة و ألف يقول أن العام الذى قبل العام الأول تقبل اللّه من أهل عرفة سبعا و ما عداهم قد رد ثم إن السبعة قد جدوا فى الطلب و اجتهدوا فى الدعاء من اللّه أن يغفر لأهل الموسم إلى أن دخل رمضان فشفعهم اللّه فى أهل الموسم جميعا و لم يرد منهم واحدا.

و أما العام الأول قال قد أتى رجل من أهل اللّه من فاس ليس له قصد و لا غرض إلا الشفاعة فى أهل عرفة فلما وصلها شفعة اللّه فيهم و حررهم لوجهه جميعا حتى أهل الترهة.

ثم قال و قول الفقهاء و صح بالحرام و عصى مذهب فقهى و إلا فمذهب أهل الفضل أن اللّه يغفر لجميع من وقف بعرفة و كيف لا و أن المعلم الأكبر الذى هو صلى اللّه عليه و سلم حاضر هناك و كذا أصحابه مع النبيين و الصديقين و الشهداء

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۷۴

و الصالحين و أهل التصريف و الخضر و الياس و الملائكة و رجال الغيب و بركة الجميع تنوب عن الجميع و اللّه يستحى أن يرد جمعا فيه محبوبه أو يمقت أناسا فيم أهل وده و لذا رفع اللّه المسخ لوجود أهل الذكر فيهم و ما دام ذكره فى الأرض فلا مسخ فيها لقوله عز و جل: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ فإذا علمت هذا فاعلم أن السروال محل صعب للعاقل

و غيره فيه سبعة أيام لا ماء فيها غير المرفوع أو الموجود بالفضل و فيه من التعب ما لا يمكن التعبير عنه إلا بالذوق غير أن اللّه يمن بفضله عليهم و يرحمهم و يرفق بهم بمحبته صلى اللّه عليه و سلم و أيام هذا الموضع مفازة فى انعدام الماء مثل هذه و لذا قال بعض الحكماء لو لا السروال فى برقة و العشاريات فى الدرب لحج النساء و الصبيان غير أن فضل اللّه يوصل و يبلغ و لا تعتقد أن كثرة الزاد مبلغة إذ ربما صاحبه هلك و غيره نجا و سلم و الاعتماد إنما هو على الفضل و المنة من اللّه تعالى و استصحاب الزاد شريعة و سنة فالوقوف معها وقاية و جنة هذا و أن المخلص من صعب الزمان، و قساوة المكان، الاعتماد على مدد الرحمان، و التخلق فى هذا الطريق بالرأفة و الشفقة للضعفاء من أهل الإيمان، فان من رحم يرحم و ان اللّه فى عون العبد ما دام فى عون أخيه و ليس التخلص من سموم عقارب الزمان، و أفاعيه إلا بترياق التفضل و الإيثار بحسب الاستطاعة و الإمكان.

ثم إن سعة الصدر و سلامته يحفظان من كل أذاية دينية و دنياوية و إن كانت سلامة الصدر ممدوحة فى غير هذا الطريق غير إنها فى هذا الطريق أنفع و أتم لا سيما مع وجود الرحمة و العفة و كف اللسان عن الخوض فيما لا يعنى و عدم الاسترسال فيما لا يحتاج إليه فكما غاب الإنسان عن أهله و أحبابه يغيب عن مألوفاته إلا ما لا بد

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۷۵

منه مما يقتضيه شرع أو طبع مع كونه مباحا بحيث أن أسبابه ليس منهيا عنها لأن قبول الحج موقوف على تصحيح بدايته من حيث إقامة الحق عليه فى تحصيل أموره و مادة أسبابه و إباحة موصله و رعى الحقوق فى جميع ذلك كله من غير مهلة إلا ما أخره الشرع لوقته فسوف يأتى اللّه بقوم يعينونه على ما هو بصدده لقوله تعالى: عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا فتتيسر أسبابه و تجتمع همته و يتحقق مقصده و تتهيأ أعماله القبول مع استيفاء الحقوق فمن كان معه حال اجتماعهم به فهذا هو إشراق بدايته و هو يدل على إشراق نهايته لأن من صحت بدايته صحت نهايته مع الاتساع فى معاملته و الإنفاق على قدر طاقته و المعاملة بقدر أسراره و الرأفة بقدر وسعه لينفق ذو سعة من سعته و من قدر عليه رزقه فيحسب قوته إذ لا يكلف اللّه إنسانا إلا بقدر استطاعته.

و إنما تنزل الرحمة على رفقته بقدر وصفه بما ذكر و نعته فإذا تقرر هذا فاعلم أن هذه المفازة كما وصفناها أولا غير أن اللّه تبارك و تعالى يسرها علينا بفضله لأن مقتضى العادة أن تتعسر على من هو مثلنا لأنى بعيالى ثلاث نسوة زوجة لأبنى و زوجتان لى مع كثرة الجماعة و قلة ذات اليد و كثرة البغال إذ كان معى خمسة و مع ذلك لم يصب الجميع جوع و لا عطش و لا خصنا خصب الدواب ففضل اللّه ظاهر، و وجودة باهر، و سوق أحبابه عامر، و عطفه علينا حاضر، لا سيما أنا تهنا عن الطريق حين دخولنا السروال أنا و جماعة أمير الركب سيدى محمد المسعودى الدكالى الصحراوى إذ تخلفنا لصلاة العصر فلما صلیناه غاب عنا الركب بين الجبال فجددنا فى لحوقه فتهنا عنه تيها عظيما ثم افترقنا فى طلبه فلم يظهر لنا أثره و لا تبين لنا خبره ثم إن اللّه تفضل علينا بوجود آثاره بعد الاياس منه هذا و انه كريم لا يخيب من قصده و لا ينعكس معتمده أصلا فلما تفضل علينا و تكرم لدينا لحقناه بعد أن نزل و استقر فى مبيته و وجدنا أيضا الإبل فى مسارحها و الناس متفرقون فى مصالح المبيت

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۷۶

و هى أول منزلة من سلوك.

ثم ظعنا منه صبيحة و مررنا بمخاصب و أماكن كأننا ما رأيناها قط و بعد ذلك اليوم اختلف الناس هل الخبير حصل له تيه أم لا و عند اليوم الرابع ظهر لنا أنه قد تاه بنا غير أن تيهانه ليس بعيدا غايته انه مال بنا إلى جهة الصحراء إذ التوغل فيها يخرج عن سنن الاعتدال فى الطريق بل المقصود المسير نحو جهة البحر و محاذاته أياه غير أن اليوم الخامس صبيحته وقع التنادى فى الركب و التباريح على أن الركب قد حصل له التيه و افترق جميعنا فى طلب من يعرف الطريق ليرد الجميع إلى المقصود فلما افترقنا ساعة و إذا بأثار البغال من مسير الأركاب الماضية رأيناها فحصل اللطف و استبشروا بوجود الطريق و حصوله فى أقرب مدة لما علمت أن وفد اللّه لا يخيب و لا ينعكس لإسباغ اللّه نعم الطافه عليه و وجود منته به فحصل لنا السرور بالإشراف على المفازة بالتوجه نحو قرب التميمى.

و فى اليوم السادس مررنا على قرية معلومة فقد قيل أنها آخر عمارة برقة و هى حديثة العهد بالخراب لأن أشجارها قائمة على أصولها لا سيما الزيتون و فيها آبار لا ماء فيها و أثار بنيانها ظاهرة و أسوارها متطاولة و أزقتها مشهورة و فى أسفلها واد كبير يجرى السيل إليه و منه ساقية تتصل بتلك القرية عظيمة عند وجود الأمطار فليس شربهم و لا استقاؤهم إلا من ماء الأمطار المجتمعة فيها ثم إن الحجاج تسابقوا إلى ذلك الوادى فوجدوا فيه غديرا صغيرا لا يبقى دوابهم فازدحموا عليه و خوضوه إلى أن صار طينا فلم يوف أحد مقصوده منه و بعد ذلك بمرحلة تفضل اللّه على الحجاج فوجدوا ماء مستبحرا فى مواضع عديدة يكفى أركاب الدنيا كلها سقيا و استقاء و رفعا فأغناهم اللّه عن النظر إلى التميمى.

و فى ذلك اليوم ولدت بعض النساء طفلا و تأخرنا فى جماعة انتظارا لها على أن

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۷۷

اللّه تفضل بتيسير طلقها و هى زوج سيدى عبد الرحمن الذويبى ثم العمرى من بلدنا بيننا و بينه مسيرة يوم ففرحنا له و دعونا له بالبركة و بعد ذلك لحقنا الركب بعد نزوله و استقراره بخيامه.

ثم ظعنا بعد ذلك الموضع فنزلنا التميمى على شاطئ البحر فيه آبار و حسيات قرب البحر غير أن ماء البئر ليس طيبا بل فيه بعض ملوحة كما يعمله ذائقه و الذى ثبت عند الحجاج و استقر عليه أمرهم أن ماء الحسيات أطيب و أعذب منه غير أنها تحتاج إلى معالجة و تنقية رمل و فيه من التعب ما لا يخفى فاستقى الناس بالبئر هربا من الكلفة و طلبا للعجلة و قد وجدنا هناك عربا متفرقين أكثرهم بلا بيوت قد أضر بهم الجوع إذ قل ميرهم و وقع القحط فيهم سنين متعددة و بلادهم فى غاية الجدب و مع ذلك الغالب سلب بعضهم بعضا على أنهم مسلوبون إذ تعدى عليهم عرب فأخذوهم بعد أن أخذوهم فكان الرجل يبيع أولاده و كذا المرأة تبيع أولادها إن كانت إيما.

و قد شاهدنا ذلك فنهينا الجميع عما هنالك فمن الحجاج من امتثل و منهم من أعرض و اشترى فالقادر منهم ذهب مع الحجاج و غيره طلب ما يقتات به فى الحال و بقى الآن الجوع أخذ فيه نعم الحجاج أشبعوهم الطعام جزأهم اللّه أحسن جزاء إذ سمعت منهم أن البعض منهم لم يذق الطعام نحو الشهر و الشهرين و إنما يأكل النبات من الخضر ليس إلا غير أن الشبعة الواحدة لا تسمن و لا تغنى من جوع [و إنما يحصل بها الأحياء فى الوقت و قد فعل الحجاج ما وجب عليهم بل زادوا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۷۸

زادهم اللّه خيرا] و إنما المشكوك فيه هل يجب علينا رفعهم إلى محل يقتاتون فيه ليحصلوا غرض الحياة إذ بقاؤهم هناك مهلك قطعا على حسب العادة الجارية غير أن قواعد الفقه لا تقتضى الوجوب لأن استخلاص المستهلك من نفس و مال يجب فى الحال و أما فى الاستمرار فلا لأن رفعهم إلى موضع العمارة قل من يقدر عليه و الأحكام مبنية على الغالب و قد طال النزاع بين الطلبة من أفاضل الركب فمنهم من يقول بوجوب رفعهم لكونهم انقطعوا عن العمارة إذ بقاؤهم هناك موت أبيض لانقطاع مادة الرزق بحسب المألوف العادى و منهم من يقول يجب إطعامهم فى الحال لتحصل لهم الحياة حينئذ و غير هذا غير مكلفين به و هذا الثانى هو الذى يظهر من قواعد الفقه لقول خليل أو فضل طعام و شراب لمضطر يعنى فى الحال و أما ارتقاب المثال فالرزق على اللّه إذ فى الغيب عجائب لا يعلمها إلا اللّه و قد قال تعالى و كائن من دابة لا تحمل رزقها اللّه يرزقها و إياكم و لقوله و عنده مفاتح الغيب لا يعملها إلا هو و إنما رتب اللّه الأرزاق على بعضنا بعضا استمطارا للثواب و إظهارا له للمحسن من غيره ليكون محبوبا لديه إذ اللّه يحب المحسنين و قد قال ما على المحسنين من سبيل أن اللّه مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون و من يخبل فإنما يبخل عن نفسه و اللّه الغنى و المانع عند الاضطرار، متعرض للآثام و الإضرار، و ذلك سخط العزيز الجبار، فالعاقل لا يبخل بما لغيره لا سيما عند الأذن منه و إلا حق ضده نعم كل ميسر لما خلق له فأسباب السعادة قريبة و كذا أسباب الشقاوة فالسعيد يشترى رضاه بما له و الشقى بالعكس يبخل بما له عن رضاه و بالجملة ما أقبح نائبا لا يحسن التصريف عن منوبه فيما نابه فيه لأنه أمين فى ذلك ليس إلا.

فإذا علمت هذا علمت أن بعض الناس يفتخر و يتكبر بمال اللّه و هو للورثة

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۷۹

و ليس له فيه إلا ما انتفع به فى الحال و بخله دليل على شقاوته لا سيما فى هذه الأماكن الشريفة و مع ذلك اللّه تبارك و تعالى يقول الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء و اللّه يعدكم مغفرة منه و فضلا فكيف يبخل الإنسان بواجب عليه و هو البخل الممنوع إجماعا و قد شاهدناه فيمن معه فضل و وسع يبلغه إلى أهله يقيمه سنين متعددة و يرى الناس فى السياق بالجوع و لا يمدهم بلقمة من طعام و لا- شربة من ماء و مع ذلك يشترى الأحرار ممن أصابه الجوع بفضلة ماله فيشقى فى الدارين لا رضا اللّه حصل، و لا مال احتفل، غير أن من سبقت له الشقاوة يخجلك على رءوس العوام بما لا عذر فيه كما سمعته من بعض المخذولين من طلبة ابن غازى إذ يقول متعللا- عند بخله بواجب يمسك عرض الحياة فى الإنسان بسبب جوعه أنهم كثروا و تجاوزوا قدر الاستطاعة فلا- يمكن الاستيفاء بما وجب علينا و تبعه على ذلك بعض من تراس من أهل الدنيا إذ طبع اللّه على قلبه و العياذ باللّه لأن القدر الواجب سهل و القائم به لا يعسر عليه و لا يحجف بما له إذ من بلغ حد السياق قليل بالنسبة لمن حصل له الجوع و إقامة البعض منهم بذلك فيه كفاية و إنما حيرهم كثرة السائلين و أدعاء كل الضرورة بل بعضهم أو أكثرهم يدعى حد السياق فالتبس عليهم القدر الواجب فتركوا الكل احتياطا بالبخل و لو أقاموا بالكل لا حتاطوا بالمرضى.

و لما اجتمعت معهم زجرتهم عن ذلك و نهيتهم عن الإقامة بحظوظ أنفسهم إذ قلت لهم إن كل من مات فهو فى صحائفكم لما علمت أن من منع فضل طعام أو شراب لمضطر حتى حصل له الهلاك يغرمه شرعا حتى استظهروا انه يقتص منه إذ مثلهم لو فرقوا الزّمن و الضعيف لم يصعب عليهم.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۸۰

و أما الصحيح فيخدم على نفسه ثم أن رأيهم قد اتفق معى على أنهم يركبونهم فى المراكب إلى الإسكندرية وبر الترك و إلى طرابلس و تونس فقلت لهم هذا القدر كاف شرعا و المسألة يتعذر فيها الاستقصاء فإذا تمهد هذا فأقول انعطاف إلى ما كنا بصدده.

و هو أننا ظعنا من التميمى و أخذنا شاطئ البحر متفرقين لما فى الطريق من كثرة الشجر و الحجر إلى أن قربنا ساحل البحر و أشرفنا على عين الغزالة و تلاقينا ببعض الأعراب راحلين إلى التميمى معهم أموالهم يطلبون الكلا و يسألون عن عافية المحل فقلنا له قد انجلى أهله لقلة المير و الجور فتسوق بعض أهل الركب معهم.

و فى ذلك اليوم سقط ولد الفاضل الكامل الفقيه سيدى أحمد الصدقاوى الملقب عياض عن مركوبه فتحيرنا من أجله إذ حين سقوطه لم يبق فيه إلا نفس ضعيف و قد غشى عليه كأنه سكران ثم إن بعض الناس من أهل الخبرة قال اتركوه كذلك من غير أن توقظوه فبنفس إفاقته يرتاح و إن أيقظتموه حصل له المرض العظيم الألم الكبير فكان الأمر كما ذكر فتركناه حتى أفاق بنفسه و حصل اللطف من الرحمان عليه و على والده و علينا أجمعين.

و فى ذلك اليوم أيضا حصل بعض التشاجر لأهل الركب و وقعت معركة عظيمة بين أهل عامر و أهل قصر الطير بالحجر و العصى غير أن اللّه رزق لنا اللطف من حالهم حيث لم يموتوا فهو من جملة ما تكرم اللّه به علينا فى عدم حصول القتل ذلك اليوم و بذلك حصلت الفرقة فى الركب و تقوى الغيظ بينهم ثم اجتمع أهل الفضل و أصلحنا بينهم أصلح اللّه حال الجميع بمنه و كرمه.

أقول قال شيخ شيوخنا المذكور و درنة مدينة على ساحل البحر بها مرسى بينها و بين التميمى مسافة يوم و نصف من غربيه و كانت خالية منذ زمان إلى أن عمرها

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۸۱

الأندلس قرب الأربعين و الألف و لم يزالوا بها إلى أن ربطوا فانشبوا الحرب بينهم و بين أمير طرابلس فأخرجهم منها صاغرين بعد وقعة قتل بها مئون من أشرافهم و هى الآن فى طاعته و فيها عامله المستولى عليها و على عرب الجبل و مرسى هذه المدينة عجيبة تنزل

بها السفن الجائية من الإسكندرية و من طرابلس و من بر الروم لا سيما مدينة كندية فإن بينها و بين مدينة درنة مسافة يوم فى البحر لأنها فى مقابلتها و المعاش فيها متيسر كثير لجمعها بين البادية و الحاضرة انتهى.

أقول ثم أن عين الغزالة صلينا عند قربها الظهر و هى عين جارية ماؤها عذب فيه بعض ملوحة تصب فى بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها القصب من أكثر جهاتها و ليس فى برقة كلها ماء يجرى إلا هذا ثم قال الشيخ المذكور.

غريبة و فى ميسرة الطريق شرقى العين المذكورة و أنت مشرق بيت منحوت فى الحجر الصلد قال شيخنا العياشى رحمه اللّه فى رحلته طوله عشرون ذراعا فى مثلها و بداخله بيت آخر نحو نصفه و فيه غرف صغار كأنها مخازن و كل ذلك منقور فى الحجر الصلد نقرا عجيبا مربعا كهيئة أحسن ما أنت راء من البيوت و باب مربع كأحسن الأبواب و عند الباب حجرة واسعة منقورة فى الحجر أيضا فتعجبنا من حسن صنعتها و إتقانها و تدبرنا قوله تعالى و تنحتون من الجبال بيوتا فارهين.

قال و قد ذكر العبدرى هذا البيت و أجاد وصفه و بهذا الموضع أرض طيبة كلها منقسمة فتخدم للحرث و أثار البناء متصل بأطرافها و عن يمناها شعاب تنصب من الجبال و كأنها كانت مجارى السيل و يقسمها أهل تلك الأرض على مزارعهم اه-.

ثم ظعنا من ذلك الموضع و سرنا نحو المرحلة أو المرحلتين فوجدنا آبارا مملوءة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۸۲

بماء المطر فشرب الناس و سقوا دوابهم و استقوا بل حصل المطر بالفعل فأغنانا عن المعاطن بل كل يوم أو يومين نجد غديرا من الماء بل الماء كثير.

و فى تلك المراحل مررنا بشجر التين و الخروب و أظن أن هناك شجر الرمان و غيره و فى اليوم الرابع وجدنا ماء كثيرا أعنى ماء المطر إذ وجدنا بئر ماجل كبير عظيم فاستقى منه جميع من كان فى المراكب و سقوا منه جميع دوابهم فلم يؤثروا فيه لكبره و وسعه بل شاهدنا فيه أمرا عظيما من وضع البركة التامة لكثرة الخلق إذ فيه ألوف مؤلفة فإن أخذ الركب فى المشى لا يستقصيه الراكب من أوله إلى آخره إذ سمعنا من أهل طرابلس و أهل مصر بأن قالوا منذ حصل لنا التمييز ما طلع و لا جاء ركب من المغرب مثله و قد استعظموه غاية و مع هذا أن البئر لما رأيناه ظننا أنه لا يكفى العشر منه فكفى و الحمد للّه و سلام على عباده الذين اصطفى.

و بعد انصراف الركب تأخرنا فى جماعة فرأيناه كأنه لم يغرف منه دلو و لم يستق منه بشر ثم إن العجب العجاب فى ازدحام الناس على البئر و لم يقع فيه أحد غير أنى وقفت بالعصا على رءوسهم فمن أراد أن يؤذى صاحبه ضربته على ظهره ثم أن القوم أصابهم حياء من جانبنا غفر اللّه لجميعهم فحصل المقصود على التمام و الوفاء فرأينا فضلا عظيما، و خيرا عميما، و ذلك من خوارق العادة.

تنبيه ما هو أغرب من هذا و أعجب منه كرامة اليوم الذى بعد هذا اليوم حين قربنا من سطح العقبة و مرحولى شيخ الركب يتأخران عن الركب بكثير حتى لا نرى أحدا من الركب بل إنما نلحق الركب عند المبيت نعم من عادتى أتأخر مع الفضلاء سيدى أحمد الطيب و سيدى أحمد بن حمود و سيدى محمد الشريف النوفلى رفقا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۸۳

بالضعيف من الحجاج و كذا شيخ الركب معنا و أصحابه غير المستعجل منهم.

و فى هذا اليوم تركت مرحولى و ذهبت إلى الفاضل الكامل صهرى سيدى عبد اللّه بن رحاب و الصديق سيدى محمد الشريف و جماعة من الحجاج ليشتروا لى جملا أو جملين خفت من ضعف أو بقاء الجمال الحاملة للنساء فتقدمت أول الركب و كان الركب توجه نحو اليمين للصحراء ثم أن سيدى عبد اللّه أمر العلام لينشر رايته فإذا رآها الحجاج رجعوا إلى سطح العقبة فلما امتثل الركب و إذا بالحجاج انعكسوا دونه إلى أن رجع الكل إلى قرب السطح و نحن فى ذلك من غير تراخ و إذا بالطامة الكبرى من الخيل قد عمت على الركب فظننا أنهم أهل الوطن أولاد على إذ سطح العقبة وطنهم غير أنهم أحاطوا بالركب فأراد بعض أن يضربهم بالبندق فزجرهم سيدى عبد اللّه و غيره ظنا منهم أ، هم أهل الوطن فلما بادروا إلى الحجاج سبقت إلى أول الركب فأمرتهم بإناخة الإبل

ليتصل آخر الركب بأوله فحص المقصود الذى رمته و أن الركب قد اجتمع إذ فيه نكاية العدو فأقام الناس على ساق الجد الاجتهاد على قدم واحدة و نحن كذلك و إذا بالصريخ وراءنا أن مرحول عبدكم و مرحول الشيخ قد أخذهما المحاربون فرجع الناس صفقة واحدة و ذلك بعد وصول المحاربين إليهما فردهم اللّه خائبين منعكسين لسابق عناية الإله و فضل الأشياخ و الأحباب و أسلافنا نابوا عنا جزاهم اللّه عنا خيرا فلما كنت فى آثارهم و إذا بالمبشر يقول يا فلان قد سلم أهلك و أهل الشيخ فشكرت اللّه تعالى على ذلك بعد أن حصل الإياس لفرط تأخرهم جدا أو يحصل العطب لأصحابنا فالحمد للّه على سلامة الكل غير أننا تغيرنا عن أخينا سيدى محمد الشريف إذ وقع بينهم و صار يزجرهم و ينهاهم و يقول لهم هذا وفد اللّه و وفد رسوله فقبل منه بعضهم و أبى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۸۴

الآخرون إلا الحرب و السلب لما رأوا من كثرة الإبل مع الحجاج فغاروا و صاحوا و شردت بغلته تحته فلم يستطع حبسها فسقط عليها فأخذ من لحق منهم ثيابه مع نسخة جديدة من دلائل الخيرات ثم أنه مسك البغلة و ركبت و لحق بالركب ففزعنا من أجل ما أصابه فعند رؤيتهم الحجاج قاموا على ساق الحرب و علموا أنهم لا يصيبون منهم شيئا اجتمعوا وجاهة الركب و الحالة أنهم أخذوا بغلين و أربعة من الإبل فردوا البغلين و جملين ثم أنى ذهبت إليهم وحدى و الناس يبرحون بالويل خافوا علىّ و أنا لم أسمع لهم فلما وصلت نحو الأثنى عشر فارسا نزلوا إلى و سلموا على يدى ثم على رجلى و رجل البغلة و بعضهم يتمرغ تحت البغلة و يطلب الإقالة و يقول إنما جئنا لأعدائنا أولاد على إذ سلبونا و أخذونا فأخذناهم و قلت لهم أن حصل لكم الندم ردوا ما بقى من الإبل عندكم و كذا ثياب الولى الصالح الشريف سيدى محمد فقالوا أما الأولون منا قد طلبناه فى الدعاء و اللاحقون ما علموا غير أننا نرد الجميع فأمهلونا و سألتهم كم من فارس قالوا نحن فى خمسمائة ثلاثمائة من الخيل و مائتين من الرجال و أنى سألتهم أيضا عن وطنهم فقالوا نحن من وطن الصعيد من عمالة مصر نحو الخمسة و العشرين يوما إلى هنا فلما رجعت و إذا بالحجاج فزعوا فزعة عظيمة ثم رجل من طرابلس قد جرحوه و مات من ذلك الجرح بعد ذلك و لما وصلت وجدتهم أمسكوا رجلا مع فرسه و أطلقته منهم و أما فرسه فقد مسكها الطرابلسية فيما ضاع لهم و قد سمعت انه لما ذهب من عندنا لحقه أولاد على فقتلوه و بالجملة ففضل اللّه وجوده و حفظه بنا ظاهر من غير استحقاق إذ أعمالنا ليست أهلا لقبولها حتى توجه اللّه إلينا بالفضل بسببها نعم كرمه ليس مختصا بأهل الجد و الاجتهاد و إنما هو مبذول لمن سبقت له العناية لا لكبيرة إن واجهك فضله، و لا صغيرة أن قابلك عدله، فالكريم لا يبالى من أعطى و لا كم أعطى و لا ما

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۸۵

أعطى.

و عشية هذا اليوم نزلنا قرب معطن مقرب و فى ذلك المنزل مات المجروح المذكور و قد مات لنا جمل فيه حقق اللّه ثوابه و أعطى عوضه.

ثم ظعنا إلى أن وصلنا معطن مقرب عند صلاة الضحى فسقى الناس نهارا و ذهبوا إلا أن البعض لم يحص المقصود إلا عند الزوال و تخلفنا معهم و ذلك أصحاب الشيخ و بعض الحجاج فلحقنا بعد الظهر بالركب نازلا ينتظر المتأخر ثم أن اللّه أغاث الحجاج بعد ذلك بالمطر الكثير بحيث استغنينا عن المعاطن إلى الشمامة لكثرة الغدير بل أحواض الماء فى كل أرض مبسوطة و كذا الخصب و الحمد للّه على بسط نعمه و منته الوافرة علينا ببركة أهل الفضل من العلماء العاملين و الفقراء المحبين بل وجد فى ركبنا هذا كل صنف من أصناف أهل الخير و قد رحم اللّه ركبنا و عم وابل الفضل علينا فغير المزكوم بالعاصى يشم شذا أنوارهم، و سواطع أسرارهم، و عطر أحوالهم، فمن اللّه علينا بمحبتهم، إذ من لا خير فيه يتذكر اللّه برؤيتهم، و قد قالوا إن علامة الولى إذا رأيته تذكرت اللّه أقل المراتب أن يقول هذا فمن يخشى اللّه و يتقيه.

و بعد ذلك ظعنا نحو المرحلتين فكان أول شوال فصلينا العيد بين معطن مقرب و المدار و لما صلينا العيد ظعنا و نحن على المياه

السماوية و الخضر العشبية و الشكر للّه تعالى فلما وصلنا للمدار وجدنا ماء السماء أكثر و لم نر من المعاطن بعد التميمى إلا مقرب و أما الطرفاوى و جرجوف و الجميمة فقد استغنينا عن جميعها و الحمد للّه على ذلك و ظعنا من المدار و مررنا على العقبة الصغيرة و وجدنا الماء فى أطرافها أعنى ماء

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۸۶

المطر و نحن كذلك فى ماء المطر كثيرا إلى الشمامة و بالجملة ففضل اللّه علينا عميم وجوده لدينا عظيم جدا و كذا الخصب للدواب قد عم الأرض و مع ذلك أن الأرض خالية من العرب إلا قبل الشمامة بيوم قد وجدنا فيها العرب أعنى نجع الخوابص و معهم نجع آخر قد طلبوا منها النزول للتسوق معهم فأراد بعض من الحجاج مساعدتهم و امتنع الكثير منه و تخلفنا للسقى و الشرب من البئر قربهم ثم أتوا إلينا بتمر من تمر سيوى و هو أجود التمر و لم أر مثله فى الجودة و الحلاوة و حبه كبير و لونه صاف و هو معلوم عند الناس جودته و حلاوته لا- سيما و أنهم يجعلونه فى أوعية تحفظه بحيث لا- يتغير أصلا بل زادت له رطوبة وجودة و هى من الحلفاء على شكل مخصوص من القفف غير أنها طويلة على قدر الاستطاعة و عليها غطاء و أوصاف هذا التمر أشهر من أن تذكر فاشترينا منه مع أصحابنا من طرابلس و اشترى بعض أصحابنا من الركب كأخينا الفاضل سيدى أحمد الطيب ما تزود به فى الطلعة فى الدرب و كذا غيره و اشترينا أيضا منهم شيئا من الروز (الأرز) و كذا غيرنا لانقضاء الزاد عن الغالب من الحجاج فرحمنا اللّه بهم و تفضل علينا بوجودهم و سكنت روعتنا بالاشتراء منهم و كذلك فضل اللّه على وقده و لما علم من اضطرارهم و غاية احتياجهم فاطمأنت قلوبنا بهم و إلا فمن سرت ما رأينا نجعا إلا هؤلاء قرب الشمامة و هى قرب مصر لأنها خالية بالجور و الظلم إذ العرب من قوى منهم يأخذ غيره و تلك سنة فيهم و عادة أجراها اللّه فى أجدادهم ثم سرت إليهم فتمكنوا فيها غير أن اللّه دمرهم و أخلى منهم أرضهم لقوله صلى اللّه عليه و سلم لم يكن شىء أسرع بصاحبه كالظلم و لقوله تعالى و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناهم تدميرا و إلا فوطنهم أحسن الأوطان

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۸۷

لاعتدال الهواء فيه و أرضه طيبة المزارع ربوتها أحسن شىء للغرس و نباتها أجمل شىء للضرع فكانت أحسن شىء زرعا و ضرعا و كذا خلق أهلها بفتح الخاء أو بضمها أى أوصافهم غير أن الظلم أهلكهم لا سيما حرب الحجاج فإن اللّه قد انتقم منهم بسببهم حتى تشاءوا بهم و استطاروا من أجلهم ليتسع الطريق و تأمن الوفود و لو لا- فضل اللّه لأنسد الطريق إلى بيت اللّه الحرام، و أماكنه الكرام، فاستمر ذهاب الوفد، و تمام القصد، ليصل الإنسان إلى غاية القرب و الود، و لذا أجلاهم اللّه بجدب الأرض و الضد، جزاء لهم بتمام الحد، و سعادة لأهل القصد، ليتم من اللّه صدق الوعد، و تزول عنهم موانع الصد، و ليرتاح ذو الشوق من تعب الكد، فيكون محبا و مجيبا لنداء الفرد، فيصحو ذو قلق مما أصابه من الوجد، برؤية الآثار من العد، و يلتئم بجمع الجمع و ذلك حق بالجد، فالتكاليف و التعاريف تقوى بالمد، و لأعدائهم تمنعهم الأخذ و الصولة فيها لها من ورد، و لذا تطير العقول و القلوب من قفص الفند، فيسعد لها أطوارا بالرد، غير أن نسيم الوصلة يمكنها بعض تمكن فى حضرة الود.

هذا و إن المنبعث أقلقه الشوق، و أزعجه العشق، فلم ير ما يؤلم فى الأماكن الصعبة بمشاهدة آثار المحبوب فى الأماكن المرسومة الدالة على الساكن الذى تخيله المصاب فلم يسترح إلا برؤية أثاره فلما أشرف على الرسوم و استحضر و شاهد علو شرفه، و غريب كنهه، استفتح باب الملكوت بالملك و استنشق علم الجبروت بسر اللهوت فلم يبق له صحو غير أن منى، أبقت فيه بعض رؤية المنى، فتكفه بالمشارع و استمطر العطف فى المظاهر و صلى صلاة الجمع فى مسجد الفردانية بإمام العرفانية فى صلاة العظمة فرفع حجاب الكبرياء بسورة الفرق فى عرفة الصمدانية، فهام

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۸۸

عقله فى مزدلفة الوحدانية، يلتقط درر الكمال، فى سعة مشاهدة الجلال و الجمال، فذلك نسك أهل اليقين باضمحلال، و هذا كله

قد تخيله المحب الصرف فى بيت البشر و الأطوار، و دار الشهوات و اللذات من غير استبصار، فصاح صيحة انطوى فيها الليل و النهار، و أظلم الكون طرا فلم يتعب من الأسفار، و لا حرج عليه من شدة المفازة فى البر و البحار، إذ رأى أن قلبه ركب مطية الأنوار، و استعد إلى مشاهدة العزيز الجبار، و اتصل فى أسرائه بسدرة الاستقرار ، ما ضل صاحبه و ما غوى بالتجلى من النهار، و ما ينطق عن الهوى حال الوصول إليه فى عرصات المختار، فاعتراه و حى الهام الحقائق بأنها لا سواها يخفى باستتار، فلما غاب فى عين الجمع بملاحظة الفرق إليه صار، إذ بيت الرب فيه فرق بالاعتبار، علمه شديد القوى أسباب الانتقال من الجوار، فاستوطن بسعة الشهود بالاعتمار، فأحال الإحرام عن النظر إلى غيره أصلا بالتعظيم و الاستكثار، و هو بالأفق من الأوصاف العالية ثم دنا فتدلى إلى كعبة القرب و المشاهدة فحيره البغت فذهبت أثار عبوديته، فى كنه ربوبيته، فمحتها و لم يبق لها أثار، هذا فى قالبه جنون، و فى قلبه فنون، فلما حركه لم يسكن إلا بمولاه فلم يرفث برؤية النفس، و لم يفسق بالاعتماد عليها فى مقام الأنس، و كذا لم يجادل الأعداء و لا أحدا من الخواطر لغيبته عن الحس، فقد حج قبل سفر الأجباح، بالتنقل و التنزل فى عالم الأرواح، فحج الأجباح دليل عليه، و مسبب لديه، فزاد هذا هو فمنه إليه، فإن التعلق بأستار الكعبة علامة على التعلق بعين الذات، و كنه الأسماء و الصفات، و كذا يشير إلى الحضرة و دخول المقام، برعى الحفظ و الذمام، و السعى بين الصفا و المروة سعى بين صفاء القلوب، فى التخلق بأوصاف المحبوب، فلم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۸۹

ينته به السير إلا بالطواف على قدم المحو و المحق للمعدومات الوهمية الوجود، فى سنن العهود، فمن طاف بحضرة الدنو و بالدرة البيضاء فقد طاف القدوم على قضاء شهوده، و ارتوى برؤية وجوده، و هى نزهة القدس من شوائب المحدثات ثم صلى ركعتين الطواف فى مقام التخلى و التحلى و التجلى ثم شرب من ماء القرب و هو ماء زمزم المتعلق بجمال الذات إذ هو طعام الإيمان، و شراب العرفان، فلم يحتج صاحبه إلى طعام الأجباح دائما سرمديا فلما روى و تضلع من ماء زمزم التجلى طاف طواف الوداع لأهل الدنيا بل ودع الكونين، و صلى على الثقلين، بأن لا ينظر إليهما، إلا بنظر الحق إليهما، و كذا إلى نفسه أخذه محبوبه و مطلوبه منه أى من بشريته إلى روحانيته فإنه إياها صرفا و محضا ثم رده إلى بيته و هو قفص البشريات ليوافق و يمتثل رب البيت فلم تضره البشريات و إنما هى معنية و مؤيدة للروحانيات و لقد زين سماءها بمصابيح البشريات لأن أنوار الشريعة زينة سماء الحقيقة و جعل نجومها و هى امتثال الأوامر و اجتناب النواهى رجوما للشياطين القواطع فأهلكتها و أذابتها فقلب هذا عرش من عروش الحق و قالبه سفينة نوح فما ركب أحد بحره إلا سلم من طوفان الجهل إذ قلبه يجرى بموج الواردات كالجبال غير أنهم لا يعتبرون عظمتها و غالبتها اعتمادا على رب السفينة و نادى نوح يا ولد القلب أركب معنا فى سفر القلب من الخلق إلى الحق و لا تكن من الجاحدين لهذه الطائفة و المعترضين عليها قال سآوى إلى جبل الأسباب يعصمنى من ربها قال لا عاصم اليوم إلا بالاعتماد عليه و حال بينهم الموج من الهلاك فكان من المغرقين فى الدعاوى.

هذا و إن من حج بهذا الوصف فقد كان حجه مبرورا بالوصول إليه، و المنتهى لديه، فحينئذ من سبقت له العناية لا تضره إن مس بعض الذنوب لزوالها

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۹۰

بالاستغفار و التوبة على الفور و ربما كان ذنبه دواء له ليرجع إليه، و ينكسر قلبه من أجله، و يرتقى بسببه إلى حضرة ربه، فيثمر الذنب بما يثمر خالص الطاعة المقبولة رب معصية أورثتك ذلا و احتقارا، خير من طاعة أورثتك عزا و استكبارا، نعم غاية اقترافه الذنب ليعرف قدره، و لا يتعدى حده و طوره، فيكون عبدا محبوبا فيا بشراه فينتقل أذن من الموجودات الوهمية إلى الموجود على الإطلاق إذ لا وجود لما سواه غير أن الشريعة لا بد منها لصاحب الصحو الذى ملك الحال أو بقيت منه بقية يتعلق بها حال التكليف و إلا فمن ملكه الحال أو لم يبق فيه إلا و التعريف فقد صاح فى أرض المحو و نادى يا حى يا قيوم برحمتك استغيث لأنه دعاء المضطر فالعارف لا يزول اضطراره، و لا يكون مع غير اللّه قراره، فكيف يخاف ما أشركوا به و عند ذلك يقول الذين آمنوا بولاية اللّه لبعض

أهل وده و خواص قربه و لم يلبسوا إيمانهم بظلم و هو النظر إلى سواه و الاستحسان ما منه إلى اللّه من الأعمال التى بها حلاه و لكن أكثرهم يجهلون هذه المعارف نعم وجود مثل هذه فى وفد اللّه أمام لهم إذ هو كعبة الزوار، يقصده الظمآن لمحو الآثار، و رحمة وجوده لديهم فهم مقبولون لوجهه و محترمون لأجله فيا لها من سعادة لمن كان معه و قد حصل نتائج الحج قبل وصوله، و اجتنى ثمرته قبل حصوله، فكان حجه كالنقل فلا يزال يقترب به حتى يكون له نفسه لأن المناسك فى إخلاص المسالك، و السلامة من المعاطب و المهالك، فيرحم به الضعفاء ممن هنالك، و يقبل من بعد بالمعاصى و الذنوب و الموبقات لوجهه بذلك فيسعى لهم لا له فيكون عبدا خلقه اللّه لمصالح الخلق و هو عين من عيون الحق يستسقى به فهؤلاء كل أحد منهم قد نجا و تخلص بجاهه.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۹۱

و لقد علمت أن ركبنا لم يخب من هؤلاء الأفاضل إذ سرهم باق ليس بزائل فلم نعدم السباق و لا تخلفنا عن تلك الرفاق، هذا و إن الواجد يزيد المحو له من الخطاب الاشتياق، إن مع العسر يسر برؤية الحبيب من الخلاق، صلى اللّه عليه و سلم الراكب البراق، فقد رحم اللّه جميعنا بحسن الاتفاق.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فلما ظعنا من قرب الجميمة نزلنا معطن الشمامة أى غربيها و هو أقبح المعاطن ماء إلا بئر واحدة على شاطئ البحر من جهة المشرق و هى أطرافها من تلك الجهة و أما باقيها فغير طيب و هو ماء جرف أى مر غير أن الناس اضطروا إليه لعدم ماء السماء هناك و كذا ماء طيب فى غير ذلك المحل.

تتمة عدد الأيام من سيدى أحمد زروق على الاحتياط إلى مصر بحسب مشينا الجزائرى لا الفاسى فانه أسرع فى المشى لتأخره فمن سيدى أحمد زروق إلى الزعفران خمسة أيام و منه إلى النعيم يومان و منه إلى المنعم خمسة أيام أو صبحة السادس و منه إلى اجدابية ثلاثة أيام غير أن الثالث وصلناه عند الظهر و منه إلى سلوك يومان مع عشية الثالث و منه إلى التميمى سبعة أيام و منه إلى مقرب خمسة أيام مع صبيحة السادس و منه إلى المدار أربعة أيام أو خمسة و منه إلى الشمامة أربعة أيام و منها إلى وادى الرهبان ثلاثة أيام و منه إلى أرياف مصر أعنى كرداسة أو المنصورة إذ نزلنا كفر حمام يومان و منه إلى المنشية على شاطئ وادى النيل ثم إلى بولاق و هذا ليس بمشى و الناس إنما يقطعون إلى مصر فى الزوارق أى المراكب فكل من يأتى من جهة المغرب من

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۹۲

الحيوانات العاقلة و البهائم لا يقطع إلا فيها بالكراء و أما صفة الماء فى برقة فماء الزعفران أطيب و أحلى و كذا ماء النعيم و كذا ماء الأحمر و كذا ماء المنعم و أما ماء اجدابية فبين بين غير أنه إلى الحلاوة أقرب و كذا ماء سلوك و ماء التميمى فيميل إلى الملوحة و أما ماء الطرفاوى فطيب و كذا ماء جرجوب دونه و دون ماء مقرب و ماء المدار طيب ليس جدا و ماء الجميمة دونه و أقبح المياه ماء الشمامة إلا البئر الذى أشرت إليه قبل فأحسن بالنسبة إليها.

ثم ظعنا من الشمامة إلى وادى الرهبان و هو واد عظيم طويل و فيه قصور للعباد من النصارى ينعزلون هناك لعبادة الأصنام يخرجون من مصر إليه و إن مصر فيها طوائف من النصارى يعطون الجزية للسلطان.

و بالجملة فبرقة متسعة و معه اتساعها فيها من العافية ما لا يظنه الإنسان لأن وفد الحجاج يذهب متفرقا و منقطعا بعضه عن بعض غير انه لا يصيبه شىء بخلاف عرب الحجاز فمن تأخر من الحجاج أخذ و سلب أو مات و لو لا ما أنعم اللّه على الحجاج من أجلاء أهل برقة لأنسد الطريق و أنقطع رأسا.

و لذا قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه و لو لا فضل اللّه على الحجاج و رحمته بهم بالانتقام ممن رامهم لتعطلت طريق الحج منذ أزمان خصوصا حجاج المغاربة لضعفهم و قلتهم و بعد الشقة عليهم فكم من قصر و مصر إقليم يقطعونه بلا عسكر و لا عدد و لا عدد و لكن

وقاية اللّه أغنت عن مضاعفةمن الدروع و عن عال من الاطم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۹۳

أى العالى المرتفع من الحصون نسأل اللّه تبارك و تعالى بجوده و إحسانه العميم، و بركة نبيه الكريم، أن يحمى وفد بيته بما به قد حمى نبيه العظيم، و ينصر زواره بما نصر به رسوله و ان لا يقطع الطريق بيننا و بين تلك الأماكن المشرفة و البقاع المطهرة فما دمنا فى كل سنة طائفة ممن قدم من تلك المعاهد، و ورد من تلك الموارد، و تشرف برؤية البيت العتيق و المسجد الحرام، و وقف بالمشاعر و نسك المناسك العظام، و صلى بين قبره و منبره صلى اللّه عليه و سلم و زار محله الشريف و محل أصحابه الأعلام، فلا نشك أن مدد ذلك يسرى فى أديانا و بلادنا و أبداننا، و سائر متعلقاتنا، و لو انقطعت رؤيتهم نعوذ باللّه من ذلك لاختل النظام، و انقطع الخير بين الأنام، اه نسأل اللّه تعالى الكرة إليها بعد الكرة أى الرجوع إليها و المرة بعد المرة آمين.

و وادى الرهبان واد كبير ذو رمل و فيه شجر النخل و ماؤه كثير و به من أنواع الوحش و البقر و النعام و الظباء و المها و غير ذلك من أنواع الصيد و إنما أضيف هذا الوادى للرهبان لأن به رهبان النصارى يتعبدون فيه ديور كل طائفة فى دير و لا يدخل إليهم أحد من غير جنسهم و ليس لهم زرع و لا ضرع و أهل الذمة من النصارى الذين بمصر يعاملونهم و يبعثون إليهم بالنذور و الصدقات من الطعام و الكسوة و من هناك تمر الطريق من مصر إلى أوجلة إلى أن قال و اشترى الحجاج ما أرادوه من أنواع الطعام الريفية و تنعموا و زال ما بهم من العياء و ألقت إليهم المسرة مقاليدها أى أمروها كيف لا و نحن على ساحل النيل الذى هو أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة و آثار بركته ظاهرة بالعيان فى مائه و ترابه و قراه و مدائنه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع و أكثر خصبا مع اتصال العمارة نحو الشهر من هذه إلا أنها لها مزيد اختصاص بمضاعفة الوظائف الجورية على الرعية بحيث تملك

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۹۴

رقابهم فضلا عن أموالهم و لا يجدون عن ذلك محيصا بمنعة أو فرار حتى لو أن أحدهم أراد أن يتخلى عن السبب و يترك المزارعة و الفلاحة لم يتركوه و لو فر لا تبعوه حتى يأتوا به أينما كان.

قال الإمام العياشى فى رحلته حتى استفاض عند العمال الفسقة أن ثلاثة لا تقبل فيهم شفاعة شافع فيعدون منهم من يريد أن يتخلى عن الزراعة و الفلاحة قاتلهم اللّه أنى يؤفكون لا هم ينصفونهم فيخففوا عنهم من المظالم و لا هم يتركونهم يذهبون حيث شاءوا يسبحون فى الأرض يرزقون كم ترزق الطير الالتقاط من نبات الأرض و خشاشها فتغدو خماصا و تروح بطانا اتخذوا مال اللّه دولا و عباد اللّه خولا و اللّه من ورائهم محيط و لا حول و لا قوة إلا باللّه.

و قد ذكر ابن خلدون أن مصر لا بد أن تشتمل على طائفتين إحداهما فى غاية العتو و الاستكبار و الأخرى فى غاية الذل و الاستحقار و قد صدقوا لقد كان بها فرعون و ملاؤه فلم ينته دون أن قال أنا ربكم الأعلى و بنو إسرائيل إذ ذاك مستضعفون فى الأرض يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم أى تركهن من غير قتل ثم لم تزل كذلك و أنها فى زماننا بل قبله بأزمان لعلى ذلك الوصف فباشاتها و سناجقها و ولاتها و حكامها بل و سائر جندها و عسكرها فيما يظهر لنا ليس فيها إلا من أعماه حب الدنيا و أصمه و ختم على سمعه و قلبه لا يرحمون ضعيفا و لا يوقرون كبيرا أينما تبدو لهم صبابة من الدنيا و ثبوا عليها إن كان صاحبها حيا تسببوا له بأدنى سبب حتى يأخذوا ماله أما مع رقبته أو بدونها إن كان فى العمر فسحة و إن كان ميتا ورثوه دون بنيه و بناته و أما رعيتها و فلاحتها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم و ما

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۲۹۵

هم فيه من الإهانة و الاحتقار تضرب ظهورهم و تؤخذ أموالهم و لا- مشتكى لهم إلا- للّه و من تجاسر منهم اشتكى ضوعف عليه العذاب الأليم.

قلت و لعل لأجل هذه الدقيقة يكثر فيهم الصالحون لأن نفوسهم ميتة قد تربوا على الذل و الاحتقار و زالت الرياسة و حبها من قلوبهم بل لم تسكنها قط فإذا وفق أحدهم لعمل الطاعة و التفت أدنى التفات لإصلاح حاله لم يبق مانع بينه و بين ذلك لأن أكبر الموانع و

أعظم الآفات حب الرياسة و من جال فى أرياف مصر و استخبر أهلها علم صحة ما ذكرنا و من لم يجل فليطالع الأخبار فى الكتب المؤلفة فى ذلك كطبقات سيدى عبد الوهاب الشعرانى رحمه اللّه و غيرها يرى مصداق ذلك و أخبار مصر و ظلم الولاة بها و غش الباعة و حيل المتسببين و مكر العاملين أعظم من أن تحصى و لا غرض فى تتبع ذلك و من أراده فيسأل من وردها يخبره ببعض البعض من ذلك.

و بالجملة فمصر أم البلاد شرقا و غربا لا تستغرب شيئا ما يحكى عنها من خير أو شر و مصداق ذلك ما حدثنى به بعض أصحابنا من التجار فى سنة أربع و ستين قال لما دخلنا مصر فى حدود الخمسين سكنت فى بعض الوكائل و كان من قدر اللّه أن اجتمعنا فى محل واحد جماعة منا فلان و فلان تجار و فلان طالب علم و فلان ممن يميل إلى طريق الفقر و فلان و فلان من أهل الجنون و أهل المجون المسرفين على أنفسهم المطيعين لهواهم ذكر كلا بأسمائهم قال فإذا أصبحنا تفرقنا كل واحد يغدو لحاجته فإذا جن الليل جمعنا المنزل فنتحدث بما رأينا فيقول التاجر ما رأينا مثل هذا البلد فى التجارة فأهله كلهم تجار و يحكى من حكاية ذلك ما شاهد و يقول الفقيه مثل ذلك و الفقير مثل ذلك و ذو المجون مثل ذلك و ما ذلك إلا لكثرة الناس فيها فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن فيظن أن غالب أهل البلد كذلك.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۹۶

و بالجملة فأهلها لهم عقول راجحة و ذكاء زائد فمن استعملها فى الخير فاق فيه غيره و من استعملها فى الشر فكذلك.

و قد ذكر ابن خلدون فى كتابه منتهى العبر أن بعض ملوك المغرب سأل بعض العلماء ممن حج عن مصر فقال له أقول لك فيها قولا و اختصر من المعلوم أن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحس فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما يتخيل و مصر بخلاف ذلك كلما تخيلت فيها فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك.

و سئل آخر عنها فقال كأن الناس فيها قد حشروا إلى المحشر لا ترى أحدا يسأل عن أحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه.

و قد أخبرنى شيخنا سيدى أبو مهدى عيسى الثعالبى أيام كنت أتردد معه إلى مجلس شيخنا شهاب الدين الخفاجى فقال لى من لدن دخلت هذه المدينة ما رأيت أحدا يمشى فى أزقتها و أسواقها على مهل و سكينة و تؤدة بل كل من تلقاه تراه مشمرا جادا فى سيره إن كان راكبا فراكبا و إن كان ماشيا فكذلك فتأملت ما ذكر لى فوجدت صادقا و سبب ذلك و اللّه اعلم أمران.

أحدهما الرغبة و الحرص المستكن فى القلب فيحمل الإنسان على أن لا يفوته شيء من أغراضه و هو يظن أنه لو توانى فى مشيه لفاته غرض مع كثرة الأغراض و تزاحم الأشغال. الرحلة الورثيلانية ؛ ج۱ ؛ ص۲۹۶

الآخر كثرة الزحام فى الأسواق فكل سوق دخلته تقول هذا أكثرها زحاما فإذا خرجت منه إلى الآخر وجدته مثله أو أشد و قد شاهدنا الناس فى بعض الأسواق تارة يقفون هنيئة لا يقدر أحد على أن يتحرك يمينا و لا شمالا من غير أن يكون هناك حاصر لهم من أمام إلا الزحام و ربما رفع بعضهم صوته بالتكبير فيكبرون حتى يظهر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۹۷

لهم بعض تحرك فيندفعون مثل السيل إذا اجتمع فى مكان ضيق فيدفع بعضه بعضا حتى ينفجر من جهة فسبحان خالقهم و رازقهم و عالم نياتهم و ضمائرهم يعلم ما تكن صدورهم و ما يعلنون لا إله إلا هو رب العرش العظيم رب السماوات و الأرض و ما بينهما العزيز الحكيم.

و أخبار مصر و ما فيها من العجائب و جميع ما يحتاج إليه من أحوالهم مستوفى فى كتب تواريخها فلا نطيل بكثير منه.

قال و أحسن كتاب جامع فى ذلك مع الاختصار كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة للجلال السيوطى فانه مفيد جدا و من أجاد مطالعته لم يفته من أخبارها إلا المعاينة أو أشياء قليلة من العوارض المشخصات اه- كلامه إلى أن قال و قد تعرض لنا الفلاحون خارج البلد و تلك عادتهم عند قدوم الركب كلما قدم يتعرضونه و يتخذون الأصحاب ليودعوا عندهم الإبل و يتركوها

عندهم أمد الإقامة طلوعا و رجوعا و هم كما قيل «الحرص على الأمانة، دليل على الخيانة» فلا ترى أعجب من تلطفهم و ليس خطابهم عند نصب شبكة الخداع للمغتر من الحجاج فيحلفون بالأيمان المغلظة على أداء الأمانة و بذل المجهود فى النصيحة حتى يركن إلى قولهم و لو من جربهم مرارا ثم عند المفاصلة فلما ينفصل معهم أحد بطيب نفس.

قال أبو سالم و من أمثال الحجاج المال المودع بع و استنفع فالعاقل من باع ما فضل عنه من أبله أو ضاع و متى احتاج اشترى و لكن رزق يسوقه اللّه العباد أى الفلاحين من قديم الزمان لا مطمع لأحد فى قطعه ففى كل مرة نقول متى رجعنا لا نودع عند أحد فإذا عدنا استنزلونا بخلب بارق من وعدهم الكاذب حتى نفع فى حبائلهم و نتورط فى مخالبهم التى يعسر الخروج منها بدين سالم و عرض مصون إلى أن قال أبو سالم بعد ما تقدم.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۹۸

لطيفة و عظية و الشىء بالشىء يذكر ذكر الشعرانى رحمه اللّه فى طبقاته عن بعض الصالحين ممن يسكن فى بعض قرى مصر انه كثرت أذاية أهل القرية التى هو بها له فعزم على الخروج منها فاكترى جمالا لحمل أمتعة فأتى بجمل فجعل يلقى عليه كل ما كان من الأمتعة فلما أكثر عليه قال له الشيخ أنك قد ثقلت على هذا الجمل فقال له صبى هناك يا عم إن الجمل يحمل أكثر من هذا فتفكر فى نفسه و قال هذا خطاب من الحق لى فإذا كان الجمل و هو من الحيوانات العجم لا- يعقل و لا يرجو ثوابا يحمل أكثر من هذا فكيف لا أتحمل أكثر من هذا من إذابة الخلق فحط أمتعته و رجع فسمع منشدا

أن الجمال التى بالحمل قد عرفت‌تأبى العياء و لو مست من القتب

فأكد ذلك عنده لما فهمه اه- إلى أن قال و قد ذكر شيخنا أبو سالم عن بعضهم أن الوباء قد وقع مرة بمصر و كثر الموت حتى كان يدفن فى اليوم الواحد أربعون ألفها فهمّ الباشا و أتباعه بالخروج من مصر و الفرار لما شاهد من كثرة الموت فلما فشا خبر أرادته الخروج طلع إليه رجل مسن من أهل التجربة و الرأى فقال له بلغنى أنك تريد الخروج فما الذى يخرجك قال هذا الموت الذريع الذى وقع فى الناس فقال و أى موت هنا أبعث شيوخ الحومات بمصر لك كم من حومة بمصر فبعث إليهم فعدوا الحومات فوجدوها أربعين ألفا فقال له ذلك الشيخ ألم أقل لك أى موت هنا إنما هذا ميت من كل حومة فهو أما عبد أو صبى أو امرأة فلما سمع الباشا ذلك خف عليه الأمر فجلس اه-.

و ممن أخذ عنه سيدى أحمد بن ناصر فى مصر و قد أخذ عن كثير من الأشياخ إلا أن إمام الجميع و هو أبو الحسن على الزعترى إلى أن قال فيه ما نصه و مما أفادنيه و أنشدنيه:

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۲۹۹ إذا ما مضى القرن الذى أنت منهمو خلفت فى قوم فأنت غريب

و أنشدنا أيضا لغزا فى الخمر إذا استحال خلا:

و ما شىء إذا فسداتحول غيه رشدا

و إن هو راق وصفا أثار الشر حيث بدا

و أنشدنا أيضا فى نيل مصر:

كأن النيل ذو عقل و فهمو ذو علم بما يرجون منه

فيأتى عند حاجتهم إليهو يذهب ين يستغنون عنه

و أملى علينا فى ذم الدخان و أهله و هو فى مجلس أقرانه:

دخان داء لا دوامن شربه قلبى انكوى

و هد حبلى و القوىفقلت من عظم الجوا

بيوت شعر مفردهو أنفس من أجلها

مقطوعة من أصلها بعشبة لأهلها

مشغولة لأجلها جاءت كنار موصدة

مشعلة لدائهم تجول فى أمعائهم

مضرة لبائهم تأتى إلى أفواههم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۰۰

؟؟؟

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۰۱

فجاءه إنسان فكلمه بلغتهم فقلت فى نفسى أن فرغ هذا من كلامه أكلمه بما فى نفسى فلما فرغ المتكلم و أردت أن أتكلم بادرنى الشيخ رضى اللّه عنه بقوله ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها فسكت و لم أزد شيئا نقول ايش.

و نظير هذه الحكاية ما حدثنى به الشيخ محمد أخو الشيخ مصطفى أنه حج مع الشيخ و كانت خيمته بإزاء خيمة الشيخ فقام ليلة متهجدا و قد هدنت الأصوات و نامت العيون قال فقلت فى نفسى متعجبا من تهجدى و أنه لم يجارنى أحد هذه الليلة أو كلاما هذا معناه قال و لم استتم الخاطر إلى أن سمعت الشيخ يقول و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا قال فخجلت و استحييت و تداخلت فضربت أخماسى فى أسداسى أى صرفت الحواس الخمس فى الجهات الست أفكر فى أمرى معاتبا لأنفاسى.

قلت و مثل هذا و أرفع من كرامات الشيخ لا يعد و لا يحصى، و لا يحفظ و لا يستقصى، فلو تعرضنا لأدنى شىء منه لأملينا أسفارا، و لاستغرقنا دهورا و أعصارا، نسأله تعالى أن ينفعنا به، و أن يجعلنا من حزبه، و إنما ذكرنا هاتين إيذانا بمنقبة هذين السيدين إذ الكرامات لا يراها إلا من أهّل لها و صار من أهلها.

و كنا ذات يوم جلسنا معه فى مجلس أقرائه و قال لنا كم هذا فى غشت فقلنا له خرج و انصرم و هذا أول شتنبر و قال هذا لا يصح فقلنا له صحيح فأخذ بيده جداول التاريخ فاختبره فوجد كلامنا صحيحا فقال سبحان اللّه غلطتمونى فى جمعة و حكى لنا قصة فقال كان الإمام السبكى فى زمانه يسكن بولاق و له منزل على شاطئ البحر يجلس فيه و فيه كتبه و كان السبط المارديني يأتيه و هو رحمه اللّه رجل مغفل و يجلسه الشيخ فى مجلسه و يتحدث معه و يتذاكر ثم بعد ذلك ينصرف الشيخ يبيت بمنزله و يتركه هو يبيت هنالك فكلم الشيخ رحمه اللّه يوما نوتيا معه سفينة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۰۲

حيدة سريعة السير و فيها كثرة المقاذيف و قال له كيف تصنع و تتحيل على هذا السيد إذا نام تأخذه برفق و تضعه فى السفينة و تقذف به بسرعة حتى تصبح به فى دمياط فإذا بلغت دمياطا خذه برفق وضعه فى مكان معلوم عينة له و اتركه هناك أسبوعا ثم أفعل به ما فعلت أولا و تصبح به فى مكانه هذا ففعل النوتى ذلك و أصبح به فى دمياط و جلس يقرأ فيه السيد أسبوعا و كان ذلك ليلة الأحد فلما كان ليلة الأحد الأخرى فعل به مثل ما فعل به أولا فأصبح به فى بولاق فى المكان الذى أخذه منه أولا و جاءه الشيخ السبكى صباحا على عادته و سلم عليه و قال له المارديني أنا أتيت من دمياط فقال له السبكى متى جئت من دمياط ألم تكن هنا ليلة الأحد و هذا يوم الأحد فقال له المارديني بل أتيت دمياطا و قرأ على فلان و فلا و جعل يعد له من قرأ عليه و غلطه السبكى فى جمعة و هذا مراده حتى فعل به ذلك رضى اللّه عنهم أجمعين و أنشدنا أيضا رضى اللّه عنه:

أرى الإحسان عند الحر دينا و عند النزل منقصة و ذما

كقطر الماء فى الأصداف دراو فى جوف الأفاعى صار سما

أشار بهذين البيتين إلى ما ذكره أهل الهيئة من أن ماء النيسان ينعقد جواره فى بطن الأصداف و يصير سما فى بطن الحيات.

أعجوبة ذكر صاحب الفلاحة النبطية أن بالمشرق جبلا عاتيا ذا مدارج لا يستطاع الصعود إليه فإذا كانت أيام النيسان أتت الرفاق من

أقصى البلاد و تنزل حواليه لتصغى لأصوات طيور تظهر فى تلك المدارج و لها ريش كريش الطاوس و مناقير حمر و صفر فى غلظ شبر و طول ذراع و فى تلك المناقير أبخاش متعددة فتستقبل الريح و تفتح مناقيرها شهرا كاملا حتى تمتلئ حواصلها ريحا ثم يأخذ فى انعكاس مناقيرها فيخرج الريح على أصوات عجيبة و نغمات مطربة حتى أن رقيق

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۰۳

النفس يموت طربا من السماع فإذا تم شهر استفرغ الريح و زعقت زعقة عظيمة و اشتعلت نارا و تبقى رمادا فى مواضعها إلى قابل فإذا نزل ماء النيسان خلقت منه فأحييت به و فى أيام نزوله تكثر الضفادع فى البر فإذا ماتت بقيت فرائسها إلى قابل فتحيى حين نزوله بتقدير العزيز العليم.

و حكى أن فرعون لعنه اللّه كان يفتن الناس بها فيعد تراب فرائسها فيحفظه عنده و يعد مطر النيسان فى قوارير و يقيم عليها و كيلا و إذا أراد فتنة أحد أمر قيم التراب فيأتيه بقبضة منه و يأمر الآخر فيأتيه بشىء من مائه فيجعله فى يده و يضمها عليه مدة حتى يحس بتكوينه ضفدعا فيفتح يده فإذا بها ضفدع تثب فيدعى أنه خلقها عليه لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين. و أنشدنا أيضا رحمه اللّه أبياتا مطلعها.

لعمرك أن أخذت إخاء قومفلا تعجل بتوكيد الوداد

فإن الغدر فى النسمات طبع‌تعوده الورى من قبل عاد

و صاحب من صحبت بحرص عزمو لا تودعه أسرار الفؤاد

فبعض الناس ظاهره بياضو باطنه أخال من السواد

و لا تحقر عدوك لو تراهأقل إذا نظرت من القراد

و كن حذرا و لا تركن لخلوعد الناس كلهم أعادى

و كن كالغيث فى أرض بخصبو فى أرض عذاب للعباد

و كن كالغصن ينبت فوق صخرو كن كالماء يجرى من جماد

و كن كالسيف حد المتن عضباو فى الاغماد يرفع بالنجاد

فكم صاحبت قبلك من أناسفخانونى و خاب بهم مرادى

و خلان حسبتهم دروعافكانوها و لكن للأعادى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۰۴ و خلتهم سهاما نافذاتفكانوها و لكن فى فؤادى

و قالوا قد صفت منا قلوبلقد صدقوا و لكن من وداد

و قالوا قد سعينا كل مسعىفقلت نعم و لكن فى فساد

و أنشدنا أيضا رضى اللّه عنه

أرزاقنا شتى و نحن طيورهانلقطها من جانب بعد جانب

ثم قال لما خلق اللّه الأرزاق سلط عليها الريح ففرقتها فى الدنيا فكل واحد يجعله اللّه حيث رزقه.

قلت مراده و اللّه أعلم أن أرزاق العباد فرقتها القدرة الإلهية فى البلاد و أظهر ذلك بالمثال بتفريق الرياح و منه قوله:

و أرزاق لنا متفرقاتفمن لم تأته منا أتاها

مشيناها خطى كتبت علينا‌و من كتبت عليه خطى مشاها

و من كتبت منيته بأرضفليس يموت بأرض سواها

و عنه أيضا حكمة إلهية بنت الحكماء عليها قاعدة تقررت لديهم و اطردت و ذلك أن الشمس كلما كانت مسامتة للرءوس اشتدت

حرارتها على وجه الأرض و كلما مالت إلى الجنوب خمد حرها و من ثم تجد المياه غالبا تبرد فى الصيف لبعد الشمس عن باطن الأرض و تسخن فى الشتاء لقربها من باطنها و يعتدل حرها فيما بين انتهاء مسامتتها و ميلها و ذلك فى الربيع و الخريف ذلك تقدير العزيز العليم.

و ذكر أيضا أن غاية نصف قوس النهار فى بلدنا مائة و سبع و أن الساعة المستوية

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۰۵

خمس عشرة درجة دائما و الزمانية هى نصف سدس قوس النهار فيقسم النهار على اثنى عشر جزءا يخرج مقدار الساعة الزمانية.

و أخبرنى أنه ولد عام خمسة و ثلاثين و ألف (۱۰۳۵) رضى اللّه عنه و لقد سألته يوما عن علم النصبة هل لك معرفة به فقال نعم و لكن لم استعمله إلا مرة واحدة ولد لى ولد فى أول شبابى و نظرت فيه فخرج لى أنه يموت بعد ثلاث سنين فأخبرت شيخى القيلوبى بذلك فزجرنى و لما مضى ذلك القدر توفى.

قلت و الإمام القيلوبى هذا هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن سلامة المصرى القيلوبى الشافعى الإمام العالم العامل الفقيه المحدث أحد رؤساء العلماء المجمع على نباهته و جلالته و علو شأنه جامعا للعلوم الشرعية متضلعا من العلوم العقلية و أما معرفته بالحساب و المقيات و الرمل فأشهر من أن تذكر و إمامته فى الأوفاق الحرفية و غير ذلك من الفنون فذلك أمر مشهور و كان فى الطب ماهرا خبيرا و محبا للفقراء و لا يتردد إلى الكبراء و لا يقبل من أحد صدقة بل يرى متصدقا و كان متقشفا ملازم الطاعات مهابا لا يتكلم أحد بين يديه إلا مطرقا و له تآليفه عديدة و تقاييد مفيدة توفى أواخر شوال سنة تسع و ستين و ألف (۱۰۶۹).

و أما الشيخ موسى المصرى القيلوبى فهو من أيمة المالكية المشهورين بحسن السيرة و طيب السريرة شهير صيته بين علماء الأزهر و أرباب الدولة و هو من أجل تلامذة الأجهورى أبى السن المتصدرين للأقراء و الفتيا فى حياته و له خبرة تامة بفروع المذهب و مشاركة حسنة فى غيرها من العلوم و انفرد بالاختصاص بالكشف عن علم الأوفاق و أسرار الأسماء و الحروف بحيث لا يشارك فى ذلك و له أخذ و سلوك فى طريق القوم على منهج صاحب كتاب الجواهر و قد تلقى و أخذ طريق الأسماء الخلوتية عن الشيخ محمد بن على الشبراملسى عن الشيخ محمد الخافى عن

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۰۶

الشيخ صبغة عن وجيه الدين العولى عن الشيخ محمد الغوث صاحب كتاب الجواهر و أسماء الخلوة مشهورة عند أهل مصر و هى أربعة عشر.

و ذكر شيخنا العياشى أن بيد هذا الشيخ أثر جراحات كادت أن تتلف يده و أخبرنا أن سبب ذلك أن الشيخ أبا الحسن الأجهورى جاءه بعض طلبة المغاربة يستفتيه فى طلاق وقع بينه و بين زوجته فرام أن يترخص له فى ارتجاعها فأبى الشيخ رضى اللّه عنه من ذلك فاحتقدها عليه المغربى و أسرها خفية سوء فى نفسه فلما كان ذات يوم جاء مشتملا على خنجر و الشيخ يدرس فى المجلس فلم يشعر به حتى ضربه بخنجره فترامى عليه من حضر من الطلبة يقونه بأنفسهم فخرج جملة منهم و وقى اللّه الشيخ من كيده و جرح فى رأسه جرحا كان السبب فى ذهاب عينه و كان الشيخ موسى من جملة من جرح فقبض على ذلك المغربى و ضر ضربا شديدا فأراد الولاة قتله فمنعهم الشيخ من قتله ثم قتله اللّه بعد مدة بأثر ما حصر له من الضرب فى المجلس و بعد ذلك ما كان الشيخ يترك أحدا من المغاربة يدخل عليه إلا إن كان معه أحد من أصحابه ممن يعرفه.

قال و لم يزل شياطين الأنس و الجن يضمرون العداوة و السوء لأهل العلم و ينصر اللّه أولياءه عليهم بمقتضى صادق وعده و كان حقا علينا نصر المؤمنين و ينجيهم من كيدهم و يحميهم من شرهم بحماية ثم ننجى رسلنا و الذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين.

قال و حضرت درسه و كان يقرئ فى الجامع الصغير للسيوطى بباب رواق الحنفية و من جملة ما قرر فى حديث إيما عبد أبق من سيده فمات إلى قوله و لو مات شهيدا أن العبد إذا أبق من سيده و مات فى قتال الكفار كان شهيدا من جهة قتله و عاصيا من جهة أباقة ثم

قال كمن شرب الخمر فغصته فمات فهو شهيد لغصته

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۰۷

عاص لشربه الخمر اه- كلامه و هذا الأخير عندى غير مقبول لأن الشهادة رتبة شريفة و هى من الرخص التى ترخص اللّه بها لعباده المؤمنين فأكرمهم بها زيادة فى ثوابهم على ما حملوا أنفسهم من المشقة المتلفة لأنفسهم فى مرضاته و العاصى فى فعله لا يترخص له و لا سعى له فى مرضاة ربه حتى يرضيه بالشهادة نعم إذا كانت المعصية بغير ما وقع به القتل كالأباق أو من زنى أو من سرق فى سفره فهذا قد يقال فيه شهيد من جهة عاص من جهة لأن الجهة منفكة فجهة قتله غير جهة عصيانه و أما إذا كان سبب القتل فى نفسه معصية كشرب خمر فيغص بها أو تمكين امرأة من الزنى بها فيموت فيبعد أن تحصل لهذا رتبة الشهادة أليس الغريق و الحريق و ذو الهدم و المبطون و غير هؤلاء كلهم قد ورد أنهم شهداء فلو أن أحدهم رمى بنفسه عمدا فى البحر فغرق أو فى النار فاحترق أو تناول سما أو دواء معلوما فمات لا يقال فيه شهيد اتفاق و كذلك هذا تناول معصية كانت سبب حتفه أنّى له الشهادة اللهم إلا أن يكون المحترق مثلا ممن قام لنار يريد إطفاءها و لا يعلم أنها تحرقه فغلب حتى احترق أو أراد إنقاذ غريق و هو يظن من نفسه القدرة على ذلك فغلب فغرق أو غير ذلك من الوجوه التى يكون فيها أصل الفعل الذى وقع به القتل مباحا فهذا شهيد بلا كلام و شارب الخمر أن لم يقصد به إتلاف نفسه فهو معصية وحدها و ما ترتب عليه من القتل معصية أخرى سببها معصية و إن لم يكن القتل مقصودا فإن المعصية لا يتوقف كونها معصية على القصد إليها و نيته إنها معصية فإن الطاعة هى التى تتوقف على النية دون المعصية فيؤاخذ بها عاجلا و يعاقب آجلا نواها أم لا ألا ترى أن من تعمد ضرب إنسان و لم يرد قتله و لا قصده فمات منه فإنه آثم آجلا و يقتص منه عاجلا لأن السبب الذى نشأت عنه المعصية معصية كشرب الخمر فى مسألتنا فهو معصية و نشأت عنه معصية أخرى و هى قتل نفسه إلا أنها ليست مقصودة له فلا ينفعه عدم القصد و لا يدرأ عنه الآثم و لو سلما أن آثم القتل مندفع عنه لكونه غير مقصود له

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۰۸

فمن أين له الشهادة التى هى أشرف مقام خص اللّه بها من جاهد فى سبيله ثم من صبر لضر أنزله به مولاه حتى لقى ربه و هو راض عنه نعم إن لم يمت هذا المغصوص بأثر الغص و طالت حياته حتى تاب من فعله توبة صادقة ثم مات بأثرها من تلك الغصة لا يبعد أن يقال هو شهيد بغصته و لو قيل أنه مرتكب فى المعصية بعد توبته لبقاء أثر ما سبب فيه كما قال إمام الحرمين فى الخارج من المغصوص تائبا لما بعد ذلك و الصحيح صحة توبة هذا المغصوص إن لم يمت بأثرها كتوبة الخارج من المغصوب. اه- فليتأمل

قلت ما ذكره من النظر فيه نظر عندى إذ لا فرق بين الأبق الذى مات فى قتال الكفار و بين من غص بشربة خمر إذ كلاهما عاصيان بسببهما لأن الأبق نفس سفره معصية و هو السبب فى موته و كذا شرب الخمر فانه السبب أيضا فإن سلم الأول أنه يثاب من جهة القتل و يعاقب من جهة الأباق لزمه أن يسلم الثانى أيضا لأنه يثاب من جهة الموت لكونه شرق بشربة فمات فهو شهيد لظاهر ما ورد فيه لأنه لا فرق فيما غص فيه انه مأذون فيه أم لا فيشمل المحرم لأن الشهادة حاصلة بالإشراق فمن غير اعتبار لما حصلت به فيعاقب من جهة و يثاب من جهة.

فإن قلت الأباق ليس سببا مباشرا للموت لأن الموت إنما حصل بقتال الكفار مباشرة و الأباق سبب السبب الذى هو حصول القتل من الكفار فافترقا فلم يكن حينئذ الغص مثل الأباق لما علمت من كون الغص مباشرا فى الموت بخلاف الأباق.

قلت لا فرق بينهما عند التأمل لأن سفر الأباق معصية و حصول الموت له نشأ عن معصية كذا الغصة فإنها معصية نشأ عنها الموت و قتال العدو لمسلم يوجب له الشهادة كما يوجبها الإشراق أيضا فلا فرق بينهما حينئذ حصل عن سبب مباح أو غيره لأن ما به الموت موجب الشهادة و لا علينا من غيره فإن كان السبب طاعة أثيب

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۰۹

من جهتين و إن كان معصية أثيب من جهة و عوقب من أخرى فحص ما قاله أولا لما تقرر لك أن الآبق عند القتل و المغصوص عند

الإشراق كلاهما فی معصیة و حصول الإشراق و القتل موجبان للشهادة کما هو ذلک فی صحیح الخبر من غیر اعتبار السبب أو الوقت نعم وزانه ما ذکروه فی باب قضاء الفوائت و هو أن من علیه القضاء ثم ترک ما علیه من القضاء و اشتغل بالتنفل فانه یحرم علیه ذلک غیر انه یثاب علی التنفل و یعاقب علی ترک ما علیه من القضاء لما علمت من تعمیر الوقت بالطاعة و ان کان غیر وقت للنفل إذ هو عاص فی ذلک لأنه وقت قضاء و مثاب لکونه اشغله فی طاعة فهذه طاعة نشأت عن معصیة و کذا ثوابها نشأ عن سبب منهی عنه فلا فرق فی کل ذلک و المسائل من هذا النهی لا تعد و لا تحصی.

و أما قوله أن الإنسان إذا ضرب ما لا یحل فنشأ عنه الموت فانه آثم و یقتص منه بعید عن هذا المرام لکونه تعمد الضرب فیما لا یحل و نشأ عنه إتلاف النفس و هو مذموم شرعا بل هو من الکبائر فنشأ عن هذه المعصیة معصیة کبیرة و جنایة عظیمة بخلاف الغص فانه نشأ عنه کرامة عظیمة و هی الإشراق کما أن الآباق الذی هو حرام و سبب منهی عنه نشأ عنه أیضا کرامة جلیلة و هی القتل من العدو لأنهما أی الإشراق و القتل الموت بهما شهادة شرعا.

و بالجملة المعتبر فی الحاصل الذی هو الموجب فی الشهادة لا فی المحصل إذ لا عبرة به فتأمله منصفا و اللّه تعالی اعلم.

قال الشیخ المذکور و ذکر انه حضر مجلس شیخ الإسلام الشبراملسی یقرأ علیه المواهب اللدنیة قال و قرر تقریرات عجیبة فی حدیث أول ما خلق اللّه نور محمد صلی اللّه علیه و سلم إلخ و قرر وجه انقسام ذلک النور و کیفیته مع أن الحقیقة الواحدة لا تنقسم و لیست الحقیقة المحمدیة إلا قسما واحدا من تلک الأقسام و الباقی إن کان

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۳۱۰

منها أیضا فقد انقسمت و ان کان غیرها فما معنی الانقسام و حاصل جوابه أن معنی الانقسام زیادة نور علی ذل النور المحمدی فیؤخذ ذلک الزائد ثم علیه نور آخر ثم کذلک إلی آخر الأقسام.

قال و هذا جواب مقنع بحسب الظاهر و التحقیق و اللّه اعلم وراء ذلک.

و ذلک إنما یدرکه علی الحقیقة من عرف معنی تعالی اللّه نور السموات و الأرض و معنی قوله صلی اللّه علیه و سلم لما قیل له هل رأیت ربک فقال نور أنّی أراه کما فی بعض الروایات بفتح الهمزة فی أنی و نونه کلمة استفهام أو نورانی بیاء النسب آخره کما فی بعضها و تحقیق ذلک علی ما ینبغی لیس مما یدرک ببضاعة القول و لا مما تتسلط علیه الأوهام و الإفهام و إنما یدرک بکشف إلهی و إشراق حصة من أشعة ذلک النور فی قلب العبد فیدرک نور اللّه بنوره فیکون الحق فی الحقیقة هو المدرک لنوره بنوره و نسبة الإدراک حینئذ إلی العبد مجاز و أقرب تقریر یعطی القرب من فهم معنی الحدیث أن یقال لما کان النور المحمدی هو أول الأنوار الحادثة التی تجلی بها النور القدیم الأزلی و هو أول التعینات للوجود المطلق الحقانی و هو مدد لکل نور کائن أو یکون فکما أشرق النور الأول فی حقیقته فتنورت بحیث صار هو نورا کما دل علیه قوله علیه الصلاة و السلام فی دعاء الأنوار و اجعلنی نورا أشرق نوره المحمدی علی حقائق الموجودات شیئا فشیئا فهی تستمد منه علی قدر تنورها بحسب کثرة الوسائط و قلتها و عدمها و کلما أشرق نوره و فاض علی نوع من الحقائق ظهر النور فی مظهر الانقسام فقد کان النور الحادث أولا شیئا واحدا ثم أشرق فی حقیقة أخری فاستنارت بنوره تنورا کاملا- بحسب ما تقتضیه حقیقتها فحصل فی الوجود الحادث نوران مفیض و مفاض و فی نفس الأمر لیس هناک إلا نور واحد أشرق فی قابل الاستنارة فتنور فتعددت المظاهر و الظاهر واحد ثم کذلک کلما أشرق فی محل ظهر

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۳۱۱

بصورة الانقسام و قد یشرق نور المفاض علیه أیضا بحسب قوته علی قابل آخر فتنور بنوره فیحصل انقسام آخر بحسب المظاهر و کلها راجعة إلی النور الأول الحادث أما بواسطة أو بدونها و هذا غایة ما یمکن أن تصل إلیه العبارة فی هذا التقریر.

قال و مثلی فی قصور باعه و عدم تضلعه من العلوم الإلهیة إن زاد فی التقریر خشی علی إیمانه و لو لا تأیید الحق جل و علا ما کنا لنهتدی علی أقل من هذا و الحمد للّه الذی هدانا لهذا و ما کنا لنهتدی لو لا أن هدانا اللّه.

و اقرب مثال يضرب لذلك إذ بالمثال تتضح الأشياء بعض الوضوح نور المصباح الذى ليس فى البيت الكبير إلا هو فتصبح منه مصابيح كثيرة [و يصبح بعضها من بعض فليس هناك فى الحقيقة إلا نور المصباح الأول و قد انقسم إلى مصابيح كثيرة] و هو فى نفسه باق على ما هو عليه لم ينقص منه شيء.

و اقرب من هذا المثال إلى التحقيق و أبعد عن الإفهام نور الشمس المشرق فى الأهلة و الكواكب على القول بأن الكل مستنير بنوره و ليس لها نور من ذاتها فقد يقال بحسب النظر الأول نور الشمس منقسم فى هذه الأجرام العلوية و فى الحقيقة ليس هناك إلا نورها و هو قائم بها لم ينقص منه شيء و لم يزايلها منه شيء و لكنه أشرق فى أجرام أخر قابلة للاستنارة فاستنارت.

و اقرب من هذا للفهم ما يحصل فى الأجرام السفلية من إشراق أشعة نور الشمس على الماء أو قوارير الزجاج فيستنير ما يقابلها من الجدران بحيث يلمح فيه نور كنور الشمس مشرق بإشراقه و لم ينفصل شيء من نور الشمس على محله إلى ذلك المحل و من كشف اللّه حجاب الغفلة عن قلبه و أشرقت الأنوار المحمدية على قبله

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۱۲

بصدق أتباعه له صافية بصفاء إيمانه باللّه و رسوله من شبه الباطل أدرك الأمر إدراكا آخر لا يحتمل شكا و لا و هما نسأل اللّه أن ينور بنور العلم الإلهى بصائرنا، و يحجب عن ظلمات الجهل سرائرنا ، و يغفر لنا ما اجترأنا عليه من الخوض فيما لسنا له بأهل بل نحن عن أهله بمعزل، و لم نطف قط بساحته فضلا عن المنزل، و نسأله أن لا يؤاخذنا بما تقتضيه العبارة من تقصير فى حق ذلك الجناب، ناشئ عن القصور فى مقام العرفان و نزول منازل الأحباب.

و لقد أجاد كل الإجادة صاحب منارات السائرين إلى اللّه لما قرر معنى كون النور المحمدى أصل الموجودات و لأجله خلقت مع مجيئه آخرا و ضرب لذلك مثلا قريبا إلى الإفهام ببزر الشجرة مع الشجرة و الثمرة فجعل النور المحمدى الذى هو الأصل كالبزر و العالم كله شجرة و اللطيفة المودعة فى ذلك البزر سارية فى جميع أجزاء الشجرة من أوراق و أغصان و أزهار فيه قامت و لولاه ما وجدت ثم الحقيقة المحمدية الموجودة بصورتها آخرا بمنزلة الثمرة هى عين اللطيفة البزرية السارية فى عوالم الشجرة إلى أن ظهرت آخرا على أكمل وجه مع عوارضها المشخصة فهى ثمرة الوجود بأسرها و لولاها ما غرست الشجرة و لأجلها كان غراسها و هى أصلها و بزرها و هو مثال حسن قريب من الفهم و قد جعل صاحب الكتاب المذكور هذا المثال أصلا بنى عليه فصول كتابه كلها و هو حسن جدا مفيد فى بابه إلا أن فهمه يعسر على غير أهله اه-.

و من أكرمنا بهذه الديار و استدعانا لمنزله الشيخ عبد الرءوف نقيب كسوة

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۱۳

الكعبة المشرفة و هو من خواص أصحاب شيخنا الشيخ على الزعترى ذهب معنا يوما لداره باستدعائه و بالغ فى الإكرام و المبرة و الاحترام و حدثنا و باسطنا حسبما يجب و أخبر أن الكسوة تقام كل سنة باثنين و عشرين ألف كيس و الكيس خمسمائة غرش و المحمل سبعة أكياس من أحباسها و ربما يزيد القيم المذكور من عنده أربعة أكياس إلى ستة و كان كثيرا ما يبحث عن علم الكيمياء و سر الحروف ليستعين به على ما هو بصدده و حسبنا أننا نتعاطى من ذلك شيئا و استعظم كوننا غير معتنين بتلك الحرفة و لم يعلم أن طريقتنا كطريقة أشياخنا عدم استعمال الأسماء و الأوفاق بل و لا الأذكار طلبا لفائدتها العاجلة بل و لا الآجلة فى الغالب و إن كانت حاصلة ضمن ذلك و الكفاية باللّه أولى من التعلق بالآثار.

و للّه در شيخ شيخنا القطب الكامل وارث المقام المحمدى أبى محمد سيدى عبد اللّه بن حسين الرقى إذ قال لما بلغه أن بعضا اتهمه بعلم الكيمياء خدما لا إله إلا اللّه حتى وجدنا له بركة و من ظننا بخلاف ذلك فقد ظلمنا.

قلت و من أحمق الناس من لم يرض بقسمة اللّه فى حاله و مقامه و صار يتشوق لما لم يقدر له و لا تحمله قواه غافلا عن تدبير اللّه أياه قال و لو بسط اللّه الرزق لعباده لبغوا فى الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء.

و لقد ذكر شيخنا أبو سالم فى رحلته عن الشيخ على الصوفى و كان ممن يبحث عن هذا الفن أنه حدثه أن بعض من ينتحل علم الأسماء أخبره انه كان يستعمل دعوة آية الكرسى و يشتغل بها على طريق أهل ذلك و لا يبيت عندك منها درهم واحد فقال له لا أقدر على هذا فانه لا يكاد يخفى و أخاف على نفسى أن ظهر ذلك على من أرباب الدولة فلو كنت تأتينى كل يوم بشريفى واحد أو اثنين أو عشرة ففيها الكفاية فقال له لا بد من الألف على الشرط المذكور و إلا فلا و لم يزل راجعه فى الاقتصار

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۱۴

على الكفاية حتى أبى عليه فأيس منه و ترك قراءة الدعوة.

قال و هذا من أعظم دليل على حمق الراغب فى الدنيا فإن اللّه قد تكفل له بالكفاية على وجه يرضاه لى على قدر حاله و يعلم فيه صلاحه أن رضى و لو بسط اللّه الرزق لعباده لبغوا فى الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء فلو أعطى ما فوق اللائق بحاله لم يستطع ألا ترى أن هذا لما ردّ إلى حال لا تليق إلا بالملوك و من يحاكيهم أى و من يماثلهم لم يقدر على ذلك لأنه فوق طوره و لا استغنى بالحال التى أقامه اللّه فيها فانه اعلم بشئونه لاستراح و لكنه أراد أن يدبر لنفسه حالا ظن أنه أولى به منن خلاف مراد اللّه به فنبهه اللّه بما أراه على أن ما كان يظنه من أن كثرة المال هو اللائق بحاله و يحسن فى الرأى و غلط فى التدبير لعجزه عن القيام به و هذا رجل ملطوف به و لو لا- لطف اللّه به لقبل ذلك فيكون فيه حتفه قريبا و لكنه نظر ما آتاه اللّه من نور العقل و الحكمة فعلم أن ذلك لا يتم له لأنه على خلاف مقتضى الحكمة الإلهية اه-.

تنبيه الكسوة المذكورة إذا كان النصف من شوال أو قبله أو بعه يخرج المحمل الخروج الأول فيوتى بها من دار الصنعة فتضرب سجافة على باب القلعة فتخرج السناجق كلهم و الولاة و الأمراء و الحكام و القاضى كل واحد مع أتباعه و لكل واحد مجلس معلوم فى السجافة المضروبة و مجلس الباشا فى الوسط و عن يمينه مجلس القاضى و كلما أتى واحد من الأمراء و أرباب الدولة جلس فى مجلسه المعهود له و قربهم من الباشا بحسب قربهم من مناصبهم فإذا تكاملوا كلهم و أخذوا مجالسهم و صفّت الخيل عن يمينهم صف كل طائفة مع جنسها إلى أن تحيط بالميدان الذى هو أمام مجلس الباشا و هو ميدان كبير يسع من الخيل الألف و آخر من يخرج الباشا فتخرج أمامه طائفة من عسكره بعضه أثر بعض على ترتيب معلوم و قانون مضبوط

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۱۵

و آخر من يخرج معه طائفة من الشاوشية على أرجلهم عليهم جلود النمر و على رءوسهم طراطير طويلة من اللمط لها ذيول معكوفة بين أكتافهم و على جباههم صفائح من الفضة مستطيلة مع الطراطير إلى فوق مموهة بالذهب تلمع لمعانا فإذا خرج هؤلاء خرج الباشا بأثرهم راكبا فإذا وصل إلى السجافة قام الكل له واضعين أيديهم على صدورهم حتى يجلس و كذلك يفعل من تقدم للجلوس من الأمراء مع من يأتى بعده فإذا جلس الباشا جىء بالجمل الذى يحمل المحمل و عليه المحمل و هو قبة من خشب رائقة الصنعة بخرط متقن و شبابيك ملونة بأنواع الأصباغ و عليها كسوة من رفيع الديباج المخوّص بالذهب و رقبة الجمل و رأسه و سائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم و عليه رسن محلى بمثل ذلك و الجمل فى غاية ما يكون من السمن و عظم الجثة و حسن الخلقة مخضوب جلده كله بالحناء يقوده سائسه و عن يمينه و شماله آخر و يتبعه جمل آخر مثل صفته ثم يؤتى بالكسوة المشرفة ملفوفة قطعا قطعا لك قطعة منها على أعواد شبه السلالم معدة لذلك يحملها رجال على رءوسهم و الناس يتمسحون بها و يتبركون و يؤتى بكسوة باب الكعبة منشورة على الأعواد و تسمى البرقع كلها مخوصة بالذهب حتى لا يكاد يظهر فيها خيط واحد بصنعة فائقة و كتابة رائقة ثم يمر بكل ذلك بين يدى الباشا و الأمراء و يقومون لها إذا مرت بهم تعظيما لها ثم يخلع على الذين صنعوها بمحضر ذلك المجمع ثم يذهب بها كذلك حملتها و يمرون بها فى وسط السوق و الناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسينى فتنشر فى صحن المسجد و تخاط هناك.

قال الشيخ العياشى فى رحلته فإذا كان اليوم الحادى و العشرون من شوال خرج المحمل من القاهرة و هذا اليوم هو يوم خروج

المحمل الكبير الذى هو من أيام الزينة

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۱۶

و يجتمع له الناس من أطراف البلد و يؤتى بكسوة البيت الشريفة المعظمة المنيفة من موضع خياطتها و تجعل فى المحال التى تحمل فيه و يجتمع الأمراء و السناجق و الجند جميعا على الهيئة المتقدمة فى الخروج الأول إلا أن هذا أتم احتفالا و أكثر جمعا فإذا تكامل جميع الأمراء على الوجه المتقدم وصفت الخيل و الرماة و خرج الباشا جيء بجميع ما يحتاج إليه أمر الحاج من إبل و قرب و مطابخ و خيل و رماة و غير ذلك من الأسباب التى تخرج من بيت المال فيحضر جميع ذلك فى ذلك الميدان كل طائفة لها أمير مقدم عليها حتى الطباخين و الفراشين و السقائين ثم يؤتى بالمحمل الشريف على جملة المذكور أولا يقوده سائسه حتى يناول رسن الجمل للباشا فيأخذه بيده و يناوله الأمير الحاج بمحضر القاضى و الأمراء و معاينتهم ثم يناوله أمير الحاج لسائسه فيذهب به و ذلك كله كالشهادة على الباشا بأنه مكن لأمير المحمل و كل ما يحتاج إليه أمير الحاج من ذهابه إلى إيابه و على أمير الحاج بأنه تسلم ذلك و يشهد على ذلك القاضى و الأمراء و يكتب بذلك إلى السلطان فإذا مر المحمل بين يدى الباشا و ذهب جيء بالإبل يمر بها بين يديه بما عليها من القرب و المطابخ و الآلات كل طائفة بمقدمها فإذا مرت الإبل كلها جيء بالمدافع و هى خمسة تجرها البغال ثم جاء الرماة الرجالة من ورائها فيمرون ثم تأتى الخيل فتمر فإذا مر جميع ذلك بين يدى الباشا جاء أرباب الطوائف كل طائفة من مشائخ الصوفية بشيخهم و لوائهم رافعين أصواتهم بالذكر كالقادرية و الرفاعية و البدوية و الدسوقية حتى السعاة يأتون بشيخهم فيمرون بين يدى الباشا و يعطيهم ما تيسر فإذا لم يبق أحد ممن يمر بين يديه خلع الباشا على أمير الحاج خلعة و على كل أمرائه الذاهبين معه كالكخيا و الدويدار و غيرهما ثم يودعه و ينصرف ثم يمر بالمحمل و سائر الإبل و العسكر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۱۷

وسط المدينة و الناس مشرفون من الديار و المساجد التى تلى الشوارع و يتعطل غالب الأسواق فى ذلك اليوم.

قال أخبرنا أن بعض تلك الديار المشرفة على الشوارع قد تكرى من أول السنة و لا يسكنها مكتريها و لا ينزلها إلا فى ذلك اليوم قصدا للتفرج و فيما سوى ذلك من الأيام تبقى معطلة أو يسكنها غيره.

و بالجملة فهذا اليوم عندهم من أعظم أيام السنة و لا ثانى له إلا يوم كسر النيل عند وفاته و يقرب منه أيضا يوم قدوم الحاج فهذه الأيام الثلاثة هى التى يحتفل لها عندهم غاية الاحتفال و يهتبل أتم الاهتبال فإذا خرج المحمل من الميدان الذى على باب القلعة إلى فضاء الرملة بقى الكثير من الخيل هناك للعب و لا يذهب معه إلا المعينون للسفر معه و الرملة فضاء واسع خارج قلعة الجبل فيه تباع الإبل و الخيل و سائر الدواب و به يوجد غالب ما يحتاجه الحاج من الأثاث و الأمتعة و تنصب فيه أيام الموسم اراح متعددة لتدشيش الفول يديرها الرجال بأيديهم مع كبرها و قد أعطوا قوة على ذلك يطحن الرجلان أرادب متعددة فى يوم واحد فتكون بالرملة صبر من الفول المدشش كل صبرة تزيد على المائة أردب و من هناك يكيل غالب الحاج قولهم و يعمرونه هناك من غرائرهم و يمكنونه للجمالين فيذهبون به فلا يراه صاحبه إلى المكان المشترط معهم و هو المويلح فى الغالب و فى الرملة كثير من حلق المعجبين يلعبون هناك فى سائر الأيام كأنواع المشعوذين و أصحاب القرود و من ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب و الحمير و التيوس و الكلاب.

و بالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زائد و حيل غريبة قد سخرت لهم أنواع الحيوانات فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخرا مذللا فسبحان

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۱۸

الذى خلق لابن آدم ما فى الأرض جميعا و لقد كرمنا بنى آدم و حملناهم فى البر و البحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا.

قال و بطرق الرملة الذى يلى المدينة مسجد السلطان حسن و هو مسجد لا ثانى له فى مصر و لا فى غيرها من البلاد فى فخامة البناء و نباهته و ارتفاعه و أحكامه و اتساع حناياه و طول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه كأنه جبال منحوتة تصفق الرياح فى أيام الصيف بأبوابه كما تفعل فى شواهق الجبال و فى أحد أبوابه سارية و رخامية لطيفة يقال أنها من أيوان كسرى و فيها نقوش عجيبة يقال إنها على صورتها وضعت أبواب المسجد قال المقريزى لا يعرف ببلد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة فى كبر قالبها و حسن هنداسها و ضخامة شكلها قال و ذريع إيوانها الكبير خمسة و ستون ذراعا فى مثلها و يقال انه أكبر من إيوان كسرى بخمسة أذرع و قد وجدنا ركنا منه قد انهدم فكأنه طرف جبل قد سقط فملأ ما تساقط منه الشوارع و الرحاب التى بإزائه و وجدناهم مجدين فى ترميمه.

و قد أخبرنا أنه أعطوا ستين كيسا من الريال على جمع أنقاضه و رفعها فى الشوارع و الرحاب لتعاد للبناء ثانيا فإذا كان هذا أجرة النقض فما بالك بأجرة البناء قال و لما رجعنا من الحجاز بعد سنة و نصف وجدناهم قد فرغوا من ترميم ذلك الجانب المهدوم و بالغوا فى إتقان صنعته و رفع بنائه ليناسب البناء الأول فكان كما قيل :

يا بارقا بأعالى الرقمتين بدالقد حكيت و لكن فاتك الشنب

و الشنب الماء أو نقط بيض الأسنان اه قاموس فرحم اللّه أفاضل الملوك

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۱۹

الذين درجوا، و الذين من خلفهم على منهجهم نهجوا، لقد خلدوا من المآثر الدينية ما أوجب خلود الثناء عليهم، و وصول الدعاء ممن بعدهم إليهم، و لم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء المساجد و الخانقات و يبالغون فى تعظيمها و يتأنقون فى ذلك و يبادرون إلى أصلاح ما و هى منها.

و أما أهل مغربنا فلا تكاد ترى فى مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث بل و لا مهدما قد جدد أو واهيا قد أصلح بل لو سقط شىء من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه أن كان مبنيا برخام أن يعاد بآجر و جص و إن كان مجصصا أن يعاد بطين بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير هندى فيه من كل لون رقعة و إلى اللّه المشتكى و ما أرى ما حل بمغربنا من الوهن إلا بسبب أمثال هذا من عدم تعظيم شعائر اللّه و لو فى الأمور الظاهرة فضلا عن الباطنة و قد قيل إذا أراد اللّه خلاء بلد بدا ببيته ثم يتبعه ما سواه و إذا أراد عمارته فكذلك.

ثم يسار بالمحمل على هيئته و تعبيته حتى ينزل ذلك اليوم بالعادلية خارج باب النصر فيقيم هناك إلى اليوم الثالث و العشرين فيرحلون من هناك إلى بركة و يخرج أمير الحاج و جميع عسكره و يخرج مع الركب من المشيعين و من العساكر و الأمراء أضعافهم فتنصب الأسواق هناك و يخرج غالب الباعة و المتسببين بحيث يوجد هناك ما يحتاج إليه السفر بأرخص من سعر مصر و يقيمون هناك إلى آخر اليوم السابع و العشرين إلى أن قال.

تنبيه أكثر العلماء مائلون فى القهوة إلى الإباحة و ترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم فى المطاعم و المشارب زاعمين أنها تعين على السهر فى العبادة و يستعين

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۲۰

بها الطلبة كثيرا فى المطالعة الليلية.

قال الإمام أبو سالم و لا شك أنها تزيل ما يحصل فى الرأس من تدويخ بسبب السهر و خلو المعدة صباحا فإذا شربها الإنسان وجد فى أعضائه نشاطا و أحس بخفة رأسه و هذا فى الغالب لمن اعتادها و هى مخففة اتفاقا و هاضمة.

و صحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء و تكره لمن طبعه الصفراء و هى نافعة لصاحب البلغم و غيرها من أنواع المطعومات كذلك يحرم تناول ما يضر منها على من علم أنه يضره و لا يكون ذلك موجبا للحكم بتحريمها.

و الحاصل أن الشاربين لها فريقان يشربونها فى أماكن معدة لذلك مزخوفة قلما تخلو من لهو حضور من لا يحل حضوره من الجوارى و المرد فهؤلاء الحامل لهم على شربها أتباع الأهواء و التلذذ بما قارنها من الأمور المذمومة فلا يبعد أن يقال أنها فى حق هؤلاء محرمة لا ـ لـذاتها بـل لمـا قارنا و فريق يشـربونها فى مساكنهم و حوانيتهم أو يشـربونها فى السوق و يشـربونها من غير جلوس مع الفريق الأول فهؤلاء الحامل لهم على شربها الفهم لها حتى أنهم ربما يتضررون ضررا خفيفا بتركها كما يتضرر من آلف الحجامة بتركها و من آلف شرب المسهل بتركه و غير ذلك من الأمور التى يعتادها الناس و يحملهم عليها أيضا تحصيل المنافع المتقدمة من الاستعانة على السهر و من إزالة التدويخ صباحا و غالب ما يستعملونها مع طعام خفيف ككعك أو كسر خبز فيكفيهم ذلك إلى وقت الغداء هذا كله مع خفة المؤنة إذ بفلس واحد يشرب ما يكفيه من ذلك مع تيسرها فى أى وقت أرادها و لا يحتاج فيها إلى أكبر مئونة و لا مقارنة أدام أو ملح أو أبراز أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأطعمة و يزاد

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۲۱

على ذلك و هو أكبر منافعها عندهم أنها تقدم للضيف و تقوم قام الطعام عندهم و لا يستحى أحد فى تقديمها للباشا فمن دونه و يقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من أطعمة كثيرة تبلغ قيمتها فى الأحيان دينارا فأكثر و درهم واحد يقوم مقام دينار لا يكرهه أحد بل لو قدم إليه أى طعام و لم تكن معه فكأنه لم يقدم شيئا و إن قدمت هى كفت.

قال أخبرنا شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكورانى أن شيخنا الإمام صفى الدين القشاشى كان يقول مما أنعم اللّه به على أهل الحجاز هذا البن أى القهوة لأنهم ضعفاء فقراء فى الغالب و الناس يقدمون عليهم من الأفاق و الإنسان لا بد له من طعام يقدمه لمن دخل عليه و لا قدرة لهم على تكلف ذلك لكل أحد يدخل عليهم و هذه القهوة خفيفة المئونة و الناس راضون بها غنيهم و فقيرهم و رئيسهم و مرؤسهم فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود أحد عليهم فلا يبعد أن تكون مستحبة عند أهل الحجاز لأن اتخاذ الإنسان ما يصون به عرضه مطلوب شرعا.

قال ذلك بعض الشراح و قد سئل عن حكمها قال و كلام هذا الشيخ مع جلالة قدره و جمعه بين العلم الظاهر و الباطن و كلام غيره من أئمة الطريق مما يتقوى به قول من قال بإباحتها لأن المسألة إذا كانت ذات قولين و كان الصوفية مع إحدى الطائفتين ترجح قولهم لا محالة لما رزقوه من صدق الإلهام و نفوذ البصيرة مع تأييد اللّه لهم عند اشتباه الأمور فيميلون مع الحق أين ما مال لرفضهم دواعى الهوى نص على ذلك غير واحد من الأئمة و قد شاع و ذاع عند كثير من الناس بل ذكره غير واحد ممن تكلم عليها أن أول من أحدثها و أخرجها من أرض اليمن الشيخ الولى الصالح المتفق على ولايته سيدى على ابن عمر الشاذلى اليمنى و أمر أصحابه بشربها ليستعينوا بذلك على السهر فى العبادة ثم لم يزل أمرها يفشو شيئا فشيئا و من بلد إلى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۲۲

بلد إلى أن آل إلى ما آل بحيث عمت البلاد المشرقية و كثيرا من المغربية فيحمل منها فى كل سنة من بلاد اليمن لكل أفق من الأفاق شرقا و عربا آلاف من الأحمال فتدفع فيها أموال قلما تدفع فى غيرها من التجارة فيبلغ الحمل منها فى مكة إذا رخص فوق العشرين ريالة و بمصر إلى الخمسين و فى البلاد الشاسعة كأفريقية و بلاد الروم من القسطنطينية و غيرها فوق المئين ثم قال لكل جواد كبوة و لكل صارم نبوة.

رأيت فى مكة كلاما لابن حجر الهيتمى المكى فى إباحة القهوة بالغ فيه بالثناء عليها و ذكر محاسنها و كان من جملة ما ساقه مساق الاستدلال على أنها مباحة و أنها من شراب الصالحين و معينة على العبادة أن كثيرا من السلاطين و الولاة و الحكام قد بالغوا فى أرادة قطعها و النداء عليها فى الأسواق أن لا تشرب و لا بد من أراقتها و زجروا عليها بأنواع الزجر و مع ذلك لم تزد إلا شهرة و شيوعا فى البلاد فدل ذلك على أنها من شراب الصالحين و أنه قد شمل نظر مخرجها و مبدعها فلا يقدر أحد على قطعها أو كلاما هذا معناه لطول العهد به.

قال و هذا الاستدلال كما ترى ساقط فإن الدخان الذى شاع فى الأفاق أكثر العلماء على تحريمه و هو الصحيح إن شاء اللّه لما اشتمل عليه من المفاسد و لا منفعة فيه أصلا و أنفق أرباب القلوب شرقا و غربا على التنفير منه و كراهته و لم يزل الأمراء مجتهدين فى قطعه و مع ذلك فلا- يزاد إلا- شهرة بل الخمر المحرم بالكتاب و السنة و الإجماع قد اشتهر فى كثير فى الأمصار و عمت البلوى به غالب الأقطار فالاستدلال بالشيوع و عدم القطع الولاة و الحكماء على الإباحة لا يخفى ضعفه و بطلانه على من له أدنى معرفة و تميز بين صحيح الأدلة و باطلها فكيف بذلك الإمام اللهم إلا أن يقال لما لم يقتصر على الاستدلال عليه و ضم غيره إليه فكأنه لم يعتمده دليلا بل ذكره مقويا للأدلة و مستأنسا به و هو الظاهر من كلامه و مع ذلك فلا يخفى ضعفه فان

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۲۳

داعى الهوى لا سيما فى الأواخر غالب مع ميل النفوس إلى المطلوب و ضعف داعية الردع من الطالب انتهى.

قلت الاستدلال بما ذكر ظاهر و نظيره ضعيف و بيانه إن محدث القهوة إمام صالح عارف ولى و لم يحدثها سدى و إنما أحدثها لنفع ظاهر شامل إذ فعل مثله لا يخلو عن الفائدة و هو مصون عن العبث قطعا و الولى محروس بعناية اللّه فلم يكله إلى نفسه طرفة و لا أقل م ذلك فلما أطلعه اللّه على نفعها للعامة و الخاصة أبدعها و أعلم بها أصحابه ثم سارت بها الركبان فى المشارق و المغارب و لم يذمها أحد من أولياء اللّه الصالحين و كذا أرباب القلوب فاشتهرت من غير نكير إذ لو كان هذا الحكم من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فركب الدليل عليها [من أحداث الولى لها و عدم النكير من أرباب القلوب و كذا من العلماء فأقبلت عليه] إذ قال الأجهورى إقبال العامة على الحديث دليل على صحته ذكر ذلك فى شرحه لألفية العراقى فى السيرة النبوية بخلاف الدخان فلم يحدثه ولى و كذا أنكره أرباب القلوب و ذمه أكثر العلماء بل حرموه فلا يشربه إلا خسيس الهمة و قد علم فى وطننا انه لا يشربه إلا من لا دين له أو ضعيف عقل بهوى.

و بالجملة فمنور السريرة لا يشربه و يزجر عن شربه بخلاف القهوة إذ أرباب القلوب وجدوا شربها مغيرا لها و مكدرا لصفوها و مانعا من الفتوحات اللدنية و العوارف الإلهية و صارفا عن الحضرة الربانية فشربه كأكل طعام محرم و آكله يعصى اللّه شاء أم أبى فإذا كان كذلك فإنكاره دليل على ذمه شرعا لا سيما و إن

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۲۴

أفاضل العلماء قالوا بحرمته لما فيه من ضرر الأبدان بل فى بعض الأحيان انه يغيب العقل و يوجب إسرافا فى المال من غير منفعة دنيوية و لا دينية بل مضرهما.

و قد قال الشيخ عبد الباقى فى شرحه على العزية عند ذكره لشربه فقال بجوازه إذ لا دليل على تحريمه شرعا و الأحاديث المروية فى منعه موضوعة يدلك على وضعها ركاكة ألفاظها غير أن جوازه مقيد بقيود منها أنه لا يضر بالبدن فان اضربه حرم و كذا لا يمنع السلطان من شربه فإن منع منه حرم أيضا لأن السلطان له أن يمنع المباح فإن منعه صار حراما نص عليه غير واحد من شراح خليل و غيرهما من القيود فالمنع حينئذ من شربه طوق فى عنق و أيضا فى شربه التشبيه بأهل النار فى قوله تعالى وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ ۵ نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۶ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۷ إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ۸ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۹ و لا شك أن الدخان كذلك يطلع على الأفئدة و ناره موصدة فى عمد الذى هو الغليون فى لغة مصر و السبسى فى لغة المغرب.

فإذا تمهد هذا ظهر أن نظر العارفين ليس كنظر غيرهم لأنم لهم أدلة زائدة على القدر استدل به جميع العلماء و هى الإطلاع على خبث الأشياء الملتبسة التى وقع فيها الخلاف بين العلماء و كذا الأشياء الطيبة الملتبسة أيضا عندهم و إذا وقع الخلاف فى الكل فيستدل حينئذ برأى العارفين فى الجواز و المنع فيكون حينئذ من المرجحات لما لهم من الكشف التام و الإدراك الحقيقى على أتم حال و أكمله إذ لا يشك فيهم لغيبتهم عن الأكوان و الآثار و الأوهام لأشراق شمس الحقائق على قلوبهم فلم تبق ظلمة الأوهام فيها قل جاء الحق و زهق الباطل فإذا لاح على قلب العارف فعل المختلف فيه مع كونه كاملا فى علمه مستوفيا لشروط الاقتداء بفعله فإن ذلك

يستدل به على كونه مأذونا فيه لا سيما إذا كان مما يستعان به على العبادة أو ينور القلب فلا جرم فى جوازه و أن وقع لبعض العلماء فهى النهى لا سيما إذا كان فحا أى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۲۵

لا ذوق له فلا يعتبر.

فإذا علمت هذا علمت الفرق بين الدخان و القهوة فإن القهوة أقبل عليها المتلبسون بالصدق و الدخان الغالب فيه إقبال أهل الفسق عليه بل لا تجد صديقا عارفا يشمه أو يشربه فلا تساعد من يشربه و لا تسمع لقوله لما علمت قبل من اتفاق أرباب القلوب على ذمه و كفى و سلام على عباده الذين اصطفى.

انعطاف إلى ما كنا بصدده قال شيخنا المذكور ما نصه و من أحسن ما رأيت من الأسئلة و الأجوبة فى شأن القهوة نظما ما اشتملت عليه هذه الأبيات التى كتب بها العلامة رضى الدين محمد بن إبراهيم الحلبى الحنفى المعروف بابن الحنبلى للشيخ على بن محمد بن عراق إلى أن قال فى الجواب عن إباحتها بحيث لا يحرمها ما عرض لها مما لا يحل حضوره من الشبان و النساء و آلة اللهو غاية الأمر أن من ولاه اللّه أمور المسلمين يجب عليه أن ينكر ذلك و يزجر فاعله بان يفرق تلك الجموع و يشتت تلك المحافل و أما هى فحلال قطعا.

و جوابى أنها حل و لايقتضى ما قلتم تحريم عين

و على ذى الأمر أنكار الذىشأنها حتى تصفى دون رين

و إذا لم يستطعه دون أنيمنع الأصل ففعل منه زين

و التدانى من حماها و هى فىوصفها المذكور شين أى شين

و الصفا فى شربها مع فئةأخلصوا التقوى و شدوا المئزرين

ثم ناجوا ربهم جنح الدجىبخشوع و دموع المقلتين

فابتداء الأمر فيها هكذاقد حكاه عن ولى دون مين

ذا جوابى و اعتقادى انهفى اعتدال كاعتدال الكفتين

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۲۶

قال و الإمام ابن عراق مشهور فضله و علمه و ورعه و هو صدر فى علماء الحرمين علما و عملا جوابه فى المسألتين هو الحق إن شاء اللّه و إلى مثل ذلك تميل أجوبة كثير من الأئمة إنها إذا خلت مما يضاف إليها من المحظورات فهى فى نفسها مباحة و على ذلك عمل كثير من الأئمة فى جميع الأمصار التى هى محل الاقتداء و ربما رأينا من يبالغ فى التنفير عنها من الأئمة المتعمقين فى الورع تركا لما لا بأس به حذرا مما فيه ألباس كما هو شأنهم فى غيرها من المباحات التى هى من الفضول انتهى كلامه.

قلت: و فى الخطاب ما نصه فائدة ظهر فى هذا القرن و الذى قبله بيسير شراب يتخذ من قشور البن يسمى القهوة و اختلف الناس فيه فمن متغال فيه فيرى أن شربه قربة و من غال يرى أنه مسكر كالخمر و الحق انه فى ذاته لا- إسكار فيه و إنما فيه تنشيط للنفس و يحصل بالمداومة عليه ضراوة أى استئناس و ألفة تؤثر فى البدن عند تركه كمن اعتاد أكل اللحم بالزعفران و المفرحات فيتأثر عند تركه و يحصل له انشراح عند استعماله غير أنه تعرض له الحرمة لأمور منها أنهم يجتمعون عليها و يديرونها كما يديرون الخمر و يصفقون و ينشدون أشعار من كلام القوم فيها الغزل و ذكر المحبة و ذكر الخمر و شربها و نحو ذلك فيسرى لذلك مع ما ينضم إلى ذلك من المحرمات و منها أن بعض من يبيعها يخلطها بشىء من المفسدات كالحشيشة و نحوها على ما قيل و منها أن شربها فى مجامع أهلها يؤدى للاختلاط بالنساء لأنهن يعتاطين بيعها كثيرا و للاختلاط بالمرد أى الشبان الذين لا شعر لهم لملازمتهم لمواضعها و سماع الغيبة و الكلام الفاحش و الكذب الكثير من الأرذال الذى يجتمعون لشربها مما يسقط المروءة بالمواظبة عليها و منها أنهم

يلتهون بها عن صلاة الجماعة غنية لوجود ما يلهى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۲۷

من الشطرنج و نحوه فى مواضعها منها ما يرجع لذات الشارب لها كما أخبرنى والدى رحمه اللّه و حفظه عن الشيخ العارف باللّه تعالى العلامة أحمد زروق انه سئل عنها فى ابتداء أمرها فقال أما الأسكار فليست مسكرة و لكن طبعه البلغم فإنها توافقه و قد كثرت فى هذه الأيام و اشتهرت و كثر فيها الجدال، و انتشر فيها القيل و القال، و حدثت بسببها فتن و شرور و اختلفت فيها فتاوى العلماء و تصانيفهم و نظمت فى مدحها و ذمها القصائد و الذى يتعين على العاقل أن يتجنبها بالكلية إلا لضرورة شرعية و من سلم من هذه العوارض كلها الموجبة للحرمة فإنها ترجع فى حقه إلى أصل الإباحة انتهى.

قلت: و هذا هو الحق الذى لا معدل عنه و اللّه يدعو إلى دار السلام و يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

و ممن اجتمع به شيخنا المذكور الأستاذ الشيخ محمد البقرى و إليه انتهت اليوم بالديار المصرية رياسة علم القراءات و أخذ عنه علم القراءات إلى أن قال و حرر كتبه يوم السبت المبارك السابع عشر صفر من شهور سنة ألف و مائة و عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و السلام و اللّه اعلم.

و ذكر لنا أن من أراد قضاء الحاجة و قدم إليها انه يكتب على خنصر يده اليمنى محمدا و فى إبهامها دحطة بالدال و الحاء و الطاء المهملات و التاء المثناة من فوق و يذهب إليها فإنها تقضى بحول اللّه و قوته و أفادنا أيضا أن من قرأ سورة إذا زلزلت إلى آخرها ثم يقول سبحان اللّه ملء الميزان و منتهى العلم و عدد المنعم و مبلغ الرضى وزنة العرش فإن اللّه يكتب له من الأجر قدر ما بين حروف إذا زلزلت إلى أول القرآن و يمحو عنه بقدر ذلك من السيئات و يرفع له بذلك درجات.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۲۸

و عنه أيضا من وضع يده على جبهته و قرأ يا مبدئ يا معيد ثلاث مرات ذكّرنى ما نسيت فانه يتذكر الشيء الذى نسيه و عنه أيضا تكتب الفاتحة أحرفا مقطعة و الصلاة على النبى صلى اللّه عليه و سلم و هذه الأحرف ف ج ش ت ث خ ز تمحى بماء ورد و سكر و يشرب فإنها تزيل جميع ما فى الإنسان من الأوجاع.

و عنه أيضا:

لا تعترض من تراه تكتب من الأحباب

و احذر تكن منكرا تطرد عن الأبواب

أهل الولا فى الورى أخفاهم الوهاب

كليلة القدر أخفاها عن الطلاب

و قال هذان البيتان لسيدى عبد الوهاب الشعرانى من الملحون و لم يقل منه شيئا سوى هذين البيتين و أقول زرت ما زاره الشيخ المذكور بمصر غالب ما بها من المزارات بالقرافتين الكبرى و الصغرى من أئمة الإسلام و علماء الدين و ما بداخل المدينة كذلك و من أجل المزارات و أعظمها بركة و نجحا المشهد العظيم المحتوى على جماعة من أهل البيت رجالا و نساء أشهرهم السيدة نفيسة الطاهرة و إليها ينسب المشهد و بها يعرف و عليه بناء عظيم و بازائه مسجد و بيوت تسكن فلما تخلو من زائر و راغب إلى اللّه فى كشف كربه و قبرها معروف بإجابة الدعاء فهو ترياق لنيل كل مراد، كقبر ابن عمها موسى الكاظم ببغداد، و هى السيدة نفيسة بنت الأمير حسن بن زيد بن على بن الحسين دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق و كان الإمام الشافعى يصلى بها التراويح فى رمضان رضى اللّه عن جميعهم.

وزرنا أيضا قبر الإمام الذى لا ينبغى لأحد دخل مصر أن يهمل زيارته إذ هو صاحب التصريف التام بمصر رئيس الأئمة، و شيخ شيوخ الأمة، محمد بن إدريس

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۲۹

الشافعي رضـى اللّه عنه و عليه بناء عظيم و مسـجد و خانقات و قوم من الفقراء يسكنون هناك و قيم المشهد لا يفارقه ليلا و لا نهارا و هو من المشاهـد الكريمة، و المآثر العظيمة، له أوقاف كثيرة و يتخذ عند قبره كل ليلة سـبت مولد يجتمع فيه أناس كثيرون يضـيق بهم المسـجد و أفنيته ما بين فقراء و أمراء رجال و نساء يبيتون طول الليل بين ذكر بجماعة و صلاة و قراءة قرآن لا يفترون إلى طلوع الفجر و ذلك دأبهم أبـدا فى كل ليلـة سـبت و لا يخلو ذلك المجمع من جماعـة من الصالحين فقـد ذكر سـيدى عبد الوهاب الشـعرانى أن جماعة من الأولياء يحضرون كل يوم لزيارة الإمام الشافعى رضى اللّه عنه و هو حقيق بذلك و جدير فانه بالمحل الذى لا يدرك علما و عملا- و حالا- و فتوة و حسن أخلاق و زكاء أعراق و نصـرة للـدين و حمايـة له باذلا فى ذلك نفسه و ماله و جاهه فقـد اتفق العلماء على انه ليس فى أصـحاب أمـام الأئمـة مالك رضـى اللّه عنه أثبت و لا أعلم و لا أفقه من الإمام الشافعى كما اتفقوا على أنه ليس فى مشائخ الإمام الشافعى أجمع للخصال المذكورة من الإمام مالك بن أنس رضـى اللّه عنه و عن جميعهم و ما علم من تعظيم كل واحد منهما للآخر و ثنائه عليه يدل على أنهما عالما الأمة و ناصـرا السـنة و شـيخا المشرقين و المغربين و قمرا سماء الكتاب و السنة المنيرين فالعلمـاء فى كـل قطر من بعـدهما عيـال عليهما فهما فرسا رهان، و قطبا فلكى الإتقان، و أن أنفرد الإمام مالك رضـى اللّه عنه بفضـيلة السـبق و رتبة الأسـتاذية و سـكنى المدينة و دار الهجرة و السـنة إلى أن مات فللإمام الشافعى رضى اللّه عنه مزايا كثيرة، و مآثر شهيرة، اسـتحق بهـا أن يشـهر و يـذكر، و يحمـد فى دين اللّه و يشـكر، نسـأل اللّه تبارك و تعالى أن يرزقنا محبتهما و تعظيمهما و محبـة سائر الأئمة المجتهدين، و العلماء المهتدين، خصوصا شريكيهما فى تقرير المذاهب، و حيازة التشريف باسم الأئمة بالغلبة و ذلك من أعظم المواهب، الإمام الأعظم أبا حنيفـة و ناصـر السـنة أحمد بن حنبل فكلهم على هدى من ربهم، و مهتد حقا من اهتدى بهم، فرضـى اللّه عنهم و عن

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۳۰

سائر العلماء أجمعين، و جعلنا لمناهجهم السديدة من خيار المتبعين.

وزرنا أيضا الإمامين الشـهيرين، الشامخين الهمامين الحاملين، لراية مذهب مالك، السالكين فى ذلك أحسن المسالك، راية المذهب، عبد الرحمن بن القاسم و حاميه و ناصـره أشـهب، رضـى اللّه عنهما و قبراهما متجاوران يسـتجاب الدعاء عندهما مجرب و ذكر الإمام أبو القاسم القشـيرى رضـى اللّه عنه فى رسالته أن من وقف بين قبريهما و قرأ قل هو اللّه أحـد مائـة مرة ثم اسـتقبل القبلة و دعا أجيب دعاؤه و بإزائهما قبور كثيرة لمشائـخ الأئمـة رضـى اللّه تعالى عنهم وزرنا بائع نفسه فى مرضاة اللّه المجاهـد فى سبيل اللّه عقبة بن نافع الصـحابى رضـى اللّه عنه و عليه بنـاء عظيم، و مسـجد كريم، وزرنـا أبـا الفيض ذا النون المصـرى و شـيخ المشـتهرين بحب اللّه لسـان المحبين أبا حفص عمر بن الفارض رضـى اللّه و قبور السادة بنى الوفا، مناهل الصـفا، و مشائخ العارفين الإمام تاج الدين ابن عطاء اللّه صـاحب الحكم و الإمـام شـرف الـدين البوصـيرى و إمـام المحققين ابن أبى جمرة و تلوه فى المعارف و العوارف ابن الحاج صاحب المدخل و غير من ذكر من المشائخ لو تتبعنا ذكر أسـمائهم لطال الكلام و لا نستقصيهم وزرنا محل الشيخ أبى عبد اللّه المغاورى على حرف الحبل مشـرف على القرافـة كلها و بالجملـة ففضل القرافـة و ما اشـتملت عليه من المزارات أشـهر من أن يـذكر، و أظهر من أن يشـهر، و قد ورد فى الآثار أنها بقعة من الجنة و لذلك أمر الإمام عمر بن الخطاب رضـى اللّه عنه بجعلها مقبرة للمسلمين قائلا لا أعلم تربـة الجنـة إلا مقابر المسـلمين رضـى اللّه عنه ما أصدق فراسـته، و أجل إمامته، وزرنا تربة المجاورين، و من اشـتملت عليه من الأئمة المحققين، و العلماء العاملين، و سـمى هذا المكان بتربة المجاورين لأنه قريب من الجامع الأزهر و به يدفن غالب أهله و المجاورين له بل الأماكن القريبة من الجامع كلها تسـمى حارة المجاورين إذ لا يسـكنها فى الغالب إلا العلماء و الغرباء و الفقراء و قل أن تجد بإزائه دار سنجق أو أحد أرباب الدولة لضيق

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۳۱

المحل و هم يريدون السعة و القرب من القلعة التى هى محل الباشا و أكابر دولته وزرنا كذلك غالب من بالقرافة الصغرى من الصالحين وزرنا قبر الشيخ خليل رضى اللّه عنه و قبر شيخ الشيخ أبى عبد اللّه المنوفى و هما فى مكان واحد و بقربهما تربة الأئمة اللقانيين وزرنا أيضا قبر السلطان المرحوم الملك المعظم المهاب العدل المعدود من الأولياء الأتقياء كما ذكر غير واحد من الأئمة السلطان قايت باى رضى اللّه عنه و أرضاه و نفعنا ببركاته و على قبره بناء عظيم و بازائه مسجد متقن و محلات لسكنى الفقراء و لقيم القبر و هو لا يخلو من عمارة و عند رأس القبر حجر منبى عليه بناء حسن فيه اثر قدمين شاع عند الناس أنها قدما النبى صلى اللّه عليه و سلم و هناك حجر آخر فيه أثر قدم أخرى يقال أنها قدم الخليل و الناس يزورونهما و يذكرون أنها من الذخائر التى ظفر بها قايت باى أيام سلطنته فجعلت عند قبره رجاء بركاتها و لا يبعد ذلك فقد كان ملكا عظيما عدلا موقرا مهابا محببا إلى الخلق ذا سيرة حسنة فى الرعية و اجتهاد فى عبادة ربه إلا أنه لم نر من نص على أنه ظفر بشىء من هذه الآثار من المؤرخين بل قد ذكر جماعة من حفاظ المحدثين أن ما استفاض و اشتهر خصوصا على ألسنة الشعراء و المداحين من أن رجل النبى صلى اللّه عليه و سلم فى الحجر لا أصل له و لم يذكر أحد أن أثر الخليل عليه السلام موجود فى غير حجر المقام.

أقول قال شيخنا المذكور قال شيخنا العياشى فى رحلته و بالمدينة المنورة و مكة و القدس آثار يقال أنها آثار بعض أعضاء النبى صلى اللّه عليه و سلم من قدم و مرفق و أصابع و اللّه اعلم بصحة ذلك و لكن لم يزل الناس منذ أعصار يتبركون بها من العلماء و الصلحاء و يقتفى الأخير منهم الأول قال فلأجل ذلك لما دخلنا إلى مزار السلطان المذكور صب القيم على الأثرين شيئا من ماء الورد فغمسنا فيه أيدينا و مسحنا به على وجوهنا و رؤسنا و أبداننا رجاء البركة بحسن النية و جميل الاعتقاد لأن المنسوب إليه ذلك عظيم و رائحة النسبة مع حسن النية كاف فى ظهور الأثر

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۳۲

و حصول المرام و لم يزل الناس يتعرفون البركة و إجابة الدعاء فى الأماكن المنسوبة إلى الأنبياء و الأولياء و العلماء و لو لم تصح النسبة فما بالك بما نسب إلى سيد الوجود فالكل فى الحقيقة إليه منسوب إذ هو أصل الموجودات و سر المشهودات فأى محل كان مظهرا لبعض كمالاته بالفعل أو بالقول أو بمجرد النسبة مع أصل النسبة الحقيقية عمت البركة و غشيتهم الرحمة يدرك ذلك بالذوق أربابه، و يتعرفه بالبصيرة النورانية أصحابه، و اللّه المسئول أن يمدنا بمدده السارى فى أسرار محققى أتباعه، و ينظمنا فى زمرة حزبه و أشياعه، و صلى اللّه عليه و سلم و على آله و أصحابه الطيبين الطاهرين انتهى كلامه.

و من يوم خروج المحمل شمر الناس عن ساق الجد فى التجهيز للسفر باتخاذ الزاد و شراء الإبل أو كرائها و أزيحت العلل و كان الناس قبل ذلك فى سعة من أمرهم و يقدم الجمالون من الصعيد و الأرياف طالبين الكراء و اختلفت رغبات الناس فى ذلك فمن مائل للكراء و من مائل للتدرب بإبله فمن أراد راحة بدنه و تعب قلبه و الخصومات آناء الليل و أطراف النهار اكترى و من أراد سلامة قلبه و دينه و المخاطرة بماله اشترى إبله ثم يأتى عرب الدرب للكراء على حمل الفول من مصر إلى المويلح و من أراد المخاطرة فلا يكترى شيئا و يشترى فى كل بندر ما يحتاج إليه إلا أنه ربما يقل فى بعض الأحيان فيشترى فى بعض المحال غاليا و غالب الأوقات يكون الأمر متقاربا فى الشراء و الكراء و ربما كان الشراء أرخص من الكراء.

قلت و فى وجهتنا هذه كان الشراء أرخص بكثير و التقى الناس من رخص الأسعار فى جميع البنادر ما لم يخطر لهم على بال و كاد يعد من المحال و كذا فى الحرمين الشريفين فسبحان من بيده الأمر كله يفعل فى ملكه ما يشاء تبارك و تعالى و هو أرحم الراحمين.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۳۳

و لا يقطع الكراء مع واحد من عرب الدرب حتى يأتى عريفهم لأمير الركب فيتقاطع معه فى الكراء و يعطون له حملاء هناك بمصر لئلا يغدروا و ربما غدروا فى بعض السنين فيغلى الفول فى بعض البنادر فيكابد الناس لذلك ما اللّه به عالم فإذا كان اليوم الحادى و العشرون من شوال خرج المحمل من القاهرة و هذا اليوم هو يوم خروج المحمل الخروج الكبير الذى هو من أيام الزينة و يجتمع له

الناس من أطراف البلاد إلى أن ينزل خارج باب النصر بالعادلية فيقيم هناك إلى اليوم الثالث و العشرين فيرحل من هناك إلى البركة و يخرج أمير الحاج و جميع عسكره و يخرج مع الركب من المشيعين و من العساكر و الأمراء أضعافهم فتنصب الأسواق هناك فيخرج غالب الباعة و المتسببين بحيث يوجد هنالك ما يحتاج للسفر بأرخص من سعر مصر و يقيمون هنالك إلى آخر اليوم السابع و العشرين و أما المغاربة فلا يخرج منهم إلا من قصده هنالك مع المصرى مؤثرا مشى الليل على مشى النهار مستسهلا مشقة السهر بالليل عن حر النهار لا سيما فى أيام الصيف و إنما يؤثر ذلك غالبا صنفان من الناس أهل القوة و الثروة الذين لهم شقاذف و محامل و هوادج ينامون فيها بالليل على ظهور الإبل و يصبحون بالنهار كأنهم مقيمون و لا شك أن هذا أولى لهم من السير نهار إذ وطنوا أنفسهم على بذل الدينار و الدرهم للجمال و العكام و السقاء و الطباخ و قائد الإبل و غيرهم وهم فى ذلك متعاطون من النوم على ظهر الدابة ما تأباه الشريعة السمحة المبنية على الرحمة و الشفقة. و الصنف الآخر الفقراء الذين لا إبل لهم و لا أمتعة فيسترفقون عند المصرى بالماء المسبل فى أوقات من الليل و عند الرحيل نهارا مع ما ينالهم من أهل الثروة من التصدق بفضل الأطعمة إلا أنهم يكابدون مشقة عظيمة فى المشى و السهر ليلا و فى النهار يشتغلون بالسعى على ما يقوتهم فلا يكادون ينامون إلا قليلا و أما المستوقة و الباعة و الجمالون من فلاحى مصر فلهم قوة و فرط صبر على مكابدة أعظم من ذلك فبالليل يسيرون و بالنهار يعملون فى البيع و الشراء

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۳۴

و السقى و الطبخ و علف ال بالسعى على ما يقوتهم فلا يكادون ينامون إلا قليلا و أما المستوقة و الباعة و الجمالون من فلاحى مصر فلهم قوة و فرط صبر على مكابدة أعظم من ذلك فبالليل يسيرون و بالنهار يعملون فى البيع و الشراء و السقى و الطبخ و علف الإبل و إصلاح أقتابها و مداواة جراحاتها فلا يكادون ينامون حتى القليل.

أقول قال شيخنا أبو سالم و قد أخبرنا عن بعض من اعتاد السفر فى درب الحجاز من الجمالين أنه لم ينم من يوم خرج من مصر إلى أن رجع إلى مصر مائة يوم و هذا كالمحال عادة فان صح فهو من أغرب الغرائب و لعله كان لا يضطجع للنوم على هيئة القاصد لذلك بل يغفى إغفاءة تارة على ظهر بعيره و تارة فى وقت انتظار حاجة أو فراغ من أكل أو ما يظاهى ذلك فإن كان مثل هذا فلا يستبعد انتهى.

و أما من لم يقصد الذهاب مع المصرى من المغاربة فلا يخرجون إلى اليوم السابع و العشرين من شوال و ينزلون بالبركة عند رحيل الركب المصرى أو قبله بقليل.

قلت و هكذا كانت العادة و قد يؤخرون فى هذه الأواخر بحسب تجهيزهم و تهيئة زادهم و ما يحتاجون إليه لمسافة الدرب أمامهم و للّه در العلامة الصلاح الصفدى :

درب الحجاز مشقة لكن إذاالجمال هان تسهلت أهواله

أصبحت فى تصريف جمالى علىما يشتهى فكأننى جماله

قد كان خف على فؤادى لو غدامن فوق ظهرى بالسوا أحماله

و يكون طوعى فى الذى أختارهلكن قسا و تضاعفت أثقاله

و قال أيضا فى المعنى:

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۳۵ درب الحجاز مبارك لكنهيحتاج صبرا زائد الأجمال

و غبونه شتى و لا مثل الذىأصبحت ألقاه من الجمال

و قال أيضا:

غدا سفر الحجاز كما تراهلأخلاق الرجال بدا محكا

فكم من صاحب أمسى عدوابه و صحيح ود قد تشكى

و جمال جميلك لا يراهو عكام أتى من أرض عكا

كما أن المقوم فى أعوجاجو حين تقيمه بيديك دكا

ثم بعد الأسفار تحملنا بحملنا ما لا- مندوحة عنه فى الأسفار فعوضنا الخيام من المسك، و فوضنا إلى اللّه الأمر فى المحرك و المبرك، و نحن نتوقع تواتر الأذى، و نتوقى توالى القذى، فما وجدنا و المنة للّه إلا- اللطف الخفى و الإعانة، و تسهيل الطريق منه تعالى و سبحانه، و نكبنا البركة ذات اليسار، و شمرنا ذيول التيسار، آمين الدار الحمراء، مستمدين من مالك الغبراء و الخضراء، و هان علينا بذل البيضاء و الصفراء، بل سررنا بذلك لما أملناه، و خف على النفس كل ثقيل لما قصدناه.

سررنا و طبنا حين سرنا لطيبةو لم نخش من طول المسير التماديا

و قلنا اجتهد يا سائق الركب إنماتهون المنايا أن بلغنا الأمانيا

و بركة الحاج المذكورة هى بركة واسعة مد البصر يتموج فيها ماء النيل العذب الفرات تنصب فيها الأسواق الحافلة بشاطئها و القهاوى المزخرفة و الفساطيط المؤنقة و يخرج غالب أهل مصر لوداع الحاج و التفرج هناك و التنزه فى بساتين و مقاصير على شاطئى النيل المنصب إلى تلك البركة و فى جانبها الغربى قرى متعددة فى أحداها مسجد لسيدى إبراهيم المتبولى حسبما ذكره الشيخ الشعرانى فى الطبقات فنزلنا غربى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۳۶

الدار الحمراء فاستهل لنا هلال ذى القعدة و هو كالسنان المنعطف فوق الصعدة.

انعطاف و تنبيه لما ظعنا من كفر حمام أردت أنا و من اتبعنى من الفضلاء السفر مع الركب المصرى لما اشتهر من ظلم الركب الجزائرى للناس و للهرج فيه أيضا حتى أن الإنسان يتمنى لم يقدم إلى الحج و ان شيخ الركب ليس إلا يساعد الناس على ما هم عليه من ظلم و غيره و أنا لا أملك نفسى عند ظهور الظلم و ساعدنى الأخ فى اللّه سيدى أحمد الطيب و سيدى أحمد بن حمود و غيرهما من أفاضل الركب فلما ظعنا و أرنا الفرقة رحل جميع الركب وراءنا من غير تراخ إلى أن وصلنا إلى إمبابة و جاهة بولاق فنزلنا فرادى و نزل معنا بعض الركب و بقينا أياما هناك غير أن الناس لم ينزجروا عن التعدى عن زرع الناس بل حصدوه و رعوه بالإبل و الفلاحون يتشكون و يبكون و يتباكون فنهيناهم و زجرناهم بل ضربنا بعضهم فلم ينزجروا بل زادوا ظلما و عدوانا فذهبت للشيخ فقلت له ليس إلا- الانتقال إلى بولاق فرحلنا و قطعنا النيل بأجرة كما هو العادة غير أن أهل الركب يقطع أكثرهم و يمتنع من إعطاء الأجرة فلما رأينا ذلك منهم و شاهدنا عدم توبتهم نزلنا فرقتين فالشيخ مع بعض الركب نزل محاذيا لبولاق و نحن نزلنا بين مصر و بولاق ثم أن من نزل معنا من لم ينكف عن الظلم و التعدى فاكترينا عن رجل جندى غير أنه لما طلب قبض ثمن الكراء اتهمناه فأتينا به إلى شيخنا الفاضل الكامل المحقق العلامة المدقق صاحب التصانيف المفيدة سلطان العارفين و إمام السالكين الشيخ البركة سيدى محمد الحفناوى نفعنا اللّه به و بأمثاله آمين فعاهده و توثق جميعنا بحضرته.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۳۷

نعم قد ألزمت نفسى أنى لا أعطى دراهمى أحدا إلا بعد رفع الأحمال و الدخول فى السفر فأخذ ذلك الجندى الدراهم من بعض الحجاج اعتمادا على الشيخ المذكور فبعد يومين أو ثلاثة هرب بالدارهم على أنى بعثت له جملا بعشرين ريالا أبو طاقة و الأجل مكة فذهب الجمل إلى أن وصل بولاق فرجع الجمل بنفسه من غير قائد و لا سائق و هو من خوارق العادة إذ من غفل لى دابته طرفة عين أخذت من غير شك فلما علمنا بهروبه ربطنا ولد أخيه و أعلمنا حاكم بولاق فحبسه و أعطى الحجاج ما وجد بين يديه من المال فلعناه و قسمناه بينهم فصار لكل نصف ما أعطى إذ قد أحاط الدين بجميع ماله.

نعم فلا- تغتر أيها الحاج بحلاوة اللسان من الشياطين و لا بإظهار المودة و لا بكثرة الإيمان فإنهم ذئاب فى ثياب و كذا أن أتوا لك

بهديـة لا تقبلها منهم فإنهم يريدون التحيل بالوصول بها إلى مالك فتقع فى شـبكة لا مخرج لك منها فلا يعتبرون عهدا و لا مودة و لا يمينا و لا صـحبة و لا شـيخنا و لا وليا إلا المكر و الخديعة فلا يرجى منهم إلا الخيبة و الخسران و النكث و العكس و لا ينجو منهم إلا من اشترى إبلا لنفسه و حمل عليها و إلا فقـد قطعوا الطريق و أسـبابها لأنهم أن قدروا على أخذ المال تحيلا فعلوه و إلا أخذوه بإعطاء رشوة لأصـحاب المخزن من الـدعاوى الكاذبة و الفجور و إظهار الشـكوى بلسان الباطل و غير ذلك من فضائحهم فلم يبق إلا النصـرة باللّه و الاعتماد عليه ليحفظك من شرهم و بسبب ذلك انقطعنا عن الركب المصرى.

نعم اجتمعنا و تشاورنا فظهر لنا السفر مع سلطان فزان و حاكمه لما ظهر لنا فيه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۳۸

من الحكم و العدل فتعينت أنا و الفاضل الزاهد الورع سيدى محمد الشـريف النوفلى الطرابلسى للمشى إليه لطيلون إذ هو نازل هناك فلما وصـلنا إليه أخبرناه بالسـفر معه و أخبرناه بالسـبب ففرح و سـر بنا سرورا عظيما فلما رحل رحلنا معه و نزلنا عليه خارج مصر و بعد ذلـك اختلـط معنـا ركب الجزائر ثم رحلنا معه فى النهار إلى البركـة ليـذهب مع الشـيخ كل من يريـد ركبنا فبتنا جميعا فلم يزالوا على النهب و التعـدى فى البركة ذلك اليوم و بتنا جميعا و الركب الفزانى نزل حده فلما ظعنا صبيحة ذلك اليوم تأخرنا إليه أعنى جميع من يتبع سـيدى أحمـد الطيب و سـيدى أحمد بن حمود و سـيدى محمد الشـريف و زابر هذا الكتاب فاجتمع أهل وطننا أعنى من الجزائر إلى قسنطينة معنا و ما بقى إلا أهل عامر و قصر الطير و أولاد عبد النور و أولاد سعيد بن سلامة و من تعلق بجميعهم و كذا أهل بسكرة و أهل مدكال و أهل المسـيلة و أهل الصـحراء و أهل الزاب و غيرهم الكل مع الشـيخ سـيدى محمد المسعود و قد رفع منهم ما رفعت الأرض من أعباء الثقلين جزاه اللّه عن المسلمين خيرا.

تنبيه و قـد زرنـا فى هـذه الحجـة شـيخنا الفاضل الكامل سـلطان العارفين، و إمام الطريقـة و السالكين، الجامع بين الحقيقـة و الشـريعة، سيدى محمد الحفناوى، و الشـيخ الصالح، و البدر الواضح، نخبة العارفين، و درة الموحدين، الشيخ الجوهرى وزرت أيضا من بالأزهر من العلمـاء و الطلبـة و غيرهم و اجتمعت مع أبى الحسن شـيخ رواق المغاربـة و أعـارنى الشـيخ الحطـاب شارح المناسك لخليل و هو شرح جليل قـد سافرت به إلى مكة أحياه اللّه على السـنة النبوية و أعلمته بشـرحى على خطبة شـرح الصـغرى فلما رآه و رأى حاشـيتى على المحقق المراكشى السكتانى استحسن جميع ذلك و قد

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۳۹

شرح هو أيضا هـذه الخطبـة غير انه اختصـره كثيرا ثم اجتمعت الطلبـة و كلمونى على مسألـة الجوهر الفرد إذ عنـدنا معشـر أهل السـنة موجود و أما عند غينا فمسـتحيل لشـبهات أوردها من منع فردها أهل السنة بأمور معلومة نص عليها غير واحد كابن التلمسانى فى شرح المعالم و السـعد و الإمام السنوسـى و غيرهم أن البعض ممن يدعى التحقيق من الأفاضل المحققين يسلم أدلة المنع و يمنع أجوبة أهل السـنة لتمكن الشـبهة فى قلبه فلمـا أوردوا تلـك الأدلـة فمنهم من فهم الشـبهة فمنع جواب أهل السـنة و منهم من لم يفهم الشـبهة و لا الجواب عنها ففتح اللّه على بسد تلك الثلمة و منع تلك الشـبهة من أصلها و رفع ما عسى أن يرد من المحال على وجود الجوهر الفرد فأشرق على نور العرفان حتى علم الحق كل من حضر و تعجب الكل فى ردع المفصح بها فصعق من حضر ذلك المجلس.

نعم شـهدوا الفضل و انه باق و ان الفتـح و الوهب لا ينقطعان أبدا حتى أن بعض من كان فى المجلس لما أفاق من سـكرة البغت أراد ببضاعـة عقله و ضـعف ملكته أن يرد ذلك الجواب بالحل و النقض فلم يقـدر لكونه سـماويا إلهيا نزل من عنـد اللّه طريا و لو أن أهل المعقول آمنوا و صـدقوا بفتوحات القوم لفتـح اللّه عليهم من بركات السـماء و الأرض و لكن كـذبوا فأخـذوا بحجاب الجهل و أطوار البشر بغتة من غير تراخ فسكت لكسف نور شمسه.

نعم بعد ذلك طلب منى جميعهم قراءة الكبرى للشـيخ السنوسى و قالوا لا بد أن تحضر الشيخ على الصعيدى وقت أقرائه إياها و أنك لا بد أن تشتى عندنا فوافقتهم على أقرائها و مساعدتى لهم عليها فكل من سمع من الطلبة فرح و سر بذلك غير أن

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۴۰

منعنى من الإقامة فى مصر لما كان من الهرج و الفتنة و النزاع بين الحجاج [و الشيال لأن من دخل بولاق من الحجاج ربطوه و حسبوه و من دخل منهم الركب ربطه الحجاج] فوقع هول عظيم و جميع الفضلاء يجرى بين الجميع بالصلح حتى خفنا على أنفسنا من كثرة الظلم الواقع من الجانبين غير أن الحجاج مظلومون بالنسبة للمال إذ أقرضوهم فى الطريق فأكلوهم و أرادوا الزيادة منهم و أما الحجاج فقد ظلموهم بالضرب فى الطريق و الشتم و كل عمل قدروا عليه فانتقم اللّه من الجميع رزق اللّه الكل التوبة و الندم على ما صدر من الجميع بمنه و كرمه.

و قد زرت فى الحجة الثانية الشيخ البليدى و هو عالم فاضل محقق مؤلف و قد ألف حاشية على الشيخ عبد الباقى إذ رأيتها على هوامش الكتاب المذكور و أجازنى فى العلوم كلها و زبر ذلك بخط يده و قد حضرت عليه فى الحجة الأولى بعض الدروس فى الرسالة.

وزرت أيضا الشيخ الفقيه المقبول المنور العارف باللّه تعالى إذ شرح خليلا شرحا مختصرا بالمزج و قد رأيته فى داره و هو شرح مبارك لا بأس به و هذا الشيخ هو شيخنا الإمام العمروسى و قد أجازنى أيضا غير أنه زبر الإجازة بعض تلامذته بإذنه و إملائه عليه و قد ختمها و كتب على ذلك بخط يده و طبع عليه بطابعه.

وزرت أيضا شيخنا المحقق العلامة المدقق خاتمة المحققين و إمام الإجلاء العارفين الشيخ خليل المغربى و هو فى العلوم بحر لا ساحل له و ان العلوم كلها ضروريات عنده لا سيما علم المعقول و قد قرأت عليه القطب على الشمسية أعنى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۴۱

التصورات و العكوس و التناقض بحاشية السيد عليه و قد أجازنى بخط يده فى سائر العلوم نفعنا اللّه به و الذى أخذنا معه عليه هو الفاضل بالاتفاق و العلامة على الإطلاق سيدى أحمد بن عمار و الفضلاء الإجلاء سيدى أحمد بن حمود و سيدى الصالح القصارى و سيدى أحمد الصديق الجزائرى و الفاضل المحقق البغدادى وفق اللّه الجميع آمين و أن محل القراءة الروضة المنورة و النخبة المشتهرة التى يستجاب الدعاء عندها و هو مسجد سيدنا الحسين فقرأنا عليه قراءة بحث رضى اللّه عنه و أرضاه.

وزرت أيضا الشيخ العلامة و الفاضل الفهامة الشيخ المؤلف ذا التصانيف المفيدة و التآليف العديدة شيخنا الملوى و قد أجازنى فى سائر العلوم و زبر ذلك تلميذه لأنه أقعد لا يقدر أن يقوم و هو مضطجع على سريره و قد كبر سنه بان عمره زاد على مائة سنة و الذى رأيته من تصانيفه الشرحان الكبير و الصغير على السلم و الشرحان أيضا الكبير و الصغير على رسالة السمرقندى فى الاستعارات و كلاهما عندنا و الأولان عند سيدى أحمد بن حمود و كذا نظم الموجهات و شرحها و هو ممن له الذوق السليم و الطبع المستقيم رضى اللّه عنه و أرضاه آمين و قد سمعت انه حشى المراكشى على الصغرى و غير ذلك من تآليفه نفعنا اللّه به آمين.

و ممن زرته أيضا و حضرت مجلسه و هو من المؤلفين و العلماء المحققين و قد صنف كثيرا و إليه النظر فى وقتنا هذا فى الجامع الأزهر بل إليه تشد رحال الطلبة بمصر من كل جانب و قد بلغ صيته علمه مشارق الأرض و مغاربها شيخنا سيدى على الصعيدى و قد أجازنى بخط يده فى جميع العلوم و قد حضرت مجلسه فى الفقه فى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۴۲

مختصر خليل بشرح الشيخ الخرشى و هو يحشى فيه و قد كملت حاشيته الآن عليه فى نحو الخمسة أجزاء و قد باحثته فى بعض المسائل الفقهية فى مجلس أقرائه إذ وجدته فى السهو من الشيخ الخرشى المذكور فأورد على الشيخ الخرشى اعتراضات غير انه يغلظ عليه و يكثر من قوله كلام الخرشى فاسد فلما سمعت ذلك أصابتنى غيرة عليه و لما وصل إلى قوله لا سنة خفيفة كتشهد إلى قوله و إعلان بكآية إذ قال الشيخ الخرشى قوله و إعلان معطوف على قوله كتشهد إلى آخره فقال الشيخ على هذا العطف فاسد و قال فى بيانه أن التشهد متروك و إعلان ضده و العامل فى المعطوف عليه هو العامل فى المعطوف و لا يصح تسلط الترك على الإعلان لأن

الترک هو العامل فی التشهد فلما تم کلامه أغلظت علیه القول فلم یؤاخذنی بذلک بل قال ما البیان فقلت له المعطوف فی الحقیقة محذوف تقدیره کتشهد و سر فی بعض الفاتحة أی کترک تشهد و ترک سر بأن أعلن و قد صور المصنف الشیء بضده لأن القراءة یکتنفها أمران السر و الجهر و لا یترک أحدهما إلا بفعل ضده و لذلک قلنا المعطوف فی الحقیقة محذوف کما سبق فسلم رضی اللّه عنه علی یدی و قبلها و بعد ذلک لا یکتب قولة علی الشیخ الخرشی إلا أن یعلمنی بالبحث بها و معه شخصان عالمان فی غایة التحقیق و هما ضریران لا یکتب شیئا علیه إلا بعد أن یخبرهما و یختبرهما فان سلما نزاعه و بحثه کتبه و إلا فلا و قد أجازنی أیضا کما سبق من الشیوخ غیر أنه صاحب تواضع بان قال فی نص الإجازة لست أهلا لأن أجاز فضلا عن أن أجیز إلخ رضی اللّه عنه و أرضاه و نفعنا ببرکاته آمین.

و لقد رأی أیضا شرحی المذکور فی هذه الحجة و أجازنی بالتألیف أمدنا اللّه و إیاه بمدده و جعلنا من عده و عدده .

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۳۴۳

و ممن أجازنی أیضا وزرته الشیخ علی الفیومی الفاضل العارف باللّه ذو الأحوال المرضیة و المحبة الصافیة و الحقیقة النبویة و الواردات الإلهیة و العلوم اللدنیة و الفتوحات الربانیة و کذا عنده تفرید التوحید و تجرید التفرید و سهم فهمه نافذ إذ علمه یطابق علوم الإنسان الکامل و هو عبد الکریم الجیلی و فتوحات ابن العربی الحاتمی و شوارق عبد القادر الجیلی و أبو حفص عمر بن الفارض و أکثر عباراته فی المحو و الغیب و الفناء و فناء الفناء و له شطحات و تحرکات فی الوجد و هو ممن یرقص و قد أنکر علیه شیخنا الحفناوی و غیره و قد علمت أن علامة الصدیق انه لو شهد علیه ألف صدیق بأنه زندیق لا یضره ذلک و من علامته أیضا کثرة أعدائه و أنه لا یبالی به و قد ألف رسالات فی التوحید الخاص و عندی من تلک الرسائل رسالة فی اسم الجلالة رسالة عظیمة بحیث یهتز من رآها و یخشع قطعا لأن فیها علوما لا تکاد توجد فی غیرها إلا علی سبیل التفریق و القلة و قد قال فیها و فی الخبر یا عبدی خلقت کل شیء لک فلا تتعب و خلقتک لأجلی فلا تلعب و بالجملة ما کان فیک ظهر علی فیک کل إناء بما فیه یرشح و هو ممن یلقن أذکار الشیخ البدوی و یلبس الخرقة و قد حققت منه الکشف غیر ما مرة و قد نهانی عن الصوم إذ کنت أسرده فلم یتیسر لی بعد إلا الفرض رضی اللّه عنه و قد أخذت عنه أیضا نفعنا اللّه به آمین.

و ممن أخذت عنه أیضا و اجتمعت به الشیخ البرکة المحقق الفاضل الکامل الزاهد الورع المقتفی طریق النبی صلی اللّه علیه و سلم الشاذلی شیخنا و من علی اللّه ثم علیه اعتمادنا و انه من المتوکلین علی اللّه حق التوکل و أن الجالس معه یحدث فی قبله خشوع و یقین و إیمان قوی و حلاوة و وجد یعلم ذلک من حاله و صحبته

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۳۴۴

و رؤیته لا سیما إذ تلک أخذ القلوب و من فارقه و غاب عنه أحب الرجوع إلیه بل یجد الإنسان الداعی و الباعث إلی الرجوع إلی مشاهدته و مشاهدة حضرته و أنی جربت من نفسی ذلک فلا أصبر علیه و لو لحظة فإن غبت عنه ساعة وجدت محرکا یحرکنی [إلی الوصول إلیه و أن کل هم و غم یزول برؤیته و الاجتماع به فإنه یفید صاحبه] بأقواله إن نطق و بأفعاله أن سکت و کله رضی اللّه عنه علم و حال فانه ینهضک بحاله، و یدلک علی اللّه بمقاله، و قد اتقی رضی اللّه عنه جمیع الشبهات، و حلی بسائر الکمالات، و قد تقدس رضی اللّه عنه المتشابه فضلا عن الحرام فلا یرکن إلی ظالم و لا یقبل هدیته و قد تحقق عنده حب النبی صلی اللّه علیه و سلم بدلیل إتباعه و اقتفاء آثاره صلی اللّه علیه و سلم و هو من أهل القدوة إذ جمع بین الحقیقة و الشریعة جمعا متواطئا فلا نظیر له فی زمانه رضی اللّه عنه و قد أخذنا عنه الطریق و رسم الحقیقة و انه لقنا الأذکار وجددنا علیه العهد فی الطریق الشاذلیة المحضة و أجازنی إجازة مطلقة فی سائر العلوم العقلیة و النقلیة و قد بالغ رضی اللّه تعالی عنه فی حبنا و اعتقادنا و من عجائب ما رأیت له أنه أمرنی بالذهاب معه إلی زیارة الصالحین و الأولیاء العارفین و العلماء العاملین فی القرافة الکبری و الصغری ملازمته للأدب فی الزیادة غایة قل أن یوجد مثله فی ذلک و کذا معرفته للعلماء المؤلفین فلا یخفی علیه شیء من قبورهم کأنه هو الذی دفنهم فمهما وصلنا قبرا

أو رأيناه إلا قال هذا قبر فلان و فى جواره قبر فلان و فى تجاهة القبلة قبر فلان أيضا إلى أن يعد الجهات و القبور فعلمت أن ذلك ليس من طريق الحفظ و التمرين بل ذلك إنما هو من طريق الكشف لاستحالة أن يكون ذلك من رسم الصفة لأنه من خوارق العادة قطعا.

هذا و أنى قد شهدت أنوار صحبته فى حال الزيارة معاينة و مع ذلك ما تركنا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۴۵

ناحية من النواحى إلا زرناها من الصبح إلى الظهر و قد رجعنا وصلينا الجمعة فى الجامع الأزهر.

و بالجملة فالذى زرناه تلك المدة لا يزار إلا فى أيام عديدة و مع ذلك وجدنا حلاوة ما وجدناها فى غيرها من الزيارات فأنى قد جبلت على حبها من صغرى و قد كثرت منى غربا و شرقا و جوفا و قبلة بمعنى وجودها منى للأحياء و الأموات فمهما ذكر لى ولى أو صالح أو عالم حيا أو ميتا إلا ذهبت إليه و اقتبست من نوره لا سيما عمالة الجزائر فأنى قد خضتها و بحثت عن أهلها بحثا شديدا تاريخا و سيرة و طريقة و حالا و كرامة لما رأينا من وقوع الإهمال فى ذلك فى وطننا فرسمنا كل ذلك رسما جيدا فحفظت من كل خلف وصف أسلافه و نقلت من كل فرع أخبار أصله علما منى أنه لا يمجه السمع السليم و الطبع المستقيم ريحانة لما يجده المتأخر بعدنا و رحمة لما يحصل له من اقتباس الأنوار فى وطننا فما تركت من جهدى شيئا و لا فى استطاعتى أمرا إلا حاولته فى التفتيش عنهم و الاستقصاء بالطلب و الفعل فى آثارهم لا سيما أهل بجاية فإنها مدينة عظيمة يكاد زيتها يضىء من علم أهلها و قوة أحوالهم و أنوار مواجدهم و من أراد استقصاء أخبارهم فليطالع عنوان الدراية للغبرينى و رياض الصالحين للثعالبى و غيرهما.

و كذا بالغت فى الزيارة و الاستقصاء لمدينة الجزائر و أرض الجدار أعنى تلمسان و كذا ملیانة التى تشرفت بالولى الصالح، و القطب الواضح، ذى الأحوال الفاخرة، و الكرامات الباهرة، سيدى أحمد بن يوسف و قد سمعت أنه أخذ عن الشيخ زروق

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۴۶

فصار يترقى حتى أخذ زروق عنه نفعنا اللّه بهم و أفاض علينا من بركاتهم و بركات أشياخهم.

و كذا الشيخ الكامل، و الولى الفاضل، صبغة اللّه فى أرضه، و عين الرحمة فى خلقه، سيدى على بن المبارك القليعى نفعنا اللّه به و مثله من تأتيه الوفود و تؤخذ عنه العهود الولى بلا ارتياب سيدى فرج القريب من الجزائر على شاطئ البحر فقبره معلوم و روضته ترياق مجرب و هو الذى أخبر عنه شيخنا و وسيلتنا إلى ربنا سيدى أحمد بن ناصر بأنه هو الذى أظهر الخلوة المزارة المتعبد فيها الأولياء تحت أبى شعيب على شاطئ البحر فى أرض مسراتة من عمالة طرابلس الغربية لبرقة و هى التى كان فيها الشيخ زروق.

و كذا البليدة و قد زرنا فيها الأكابر كالولى الصالح الشيخ سيدى الكبير و غيره نفعنا اللّه بهم آمين و مثلها المدية و قد زرنا فيها الشيخ سيدى محمد ابركان و غيره.

و كذا دلس و ما قاربه و كذا جبال زواوة على اختلاف أنواعها و لم تكن بلدة أوسع منها كادت أن تلحق بمصر أو أعظم منها.

و كذا المسيلة و قد زرنا فيها الشيخ القطب الغوث سيدى محمد بن عبد اللّه بن أبى جملين و غيره.

و كذا زرت مدينة بسكرة و سيدى عقبة و النبى سيدى خالدا و غيرهم و سيدى عبد الرحمن الأخضرى صاحب التأليف المشهورة و التصانيف المذكورة و قد زرت أيضا تبسة و من فيها.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۴۷

و كذا قسنطينة و من فيها من الأحياء و الأموات لا سيما سيدى سعيد السفرى .

وزرت أيضا بونة أى عنابة و من فيها لا سيما من يستجاب الدعاء عند قبره و هو أبو مروان و أولاد سيدى أحمد ابن الشيخ سيدى زروق لا سيما من كتب اسم محمد صلى اللّه عليه و سلم بقلم القدرة فى يده اليسرى و هو من العلماء العاملين لا نظير له فى المعقول و المنقول و قد حلاه اللّه بحلية القبول من رآه أحبه وهابه و قد جبل على السخاء و الكرم فأخلاقه و خلقه أخلاق النبى صلى اللّه عليه

و سلم و خلقه ما رأيت أحسن منه باطنا و لا ظاهرا و قد سألنى فيه فأجبته بأنه إنما كتب اللّه بذلك اليد إعلاما لنا أنك يمين كلك فجهة اليسرى منك منفية عنك و سألنى أيضا عن قوله تعالى فى مريم و اسجدى و اركعى مع الراكعين و ان كانت الواو لا تقتضى الترتيب إذ كلام البلغاء لا بد فى سبقه بشيء من الحكمة.

قلت و اللّه اعلم أن اللّه خاطبها أولا بسجودها نظرا لمقامها الخاص بها و خاطبها ثانيا بالركوع مع الراكعين نظر إلى حالها مع قومها لأن العارفين باللّه تعالى قلوبهم مع الحق و أجسامهم مع الخلق فكانت مريم من هؤلاء المتمكنين الراسخين فى العلم و لما سمع كلامنا هذا استحلاه و كتبه و كان أجود الخطوط و ما رأيت خطا أحسن منه و انه أجازنى رضى اللّه عنه فى سائر العلوم النقلية و العقلية و دراهم دار الولاية من أعالى أسلافهم إلى الآن و ان والده رضى اللّه عنه كان من المؤلفين و تآليفه كثيرة لا تحصى كثرة و قد نظم [مختصر] خليل بتمامه و نظم أيضا عقائد الشيخ السنوسى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۴۸

الخمسة و قد رأيت له جوهرة نظما و كذا ياقوتة نظما و رأيت أيضا كتابا ألفه فى أخبار العلماء السابقين و أوصافهم و ذكر حكايات و أسماء اللّه و فوائدها و ذكر الخضر و أمثاله حاصله كتاب عجيب و له كتاب حسن ذكر فيه السيد عكاشة انه ولى من أولياء اللّه و ليس الصحابى المعلوم و قد شطّر البردة تشطيرا حسنا.

و بالجملة فمن رأى أولاد سيدى أحمد ابن الشيخ رأى أنوار فيهم و عناية كاملة لهم و فضلا عاما لديهم و الآن فى الحياة ولده الفاضل الكامل سيدى محمد و قد مكثت عنده نحو الجمعة نعم [كنت] ذلك الزمان مشتاقا للحج فقال على طريق الكشف انك تحج السنة و مع ذلك أنى فقير و الركب فى البر قد انقطع من أمر الوباء فى الجزائر و كان الأمر كما ذكر فأتى اللّه بولد سيدى أحمد بن يوسف و هو سيدى أحمد بن طيبة فذهب الركب معه و الحمد للّه رب العالمين.

و بالجملة فما رأيت أفضل من شيخنا الشيخ العفيفى أسبغ اللّه تلك النعم على أولاده و علينا أجمعين بمنه و كرمه فقد أجاز أيضا ولدى محمدا و كان صغيرا و لقنه الذكر على طريق الشاذلية رضى اللّه عنه و أرضاه آمين و أحواله و نعوته لا تعد و لا تحصى و لا تضبط و لا تستقصى.

و ممن أجازنى سلطان العارفين، و إمام المحققين، شيخنا و عمدتنا العالم على الإطلاق، و شمس الأنوار بالاتفاق، الشيخ الحفناوى نفعنا اللّه به و بأمثاله و كتب الإجازة بخط يده رضى اللّه عنه فى المعقول و المنقول.

و كذا لقننى الذكر على طريق أشياخه و أذن لنا فى الإعطاء و الأذن نعم كان فاضلا كاملا جامعا للعلوم النقلية و العقلية و جامعا بين الحقيقة و الشريعة و يكاد أن يكون ممن يجدد الدين و ما رأيت أحسن منه فى إقراء العلم كأن الجواهر تخرج من فيه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۴۹

و ذلك منه من غير كلفة و لا صعوبة فالعلوم كلها طوع يده بحيث لا يحتاج إلى كبير مؤنة فى استحضارها و قد حضرت فى مجلسه المعلوم عند أقرائه الرحبية بالشنشورى يتمنى الإنسان أن يتجرد لصحبته لأخذ العلم منه بحيث لا ينظر إلى وال و لا ولد و لا صاحبة و لا غيرهم و له تآليف كثيرة و ان نسبت إلى الشيخ يوسف أخيه فهى فى الحقيقة له و عندى من تآليفه حاشيته على رسالة الوضع و هى حاشية عظيمة نعم حاله حال الملوك و قد قال أبو الحسن الشاذلى و من الأولياء من يظهر على هيئة العظامة و الجبر و الانتقام لأن اللّه تجلى على قلوبهم بذلك فلا يصحب ذلك الشيخ من المريدين إلا من محق اللّه نفسه و محاها و الشيخ من ذلك القبيل فمن سلم له و لغيره و صدق أحواله و أموره انتفه به فلا- تسمع لمعاصره من إنكار بعض الأمور عليه إذ قد جرت عادة اللّه مع أحبابه أنه يسلط عليهم أهل زمانه فلا بد لمتبع ما تحقق لمتبوعه فلا بأس فى ذلك و لا قدح أصلا بل يزيد الصادق صدقا و المحق حقا.

و بالجملة فالشيخ أنوار الشريعة ظاهرة عليه، و أنوار الحقيقة بادية لديه، و هو من أهل الكشف تحقيقا و أنى ذات يوم جلست معه فقال لى قدم بعض المغاربة مصر زمان كذا و كان من نجباء الطلبة و فى قلبه انه يختبر المحقق فى الجامع الأزهر فيقرأ عليه و يأخذ العلم منه

فصار يتردد فى مجالس العلم و يبحث مع أهلها أبحاثا قوية حتى اشتهر فى المسجد بتلك الأبحاث و ما كان قصده إلا خيرا كما سبق قال ذات يوم أتاه رجل من أهل الخير فقال له لا تعد إلى مثل هذا و إلا هلكت أو سلبت أو كلاما هذا معناه أعلاما لى إذ حالى مثل حال هذا الرجل و قصدى كقصده لأنى أتردد فى الدروس بالبحث و السؤال حتى اشتهر أمرى فى المسجد فقال لى إياك ثم إياك فبعد ذلك لم أعد إلى ذلك أبدا و زال عنى ذلك كله بل كنت مولعا بالنزاع و محبا له غير أنى بالإنصاف فكنت معافى بحيث لا أحبه و لا أرضاه أصلا بعد ذلك ببركات الشيخ و أن أحتمل أنه حصل له العلم بحالى و ثبوته عنده غير أن الكشف أقرب إليه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۵۰

و أيضا كان لا يأتى إلى المسجد ذلك الزمان إذ قد رفع ذلك من قلبى ببركاته رضى اللّه عنه و هو دليل على انه من أهل الكشف و أيضا أتى له شخص حديث السن نحو العشرين سنة فى عمره جاءه من مسافة بعيدة كسبعة أيام أو أكثر و الشيخ لا يعرفه و لا يعرف محله فقال له ذلك الرجل أتيت إليك لأدخل تحت طاعتك و أكون من أولاد قلبك فقال له الشيخ ارتجالا حتى تتوب من عقوق والدك إذ أنت على مدة طويلة عاق له و عاص من أجله فإن أردت اخذ العهد منا فكن على بروره و تب إلى اللّه من عصيانه فبكى ذلك الشخص و قال نعم منذ مدة طويلة و سنين عديدة و أنا على عقوقه و عصيانه فصاح بالتوبة و الاستغفار فعجبنا من حال الشيخ و أصاب ذلك الشخص عبرة بل أصابه بعض الغيب عن حسه فلا أصعب من حيرة البديهة و هيبة الفجاة.

و بالجملة فأحوال الشيخ ساطعة، و علومه نافعة و أسراره واقعة، و آثاره رافعة، و أهل السلوك قلوبهم خاشعة، و أصحابه مطيعة سامعة، و قد زحلق عن القوم الأول، و كل ملهوف و ضعيف عليه عول، رضى اللّه عنه و نفعنا به آمين.

و ممن حضرت درسه الشيخ عمر الطحلاوى و قد جمع المعقول و المنقول و انه كالشيخ الحفناوى فى كونه تخرج من فيه جواهر العلوم و عباراته سلسة تصدر من غير كلفة و لا تعب و لا تعسف قل نظيره فى الجامع الأزهر و سمعت منه بعض الرسالة الوضعية و بعض التفسير و هو ذو الجلالين و قد سألته عند قوله فى أن المعارف غير العالم هل وضعت وضعا جزئيا أو كليا و قد أوردت عليه كلام القرافى فتعجب من كلامه لأنه غير معهود به إلخ و كذا سألته أيضا فى قوله تعالى:

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۵۱

وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ الآية لأن قوله إذ تقول للمؤمنين ظرف متعلق بنصر فلما ذكر ذلك قلت له إذا كان النصر حينئذ لم يكونوا أذلة أى فى قلة فقيد النصر بالملائكة ليسوا على قلة فى الظاهر و لا فى الباطن فلما عجز عن الجواب صار يغالطنى بكلام ليس من العلم و هى المغالطة الخارجية فلم أرجع إلى مجلسه بعد غير انه مشتهر بالتحقيق و هو من مشائخ المالكية الكبار.

و ممن سمعت منه أيضا الشيخ العالم العلامة، المحقق الفهامة، ذو الأبحاث الرائقة، و النكت الفائقة، الشيخ الزياتى الشافعى بعض المسائل من النحو أعنى كلام الأشمونى و هو ممن يحب البحث و الإنصاف فمهما أوردت عليه شيئا إلا قال بلزوم الإيراد و إنما ينظر الجواب عنه و هو ضرير فى غاية التحقيق و قد اشتهر بذلك فى الجامع المذكور و حضرت عليه أيضا دروسا فى المحلى نفعنا اللّه ببركاته آمين.

و من أشياخى الشيخ الفاضل، و العالم الكامل، إمام الجامع، ذو الصدر الواسع، الحافظ على الإطلاق، و الناقل بالاتفاق، و له باع قوى فى المنقول و المعقول و قد أخذ عنه كل من كان فى زمنه من الشافعية و الحنفية و المالكية و غيرهم فقد حقق المذاهب رضى اللّه عنه الشيخ سالم النفراوى و لقد علم من حاله أن كل من يحشى أو يشرح بفوائد غريبة أو نقول عجيبة إنما ذلك منه رضى اللّه تعالى عنه و نفعنا به آمين.

و قد قرأت عليه مدة مختصر السعد غير أنه ما رأيت مثله أبدا نعم لا يسأله أحد فى المجلس لأن جميع ما يخطر ببالك إلا ألقاه فى الدرس و إن بقى للإنسان شىء ألقاه عليه بعد الفراغ منه و أما أ، ا فاسأله دائما و هو يجيبنى من غير غضب و لا عنف لكونى غريبا من آل المصطفى صلى اللّه عليه و سلم و كان يحضر مجلسه نحو السبعين طالبا نعم لما رأونى اسأله و لا يمتنع من الجواب تعجبوا من

ذلك و صاروا بعد ذلك يرغبون و يحبون منى دوام السؤال له بل تارة يأمرون بالسؤال و تارة بالإشارة إلى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۵۲

ذلك لأن الشيخ نفعنا اللّه به ضرير أى أعمى و مع ذلك انه من أكابر الأئمة و أفضل علماء مصر فلا ترى أحدا فى الجامع مثله لأنه شيخ الجميع كما سبق و إمام المحققين على ما تقرر و اشتهر.

هذا و قد وقع بيننا و بين الوالد رحمه اللّه نزاع فى بعض المسائل من مسائل الفقه فاستظهرت أنا و العلامة الفاضل و المحقق الكامل عمنا سيدى محمد الصغير أمرا و الوالد جزم بفهم آخر و هو قول خليل و تفكّر بدنيوىّ إذ ذكره فى باب المكروهات فقال جميع من شرحه محل ذلك إذا درى ما صلى و إلا بطلت صلاته أى أن لم يدر ما صلى بطلت إلخ فقال الوالد يصدق ذلك أى عدم الدراية و لو بركعة واحدة لأنه لم يدر ما صلى فقلنا له فى الرد عليه هذا يبنى على المحقق و يأتى بالمشكوك فيه لأن قولهم أن لم يدر ما صلى إلخ إذا صدرت منه أفعال كثيرة و لم يظبطها أصلا و لم يتحقق عنده و لو ركعة فهنا تبطل الصلاة لأن الفعل المضارع فى سياق النفى كالنكرة فى سياقه يفيد العموم فلما ذكرت ذلك له أجابنى بما قال به أبى نعم عندنا أنه لا بد لمن يضبط شيئا من الصلاة بمنزلة من صدرت منه أفعال أجنبية منها فتبطل صلاته غير أن الشيخ ابن أبى جمرة ذكر فى مسألتنا هذه قولين و اللّه اعلم.

حاصله علمه مشهور، و تحقيقه مذكور، و قد حضرنا موته فى الحجة الثانية و قد ازدحم الناس على الصلاة عليه بان لا تجد موضعا فى الجامع الأزهر إلا- و هو عامر فقد أتى للصلاة عليه أكثر أهل مصر و مات فجأة رضى اللّه عنه و خطب الإمام عليه على المنبر خطبة عظيمة بأن ذكر علمه و حاله و نسبه و هو متصل نسبه بالشيخ أحمد الرفاعى أفاض اللّه علينا من بركاته و جعلنا فى زمرته و خرجت مع جنازته مع بعض

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۵۳

الطلبة فوقع الازدحام على نعشه أى سريره الذى حمل عليه حتى أن بعض الولاة أقام شواشا يدفعون عنه نعم لم يفيدوا شيئا فلما خرجنا إلى القرافة الصغرى لم نر جنازة و لا قبرا و لا قبره من كثرة الخلق فمن الجبل إلى مصر لا ترى موضعا خاليا يكاد من خرج لجنازته أن لا يحصى كثرة و انه لا يقع ذلك الجمع أصلا فى بلد من البلدان فلو كان فى غير مصر ما ظننت أن يتفق جمع مثله و لا عمارة تساويه و لا محلا يأويه نفعنا اللّه به و بأمثاله آمين.

و ممن أخذت عليه المحقق المدقق الكامل ذو الفضائل و الفواضل و الحافظ الورع الزاهد المدرس صاحب الأنوار و العوارف و الأسرار شيخنا سيدى أحمد الأشبيلى تلميذ الشيخ الحفناوى و هو ممن ظهر عليه آثار الفضل فى ابتداء أمر الشيخ و قد اشتهر حاله فى الحرمين الشريفين علما و حالا و سرا و قد كان من المحققين فقرأت عليه بعض مختصر السعد فى البيان قراءة تحقيق ما رأيت مثله بتدقيق المسائل و تحريرها و فى آخر أمره كان ملتزما للحرم الشريف رضى اللّه عنه و نفعنا به.

و فى الحجة الأولى اجتمعت مع الولى الصالح و العالم الواضح فكان ديدنه و شأنه الهجرة للعلم من داره فى الإسكندرية إذ كان ملازما لإعطاء العلم فى الأزهر و كان فاضلا فقيها متكلما بيانيا مفسرا أصوليا نحويا لغويا أديبا حاصله قد جمع المعقول و المنقول و الحقيقة و الشريعة واعيا للمذاهب الشيخ الصباغ السكندرى نفعنا اللّه ببركاته آمين بمنه و كرمه.

و كان ممن يحضر مجلسه النبى صلى اللّه عليه و سلم و الخلفاء الأربعة يقظة و قد سمعت ذلك ممن سمع منه و الذى سمعت منه هو الفاضل العدل الثقة المبرز فى العدالة و العالم الفقيه المحدث المفسر صاحب المنقول و المعقول سيدى أحمد زروق نجل الشيخ المؤلف البركة سيدى أحمد بن الشيخ العنابى المتقدم ذكره قال غير أن

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۵۴

ذلك ارتفع عنه مدة و سبب ذلك أن بعض الناس من أصحاب الشرطة من الظلام جاء ليقرأ عليه و يحضر مجلسه فخطر لهذا الشيخ أعنى الشيخ الصباغ كيف يحضر هذا من أصحاب الشرطة مجلسى و النبى صلى اللّه عليه و سلم فيه مع أصحابه أى استعظم ذلك فلما

علم الجميع منه ذلك قام أبو بكر فقال له ألم تعلم أن هذا من أمته صلى اللّه عليه و سلم و تبعه عمر بأن قال قوله ثم عثمان كذلك ثم على كذلك ثم محمد صلى اللّه عليه و سلم و قال بمقالة الجميع ثم قال الصباغ المذكور فصرت لا أراه صلى اللّه عليه و سلم إلا فى النوم و أراه كما تراه الرعاة و قد كان أذن لى فى الكلام معه و بعد هذا أن رأيته لا أتكلم معه.

يؤخذ من هذا أن العبد لا يحقر أحدا بين عينيه و لا يذمه بقلبه و لا يفر من مجالسته و لا من مخالطته إن جاء طالبا للخير كائنا من كان و لو كان ممن يجاهر بالمعاصى و لعله يكون بمخالطتك و حضوره معك تائبا راجعا إلى اللّه تائبا إليه نادما على ما صدر منه مقلعا فتكون سببا فى صلاحه و قد قال صلى اللّه عليه و سلم و لئن يهدى اللّه بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم أو كما قال و أما ازدراؤه و غمصه بين عينيك أو التحاشى عنه بحيث لا يسمع منك كلاما من الخير أو تقول هذا لا يجالس مثلى و لا يكون فى زمرة الأخيار تعظيما لجانبك أو جانب من كنت معه فكبر و بطر عن الحق فالذى يجب عليك أن تنقذه مما هو فيه بأن تداويه بالوعظ و الزجر إن كان لا يفر و إلا فباللين حتى يرجع عما هو عليه و مع ذلك أعتقد أنه أولى منك إذ من كان على شر أولى ممن كان على خير و يقول أنا فإن الطاعة لا- تكون مع الكبر و العجب و رؤية العمل للنفس و استحسانها له و المعصية لا تكون معصية مع الذل للنفس و انكسار القلب من أجلها أى المعصية.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۵۵

حاصله خواطر الحق بينة و خواطر الباطل ظاهرة مضلة فمن راعى خواطره رعى إذ لا يرعاها إلا سعيد و لا يهمل نفسه و خواطرها إلا شقى و العياذ باللّه تعالى.

حاصله الشيخ الصباغ صبغة اللّه لخلقه و رحمة للعالمين فى أرضه لا سيما الغرباء و الضعفاء و الفقراء فلا تجد أحدا فى زمانه يرحم الأمة المحمدية مثله رضى اللّه عنه و قد كان رضى اللّه عنه أكثر زمانه فى مصر مجردا عن أهله إذ أهله فى الإسكندرية و هو فى مصر يعلم الناس ليلا و نهارا و بركاته قد عمت الخلق جميعا فلا ترى نصوحا للأمة مثل و قد حلاه اللّه تعالى بحلية القبول فمن رآه أحبه و قد صدق عليه قوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا.

و بالجملة فكل من أخذ عنه العلم أو الطريقة إلا- ظهر عليه آثار الفضل و حلى بحلية العارفين و نعت بنعت الزاهدين و كان ممن يخشى اللّه و يتقيه نفعنا اللّه به و قد حضرت عليه دروسا فى العلم و مع ذلك تعلقت به رضى اللّه عنه و أرضاه و ان أخلاقه و خلقه أخلاق النبى صلى اللّه عليه و سلم و خلقه كان غير منقبض جدا و لا منبسط كذلك بل إلى البسط أرجح و البسط مقام محمود فلا يكون صاحبه إلا منتفعا به بخلاف صاحب القبض يقل نفعه فى جانب الرحمة و إنما يغلب ضره و هلاكه فلا يصلح للمريدين و الذى يصلح لأهل السلوك هو صاحب البسط أفاض اللّه علينا من بركاته و جعلنا من أهل زمرته بمنه و كرمه.

و ممن أخذت عليه القراءات السبعية إفرادا الأستاذ المحقق و الفاضل المدقق سيدى أبو القاسم الربعى القسنطينى إذ قرأت سورة البقرة و الفاتحة عليه و أظن أن الشيخ البغالى من أشياخ أشياخه و قد سمعنا انه قرأ على شمهورش الطيار و هو قد

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۵۶

أخذ قراءته على النبى صلى اللّه عليه و سلم و هو من أهل الصلاح قطعا و قد أجازنى أيضا نفعنا اللّه به.

و ممن اجتمعت معه و صاحبته أيضا و هو من أهل اللّه حقا و كان عالما فاضلا صاحب حال ووج و شوق له كشف قوى و فتح إلهى و وارد صمدانى و له كلام فى الحقائق رائق و إذا ورد عليه كلام فى الفتوحات تكلم به من غير كلفة و لا تعب و قد جعل كتابا عظيما فى الصلاة على النبى صلى اللّه عليه و سلم على نهج دلائل الخيرات غير انه لا يكتب تآليفه إلا إذا وجدها فى سره رضى اللّه عنه و هو الولى الصالح و العارف باللّه الواضح سيدى الهاشمى المغربى إذ اجتمعت معه فى الحجة الأولى و سبب معرفتى إياه أنى وجدت رجلا فاضلا عليه سيمة طيبة يقرأ عند باب الجامع الأزهر و تعلق قلبى به فجلست عنده فوجدته يقرئ فى ابن هشام أعنى المحاذى على الألفية بشرح السيد خالد أعنى التصريح و حاشية الشيخ يس عليه فما رأيت مثله فى التحقيق و حسن العبارة نعم كلامه عليه حلاوة و

طلاوة سيدى إبراهيم نجل الشيخ سيدى على شعيب التونسى و قد اجتمع فى هذه النخبة العلم و الصلاح و العبادة و المجاهدة و قد قيل لى أنه غلب عليه القيام و الصيام كأنه لم يبق لسواه فيه نصيب فقد كان كله للّه رضى اللّه عنه و نفعنا به و ان العلوم النقلية و العقلية طوع يده.

حاصله محاسنه لا تعد و لا تحصى و لا تضبط و لا تستقصى نعم كنت حينئذ أسرد الصوم و واصلت نحو ثلاثة أيام من غير أكل طعام إلا- إذا أفطرت على الماء القراح فلما ورد على اليوم الرابع تغيرت نفسى و تحركت طلبا للطعام فكنت فى المجلس أتردد هل أزيد اليوم الرابع كذلك أو أذهب لرفقتى فى بولاق لتحصيل الطعام معهم أو أبيت فى الأزهر صبرا حاصله تشوقت نفسى للطعام و إلى تحصليه فلا ختم المجلس السيد إبراهيم المذكور تفرق أهل مجلسه فبقيت هناك و اللّه اعلم ساعة زمانية

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۵۷

ثم قمت فدخلت المسجد و إذا بالفاضل المذكور سيدى الهاشمى واقف معى فأعطى لى نحو رطل من تمر معجون معه شىء من الرغيف حاصله أتانى بما يكفى الإنسان الجائع فقال من يتوكل على اللّه و يعتمد عليه لا يتحير فى أمر العيش و لا ينتظر غير اللّه تعالى فتعجبت من كلامه و اطلاعه على ما بنفسى و ما رأيته قبل قط فكأنه حاضر فى قلبى فعلمت أنه ولى من أولياء اللّه تعالى فرغبت فى صحبته و إذا هو راغب منى فتعلق بى تعلقا كليا فأعلمت به الأخ فى اللّه و المحب من أجله صاحب الكشف أيضا و الصدق تحقيقا سيدى محمد الشريف البلغيثى الطرابلسى و ابن عمى سيدى محمدا صالحا و تلميذى سيدى محمدا الجوادى فتلعق الجميع به ظاهرا و باطنا ثم أنه لم يفارقنى إلى أن سافرنا إلى الحج فنفعنا اللّه به آمين.

و لما رجعنا من الحج وجدناه ينتظر جماعتنا خارج مصر ثم ذهب بنا إلى داره رغبة و محبة و فرحا و سرورا فأقمنا عنده ثلاثة أيام و مع ذلك ما ترك أحدا منا يخرج من داره أصلا.

هذا و أنى كنت لا آكل سمنا و لا لحما و لا أداما فإن رمت شيئا من ذلك خرج عقلى فلما وصلت داره فأتى بكل ما منعت منه فقال لى كل و لا- تخف قلت خفت زوال عقلى إذا جربت نفسى فى ذلك فقال لى كل فأنت مأمون من كل ما تخافه بإذن اللّه تعالى فأكلت و ما صار لى شىء من ذلك بإذن اللّه تعالى فعلمت أن له حالا قويا مع اللّه تعالى ثم كان معنا كذلك إلى أن سافرنا إلى بلدنا نعم مرضت مرضا فى مصر و أشرفت فيه على الموت و كنت حينئذ فى الوكالة فيضيق على الحال مع الوحشة إذ أصحابى ربما خرجوا و تركونى وحدى فحين يتقوى التوحش على و إذا به وارد يؤنسنى و يقول لى لا تخف فإن اللّه يعافيك أو كلاما هذا معناه.

و الحاصل أن هذا السيد من أكابر الصالحين و العلماء العاملين فينبغى أن تشد

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۵۸

إليه الرحال نفعنا اللّه به و بأمثاله و أما من زرته مت الصالحين، و العلماء العاملين، فكالشيخ العارف باللّه المبصر بنور اللّه و هو من الواصلين حقا، و من العارفين صدقا، من له كشف تام، و نفع عام، الشيخ كشك فإنه رضى اللّه عنه يحكى عنه انه ما دخل أحد مصر من أهل اللّه غالبا إلا سلبه و كان له التصرف التام و قد أخذنى حال غيبتى عن إحساسى أظنه خارج مصر غير أن المواهب تجرى على لسانى فضبط منى أصحابى كلاما على هذا الشيخ و أنا غير مستحضر له غير أنى ذكرت كلاما على طريق النظم فى شأنه و الآن طال عهدى به أو على غيره و اللّه أعلم.

ثم إن تلك الورقة التى فيها ذلك الكلام حملها سيدى محمد الشريف المذكور معه بحيث لم يرها أحد فلما اجتمعنا معه رضى اللّه عنه قال له مد لى تلك الورقة فتعجبنا منه ودعا لنا من قريحة قلب و عزيمة همة فعلمنا أننا قد نلنا منه ما لا يحصى كثرة و أنا زرنا فى مصر أولياء و صلحاء قد تعذر علينا ضبط أسمائهم لغلبة النسيان على البشر أفاض اللّه علينا من فضلهم وجودهم و إحسانهم.

و ممن اجتمعت معه أيضا فى هذه الحجة المنور على الإطلاق، و الولى العارف بالاتفاق، صاحب الجذب الإلهى، و الحال الناهى، و الوجد الزاهى، العالم بالحقائق، و الراسخ بالدقائق، المنفق من الفتح، من قد جبل على الصفح، أنوار معارفه مشرقة، و لوائح أسراره

رائقة، فقد توقى فى أوقاته، و تشكل روحانيا فى سماواته، فكاد أن يكون من عالم الأمر لطافة، فغالبه بشر و قلبه ملك ف الخلافة، أن امتحنته وجدته لم يرق أحد مرقاه، و لا سلك شخص مسلكه وحيدا فى مثواه، أن تكلم أغرب، و أن أفصح أعرب، جدير بما يقول، و عندى هو أكثر ما نقول، الشيخ محمود الكردى نفعنا اللّه به و بأمثاله و قد اعتقدنا فيه أكثر مما نقول لأن ما خامر القلوب فعلى الوجه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۵۹

تلوح أثارة و الأسرة تدل على السريرة و ما كان فيك ظهر على فيك.

و قد سمعنا الأخ فى اللّه سيدى محمدا الشريف يذكر عنه أمورا يكاد أن يكون صاحب وقت إذ لا غرابة فى صدور مثلها من مثله.

حاصله لا يخفى عليه شيء فى الكون و له اسراءآت بروحه متعددة كثيرة و مجاهدات عظيمة يكاد العقل أن يحليها منها ما سمعت انه مكث أربعة عشر عاما ما شرب ماء.

حاصله مجاهدته قوية عظيمة و تتبعها كثير نعم لما اجتمعنا معه أخذ بمجامع قلبى و كلامه كله طب نبوى و ترياق مجرب و لو ساعدنا الحال ما فارقناه طرفة عين لأنه كنز لا يفنى و اللّه اعلم انه ممن يقلب الأعيان فعند مجالسته تزول الهموم و الغموم و قد حصلت فيه علامة الولاية و هو انه إذا رأيته تذكرت اللّه تعالى و انه أيضا لا يفتر عن ذكر اللّه تعالى و من أعطى الذكر فقد أعطى منشور الولاية و من سلب شيئا من الذكر فقد عزل عنها و لا تسمع من يعترض على مثله من أهل زمانه فإن ذلك شقاوة و العياذ باللّه تعالى فقد جمع و أوعى و لا غرابة فى كون التلميذ أعظم من شيخه إذ شيخه الشيخ الحفناوى كما سبق فى الشيخ زروق مع سيدى أحمد بن يوسف.

حاصله أن الشيخ المذكور بلغ الغاية فى الترقى و المجاهدة رضى اللّه عنه و أرضاه و لا جعله آخر عهد بيننا و بينه آمين ليتم ما أردناه.

و ممن اجتمعنا معه أيضا وزرناه من لاح نوره، و اشتهر أمره، و ارتفع صيته، العالم الفاضل، المحقق الكامل، العبقرى الحافل، الذى هو البحر من غير ساحل، من رآه تحقق صلاحه و ولايته بلا ناقل، الشيخ الجوهرى نعم أهل مصر اتفقت كلمتهم على انه ولى من أولياء اللّه تعالى و ما حصل من الجود من اللّه عليهم، و الفضل

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۶۰

لديهم، إنما هو لوجود مثله و كفى به علما و عملا و خشية و إتباعا للنبى صلى اللّه عليه و سلم و اقتفاء آثاره عليه الصلاة و السلام و قدوة للأمة المحمدية نفعنا اللّه به و بأمثاله آمين و أظن أنه ممن لا يشقى جليسه نعم أنوار الولاية تلوح على وجهه من غير شك فهو محقق الفلاح و النجاح فلا تجد أحدا يسوء ظنه فيه بل قد حلاه اللّه بحلية القبول و كذا أطلق السنة الخلق بالثناء عليه عموما و السنة الخلق أقلام الحق متع اللّه المسلمين بطول حياته و جعل البركة فى أيامه و أفاض علينا من بحر أنواره بمنه و كرمه.

و ممن اجتمعت معه وزرته مرارا الشيخ الصالح، و الولى الواضح، الشيخ الغريانى نفعنا اللّه به و بأمثاله و هو ممن ظهر عليه الفضل و الخير و الناس أفواجا فى مصر تتبعه تقتبس الأنوار و الفتح منه و تتوسل بجاهه و قد اشتهر عند أهل مصر أيضا أنه هو الحارس للركب فإن أهل الخير جعلوه رقيبا عليه و مأمونا من أجله فلا يقع مكروه به لوجهه و الظن منا به كذلك نفعنا اللّه به و بأمثاله رضى اللّه عنه و أرضاه و رزقنا العافية فى الدنيا و الآخرة مع كفاية همهما بمنه و كرمه.

هذا و أن مصر قد حشيت بأولياء اللّه و أنهم فيها كالنجوم فى السماء فالمستور فيها أكثر من الظاهر إذ الخامل فيها أكثر من أن يحصى و الغالب أن أسواقها لا تخلو منهم فمن أزيل عنه الحجاب رآهم عيانا.

و بالجملة فأحوالهم كمثل بحر و وجودهم كثير فهم ينبتون فيها دائما لا تنقطع آثارهم، و لا تغيب شموسهم و أقمارهم، فعلى من دخل مصر أن يجعل معتمده عليهم فإن بحث عنهم وجدهم لا سيما أن كان بصدق الطلب فوطن مصر ليس كغيره رضى اللّه عن أولياء اللّه أين كانوا و نفعنا اللّه بهم و جعلنا فى زمرتهم آمين.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۶۱

و ممن اجتمعت معه فى مصر أيضا الفاضل المحصل، و العالم المؤمل، الفقيه المفسر، المحدث المخبر، المنطقى الكلامى، المؤرخ

الأصلى البيانى، المرتقى أعلى رتب التدقيق الجامع بين الحقيقة و الشريعة الشيخ المنور التلمسانى، تلميذ الشيخ القطب الربانى، و العارف الصمدانى، سيدى أحمد الحبيب الفيلالى نفعنا اللّه بجميعهم آمين و قد كان يقرئ الكبرى فى رواق المغاربة و اجتمع عليه خلق كثير من مصر و من المجاورين و غيرهم غير أن الغالب منهم مقصودهم البركة و معه التحقيق من غير شك.

و كان الشيخ العمروسى يحضر درسه و مع ذلك أنه شرح خليلا و كان الشيخ خليل المغربى قد وقع بينه و بين الشيخ نزاع فى بعض المسائل فى الكبرى فى كلام الشيخ السنوسى فلما طال نزاعهما و قد ظهر لنا ما ظهر للشيخ خليل قلت الحق مع الشيخ خليل فلما خرجنا قال لى و اللّه لقد أساءنى نصرك للشيخ المذكور فأجبته بما هو حاصله أن الحق أحق أن يتبع و ما ذكره هو الحق و اللّه تعالى اعلم فلما علم الشيخ خليل منه ذلك انقطع عن مجلسه و قبل ذلك أوردت عليه مسائل من العلوم منها فى البيان على من يقول فى قولهم أنبت الربيع البقل انه استعارة بالكناية أى شبه الربيع بالفاعل الحقيقى الذى هو اللّه تعالى فى كونه منبتا فحذف المشبه به و هو اللّه و أثبت له شيئا من لوازم المشبه به و هو الإنبات لأنه من فعل اللّه تعالى فالحق أن يسند إليه ثم أن الربيع فاعل حقيقى ادعاء و مبالغة فى التشبيه أى فرد من أفراد الفاعل الحقيقى ثم استعير الربيع للخالق الذى هو اللّه تعالى بأن جعل اسما من أسمائه على مذهب السكاكى إلخ فقلت له يلزم من ذلك أن يكون اسما من أسماء اللّه تعالى و أسماء اله توقيفية فلا يجوز إطلاقه عليه بناء على ذلك القول لأنه تصرف فى الذات و لا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۶۲

يتصرف فيها إلا اللّه تعالى و كذا على القول الأخر لأنه لفظ يوهم النقص فلا يجوز أيضا فتحير فى الجواب بعد جهد جهيد فى الوصول إلى الإشكال فضلا عن الجواب على أن الادعاء فى الاستعارة كاف فى انفكاكه.

قلت هب على انه كذلك فلا يسمن و لا يغنى من جوع لأن الكلام فى إطلاقه على ذاته و هو حاصل قطعا على هذا المذهب لأن المستعار هو الربيع فيكون إطلاقا على الذات من غير شك و أما على القول بأن المستعار هو الفاعل الحقيقى و المستعار له هو الربيع فلا يلزم فيه شىء كما علمت و يظهر لك من قولهم أنشبت المنية أظفارها قيل أن المنية استعير لها السبع إلخ أو أنها فرد من أفراد السبع ثم استعير اسم المنية له على ما اشتهر بينهم و عليهما فانبت الربيع البقل على كونه استعارة بالكناية و أما على القول بأنه من المجاز فى الإسناد فلا يلزم فيه شىء أصلا فلم يأت بجواب رأسا.

أقول فيه و اللّه اعلم أن التحقيق فى الجواب هو أن ذلك الإطلاق ليس المقصود منه التسمية للّه تعالى باسم الربيع و إنما المقصود التشبيه لأن الاستعارة مبنية عليه و إن كانت تباين التشبيه فى الاستعمال و اللّه تعالى اعلم.

و منها أنى أوردت عليه أيضا من علم الكلام مسائل عديدة فلم يفصح عن جميعها بجواب و أن أجاب عن البعض فلا يسلم من أمور ترده.

حاصله أن الأسئلة باقية إلى الآن فالسؤال الأول العلم بالوقوع تابع للوقوع و لو كان الوقوع تابعا له لدار كما ذكره الشيخ السنوسى فى الوسطى فسألته عن بيان الدور و عن معنى هذا الكلام فوجدته كأنه ما سمعه قط فلم يتعب نفسه فى شىء أصلا فلما علمت منه ذلك تبين لى أنه لا خبرة له به رأسا و الكلام فيه معلوم و إنما اختلفت عبارة الجميع فى تفسيره و بيان معناه و إلا فهو كنار على علم إلا أن التحقيق

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۶۳

أن العلم بقدوم زيد يوم الخميس تابع لقدومه بالفعل و لو كان القدوم بالفعل تابعا للعلم بالقدوم لدار و هو محال لأن القدوم بمنزلة التصور و العلم به كالتصديق و قد علمت أن التصديق تابع للتصور و لو كان التصور تابعا له لدار و هذا معناه و اللّه اعلم ذكره بعض أفاضل المحققين و قال بعضهم إرادة قدوم زيد كما سبق متبوع و العلم بقدومه تابع لإرادة قدومهم و لو كان العكس لدار نعم العلم بالأشياء [كلها سابق تعلقا على إرادتها و أما العلم بوقوع شىء فهو] مسبوق بإرادة وقوعه و غير ذلك أنظر القاضى زكرياء على الرسالة

القيشرية.

و السؤال الثانى فى أن البصر فى حقنا يتعدد بتعدد المبصرات فما لم تره فلمانع قام بالعين فلزم عليه أن الجزء الواحد قامت به أبصار و موانع و هى أضداد يستحيل اجتماعها فى محل واحد فلم يتفق له الجواب أيضا كأنه رضى اللّه عنه و ان حصل له العلم تحقيقا فقد طال عليه العهد برؤية الكتب لما علمنا من حاله انه ذهب للسيد الشيخ المعلوم ذى الطريقة المشهورة و الأنوار الظاهرة و الكرامات الحاضرة و الأحوال الباهرة و كيف لا و هو من ذرية أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه فقد سرت فيه روحانيته صلى اللّه عليه و سلم فاشتغل عنده بالأسماء و خواصها حتى نسى العلم و قد مكث عنده مدة طويلة أكثر من عشر سنين فأثر فيه ذلك النسيان.

أقول فى الجواب أن الموانع و الأبصار و إن كانت متضادة بحسب المعنى غير أن ما تعلق به البصر غير ما تعلق به المانع فلا تضاد ذكر هذا الجواب بعض المحققين من الأفاضل.

فإن قلت إنما يتم لو تعدد المحل فلما كان المحل واحدا و قام فيها المتضادات

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۶۴

امتنع لأن المانع مضاد لأصل البصر و ضد المثل ضد.

قلت نعم غير أنه إنما يلزم فى غير المتعلق كالألوان و الأكوان لأن اللون إذا قام بمحل منع قيام ضده به فإن قام السواد مثلا بمحل واحد منع قيام البياض به و أما قيام بصر زيد فى جزء من محل عين عمرو فلا يمنع من قيام مانع بصر بكر فيجتمع المانع و البصر فى محل واحد غير أنهما مختلفان تعلقا كما ترى و هذا كلما مررت بهذا المحل إلا خطر لى هذا الإشكال فى صميم القلب فادفعه بما سبق من الجواب غير أن فى القلب منه ما ذكرنا فتأمله منصفا و اللّه اعلم.

و السؤال الثالث و الرابع بالنسبة لعلم الكلام فى تعلق علم اللّه بالمحال هل تعلق به تصورا أو تصديقا و هو سؤال قوى فقد زلت فيه الأفاضل و الفحول فلم يفصح لى بالجواب أيضا نعم تعل علم اللّه بنفى الشريك و شبهه من كل محال و إنما الخوض فى علمنا الذى يتعلق تصورا و تصديقا و أما علم اللّه فمنزه عن ذلك و ان بقى فيه نوع خبط غير انه خوض فى ما لا يليق به تعالى إذ أكثر من هذا مستحيل عليه تعالى.

و السؤال الخامس فى قول السيد الخرشى فى شرح خطبة خليل و حمد المؤلف العام و شكره الخاص فى مقابلة قول البراذعى على ما خص و عم من نعمه فما للبراذعى ترق و ما للمؤلف محتمل له و للتدلى فقال فى تقرير ذلك و نسبه لابن مرزوق أن الأصوليين اختلفوا هل الخاص أفضل أو العام فى ذلك قولان فإذا بنينا على أن العام أفضل فقول البراذعى ترق لأنه بدا بالخاص ثم العام و أما قول خليل فيحتمل القولين فإذا كان العام أفضل فهو تدل و إن كان العكس فترق.

قلت هذا منقوض لأن البراذعى كخليل أى عبارتهما معا تحتمل القولين فلا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۶۵

فرق بينهما و التفريق بينهما تفريق بلا مفرق و هو من التحكم قطعا.

حاصله قد اتحد نسبة القولين إلى كلام الإمامين أى نسبة واحدة فلما ذاق هذا و حققه سلم الإيراد لم يفهم وجه الترقى و التدلى.

فقلت له و لمن حضر من العلماء فى الجواب أن الترقى فى كلام البراذعى انه بدا بالأخص إذ هو أقل إفرادا ثم العام إذ هو أكثر فهو ما تزايد من النعم يحتمل أن يكون على الحامد نفسه فيقدر حمدا يوافى ما تزايد على و فى قوله و الشكر له على ما أولانا من الفضل إلخ النون للتشريك أى على و على غيرى فيكون عاما.

حاصله أن الحمد خاص كما سبق و الشكر عام فهو ترق فكأنه قال يوافى ما تزايد على و الشكر على ما أعطانى أى لى و لغيرى فيكون ترقيا كما للبراذعى أو يكون تدليا و هو الظاهر فإن حمد المؤلف عام أى يوافى ما تزايد من النعم على و على غيرى و شكره خاص فبدا بالعام ثم الخاص و قد تقرر أن العام أكثر إفرادا من الخاص فهو تدل قطعا و بالجملة فكلام خليل يحتمل التدلى و الترقى غير أن

التدلى فيه أظهر.

فإن قلت قول الخرشى و حمد المؤلف العام و شكره الخاص إلخ مناف لهذا التقرير لكونه جزم بقوله و حمد المؤلف فما هذا منك إلا شبه تناف لكلام خليل.

قلت و لا منافاة إن شاء اللّه تعالى لأن جزمه بذلك على الظاهر من الاحتمال ما سبق فتأمله منصفا و قد جعلت فى رسالة على نحو ما سبق فاستحسن الجواب كل من حضر المجلس و هذا الذى قررت شىء فتح اللّه به على فى هذا المقام إذ كل من يمر به يستهوله و يستصعبه و إنهم لا ينفصلون عنه كبير انفصال.

و قد أوردنا هذا الكلام على الوالد رحمه اللّه لأنه افقه زمانه و ما رأيت مثله فى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۶۶

الفقه إذ انه فى التحقيق بمكان فاستصعبه غاية و لما سمع بما فتح اللّه به على شكر اللّه على ذلك و فرح بسببه فرحا عظيما.

و السؤال السادس فى النحو و هو قولنا فى قول ابن مالك:

و صالحا لبدلية يرىفى غير نحو يا غلام يعمرا

و نحو بشر تابع البكرىو ليس أن يبدل بالمرضى

أما بشر تابع للبكرى فهو ظاهر المنع لأن البدل على نية تكرار العامل و لا تصح هنا لأن المحلى بالألف و اللام لا يضاف إلا لما هو كذلك و هنا ليس كذلك و أما يعمر بالنصب فأعرابه عطف بيان صحيح لكونه تابعا للمنادى المضموم لفظا المنصوب محلا فنصب و أما إعرابه بدلا فلا يصح لأنه على نية تكرار العامل و العامل هنا ياء النداء كأنه قال و ذلك قول الشاعر [و هو المرار الاسدى]

أنا ابن التاركك البكرى بشرعليه الطير ترقبه وقوعا

يا غلام يا يعمر فيضم مع أنه لم يقع مضموما غير أن هذا لا يظهر كونه علة للمنع و أما المثال الأول فقد ظهر فيه علة المنع و أما المثال الثانى فليس له علة للمنع غايته مخالفة ما نطق به المتكلم و ذلك ليس بمنع فليس من باب القراءة لأن القراءة سنة متبعة فيصح حينئذ عطف البيان فيه و كذلك البدل أيضا فلا تأثير لمتابعة ما نطق به المتكلم من النصب فيجوز حينئذ اعتبار الوجهين قطعا البدلية و عطف البيان فتأمله منصفا.

و قد استخبرت عليه أناسا غربا و شرقا فلا أجد أحدا يقول غير ما ذكرناه من وقوع النطق به منصوبا و إنما اسأل الناس هل أجد أحدا منهم حفظ هذا اللفظ و هو يا غلام يعمر من الشعر و انه وقع بالنصب رعيا للقافية إذ لو ضم لخالف الحرف

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۶۷

الروى فى القصيدة لأنها منصوبة فلو ضم لوقع فيه المخالفة المذكورة.

أقول جميع من شرح الألفية لم ينبه على هذا السؤال و لا على الجواب نعم أنا أظن أنها من قصيدة شعر رويها منصوب فلو ضم على البدلية لأنه على نية تكرار العامل لوقع الخلف فيها غير أنى لم أطلع على انه من الشعر فانظر رحمك اللّه لعلك تطلع عليه فى ديوان الشعراء فيزول اللبس فيما وقع فيه الكبس من سائر الطلبة المسئولين عنه انتهى.

و السؤال السابع عن الكيمياء أى عن الأكسير فقال أمره إذ قال أنه مستور بشعرة فعلمت من كلامه أنه يعرفه و أشار لى أيضا ببيانه فتغافلت عنه ظنا منى انه لا يعرفه.

و السؤال الثامن سألته و من حضر عما نقله الشيخ إبراهيم الشبرخيتى فى شرحه لخليل فى باب الجنائز من أن الموت عرض قائم بيد ملك فمن مسه بها مات و هو انه عرض و العرض إذا قام بمحل أوجب الحكم لمن قام به لا لغير من قام به و هنا أوجب الموت لغير من قام به و أما من قام به فلم يمت و هى اليد التى قام بها و القضية العقلية يستحيل تبديلها عقلا فلن ترتفع فتحير الكل فى الجواب.

نعم فلا جواب عنه على مقتضى القواعد العقلية غير أن المعتزلة خالفوا فى هذه القضية و أمثالها لكنه لا يكون جوابا فإذا علمت هذا

علمت أن كون الموت فى مخلوق عند المس باليد التى قام بها الموت ليس من إعطاء الصفة الحكم لغير من قامت به بل أن اللّه أجرى عادته أن يخلق الموت فى الحى عند ذلك المس فيخلق عنده لا انه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۶۸

أوجبه وصف الموت القائم بتلك اليد و لا أنه به فالحاصل أنه يخلق عنده لا به و لا أنه موجب الحكم المذكور إلخ و أما اتصاف اليد بالموت فلا مانع منه أيضا أن قام به الموت حقيقة.

فنقول أنها ميتة و تلتزم ذلك على قواعد العقل و مع ذلك متحركة حركة اضطرارية فإن الميت يتحرك بتحريك من غيره إياه.

حاصله أن اليد و إن ماتت فلا مانع من أن يحركها اللّه بمحرك كما يتحرك الميت بغيره تحرت خرق عادة لأن الحياة ليست شرطا عقليا فى الألوان و الأكوان و الحركة و إنما الحياة شرط عقلى فى الإدراك لا غير و قد توقف فى هذا السؤال جميع من رأيناه و لقيناه من أكابر العلماء غربا و شرقا نعم و قد من اللّه على بالفتح فى هذا المقام الذى يستهوله و يستصعبه و يقول بإحالته كل من سمعه أو مر عليه فلا تستحقر فان الفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء و ممن توفق فى هذا السؤال أيضا الشيخ على الصعيدى و غيره انتهى.

و السؤال التاسع قد سألته عن التناقض الذى بين المذاهب لأن النبى واحد و الملة واحدة و مع ذلك تناقضت الأحكام و تضادت و القائل بها فى الواقع واحد و هو النبى صلى اللّه عليه و سلم و الواحد مثلا لا يقول فى صلاة واحدة باطلة صحيحة كيف و أن مالكا يقول بأن الصلاة التى بسمل المصلى فى أول الفاتحة مكروهة و ان تركها أولى و يلزم من ذلك صحة صلاة تاركها قطعا و إما الإمام الشافعى فيقول ببطلانها أن تركت لأنها آية من الفاتحة و من ترك آية عمدا بطلت صلاته و مذهب مالك أنها ليست آية من الفاتحة فيا عجبا كيف تكون الصلاة فى دين واحدة باطلة غير باطلة هذا على من يقول أن المذاهب كلها على الحق فى الواقع إذ قال الإمام الشعرانى يجب على كل مسلم أن يعتقد أن الأئمة الأربعة كلهم على

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۶۹

الإصابة فى نفس الأمر فيلزم أن بطلانها و صحتها حق و هو باطل لما علمت من أن اجتماع النقيضين محال و أما من يقول أن الإصابة بحسب ظن المتجهد فلا كلام أو أن حكم اللّه هو ظن المجتهد فى حقه و حق مقلده فلا قدح أيضا و إن المصيب واحد غير أن اللّه لم يكلفنا بتعيينه فلم يبق إلا ثوب التناقض فيما إذا حملت الإصابة لكل فى نفس الأمر و لذا قال الإمام المذكور حصلت لى وقفة منذ أزمنة متطاولة فى مثل هذا التناقض إلى أن دخلت الخلوة ففتح اللّه على بأن بعض الأئمة شدد و بعضهم رخص إلخ ما ذكره.

و هذا الجواب لا يغنى شيئا لأن مالكا قد كرهها مطلقا و ذلك ليس لمقلده فقط و الشافعى أوجبها على كل مصل باجتهاده إلخ.

فلما ذكرت ذلك بحضرة شيخنا الشيخ العفيفى و جماعة من العلماء فمنهم من فهم السؤال و صار ينظر فى الجواب عنه و منهم من لم يصل إلى السؤال فضلا عن أن يجيب و الشيخ المذكور فهم السؤال و أنكر وجود قولة بإصابة الجميع فى نفس الأمر للأصوليين.

نعم قلت قد كان ذلك فى المحلى فلما أتوا بنسخة منه وجدناه كذلك و أنكروا ما ذكره الشعرانى بأن قالوا لم يذكره فإذا بشيخنا العفيفى قد أخرج كتابه فأصبناه كذلك أيضا فبعد ذلك سلم الكل الإيراد إلا الفاضل سيدى أحمد بن عمار مفتى الجزائر قد أنكر و صادر عن المطلوب غير انه لم يقصد عنادا و بعد ذلك سلم رضى اللّه عنه و عن الجميع آمين.

و لا غرابة أن يمن اللّه على بعض الناس بالجواب و قد من اللّه علينا بالجواب بما هو حاصله أن ترك البسملة فى الصلاة مبطل على مذهب الشافعى و غير مبطل عند

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷۰

مالك و ذلك تناقض قطعا نعم الإصابة بحسب الثواب و نفى العقاب إذ كل من المذاهب مصيب فى نفس الأمر بحسب الثواب فى صحة العبادة على من يقول بها و عدم العقاب على من يقول ببطلانها و فسادها و أما فى الواقع عند اللّه فأما صحيحة أو فاسدة لاستحالة الجمع بين صحتها و فسادها فى علم اللّه و إنما يصح و يثبت فى علمه تعالى أحد المذهبين فقط لما علمت من عدم اجتماع

النقيضين فحينئذ فترك البسملة فى الصلاة أما أن يوجب خللا عند اللّه فى الواقع كما هو مذهب الشافعى أو لا يوجبه كما هو مذهب مالك فالحق فى الإصابة فى علم اللّه أحدهما دون الآخر و أما بالنسبة للثواب و عدم العقاب فكلاهما صحيحان يعتد بهما فى ظاهر الشرع لأن مالكا يرى أن البسملة ليست آية من الفاتحة و لذا قال تركها لا يوجب خللا بل التلبس بها مكروه لما فيها من التلبس فى قراءتها فى أول الفاتحة و إيهام أنها منها و هى ليست كذلك لأدلة عنده قولية و فعلية من أهل المدينة لأنه يقدم عمل أهل المدينة و ذلك قاعدة من قواعده و لذا جزم بأنها ليست من الفاتحة فإذا كل كذلك عند اللّه فالحق معه ظاهرا و باطنا و إلا فيحصل الثواب من تلك الصلاة المتروك فيها البسملة و إن كانت فى علم اللّه فاسدة فإصابته حينئذ بحسب الثواب عليها و عدم العقاب على ترك البسملة و إن كانت فاسدة بسببها تركها فى علم اللّه تعالى.

حاصله أن مالكا مصيب فيما أما بحسب علم اللّه و غيره و أما مصيب فى الثواب عنها و عدم العقاب على تحمل المفسد فى على اللّه تعالى و هذا معنى إصابته.

و بالجملة فهو مصيب قطعا فى صحة الصلاة ثوابها و أما مصيب فى الثواب و عدم العقاب فقط و إن كانت فاسدة فى علم اللّه تعالى و هذا معنى الإصابة فى كل مذهب و ذلك مطلقا أى فى العمليات و العبادات و على هذا تحمل الإصابة فى نفس الأمر و إلا فالتناقض ظاهرين لا ينكره عاقل فضلا عن عالم و كذا مذهب الشافعى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷۱

فى حمل الإصابة فيما يناقض غيره من المذاهب فإذا قلنا بفساد الصلاة عنده بترك البسملة أما عند اللّه تعالى فتكون فاسدة ظاهرا و باطنا و إما أن تكون فاسدة بحسب رأيه و اجتهاده بالأدلة الواردة فى ذلك أى بأنها آية من الفاتحة فيكون حينئذ أما مصيبا فى نفس الأمر و فى الظاهر فقط.

و حاصله أن إصابته أما بحسب علم اللّه أنها فاسدة بتركها أو بحسب الظاهر من الأدلة فيكون مصيبا قطعا غير انه إن كان مصيبا فى فسادها بحسب علم اللّه فيكون مالك مخطئا بحسب صحتها غير انه مصيب بحسب الثواب و عدم العقاب و أما أن يكون مالك هو المصيب فى صحتها بتركها فى علم اللّه تعالى فيكون الشافعى مخطئا فى فسادها بحسب علم اللّه و إنما يكون مصيبا فى فسادها بحسب الظاهر من الأدلة و يكون حال من ينتمى إليه يعاقب و لا يثاب عليها أيضا لمخالفته ما دل عليه الحديث أنها آية من الفاتحة و من تعمد ترك آية منها عوقب و آثم.

فإن قلت قد اجتمع الثواب و العقاب فى صلاة واحدة لأنك حملت الإصابة على ذلك قررت منه من اجتماع النقيضين وقعت فيه فهو مشترك الإلزام قطعا.

قلت السؤال قوى غير أن لطف اللّه موجود و كرمه معهود و فتحه ممدود فلا منع أن يجعل الحق حيث شاء.

أقول و على اللّه اعتمدت أن الصلاة إذا كانت صحيحة عند اللّه مع ترك البسملة فالفساد حينئذ ليس إلا فى الظاهر و مخالفة الظاهر ضعيفة لا سيما مع عدم التعيين فيه فلا أقل أن يكون مع ما عند الشافعى من الحكم بفسادها بحسب الظاهر من الأدلة من أنها آية من الفاتحة غير مجزوم به و لا مقطوع به أصلا لا سيما على ما تقدم أن صحتها هو الواقع فى علم اللّه تعالى فيكون بطلان الصلاة بتركها أمرا خفيفا لما لم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷۲

يكن فى علم اللّه تعالى فخف أمره و تيسر حاله فكأنه معفو عنه فالالتفات إليه التفات إلى حال الأدلة و اعتبار لقواعد اجتهاده فيصير العقاب و الفساد أمرا عارضا غير موثوق به إذ المعتبر ما عند اللّه من الصحة فيها بتركها فيكون الشافعى مصيبا بحسب الأدلة أنها آية من القرآن أى آية من كل سورة فيلزم أن تكون آية من الفاتحة فعلى من اجتهد و لاحظ أنها آية من الفاتحة من غير أن يعتريه شك فى ذلك بأن كان عنده ظن قوى بأنها آية من القرآن ففساد الصلاة بتركها ظاهر و هو مصيب من هذه الحيثية و معاقبا على تركها

عقاب أقله توبيخ و تفريع على مخالفة الشافعي في ظنه أنها آية من الفاتحة إذ المعتمد على مذهبه لا بد أن يعمل به و إلا عوقب عليه لأن العمل بمقتضى المذهبين تناقض و الإصابة فيهما مستحيلة إذ لا يمكن الجمع بين النقيضين.

و بالجملة فالإصابة على المذهبين هو أن لا مؤاخذة على كل من عمل بهما و على هذا تحمل الإصابة في نفس الأمر و لا شك أن كل مجتهد في المظنونات بشروط الاجتهاد غير مؤاخذ في نفس الأمر و كذا مقلده و أن أخطأ بحسب علم اللّه تعالى بخلاف المجتهد في الاعتقاد فلا بد أن يكون مصيبا في نفس الأمر و إلا عوقب هو و مقلده لأن الناس مكلفون فيها بالعلم و اليقين و لا يصح فيها الظن القوي و لذا كان المصيب في العقائد واحدا لأن العلم له وجه واحد و المطلوب فيها العلم بالاحتمال فإذا علمت هذا علمت صحة إصابة كل مجتهد في الفقه في نفس الأمر بحسب عدم المؤاخذة فيه عند اللّه تعالى فمن صلى حينئذ بغير بسملة كما هو مذهب مالك لا مؤاخذة و كذا على مذهب الشافعي أن يسلم و ظن أنها آية من الفاتحة نعم كذا كل مذهب في الفقه.

حاصله أن التناقض الواقع بحسب المذاهب الفقهية إن كانت مدونة و مقتفية مالك و الشافعي و أحمد و أبي حنيفة يجب أن يحمل كل رأي منهم على الإصابة في

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷۳

نفس الأمر بمعنى أن من عمل بمقتضاها غير مؤاخذ شرعا و إن كان المصيب في علم اللّه و أحدا إذ لا يمكن الإطلاع عليه إلا بالوحي أو الأدلة العقلية و قد تعذر ذلك أما الوحي فقد انقطع به صلى اللّه عليه و سلم و كذا الأدلة العقلية لأن هذه الأحكام نقلية و لا مجال للعقول فيها فإن كان كذلك فلا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها و ترجيح المصيب من المجتهدين فيها تحكم نعم يصح فيما ظهر فيه المدرك أو كثرة القائل نعم فلا يكون ذلك دليلا على انه في علم اللّه تجب الفتوى بالراجح و العمل به و أما في العمليات فالمصيب فيها واحد و العمل بما في علم اللّه انه الحق واجب و البحث على ذلك بالأدلة العقلية لازم متحتم و المعتقد على خلافه مأثوم أو كافر و أن اجتهد بإمكان التوصل إلى ما في علم اللّه من المعتقد الصحيح بالأدلة العقلية.

فظهر ذلك أن المصيب فيها بحسب المؤاخذة واحد بخلاف المجتهد في المظنونات صح أن يكون كل مصيبا بحسب عدم المؤاخذة هذا و هو التحقيق في الجواب و اللّه الموفق للصواب و إليه المرجع و المآب.

و لتعلم أن اللّه قد من على بفتح منه و إلا- فهذا المحل يستهوله كل من مر عليه و يستصعبه فلا ينفصلون عنه إلا على بطلان القول بالإصابة في نفس الأمر و إنما الإصابة بحسب ظن المجتهد و ان ظنه هو حكم اللّه في حقه و حق مقلده كما هو تحقيق في فن الأصول و الإصابة لكل فلا لما علمت من التناقض و النقيضان لا يجتمعان و لا يرتفعان غير أنك قد سمعت الجواب عنه اللّه هو الفتاح العليم.

و السؤال العاشر و اللّه اعلم هو برهان القطع و التطبيق إنما يستحيل في الحوادث دون القديم إذ قولهم ما دخل في الوجود متناه و ذلك و اللّه اعلم في القديم و الحادث و أظن أن المحقق ابن التلمساني في شرح المعالم قال أدلة ذلك أي إحالة التسلسل في الحوادث خالص بها لتوقف وجود بعضها على وجود بعض قبلها و أما القديم فلا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷۴

لعدم السبقية فيه و لهذا قال ابن التلمساني المذكور و تبعه المحقق المراكشي في حاشيته على الصغرى و كذا اليوسي في حاشيته على الكبرى أن كمالاته تعالى لا نهاية لها بحسب الواقع و إنها صفات موجودة قائمة بذاته غير متناهية و دعوى الإجماع أن كل ما دخل في الوجود قديما أو حادثا متناه منقوض بمذهب الإمام الصعلوكي في قوله أن علمه تعالى يتعدد بتعدد المعلومات و معلوماته غير متناهية لأن الإجماع لا ينعقد بدونه إلخ ما ذكره الشيخ اليوسي فظهر لك أن الأدلة العقلية غير جارية فيه و كذا الإجماع لما ذكر الصعلوكي و كذا ابن الحاجب في تعدد القدرة سلمنا الإجماع غير انه دليل ظني.

قلت سلمنا ذلك غير أن عدم إحالته ممنوع و سند المنع أن أمر الكمالات عدد و كل عدد أما أن يكون زوجا أو فردا أو غير زوج و لا فرد أو زوجا فردا و كل ذلك لا- يصح لأنه أن كان زوجا أو فردا فهو متناه و أما غير زوج و لا فرد فمستحيل و كذا زوجا فردا

فمستحيل أيضا فإذا علمت هذا علمت استحالته فى القديم أيضا و إن كان هذا الجواب أفحاميا إذ أكثر أدلة الكلام أفحامية أو اقناعية.

نعم حصول الفائدة للناظر من هذه الأبحاث إشكالا و جوابا ظاهرا للمعتنى بالعلم و الراغب فيه و إما غير فضائع فيه كتعليق و عاء فيه مسك للحمار أو نثر الجواهر للدجاج.

و بالجملة فأمر مصر و حالها من يوم عمارتها إلى الآن أمر غريب و عجائبها فى العلوم و المعارف و العوارف و الولاية لا تحصى و غرائبها كادت أن لا تستقصى فمن اختبرها و عاين بعض أحوالها حصل له اليقين الخاص و العبرة العظيمة.

و من عجائبها فى كل شىء أنك إذا رأيت شيئا عظيما ثم رأيت شيئا أعظم منه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷۵

نسيت الأول ثم كذلك إلى هلم جرا.

نعم أحوال مصر داخل المدينة و خارجها كافية فى الاعتبار إذ فى أهلها و أسواقها و دكاكينها و أزقتها و ديارها و وكلاتها قهواتها و مساجدها و مدارسها و عجائب قرائها و علمائها و صلحائها و طلبتها و فقرائها و ظلامها و بطارقتها و أهل شرطتها و جنودها و عساكرها و أمرائها و كثرة خلقها و كذا سحرتها و زناديقها و كذلك كثرة اليهود فيها مع النصارى و كذا مقابرها فى القرافة الصغرى و الكبرى و كذا عجائب ما فيها من البنيان و أعجب من ذلك ما فيها من العلماء المؤلفين و الأولياء الصالحين ممن يستجاب الدعاء عند الجميع و كذا خارج المدينة ففيه من القصور و الغرف و صهاريج من الماء و كذا ما فى داخلها من الحمامات و الأفران على أن سعة الديار فيها و علو أسوارها و تزيينها بالنحاس و الذهب و الفضة فبعض الديار إن كان أحد فى طرفها و الأخر فى الطرف الآخر لا يسمع كلامه بل و قد لا يرى له شخصا فإن رآها بعض الناس غاب عن حسه لما أصابه من مشاهدة رونقها يكاد المرء أن تكون عنده الجنة عجائب و غرائب لا تكاد توجد فى غيرها من البلدان أيا كانت هذا الذى سمعته بعد أن دمرها اللّه و غيرها بسبب الفسوق و العصيان على أنها الآن قد كثر فيها الظلم حتى سمعت من الشيخ العارف المحقق الفاضل سلطان الموحدين شيخنا الشيخ الحفناوى يقول فى حجتنا هذه إن ظلم ولاتها قد وصل كل جنس من أجناس الآدميين حتى بلغ ظلم الحاج المغربى و العلماء و الطلبة و الفقراء و الأشياخ و الصناع و التجار و المجاورين و سائر الناس قاطبة و لذلك ابتلاهم اللّه بالشقاق و الفتنة فكانت مصر لمن غلب و قد قال صلى اللّه عليه و سلم لم يكن شىء أسرع بصاحبه كالظلم.

فإذا علمت هذا علمت أن والى بولاق قد تعدى على ركبنا أهلكه اللّه و أخلى منه الأرض و كذا معينه يمسك جماعة بعد جماعة من الحجاج و يلقيهم فى السجن فإن

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷۶

أخذ منهم شيئا من الدراهم سرح لهم من غير أن يدعوهم أحد للشريعة عدو نفسه إلا أنه لا يقدر أن يربط من الركب هو و غيره من الولاة و إنما يربطهم من الأسواق و قد نجانى اللّه منه و الحمد للّه.

و سبب ذلك الشيالة أى الحاملون للحجاج فيشتكون إليه بباطل قصدا منهم أن يأكلوا ما عليهم من الدين الذى أقرضوه و تسلفوه منهم إذ كيدهم عظيم فإننا سلمنا منهم فى الطلعة و الهبطة لقوة الركب فلم يغن عنهم ما أرادوه من إتلاف أموال الحجاج بالباطل عند أمير الحاج من مصر فلم يوافقهم على الظلم و لما وصلوا إلى مصر رجعوا إلى فعلهم الردى غير أنهم لم يأخذوا شيئا منهم و إنما ذلك الظالم هو الذى أخذ منهم.

نعم ما خرجنا من مصر حتى أوقع اللّه بها فتنة عظيمة و غلاء قويا ببركة الحاج.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷۷

ذكر خروجنا من مصر

و لما ظعنا من البركة نزلنا الدار الحمراء و هى لا ماء فيها بل إنما يأتى الحاج بالماء من النيل يصحبه إلى أن يصل دار عجرود أو يجاوزه إذ ماؤه قبيح لا يشربه إنسان إلا خرج من حينه بل يغير طبيعة شاربه فلما يسلم شاربه من مرض البطن فيستعدون الماء تلك المرحلة إلا الفقراء فيضطرون لشربه فلا يسلمون منه غالبا بل الطعام الذى يطبخ به تصيبه مرارة فلا يؤكل إلا بشدة الجوع.

نعم الذى عنده وسع فى ماله و قوة فى زاده يشترى الماء العذب إذ يأتون به من النيل فيباع فى الأسواق إذ أسواق الركب المصرى كثيرة لا يمكن عدها إذ فيها كل خير مما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين و ترغب فيه الناس إلا كان فيه سواء كان نازلا أو سائرا فإن من لم يصحبه زاد من طعام و شراب و عنده فلوس يشترى كل ما يحتاجه منه غير أنه يشتريه بزيادة الثمن و إنما الرخاء فيه بكثرة ما يباع فيه من المطاعم و الملابس و الفواكه و الخضر حتى يحكم الإنسان و يجزم أن مصر خرجت برمتها و ما فيها إذ تجد الطبائخ من أنواع الأطعمة و الأشربة و الأغذية أحسن مما يوجد فى الأمصار الكبار و مع ذلك هم سائرون فالمضطر الجائع يجلس عند الطباخ و يأكل عنده ما يحتاجه بثمنه فتجتمع نعمتان الاستراحة و الشبع بل عنده نعمة شاملة كأنه حاضر فى سفر و نزهة فى كدر و عبرة فى ضرر و رحمة فى سفر.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هو أن عجرودا هذا قد يوجد فيها بعض المياه العذبة فى نواحيه و كذا فى نواحى الدار الحمراء غير أنها ليست فى كل الأوقات و لا أنها تكفى الحاج و مع ذلك لا يعلمها الحاج و إنما يخبر بها بعض الأعراب.

و لذا قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر المذكور ما نصه قرب هذه الدار مررنا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷۸

على واد به ماء طيب بآبار قريبة القعر يحفر الإنسان بيده فينبع له الماء قريبا بحيث تتناول الدابة منه بفيها من غير كلفة و أخبرنى بعض من كثر ترداده فى هذه الطريق أن هذا الموضع يجدون به الماء و لو فى الصيف هذه الأزمنة و هذه السنة زاد الماء فيها كثيرا من كثرة الأمطار و نداوة الأرض إلى أن قال و هو عن يمين الذاهب لعجرود فسرنا و مررنا كذلك على واد به فيعان من ماء يسيل سيلا تاما من المطر بإزاء عجرود فقلت لأعرابى حجازى هذا الماء طيب فقال مجيبا نعم زى الشهد إلى أن قال و ماء عجرود يضرب به المثل فى القبح و اشتهر بذلك مع وجود ما يضاهيه كثيرا فى مياه الدرب إلا أنه لما كان أول ماء يرده الحاج قبل أن يألف مشاق الطريق مع اعتياد الناس قبل ذلك لمياه النيل و وجود فضلة منه لا يكادون يسيغون منه جرعة إلا و همت بطونهم بالرجعة.

و فى هذه المورد حصنان متقاربان مبنيان بأوثق بناء يترك الناس فيهما ما استثقلوه من الأزودة و الأمتعة إلى الرجوع و كثيرا ما تعطب المؤمن من الإبل فى هاتين المرحلتين بجد السير و ثقل الأحمال إذ لم يخفف منها شىء و الإبل قد ألفت الراحة بمصر و يغلب عليها السمن و كثير من الناس لا يشفقون عليها فيحملونها فوق طاقتها و لا يرخون عليها فى المشى لما يتوقعون من خوف اللصوص على من تأخر فكل واحد يريد أن يتقدم و قد لطف اللّه بنا عادة عودناها تعالى فى جميع الأحوال فنتأخر عن الركب و نكون فى أخرياته فنسير على مله بإبلنا و ينضم إلينا من ضعف من الناس أو تأخر لغرض فكان لنا فى ذلك و للناس خير كثير فلم نر ما رأى الناس من المشاق و موت الإبل و فى أحد الحصنين اللذين هناك بئر كبيرة تسنى دائما بالبقر و يخرج الماء من البندر إلى برك ثلاث خارجات اثنتان صغيرتان و الثالثة كبيرة و بهما عسكر لا يفارقهما أبدا و كذلك غيره من البنادر فى كل سنة يأتى قوم فيذهب الذين كانوا يه و لهم جراية من بيت المال على ذلك و لو لا لطف اللّه بالعباد بوجود هذه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۷۹

البنادر فى الطريق لما قدر أحد على سلوكها مع كثرة مخاوفها و قلة مرافقها و لكن اللّه سلم أنه عليم بذات الصدور و من هنا يعدل عن طريق الحاج ذات المصانع ذات اليمين للنابعة و المصانع سوارى مبنية فى سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق و كذا فى الرمل القريب منها فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدلوا بها على الطريق و جعلوا فى رؤوس الأبنية حجر مستطيلا خارجا لناحية الطريق ليستدل بها الماشى ليلا و ربما علقوا على بعض الأعلام مصابيح ليلا لبعد ما بينها و بين كل علم و علم نحو فرسخ أو أقل أو أكثر فى محالها و على هذا

الطريق يسلك الحاج المصرى و المغربى دائما إلا فى أوان الحر و خوف العطش فيعدلون إلى النابعة عن طريق المصانع و هى واد كبير ذو رمل به احساء كثيرة تزيد على المائة بل أينما حفرت مقدار قامة أو أقل وجدت ماء حلوا باردا فى غاية الحلاوة كأنه ماء النيل ربما يتوهم أنه أحسن منه شرقى مدينة سويس.

و هى مدينة صغيرة ذات أسواق و مساجد و وكالات مستطيلة على شاطئ البحر المالح الذى يأتى من الهند و هناك يقف بين جبال شامخات و بينه و بين البحر الرومى نحو مرحلتين قاله الشيخ أبو سالم فى رحلته.

قلت و ذكر المقريزى أن ما بينهما هو البرزخ الذى ذكره اللّه تعالى فى كتابه فى قوله تعالى: بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ و بهذه المدينة ترسى السفن التى تأتى من جدة و مكة و اليمن فيها السلع التى لا تحصى و البضائع التى لا تستقصى و من هناك تحمل إلى مصر فى البر.

قلت و هى بموضع مدينة القلزم التى ينسب إليها هذا البحر و بالقرب منها غرق فرعون قال المقريزى فى خططه و قد عرف بهذا البحر و ذكر فى تفاصيله و ان مبدأه من البحر الكبير المحيط بالأرض المسمى ببحر الظلمات لتكاثف البخار

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۸۰

المتصاعد منه و ضعف الشمس عن حله فيغلظ و تشتد الظلمة و يعظم موج هذا البحر و تكثر أهواله و لم يوقف من خبره سوى ما عرف من بعض سواحله و ما قرب من جزائره و فى جانب هذا البحر الغربى الذى يخرج منه البحر الرومى الجزائر الخالدات و هى فيما يقال ست جزائر يسكنها قوم متوحشون كما أن فى جانبه الشرقى مما يلى الصين ست جزائر أيضا تعرف بجزائر السيلى نزلها بعض العلويين فى أول الإسلام خوفا على أنفسهم من القتل و يخرج من هذا البحر المحيط ستة بحار أعظمها اثنان و هما اللذان ذكر اللّه تعالى فى كتابه فى قوله تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ و فى قوله تعالى: بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ فأحدهما من جهة الشرق و الآخر من جهة الغرب فالخارج من جهة الشرق يقال له البحر الصينى و البحر الهندى و البحر الفارسى و البحر اليمانى و البحر الحبشى بحسب ما يمر عليه من البلدان و أما الخارج من الغرب فيقال له البحر الرومى و أما البحر الهندى الخارج من جهة الشرق فيبدأ خروجه من مشرق الصين وراء خط الاستواء بثلاث عشرة درجة و يجرى إلى ناحية الغرب فيمر على بلاد الصين و بلاد الهند إلى مدينة كتبانة و إلى التبر من بلاد مكراف ينقسم هناك قسمين أحدهما يسمى بحر فارس و الآخر يسمى بحر اليمن فيخرج بحر اليمن من ركن ينزل خارجا من البحر يسمى هذا الركن رأس الجمجمة فيمتد من هناك إلى مدينة ظفار و ساحل بلاد حضر موت و إلى عدن فإذا انتهى إلى باب المندب يخرج بحر القلزم و المندب جبل طوله اثنا عشر ميلا وسعة فوهته قدر ما يرى الرجل من البر تجاهه فإذا فارق باب المندب مر بجهة الشمال بساحل زبيد فإذا وصل إلى القلزم انعطف من جهة الجنوب و مر إلى القصير

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۸۱

و من القصير إلى عيداب إلى بلد الزيلع و هو ساحل بلاد الحبشة و يتصل برا و طول هذا البحر ألف و خمسمائة ميل و عرضه من أربعمائة ميل إلى ما دونها و هو بحر كريه المنظر و الرائحة و أما البحر الرومى فقد تقدم أن مخرجه من جهة الغرب و هو يخرج فى الأقليم الرابع بين الأندلس و الغرب سائرا إلى القسطنطينية و إذا خرج هذا البحر مر شرقا فى بلاد البربر و شمال الغرب الأقصى إلى وسط بلاد المغرب على إفريقية و برقة و الإسكندرية و شمال التيه و أرض فلسطين و سواحل بلاد الشام ثم يعطف من هناك إلى العلايا و انطاكية إلى ظهر بلاد القسطنطينية حيث ينتهى إلى البحر المحيط الذى خرج منه و طول هذا البحر خمسة آلاف ميل و قيل ستة آلاف و عرضه من سبعمائة ميل إلى ثلاثمائة و فيه مائة و سبعون جزيرة عامرة.

و ذكر بعض أصحاب السير من الفلاسفة أن ما بين الإسكندرية و بين بلادها أى و بين القسطنطينية كان فى قديم الزمان أرضا تنبت الجميز و كانت مسكونة و كان أهلها قوما من اليونانية و كان لاسكندر خرق إليها البحر فغلب على تلك الأرض و كان فيها فيما يزعمون الطائر الذى يقال فه فقنّس و هو طائر حسن الصوت و إذا حان موته زاد حسنا فى صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن

أحدا يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع و انه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم و سرور فلا يهدأ من الصياح و زعموا أن بعضا من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت فقنس فى تلك الحال فخشى أن هجم عليه أن يقتله حسن صوته فسد أذنيه سدا محكما ثم قرب إليه فجعل يفسخ من أذنيه شيئا فشيئا حتى استكمل فسخ الأذنين فى ثلاثة أيام يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة و لا يسمعه فى أول مرة فيأتى عليه و زعموا أن ذلك الطائر هلك و لم يبق منه و لا من فراخه شىء هجم عليه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۸۲

ماء البحر و على رهطه بالليل فى الأوكار و لم تبق له باقية و يقال أن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فاعطاه قدحا فيه سم ليشربه و اعلمه بذلك فظهر منه مسرة و فرح فقال له ما هو هذا أيها الحكيم فقال له هل أعجز أن أكون مثل فقنس انتهى كلام المقريزى مع بعض حذف و لو الإطالة بما لم يكن لنا بصدده لاستطردنا ذكر البحور السبعة و مواقفيها و كيفية مجاريها فى أمكنتها و إنما تعرضنا لهذين لأن لهما تعلقا بطريق الحاج و مجاورتهما له ذهابا و إيابا و اللّه الغفور بفضله و طوله.

قال شيخنا أبو سالم.

تتميم قد ظفرت بمصر برسالة للشيخ البكرى و أظنه شيخنا محمد ابن الشيخ زين العابدين ذكر فيها منازل الحج و دياره ذهابا و إيابا و حقق قدر ما فى كل مرحلة من الساعات و الدرج و الدقائق و صعوبتها و سهولتها بنثر بليغ و عبارة رائقة و ذكر فى كل منزلة شعرا يتعلق بأحوالها فأردت أن اقتطف منها ما يكون فى أذن هذه الرحلة شنفا إذ كلامى بالنسبة إلى كلامه لا يعد معه صنفا و لما كانت المنازل التى ذكرها قد لا تتفق مع منازلنا و مراحله تزيد أو تنقص عن بعض مراحلنا لم أذكر فى كل مرحلة ما يناسبها من كلامه فأخرت ذلك إلى آخر مرحلتين أو ثلاث أو أزيد فاخترت لإدراج كلامه المراحل التى فيها البنادر لأنها فى الغالب متفقة فإذا جاء ذكر بندر من البنادر ذكرت من كلامه ما يتعلق بالمراحل التى قبله ليكون ذلك أسهل لمطالعته و أبقى لرونق كلامه من التقطيع و كثير التوزيع.

قال فلنذكر الآن من كلامه ما يتعلق بالمراحل التى قبل عجرود فأقول قال الشيخ البكرى رضى اللّه عنه فأول المنازل البركة المباركة، التى توحدت فى مشارق أنوارها و مشارع شوارع أقطارها عن المشاركة، و قصرت عن أوصافها ذوو اللّسن، و جمعت بين الماء و الخضرة و قدوم الوجه الحسن، فهى مخضرة الأكناف، بديعة

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۸۳

الأوصاف، قد مدحت أطيارها، و نفحت بالنسائم أزهارها، و بها الخيام منصوبة و مرفوعة، و الخيرات لا مقطوعة و لا ممنوعة، مع وقوف أشائرها على الأقدام، يستدل بضوئها فى الليل من له على القدوم إقدام، كأنها فى جنح الليل نجم الثريا إذا اقترنت بالنثرة، أو الأكليل إذا قارن الزهرة، و بها سوق يساق إليه بدائع البضائع، التى يحتاج إليها المسافر فى أكثر الوقائع، ما قصد نحوه قاصد، إلا و عاد منه موصولا بالصلة و العائد، و كان هذا النعيم المقيم مسامرنا و مسائرنا فى الذهاب و الإياب، إلى أن رجعنا إلى بركة الحاج ثانيا و لاقينا الأحباب، قال الشاعر:

فى بركة الحج ترىنخلا زها لكن عجب

زبر جدا يحكى و ماثماره إلا ذهب

فيها نسيم رائقبلطفه يشفى الوصف

و الطير فوق مائهايشدو بأنواع الطرب

فيا لها من بركةتبلغ القلب الأرب

عوذتها من طارقو غاسق إذا وقب

و بعد ما كملت الركائب، و اجتمع بعد التفريق نجائد النجائب، و انقضى مقام المقيل، و نودى فى ذلك المكان الرحب بالرحيل، و

حمل المحمل الشريف، و فارق المربع و الظل الوريف، و سار الركب سير السيل، و تسابقت العيس لجهات الخير كأنها الخيل، حتى وصل إلى قرب البويب المعروف بالتصغير، و فى الحقيقة هو باب الدرب و مفتاح المسير، فاجتمع شمل الركب فى ذلك المكان، و رجع المودع فى خبر كان، فاستراح الناس و البهائم، و استيقظ بسهر الليل كل نائم، ثم أطعمت الجمال العلائق، و قطع الحجاج من تلك المحطة العلائق، و مدة المسير فى تلك المرحلة، ثلاث ساعات مكملة، ثم نادى منادى الرحيل، فسار الركب إلى أن أصبح مقاربا للبئر الطويل، و هو المكان المعروف بالمصانع، و مطلب راحة الناس فى الإقامة لو لا

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۸۴

الموانع، و به تقطير الجمال و ضبطها فى سير الركوب، و احتياج الماشى من تعبه إلى الراحلة و الركوب، فيا له من يوم تقطر فيه الدموع، و يطول فيه الوقوف و الوقوع، و تشرب فيه الفقراء كاسات الردى، لشدة ما يحصل لها من جور الجنود و اعتداء الاعتدا، فما من فقير إلا و يحتاج إلى غنى يسعفه، و إلى عادل من ظلامته ينصفه، قال الشاعر:

قد أتينا إلى محل المصانعفاصنع الخير فيه إن كنت صانع

و انفع الناس فى كثير جميلعلى تلقى خيرا كثيرا و نافع

و اعلم أن عدة درج المسير، إلى هذه المنزلة ست ساعات على التحرير، ثم قام دليل الركب للمسير، و أمر الناس من تقطيع أزمة الجمال بالتقطير، فسرنا طول ليلنا إلى الأسفار، و استرحنا بالوصول إلى عجرود عن مشقة الأسفار، فوصلنا إلى بندر عجرود، و ماؤه ملح أجاج غير مورود، فأتانا أهال بندر السويس، و عطفوا علينا انعطاف الأغصان فى الميل و الميس، و أهدوا إلينا الأخطاب للمشاعل، و الأغنام للمآكل، و عدة درجة هذه المرحلة المبهجة، سبع و ثمانون درجة، انتهى كلام الشيخ البكرى.

فلنرجع إلى ذكر مراحلنا، و حيث انتهى سيرنا، فأقول لما قضى الناس من هذا البندر الأوطار، و عانقوا أعناق التسيار، و جدوا السبخة لكثرة ما توالى عليها من الأمطار، بركة واحدة من جميع أرجائها و الأقطار، فنكبوها و عدلوا ذات اليسار، و نزلنا بعد ما توغلنا فى الرمل مغيربان، فى أفيح بسيط و أوسع مكان، ثم ارتحلنا من ذلك الموضع يوم السبت و بلغنا وادى الرمل قبل الظهر و وجدنا به غدرانا من الماء غدرها السيل، لما جر عليها الذيل، و للناس إليه أى ميل، و أدركنا الركب التونسى هنالك، و كان قد خرج من مصر قبلنا لما تأخرنا للتوارك، كما ذكرنا و سرنا حتى

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۸۵

خلفناه وراء ظهرنا، فأرحنا ركبنا، و نزلنا لصلاة الظهر، و إراحة الظهر، و لما بلغنا ركبنا و كنا فى أخرياته و زالت الشمس، و لم يبق فى زوالها لبس، إذنا لها، ثم أقمناها، فصليناها جماعة، و كان ذلك لأهلها أربح بضاعة، فتمطينا مطايا المسير، و شمرنا لقطع المراحل أبلغ تشمير، حتى أنخنا بغربى وادى السدرة و الخروبة، و السرقة فى تلك الليلة من كل ناحية من الركب أعجوبة، و لكن اللّه تعالى سلم وفده، فرد على السارق فى نحره كيده، فأخذوا بغلة لسيدى أحمد بن أطاع اللّه و ضايقوهم عليها ففروا عنها و أخذها صاحبها و سمى الوادى بشجرة كبيرة من الخروب و من السدر فى أصل الوادى ثم ارتحلنا من هناك يوم الأحد رابع ذى القعدة الخامس و العشرين من دجنبر الرابع عشر من الليالى و سرنا مع الوادى برهة و مررنا بالعقبة المشرفة على التيه وقت الضحى و نزلنا بعد أنا جاوزناها فى أوائل التيه فى انتظار الركب و تناول الأغذية و هى عقبة فيها بعض صعوبة إلا- أنها سويت حتى صارت طريقا بينا و منها ينزل إلى أرض التيه و هى أرض مقفرة موحشة طويلة عريضة معطشة قد امتدت فيها الطرق امتداد السطور فى الطروس، لم يلحقها على قدم العهد الدروس، و هذا المحل من المحال التى تعظم فيها المشقة أيام الحر و قد تتلف فيه أنفس كثيرة بالعطش.

قال أبو سالم و قد وقع لنا مثل ذلك فى سنة تسع و خمسين ارتحل الناس من عجرود ظهرا و لم يمروا على النابعة فبتنا ليلتين بلا ماء إلا ماء عجرود الذى لا يتجرعه الضمآن و لا يكاد يسيغه فلم نصل إلى أرض التيه حتى اشتد الحر و قل الماء فى اليوم الثالث و مات بعض الإبل و جعل الناس يعصرون ما فى بطون الإبل من الفرث و يشربونه و فى ذلك قلت:

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۸۶ و لم أنس بالتيه يوما به‌تفانى الحجيج صدى و ولوها

و ان يستغيثوا يغاثوا بماء مءعجرود كالمهل يشوى الوجوها

قلت و كذا يشتد أمره فى زمان الشتاء لأن أرضه عراء لا حطب فيها و قد تتلف به النفوس من البرد و أما عامنا هذا فسلكناه فى أطيب هواء و لا حر و لا قر و لا مخافة و لا سآمة و وجدنا به اصفرار غدران من الماء فى أخاديد ما كفى اللّه به شر العطش و أوامه فتوسطنا التيه فنزلنا بعيد المغرب.

و التيه كما فى خطط المقريزى أرض بالقرب من آيلة لا يكاد الراكب يصعد إليها لصعوبتها إلا أنها مهدت فى زمان جاروبة بن أحمد بن طولون و هو مقدار أربعين فرسخا فى مثلها و يسير الراكب مرحلتين فى فحص التيه حتى يصل بحر فاران و فيه غرق فرعون و فيه تاه بنو إسرائيل أربعين سنة لم يدخلوا مدينة و لا أووا إلى بيت و لا بدلوا ثوبا و فيه مات موسى على نبينا و عليه الصلاة و السلام و يقال أن طول التيه نحو من ستة أيام و اتفقوا أن الممالك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين فى سنة اثنتين و خمسين و ستمائة و طائفة منه بالتيه فتاهوا فيه خمسة أيام ثم تراءى لهم فى اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه فإذا مدينة عظيمة لها سور و أبواب كلها من رخام أخضر فدخلوها و طافوا بها فإذا هى قد غلب عليها الرمل حتى طمر أسواقها و دورها و وجدوا بها أوانى و ملابس و كانوا إذا تناولوا منها شيئا تناثر من طول البلى و وجدوا فى صينية بعض البزازين تسعة دنانير ذهبا علها صورة غزال و كتابة عبرانية و حفروا موضعها فإذا حجر على صهريج ماء فشربوا منه ماء ابرد من الثلج ثم خرجوا و مشوا ليلة فإذا طائفة من العربان حملوهم إلى مدينة الكرك فدفعوا الدنانير إلى بعض الصيارفة فإذا عليها أنها ضربت أيام موسى على نبينا و عليه الصلاة و السلام و دفع لهم فى كل دينار مائة درهم و قيل لهم أن هذه المدينة الخضراء من مدن

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۸۷

بنى إسرائيل و لها طرفان رمل يزيد تارة و ينقص تارة أخرى لا يراها إلا تائه و اللّه تعالى اعلم ثم ظعنا منه يوم الاثنين و غلسنا الرحلة و انفرد عن الركب مسائره بإزائه رجل من أهل توات مع ولده و عبده بعد ما حلموا على جملهم و لقوا جماعة من المتلصصة فأخذوا الجمل و ما عليه و هو كل ما يملك و ذلك مقدار ثمانمائة مثقال تبرا بعد ما شجوه فخر صريعا نسأل اللّه السلامة و العافية التامة فاللّه يخلف له من فضله الفياض أنه الكريم الوهاب و أتينا بنرد النخيل قرب الزوال و وجدنا الركب التونسى نازلا و استقرت بهم الدار و حططنا الرحال و تسابق الناس لسقى الجمال و البغال و صادفنا فيه بقية من السوق به بعض الفواكه الشامة أتى بها أهل غزة مثل الزبيب الفاخر الحلو و نحو ذلك و ذلك عادتهم أبدا يتعرضون للركب هنا ذهابا و إيابا بالكثير من أنواع الفاكهة الشامية.

و هنالك بندر حصين فيه بئر ماء عذبة كثيرة لا- تنزح أبدا يسقى منها بالبقر إلى برك خارج الحصن و هى ثلاث بركات مثل ما بعجرود إلا أن هذه أكبر و قد وجدنا الماء فيه فاضلا عن الكرب المصرى و أخذ الناس منه حاجتهم و هو من المواضع التى يصعب فيها الماء إذ ليس فيه إلا بئر واحدة فإذا شرب المصرى ما فى البرك وقعت الزحمة على البئر فلا يصل الناس إلى الرى إلا بعد تعب شديد و مشقة فادحة و اتفقت الأركاب المغربية على الذهاب و عدم البيات به فلما قضوا منه الغرض، و وفوا الحق المتفرض، سرنا و نزلنا بعيد المغرب و قل فى ركبنا الفلاحون فضبط أمر الركب بعض ضبط.

قال الإمام أبو سالم و قد كانوا فى غالب السنين يكثرون عليهم فى الركب المغربى فرارا من جور عساكر المصرى فيكثر ضجيجهم و خصوماته فلا يكاد ينضبط للركب المغربى أمر من كثرتهم فيه فيرحلون فى غير أبان الرحيل و يتبع الأخر الأول

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۸۸

من غير تأن لا سيما فى محل الضيق و الخوف و لا يبالون بما أتلفوا من أنفسهم و أموالهم خشية التأخر و المزاحمة على القرب من أول الركب لغلبة الجبن و الخوف عليهم إذ لا يعرفون فى بلادهم قتالا و لا مدافعة عن الأنفس و الأموال لكونهم رعايا أن شتموا مروا، و أن ضربوا فروا، و كلما نقص اللّه من جهدهم و جرأتهم، و بطش أيديهم زيد فى ألسنتهم، حيث لا يخافون فيبالغون فى الشتم و

السب حتى لا يكـد سامعهم يملك نفسه فإذا رأوا من هم بضـرب خضـعوا و قالوا عافيـة يا مغربى عافيـة و يقولون المغاربـة مجانين لا يعرفون إلا الضـرب و كان الضـرب عندهم أبعد بعيد يصدر من شـخص عاقل و لعمرى انه لكذلك فى حق كل مسـلم لمسـلم و لكن الغريزة الغضبيـة لاـ سـيما ممن لم تـذللّه الأحكـام، و لم تكسـر من سورته شـدة الأيـام، لا يملكها إلا الأقوياء و هى لا تنتهى دون أبلغ عقوبة تمكنها نسأل اللّه تعالى أن يكفينا شرها، و يسخر لنا أمرها، أنه سميع مجيب انتهى.

قـال البكرى فى رحلته من عجرود إلى النخيـل ثم سـرنا إلى النـواظير و رأس وادى المنصـرف، و هـو واد بكـثرة الرمـال و الكثبـان قد عرف، ليس به ماء و مرعى، و إنما عيون الناس بمضيق أرجائه ترعى، قال الشاعر:

نزل الركب بوادى المنصرفو على لقياه كم مال صرف

نحمد اللّه الذى جئنا لهو جميع الهم عنا منصرف

ثم سـرنا إلى وادى القبـاب، و هـو واد فسـيح الرحـاب، تهيم به قلـوب الأحبـاب، و يتـذكر به عهـد زينب و الربـاب، لاـ سـيما اجتمـاع الأصحاب، فى مواطن البعد و الاغتراب، قال الشاعر:

شافنا وادى القباب المرتضىفى اسمه و هو فسيح فى الربى

فوصلناه و قد قلنا عسىبعده نأتى إلى وادى قبا

و ميقات المسـير إليه عشر ساعات على التمام، و بعد إقامتنا به إلى وسط النهار تهيأنا للقيام، ثم نادى المنادى بالرحيل، فسرنا إلى وادى تيه بنى إسرائيل، و هو واد واسع الفضا، يعتبر فيه بأحوال من مضى، ليس فيه ماء ترده الأنام، و لا ظل سوى ظل بنى إسرائيل من الغمام، قال الشاعر:

لا تسلكنّ بوادى التيه منفردابلا دليل ترى وقع الردى فيه

فما سمعت كلاما من أخى ثقةفى الناس إلا و قال أحذر من التيه

و مدة المسـير إليه عشر ساعات، حررها أهل الميقات، ثم سرنا إلى قلعة تحل الحصينة المحمية، و تعجبنا من كثرة الفواكه الشامية، من سفرجل و رمان، و عنب على اختلاف ألوان، و الخيرات الكثيرة، و ما يحتاج إليه من الـذخيرة، و الفساقى المملؤة بالماء البارد، المعدة للغادى و الوارد، قال الشاعر:

إلى نخل الحصينة سر حميداترى فيه المنى و الخير باقى

و لا تشك الظمأ لفقد ماءفساقيها مقيم بالفساقى

و مدة المسير إليه ست ساعات محررة، و خمس من الدرج مقدرة، انتهى كلامه رضى اللّه عنه.

رجوع و انعطاف إلى التعداد لمراحلنا و الائتلاف ثم فوضنا الأخبية، و حلمنا الامنية، من منزلنا الذى جاوزنا النخيل إليها فى صر شديد، و برد متزايد جديد، تخال الأيدى منه رميت بالشلل، و الأرجل نظمت بالسلا و الاسل، قال الشاعر:

رحلنا العيس نمشى فى هواءله برد على الغادى يشقّ

فما فى الركب إلا من تراءله حنك بسورته يدقّ

و لم يزل الهواء كذلك إذا سد منه منخر جاش منخر، و عم ببرده المفرط المتقدم

و المتـأخر، و سـرنا و لم يزل الـبرد سـاحب أذيـاله، إلى أن حـان وقت العصـر فاشـرف جرحه على انـدماله، فصـلينا صـلاة العصـر بـبئر الصـعاليك و تسمى ببئر البارود و هى بئر كبيرة طويلة مطوية بحجر و بناء متقن فى أصل واد و بجانب البئر أثر بناء و بركتين إلا أنه لا عمارة عليه و ماؤها باردا إلا أنه قبيح لا يكاد الشارب يسيغه فتقدمنا و نزلنا بعد المغرب ثم ارتحلنا منه بعد صبح يوم الأربعاء سابع ذى

القعدة الثامن و العشرين من دجنبر سابع عشر الليالى فى اشتداد القر، و تزايد الصر، و لما تعالى النهار تراءت للركب خيل و إبل للمحاربين فأخذ الناس حذرهم، و كفى اللّه شرهم، ثم تبين بعد ذلك أنهم سلم للحاج لا حرب لهم و إنما أغاروا على بعض أعدائهم و أكلوا و التقوا مع الحاج و بتنا بسطح العقبة.

انعطاف و رجوع إلى ما عليه ركبنا و إنما نقلت كلام شيخنا سيدى أحمد بن ناصر و ما رأى فى هذه المراحل و ما رآه فيها من العجائب و الاعتبار حتى يعلم الإنسان أنه لا يسلك تلك الطريق أحد إلا بفضل اللّه و قوته و السلامة فيها من المعاطب من أكرم الكرامات لا سيما زمان الحر و زماننا هذا لزيادة ظلم الظالمين، و عتو المجرمين، و مكر الجمالين، و سرقة الحجاج و صولة تحيلهم إلا من أجاره اللّه برحمته و قد وصلنا بندر عجرود بعد صلاة العصر فى يوم حر شديد و عجرود هذا كثر ماؤه غير أنه لا يمكن شربه من قوة قبحه و تغير مائه و بتنا هناك و نزل رحلنا فى حرف الركب و بعد جواز ثلث الليل و إذا بالسراق أتوا إلينا أى إلى ناحيتنا فرفعوا جملا للحاج عبد اللّه الشباخى و قد كان جمال شيالنا و كذا عندى جملان أمرت عند النوم بزوالهما من ذلك الموضع إلى موضع آخر فأتوا إليهما فوجدوا المكان فارغا و وجدوا هذا الجمل هناك و لم يكسب صاحبه إلا هو فذهبوا به نعم بنفس رفعه استيقظ جيراننا و ممن

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۹۱

استيقظ ابن عمنا خالى عبد العزيز الشريف فذهب فى أثارهم و كذا أنا تبعته و قد جاء بعض الناس فى أثرنا و ذهبنا فى ظلمة الليل فى ذلك الوادى حتى لا نسمع صوت الركب و لا عرفنا أثرهم فلم يرجع أحد منا حتى أيسنا من لحوقهم فرجعنا خائبين.

فلما أصبح اللّه بخير الصباح ظعنا منه و سلكنا طريق اليمين إلى النابعة لكثرة مائها و عذوبته و قلته فى الطريق الميسرة و لما انفصلنا عن دارنا سبقنا أنا و الفاضل أخونا فى اللّه سيدى أحمد الطيب فى غيم شديد و رياح شديدة حيث لا يمكن الركوب معها فلحقنا الفاضل الكامل الأخ الشقيق و الودود الصديق سيدى محمد الشريف البلغيثى النوفلى و الفقيه الأديب سيدى محمد بن عزوز و سيدى الحاج أحمد المسراتى الجميع على البغال و الحالة أن الركب تأخر عنها كثيرا بحيث لا نرى له أثرا فنزلنا على البغال فى موضع منخفض على الريح نرتقب الركب فصلى من صلى منا الضحى و اطمأن بنا المجلس إلى أن لحق الركب و نحن كذلك حتى دخل السبحة فركبنا و لحقناه ثم سرنا كذلك إلى قرب الزوال فنزلنا النابعة فى رمل عظيم بين آبارها المحفورة إلا أنها مملوءة بالرمل إلا البعض منها غير أن التى عذب ماؤها عذبا شديدا لم ينزل عليها الركب لأن ماءها يكاد أن يكون كالنيل.

و بالجملة فماؤها عذب و أن اختلفت عذوبته فاشتغل الجميع بالسقى إلى أن ملئوا أسقيتهم فسقوا و استقوا مع كثرة الهرج من الحجاج لقلة الحكم من الأمراء إذ لا يقدرون عليهم لكثرتهم و كثرة تعصبهم غير أن فضل اللّه عليهم لما لم يكن فيهم قتال و موت ذريع حسبنا اللّه منهم و نعم الوكيل.

و ظعنا منه حين تنفس الصبح فانفصل ركبنا بخير و عافية فسار فى تلك الرمال و هى كالجبال ترى كثيبا منه تقول لا يخرج منه أحد على خير فإذا دخلتها خرجت منه على أحسن حال و نحن كذلك إلى أن وصلنا إلى دار بعدها فنزلنا بعد العشاء و منهم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۹۲

من نزلها بعد المغرب و نحن و الحمد للّه فى جماعة لا نسير إلا آخر الركب صونا للضعفاء و من بقى رحله و قد بقى رحل ولد الشيخ الناصح و القطب الواضح سيدى محمد بن عبد اللّه بن أبى جملين المسيلى الغوث فرفعناه على بغالنا إلى أن لقينا صاحبه سيدى أحمد فرفعه و بعد ذلك و الحمد للّه سرنا ساعات فدخلنا التيه الذى تاه فيه بنو إسرائيل و قد سبق ما فيه من الكلام ما أوحشه من موضع و أصعبه من محل لكثرة حره و شدة أمره مع انعدام الماء فيه و قد كثر فيه الهلاك من العطش زمان الحر فلا تجد من يسخى بالماء إلا من قوى يقينه و غلب عليه الرقة و الشفقة و الرحمة و الخوف من اللّه تعالى ترى القوم فيه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية من ثوران الحر فى ذلك الموضع إلا أن رحمة اللّه واسعة و رأفته قوية و نعمته بالحجيج شاملة خصوصا أهل المعرفة باللّه

تعالى فلا تراهم فيه و فى غيره مما هو نظيره فى الصعبة إلا كالعرائس تتلألأ وجوههم نورا و تنبسط أثار محبة اللّه فى طلعة خدهم علما منهم أن غاية أمرهم غيهم عن اليم ما هم فيه و هو بيت اللّه و حرمه و كذا حضرة اللّه و حضرة رسوله صلى اللّه عليه و سلم و حرمه أيضا فلما شهدوا مطلوبهم غيبهم ذلك عما لا قوه من العذاب و بعد تلك المرحلة وصلنا بندر النخيل فنزلنا عند الضحى الأعلى و اللّه اعلم فى فرح و سرور لما سلمنا من أرض التيه.

و قد مات لنا واحد من أصحابنا و هو رجل من العامة رجل صالح مديم للصوم كثير الصمت قليل الاضطراب فلا ترى عليه إلا آثار الخير دائما و هو الحاج محمد بن مدشر اسمامة من قرى بنى و رثيلان و بندر النخيل بندر عظيم فيه عسكر كما فى عجرود و فيه أسواق فكل ما تريده موجود لأنه يأتى من ناحية الشام أناس بذلك أى من بيت المقدس و قربها محل فيه أبسط الخيرات و أنواعه الملذوذات لا سيما الفواكه فى زمانها فلا ترها فى غير ذل المحل و الشكر للّه تعالى و هذا البندر رحمة للحجاج فوضعوا فيه أمتعتهم تخفيفا و رحمة بالإبل إلى أن يرجعوا و كذا اشترى من

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۹۳

خصه الإبل أو بدله فلما أصبح اللّه بخير الصباح ظعنا منه عند الضحى فلما انفصلنا تأخر بعض من أحبابنا و هو الحاج بلقاسم الحربيلى ثم اليعلاوى يشترى جملا من بعض العرب فتأخرنا مع فاشتراه فلما أقبض الدراهم لصاحبه هرب الجمل فتبعته على بغلتى حتى آيست من لحوقه و خفت اللصوص من الحراميين و رجع سيدى أحمد المسراتى على فرسه و لحقه ثم وقع الصياح فى آخر الركب أن فلانا و أصحابه قد أخذه اللصوص فرجع البعض إلينا بأسلحتهم فلم نر إلا خيرا و الحمد للّه حتى لحقنا بالركب و صاروا يحمدون السلامة لنا لما علمت من كثرة عطب الطريق و كثرة محاربيه و لصوصه فلا ترى أحدا تأخر إلا أخذ و سلب أو هلك فالحمد للّه علينا نتأخر نحن معاشر الإخوان عن الركب كثيرا و اللصوص فى آثارنا فلا نرى منهم ما يكره فلم يسلب أحد إلى أن وصلنا إلى مكة المشرفة ثم كذلك نسير و الحمد للّه حتى قربنا بئر الصعاليك فبتنا من الحجاج من سقى من البئر المذكورة و هى عميقة جدا و ماؤها بارد فكاد أن يكون كالثلج إلا أنه قبيح لا يكاد يساغ من مرارته و فى أثاره بناء قديم و لما ظعنا سرنا بعد فى أودية و شعب صعبة فى يوم قوى ريحه و اشتد أمره فلا تنفع فيه استراحة و لا نزول و نحن كذلك سائرون إلى قرب سطح العقبة فنزلنا و بتنا فى خير و عافية و مات بعض من أهل وطننا فدفناه ليلا.

و لما صبح اللّه بخير الصباح ذهبنا إلى أن بلغنا سطح العقبة فانتظر الحجاج بعضهم بعضا يسيرون على قدم واحد فاستعدوا بأسلحتهم و افترقوا فرقا فمنهم من سبق و منهم من تأخر و منهم من توسط خوفا من متلصصى العرب لكونهم فى الغالب لا يتركون الشر فى ذلك الموضع فنحن معاشر ركبنا لم نر منهم أحدا و الحمد للّه غير أن كل من كان من أهل الركب إلا نزل و لو كان من أهل المخدرات فيسيرون على أرجلهن و لو نساء الملوك فرأينا نساء السلاطين ذاهبات على أرجلهن و أنا و الحمد للّه عيالى ما نزلوا أبدا نعم جعل اللّه البركة فى الجمل الذى حمل اثنتين من

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۹۴

النساء فى المهيا و هو يسير كأنه ليس فى ذلك المحل الصعب و المنة للّه فتعجب كل من رأى ذلك و ذلك كله من فضل اللّه تعالى علينا فلما انفصلنا و انحدرنا من العقبة إلى ساحل البحر اشتغل الناس بالغداء فلما فرغوا منه اخرجوا أسلحتهم و أمامهم من البارود و اجتمعوا على قدم واحدة و قدموا أمامهم سلطان فزان بالبارود و اللعب بالخيل و كذا الناس على الأرجل إرهابا لعرب العقبة إذ العام الذى قبل عامنا أخذوا ركب المغربى لقلته و قلة سلاحه و بينما نحن كذلك و إذا عسكر من الركب المصرى خرج و لقينا برعود من البارود و الخيل تعلب و الناس كذلك إلى أن وصلنا إلى البندر فتعجب كل من كان فى ذلك من أهل ذلك الوطن من العرب و من تسوق من غيره حتى بلغ ذلك أقصى عرب الحجاز فلا تجد سارقا يدور بنا و لا قاطع طريق ليلا و نهارا خوفا من الركب المغربى لكثرته و كثرة سلاحه لا سيما الركب الجزائرى نعم الركب المصرى يخاف منا و مع ذلك هو فى قوة عظيمة أمد مروره ثمانى ساعات

كما رسمه من اعتنى بذلك بالدرج فكل عام أمير الحاج من مصر يربط من الركب المغربى و يفعل فيه ما شاء إن شاء قدمه و إن شاء أخره و إن شاء زاد فى الكراء زاد و غير ذلك من ظلم الغزّ أما عامنا و ركبنا هذا فليس عليه حكم و لا له عبرة على أن ركبنا تعصبوا و قالوا إن أبى إلا أن يحكم علينا منعناه و ضربناه و فتناه فلما رأوا منهم ذلك فروا عن الحكم عليه فلا نقول إلا سلم سلم كما سمعت منه ذلك و مع ذلك أنه رجل حليم لا يرضى بالفساد و لا الظلم الكثير و الحمد للّه على ذلك.

قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه ثم ظعنا بكرة يوم الخميس ثامن ذى القعدة التاسع و العشرين من دجنبر و ثامن عشر الليالى و ما تعالى النهار، و تفتحت للشمس عيون الأزهار، حتى رأينا عقبة ايلة و خبرها قد روع القلوب،

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۹۵

و نوع المهابة لأمرها فما من الركب إلا من هو من لباس الصبر مسلوب، فحصل هناك من الزحمة، ما تقطعت به القلوب رحمة، و تصادمت المحاف و تكسرت، و برزت أنياب النوق و تكشرت، فما كان بأسرع من خمود أمرها، و ركود حرها و جمرها، و هى عقبة كؤد، صعبة الهبوط و الصعود، إلا أن الطريق بها منحوتة، قد سويت فى أكثر الأماكن الصعبة، و بنيت حافاتها ببناء متقن.

و لما كان المحل معروفا بلصوص الأعراب و حرابتهم، تهيأ الناس و أخذوا حذرهم و أبرزوا أسلحتهم، و عبوا تعبيتهم، خوفا من أعدائهم فإن الغالب لا بد أن يتعرضوا للركب فى هذا الموضع لصعوبته و تقدمت طائفة من الحجاج بمدافعهم أمام الركب و تأخرت طائفة و كفى اللّه المؤمنين القتال و كان اللّه قويا عزيزا فلم نر بها سارقا و لا غائرا، و لا عاتيا و لا غادرا، فانفرجت هذه الشدة، و كفى اللّه منها مدية المدة، فما زهقت روح، و لا أثيرت جروح، و خلص الناس من تلك الضغطة، و خرجوا من ضيق القبض و جلسوا على بسطة البسطة، و نزل الناس منها سالمين، و قيل الحمد للّه رب العالمين، قال الشاعر:

كم قد فككنا رقبةلا اقتحمنا العقبة

و كم لنا من أمنيةفى حجنا مرتقبة

و بعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوى فى شعاب كأنها أزقة يكثر فيها المخاوف و المتآلف فيرى البحر من بعيد فيظن أنه قريب و وصلنا البندر ظهرا و لم يبلغ الحاج إلى قرب العصر و وجدنا المصرى به مخيما و أرسل إلينا أمير الحاج إمامه، و أبلغنا سلامه، و اسمه إبراهيم أبو شنب و أقمنا بها الخميس و الجمعة و فيها حصن حصين فى قرية على شاطئ البحر فى سفح الجبل و بها آبار كثيرة و فيها نخيل و سوق كبير يحضره أهل غزة و تأتيه العرب بالإبل و الغنم و السمن و العسل و العلف

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۳۹۶

للدواب و وجدنا الفول فيها رخيصا أرخص ممن اكترى عليه من مصر و بتنا بها و بات المصرى هناك و أوقد بالليل نيرانا كثيرة و ضرب المدافع و رمى المحارق فى الهواء و لها منظر عجيب، و أسلوب غريب، كأنها شهب النجوم يرمى بها من الأرض إلى السماء فتراها فى الجو طالعة حتى ترى من أعالى هام شوامخ الجبال دونها ثم تنعطف راجعة كأنها ثعبان أحمر ثم يسمع لها صوت و تخرج منها شرارات من النار فإذا انقطعت تلك أتبعها بأخرى و خروجهن فيما نرى من نار زرقاء كأنها نار الكبريت تشتعل اشتعالا قويا فتطلع منها تلك الشهب و لا نعلم صنعة ذلك و هى من الغرائب و الرمى بها و بالمدافع عادة المصرى فى كل منزل أقام فيه إذا أراد الرحيل قاله الإمام أبو سالم.

ثم ارتحل فى الغد و أقمنا بعده و لم نر فى مبيتنا و لا إقامتنا ما يسؤنا من سارق و لا غيره.

قال شيخنا أبو سالم و قد سألنا هناك و بحثنا عن القرية التى كانت حاضرة البحر هل بقى من رسومها شىء فقد ذكر المفسرون أنها ايلة فلم نجدد من يشفى لنا خبرها.

و قد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادى أثر بناء كثير يشبه أن يكون مدينة و لعلها هى و قد أخبرنا كثير من متسوقة الأعراب الذين هناك أن وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل و ماء إلا أنها خالية و يمكن أن تكون هى فإنها قريبة من البحر و العلم

عند اللّه تبارك و تعالى.

قلت و فى الخطط للمقريزى أن ايلة مدينة فى شاطئ البحر المالح سميت بأيلة ابنة مدين بن إبراهيم عليه السلام و قد كانت مدينة جليلة القدر بها التجارة الكبيرة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۹۷

و أهلها أخلاط من الناس و كانت حد مملكة الروم فى الزمان الفائت و على ميل منها باب معقود لقيصر قد كان مسلحته يأخذون المكس و بين ايلة و بين القدس ست مراحل و الطور الذى كلم اللّه تعالى عليه موسى عليه الصلاة و السلام على يوم و ليلة من ايلة و كانت فى الإسلام منزل بنى أمية و أكثرهم موالى عثمان بن عفان رضى اللّه عنه كانوا سقاة الحجاج و كان بها علم كثير و أدب و متاجر و أسواق عامرة و كانت كثيرة النخل و الزرع.

قال و كانت بايلة مساجد عديدة و بها كثير من اليهود يزعمون أن عندهم بردا للنبى صلى اللّه عليه و سلم و انه بعثه إليهم أمانا و كانوا يخرجونه رداء عدنيا ملفوفا فى الثياب قد أبرزوا منه قدر شبر فقط.

و يقال أن ايلة هى القرية التى ذكرها اللّه فى كتابه العزيز حيث قال: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ و اختلف فى تمييزها فقال ابن عباس و عكرمة و السدى رضى اللّه عنهم هى ايلة و عن ابن عباس أيضا أنها مدينة بين ايلة و الطور و عن الزهرى أنها طبرية و قال قتادة و زيد ابن أسلم هى ساحل من سواحل الشام بين مدين و عينونى.

و سئل الحسن بن الفضيل هل تجد فى كتاب اللّه الحلال لا يأتيك إلا قوتا و الحرام يأتيك جزافا قال نعم فى قصة ايلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا و يوم لا يسبتون لا تأتيهم انتهى المراد منه مع بعض حذف و لما التقينا بالمصرى بالعقبة أخبرونا عن حالهم مع البرد و انه قتل منهم واحدا أو أثنين ليلة العقبة و قرب عجرود ما ينيف على خمسين نفسا و ذكروا أن الإنسان يكون فى حمل الخشب فيوجد ميتا بالبرد و على الدابة كذلك.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۹۸

و حدثنا بعض حجاج القدس التقوا مع المصرى فى سطح العقبة أنه لاقوا من البرد و الثلج و المطر ما يقضى منه العجب مكثوا يومين و ليلتين ما أوقدوا نارا و لا قدروا عليها و لا أكلوا من كثرة المطر و أخبرنى واحد منهم أنه عليه عدة لباس من الأقبية و القمص و جوخة فوق ذلك و بات من أول الليل إلى آخره واقفا و رجلاه داخلتان فى الطين إلى ركبتيه و المطر يصب عليه حتى أفضى إلى لحمه و عاينوا من ذلك الموت الأحمر و نحن و الحمد للّه سلمنا اللّه من ذلك كله.

تتمة فى ذكر كلام البكرى من النخيل إلى العقبة قال ثم سرنا من النخيل إلى وادى القريض المشهور، و هو واد ينبت به الشوك عوضا عن الزهور، فكم آذى بشوكه أقدام، و عطل من له على المشىء إقدام، و لا سيما الفيحاء لاتساع أرضه، و زيادة فضائه فى طوله و عرضه، قال الشاعر:

فى وادى القريض كم سائرمن غير نعل ثابت الكعب

قد صار كالأعجام من شوكه‌يرقص من رقص على الكعب

و سيرنا اثنتا عشرة ساعة كاملة، محررة من الميقات متواصلة، ثم سار الركب إلى بئر العلاء فى التجريد، و هى محطة ببئرها معطلة و ليس بها قصر مشيد، و بقر بها حدرة منحدرة ، و أشجار أتل منتشرة، و بجانبها فسقيتان ليس بهما منفعة، فما ورد عليها حيوان ظمآن إلا و قام عند رؤيتها بالأربعة، قال الشاعر:

إلى بئر العلاء قد أتيناو فزنا بالنجاح و بالهناء

شكرنا للدليل و قد دعانا‌إلى شىء يوصل للعلاء

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۳۹۹

و مدة المسير، إليه اثنتا عشرة ساعة بالتحرير، و بعدها الجد إلى سطح العقبة فى المسير، و هو سطح واسع الأكناف، متسع الجوانب و الأطراف، لا يوصل إليه إلا بالاستطاعة، لأن مدة المسير إليه اثنتا عشرة ساعة، ثم سرنا إلى العقبة، و ما أدراك ما العقبة، فكم بها من حدرة و مضيق، و جبال فى شكل الحمرة و البياض و هى عقلة فى الطريق، و صعود و انهباط، و علو و انحطاط، قال الشاعر:

عقبات يسلك الناس بهابقلوب لم تزل مرتعبه

قد قطعناها بوقت هينلم نرى فيها أمورا متعبه

نحمد اللّه الذى خلصنافاسترحنا من عقاب العقبه

فقطعنا تلك الحدرة الكبرى، ثم سرنا إلى واد بشاطئ البحر و أحطت به خبرا، و بجانب البحر مغائر ماؤها عذب فرات، و آبار تسقى منها الناس بسائر الجهات، و رأينا نخلا زاهية، و قلعة حصينة عالية، فأقمنا بتلك المنزلة ثلاثة أيام، و نحن فى زيادة إنعام، و ذبح أنعام، و قد وردت الفواكه من غزة و أعمالها، فنصبت للبيع و انخفضت الأسعار و رفعت البواقى على أحمالها، و بقلعتها يوضع البضائع و دائع إلى الإياب، و مدة المسير تسع ساعات فى الحساب، انتهى كلام البكرى.

وزرنا قبر الشيخ إبراهيم اللقانى فى مقبرة هنالك محوط عليه بالأحجار على يسار الذاهب إلى منزل الركب و أوقفنا عليه مغربى ساكن فى بندر العقبة نيفا و عشرين سنة ثم ارتحلنا من العقبة صبيحة السبت فسرنا فى مسلك ضيق بين البحر و الجبل لا يمر به إلا جمل أثر جمل كأنه مثل الصراط إلا أنه غير مستقيم و قلما يخلو

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۰۰

هذا المحل من لصوص يتعرضون للركب فتشتد أذايتهم و تعظم نكايتهم لا سيما عند البرج قرب بندر العقبة و لكن ذلك فى الرجوع أكثر و لم نر فيه و الحمد للّه بأسا و لا بؤسا و وصلنا ظهر الحمار بعد الظهر و وجدنا أخريات المصرى و وقفنا حتى غاب عنا و سار وصلينا العصر و هو بسيط من الأرض أحرش مرتفع يطلع إليه من مسلكين لا يخلوان من صعوبة و تحته على ساحل البحر إحساء كثيرة فى وسط حدائق النخل و قلما يخلو من عمارة بعض ضعفة الأعراب لا سيما فى وقت جذاذ النخل و يكون فيها فى ذلك الوقت رطب جيد و ماء هذا المحل كله عذب طيب قال شيخنا أبو سالم فى رحلته و يسمى ذلك المحل فى زماننا هذا حفائر النخل و خلفا البحر يمينا فسرنا و نزلنا بعيد المغرب فى فسحة من الأرض بين جبلين ثم ارتحلنا منه يوم الأحد الأول من يناير حادى عشر ذى القعدة و بلغنا عش الغرب قبل الظهر و جاورنا دار المصرى بشرفات بنى عطية بموضع يقال له أم العظام و هناك أرجام كالشعاب عن يمين الذاهب.

ذكر العبدرى فى رحلته أن ذلك قبر الشفاف و الشفاف رجل كان يقطع الطريق على الحاج هناك فى غابر الزمان و قصته مشهورة فى رحلة العبدرى و من وراء الجبل الذى على يسار الذاهب بلد واسع فيه ماء جار و أرض مخصبة و ربما عطش الركب فى ذلك المحل فيأتى العرب بماء يبيعونه و نزلنا قبيل مغيب الشفق و بنو عطية هم عرب هذا البلد.

قال الإمام أبو سالم و يقال لهذا المكان يعنى الشرفات عش الغراب.

غريبة تزعم العرب أن الإبل تنفر فى هذا المكان و يقولون أنها تسمع صوت

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۰۱

سقب ناقة صالح و انه فى ذلك الجبل و أن هنالك الصخرة التى دخل فيها لما عقرت أمه فالإبل إذا وصلت إلى ذلك المكان تسمع صوت العشار فتنفر و لا أدرى من أين لهم ذلك و هو بعيد إذ ليست هذه ديار ثمود الذين عقروا الناقة و هم قوم صالح على نبينا و عليه الصلاة و السلام ثم منه يوم الاثنين و صلينا العصر بالمكان المسمى بمغائر سيدنا شعيب على نبينا و عليه الصلاة و السلام فى حش ملتف ملنا إليه لأجل الحريم الذى معنا و هى احساء كثيرة فى مضيق بين جبلين فيها نخيل و ماؤها طيب حلو خفيف نافع و عادة أعراب مدين أن تسوق الأركاب هنالك بأحمال كثيرة من أنواع العنب و غيرها من الفواكه و تنخفض أسعار ذلك كله و بينها و بين مدين مسيرة نصف يوم و هى بلدة بساحل البحر كثيرة الفواكه و المياه الغزيرة و سكانها أعراب أهل بادية و كانت قبل ذلك مدينة و

يذكر أن أثر البناء باق فيها إلى الآن.

قال شيخنا العياشي و على يسار منزل الركب خارج المضيق مغارة يقال أن فيها كان شعيب على نبينا و عليه أفضل الصلاة و السلام يأوى بغنمه و بإزائها بئر كبيرة معطلة و بجانبها بركة و يقال إن هنالك كانت البئر التى سقى منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام و فى ذلك الوادى دوم طويل كأنه نخل صنوان و غير صنوان و عريش كثير فى الوادى و هو محل مخافة فلما يخلو من لصوص الأعراب.

قلت و لمدين أخبار و أثار ذكر المقريزى منها نبذة و لما صلينا العصر بالمغارة كما تقدم تجاوزنا و نزلنا بين العشاءين فى بسيط أفيح ثم ارتحلنا منه يوم الثلاثاء و نزلنا عيون الأقصاب بعد العصر و هو ماء جار فى مضيق بين جبلين فى محل كثير القصب

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۰۲

و الديس و فى أعلى الوادى نخل و أرض صالحة للحرث فلما يخلو ذلك المحل من أعراب نزول به فيكثر الخوف و يعظم ضررهم لا سيما مع نزول الليل فيأخذ الناس حذرهم فيطلعون الرماة إلى أعلى الوادى مراقبين حتى يأخذ الناس حاجتهم من الماء و يكتفوا فيأتى الرماة لمنازلهم على شفير الوادى عند منزل الركب مسجد بنى بالحجارة المنحوتة و منبر بإزائه.

ثم ارتحلنا منه يوم الأربعاء إلى أن قال إلى بندر المويلح و بنينا الأخبية بحيث تقرب الأمواج من الأستار و ماء هذا البندر كثير حلو فيه آبار كثيرة و بساتين حسنة و نخل و هناك حصن كبير و فيه عسكر و أمير و تخزن فيه الميرة و الفول كثيرا و على بابه سوق كبير يوجد فيه غالب المحتاج و به موسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من السويس و القادمة من جدة و من القصير.

تتميم قال البكرى رضى اللّه عنه فى ذكر المراحل من العقبة إلى المويلح ثم سرنا إلى مرحلة يقال لها ظهر الحمار، و هى محطة عالية كثيرة الأوعار، يصعد إليها من عقبتين، و اليمنى أوسع من اليسرى فى المسلكين، قال الشاعر:

صعدوا على ظهر الحمار لعلهمأن يبلغوا بعصودهم كل الأمل

تعب الحمار من الطريق و طولهاو مديدها و اجتث من بعد الرمل

حتى الجمال به شكت يا هل تريقبل به عذر الحمار أم الجمل

و مدة المسير إليه ثمانية من الساعات، محررة عند أهل الميقات، ثم سرنا إلى بين الجرفين، و هو مكان كأن الجبال قد قسمت به شطرين، يحترز منه أن يقذف بالحجاج، فى أيام السيل إلى البحر المالح الأجاج، قال الشاعر ملغزا فيه:

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۰۳ و خمسة أحرف فى اللفظ تقرافإن صحفتها صحت بحرفين

و إن أسقطت خامسة فتبقىثلاثة أحرف من أصل ألفين

و منها إلى الشرفة، و هى بطول السير متصفة، تتعب فيها الجمال، و لو رحلت بلا أحمال، لما فيها من الوهاد، و الطلوعات الشداد، و خلفت جبالها قبيلة بنى عطية، المعروفين بالسرقة و الأذية، قال الشاعر:

إذا ما جئت للشرفةترى العربان مختلفة

و أما العيس فاجعلهابحسن الحفظ متصفه

فان منعت بحارسهاو إلا فهى منصرفه

و مدة المسير إليها خمس عشرة ساعة من غير ريب، و بعدها المغار المعروف بمغار شعيب، و هو غار يتبرك به الناس، و ترى فيه الحظ و الإيناس، و به الماء العذب و النخيل، و شجر المقل و الإثل و الظل الظليل، قال الشاعر:

قد وصلنا إلى مغار شعيبفرأينا المياه كالأنهار

فاستقينا من مائه و اشتفيناو ظفرنا بغاية الأوطار

و ذكرنا بغاره غار ثورمن حوى للصديق و المختار

خير من أنزل الإله عليه‌ثانى اثنين إذ هما فى الغار

و مدة المسير إليه ثمان عشرة ساعة، محررة عند أهل الصناعة، ثم منها إلى عيون القصب، إذا نظر إليها العاجز أذهبت عنه الوصب، لأن خضرتها نضرة، و الأشجار بها منتظمة و منتشرة، قال الشاعر:

قد وصلنا لعيون القصب‌و استراح القلب بعد النصب

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۰۴ و عيون الماء فيها قد جرت‌كسيول الغيث بن القصب

فجلسنا بصفاء حولهاو ظفرنا عندها بالأرب

و تشوقنا لشاد مطرب‌يتغنى بعيون القصب

و رأينا مجاورا لتلك العيون، نسوة من العرب يوصفن بحسن العيون، و يتعاجبن بظفائر الشعور، فيمنعن من عقل الحب الشعور، كأنهن الأقمار، و كأنما نبتت فى و جناتهن الأزهار، فكأن قطع المفاوز و الأوعار، كالمتنزهات فى الرياض و الأزهار، قال الشاعر فى بدوية اسمها ساكتة:

بروحى أفدى ظبية بدويةلها و جنة فيها الأزاهر نابته

إذا رمت منها أن تكلمنى غدت‌تكلمنى ألحاظها و هى ساكته

و مدة المسير إليها أربع عشرة ساعة و ثلاثة من الدرج، يتعب فى سيرها من ركب و من درج، ثم ارتحلنا منها إلى بندر المويلح المشهور، و رأينا بساحله المراكب من السويس و الطور، فيا له من بندر فاق البنادر، يأتى إليه الوارد و الصادر، و به جملة من الكروم، التى تذهب برؤيتها الهموم، و بمخازن القلعة تودع الودائع، و إلى سوقها تساق نفائس البضائع، من ثمار تجلبها العرب، و زلابية عجينها كاللجين فإذا قليت أشبهت الذهب، و بهذا البندر رجل من أرباب الأحوال، حاز رتبتى الجلال و الجمال، صاح مجذوب، تميل إليه محبة القلوب، و له أسرار ظاهرة، و مكاشفات باهرة، يعتقده الناس، و يحصل لهم بهم الإيناس، لا يعرف الدرهم و لا الدينار، و لا يقبل إلا القوت عند الاضطرار، لباسه جبة من صوف، و رأسه فى غالب الأوقات مكشوف، إن نطق تكلم على الخواطر، و إن صمت نطقت عليه ألسنة الناس بالثناء العاطر، و يكسوه المارة العدد، فيقبلها و يعطيها لمن وجد، لأن من رآها عليه، يطلبها فيدفعها إليه،

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۰۵

و هذا شأن الكرام، الذين قطعوا علائق الدنيا على الدوام، فأقمنا بهذا البندر ثلاثة أيام، و بعدها طوينا المضارب و الخيام، و مدة المسير ثلاث عشرة ساعة، و خمس من الدرج فى علم الصناعة، انتهى كلام البكرى إلى أن قال.

و نزلنا بالموضع المسمى بدار أم السلطان قبل الغروب و به آبار عذبة المياه، تستلذه الأفواه، على انه سخن و لكنه سريع الانفعال للهواء و هى محدثة و أحلى ما فى الدرب من الماء و مثلها ماء النبط أخبرنى بعض كبراء أعراب هذه النواحى أن الأمير إبراهيم الففارى هو الذى تسبب فيها و انه طلع للحج و بعث إلى أخيه بمصر و قال له أن الماء الطيب بهذا المنزل إن مت فاحفره و أكد عليه فى ذلك و مات بمكة لما حج و حفر أخوه آبارا و لها نحو من عشرين سنة و المحل قبل لا ماء به انتهى كلامه إلى أن قال.

و مررنا بالمضيق الموسوم بشق العجوز و سايرنا البحر المالح عن يسارنا جبال سلمى و كفافة و مررنا ضحى بقبر سيدى مرزوق الكفافى على ساحل البحر عليه أعواد قد علم بها عليه و الناس يتبركون به و طلعت الشمس فارتفعت حارة و نزلنا بندر الأزلم قبيل الاصفرار و وجدنا به شرذمة من الأعراب يبيعون الحشيش و الغنم و به ثلاث آبار كبيرة محكمة و البناء و ماؤها غزير إلا أنه زعاق يصلح للإبل و لضرورية الناس من غسل و نحوه و لا يسيغه إلا المضطرون قال الشيخ أبو سالم و على يسار البندر بعيدا عن الآبار حسى أى ماء حى محفور فى الأرض ليس بمطوى ماؤه أحسن من ماء الآبار إلا أنه قليل و لا يعرفه الكثير من الناس و هذا البندر قليل الجدوى لقبح مائه و قربه من المويلح و من الوجه هما أتم منه منفعة فليس فيه كبير فائدة و قد انهد ما فى داخله من البيوت و تثلم بعض سوره و الخلاء أقرب إليه من العمارة شعر:

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۰۶ إذا لم يكن فيكن ظل و لا جنىفابعد كن اللّه من شجرات

انتهى ثم ارتحلنا منه إلى أسطبل عنتر و فيه ثلاث آبار قليلة الماء و هو حلو طيب للشراب و أما الإبل فلا تكاد تطمع فيه.

ثم مررنا بوادى الأراك و هو واد واسع يأتى من ناحية الشمال و البحر عن يمينه قريب منه و فيه كثير من شجر الأراك الأخضر الناعم ثم يسير الماشى فى مضائق بين فدافد من جبال ذات حدور و صعود إلى أن يصل إلى بندر الوجه و فيه حصن حصين فى حرف واد كبير يخرج بين جبلين و الناس يتهيئون النزول فى أصل الوادى إذا كان الوقت وقت السيول فيرتفعون عن جنبى الوادى و فى الوادى عدة آبار بعضها أحسن من بعض و التى فوق البندر أحسن من التى تحته و داخل البندر بئر تسنى بالبقر و تصب فى ثلاث برك لصق حائطه أحداهما من بناء الأمير رضوان فى آخر أيامه و اثنتان من بناء مملوكه الأمير غيطاس عام تولى إمارة الحاج بعد مولاه و البرك الثلاثة ملاصقة لسور البندر.

قال أبو سالم و فى أعلى الوادى بين الجبلين ماء يسمى الزعفران و ماؤه طيب إلا- أنه قليل فإذا كثر الزحام على الآبار طلع إليه أهل الجرأة من الناس و ربما هجمت عليهم العرب هناك فيقع بينهم قتال إلا- أن الموضع قريب من البندر فيغاثون و استقى الناس ما احتاجوا إليه و أوردوا إبلهم بالغوا فى حمل الماء [و تعاهدوا أسقيتهم و أوثقوا أوكيتها و لم يألوا ما ملئوا من الأوعية و باتوا ليلتهم فى الآبار إذ نزحت و كابد الناس لذلك مشقة فادحة] لأنهم استقبلوا المياه القبيحة و المسافة العويصة التى ليس فى الدرب أصعب منها لتوالى المياه القبيحة فيها و بعد العمارة

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۰۷

و وحم هوائها و سوء أخلاق أعرابها .

قال أبو سالم و هذا البندر آكد البنادر إلى الخزن لأن الركب فى الإياب قد يسبق الملاقى من مصر إلى هذا المحل فيغلى فيه الفول و الطعام غاية حتى تعجز عنه الأثمان فى بعض الأوقات و فى حجتنا عام تسعة تجاوزناه لقلة مائه و نزلنا قرب العشاء بعد مجاوزته بأميال إذ لم نجد به شيئا من المنال.

قال الشيخ البكرى فى ذكر المراحل من المويلح إلى الوجه ما نصه ثم سرنا من المويلح إلى دار أم سلطان، التى هى لعرب البادية أوطان، و نزلنا بوادى سلمى و كفافة، و حصل مزيد الأمن بعد المخافة، و خلف جبلها الغربى البحر الأصيل، و بجانبه القسطل البرى و هو كثير طويل كالنخيل ، و حفائر مائها عذب بارد، يشرب منها الغادى و الوارد، قال الشاعر:

إن وادى سلمى بهى بهيجحيث فيه قبر الولى المسمى

صاحب السر و المعارف مرزوق مالكفافى طاب روحا و جسما

فإذا جئت قبره قم فنادى و توسل بجاهه ثم سل ما

فأقمنا بتلك المرحلة الإقامة المعتادة، و حصل لنا ببركة الشيخ مرزوق فى الرزق الزيادة، و مدة المسير كاف تمام، و عددها معروف من غير اتهام، ثم سرنا إلى بندر الأزلم، و لا يرغب فيه من بحقيقته يعلم، فماؤه ملح أجاج، ما شربه إنسان إلا أحتاج إلى العلاج، فأقمنا به من غير إقبال، و رحلنا منه بعد الزوال، و مدة المسير إليها ست

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۰۸

عشرة ساعة محررة، و خمس من الدرج مقدرة، ثم سرنا إلى مرحلة تسمى أسطبل عنتر، و قد اختفى بها العربان للأذى و تستر، و المسير إليها بين جبال صاعدة، و حدورات و أوعار متقاربة و متباعدة، و بها آبار عذبة، يود كل ظمآن شربة، قال الشاعر:

إن جئتا للأسطبل لاتغفل به عند النزول

و أحذر من العرب الذىبجباله أبدا تصول

و اعلم فديتك انهصعب و لكنى أقول

قد سمى الإسطبل من‌عرب به شبه الخيول

و مدة المسير ثلاث عشرة ساعة فى العدد، صحيحة الضبط و السند، ثم سرنا منه إلى وادى الأراك، و هو واد ليس لانفراد محاسنه اشتراك، و بعده دخلنا بين جبال و أوعار، و مضيق و أحجار، و حدرات طوال، و صعودات و تلال، حتى نزلنا ببندر الوجه المبارك، و صار حصنه متقاربا متداركا، فرأينا به الآبار الخالية، و حفائر الماء العذب غير خالية، فأقمنا به إلى قبيل العصر، و قد زال من الناس الحصر، قال الشاعر:

قد دخلنا بندر الوجه الذى‌فيه قوت كل عام يختزن

و شربنا من مياه عذبة شربها يجلو عن القلب الحزن

نحم اللّه الذى أسعفناو رأينا ذلك الوجه الحسن الرحلة الورثيلانية ؛ ج ۱ ؛ ص۴۰۸

مدة المسير إليه سبع عشرة ساعة و ثلثا ساعة بالإجماع، حررها أهل العلم و الاطلاع، انتهى كلامه رضى اللّه عنه.

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۰۹

ثم منه إلى الأكره و هو واد كبير تأتيه السيول من بلاد بعيدة و يذكر أن سيل المدينة المشرفة على من تشرفت به أفضل الصلاة و السلام و أزكى التحية و الإكرام يصل إليه و ماؤه قبيح جدا إلا أن يكون عقب سيل فيحسن و به احساء كثيرة و أشجار ملتفة و وجدنا جل ماء آباره جيدا لقرب العهد بالسيل و سقى الناس منه و أخذوا من مائه ما ليس لهم عنه بد و سقوا إبلهم و تجاوزه قبل الظهر و باتوا غربى بئر الدركين ثم ارتحلنا منه و بلغنا بئر الدركين مع طلوع الشمس و هو منزل الحاج المصرى و سمى بذلك لأنه بين درك أعراب مصر و أعراب الحجاز فإن ما بعده من عمل الحجاز و فى درك أعرابه إلى أن قال.

و لما بلغنا العقبة السوداء و هى عقبة صغيرة فى حرة سوداء ذات أزهار و أشجار و يقال إنها أول أرض الحجاز و لا يبعد ذلك فإن من هنالك تخالف الأرض ما قبلها و تباين الجبال ما سواها و يشتد شبهها بجبال الحجاز السود و يتقوى الحر إلى أن قال.

و هذه المرحلة و التى قبلها يشتد فيها الحر و هى أرض سهلة مطمئنة ليس فيها جبال إلا ما يتراءى عن شمال المار بها و البحر يتراءى عن يمينه و فيها غياض من شجر الطلح و هى من أنواع الكلأ الذى ترعاه الإبل كثيرا إلا أنها تترك للرعى فإن المحل مخوف تغير فيه أعراب بلى و جهينة و غيرهما إلى أن قال.

نزلنا الحوراء بعد المغرب و تفرق الناس فى مياهها و هى على حفائر على ساحل البحر يحيط بها ديس كثير و فيه ملوحة كثيرة و القريب العهد بالحفر أجود من غيره و كلما طال فى القرب خبث و الإكثار منه يورث إسهالا مفرطا كماء الاكره و الأزلم و عجرود و الحاج منها راق على تلال واديها و أكامها و روابيها لكون المحل محل

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۱۰

الغارات إلى أن قال و من أمثال الحاج لا رجال إلا رجال الحوراء و لا جمال إلا جمال الدورة و يعنون بالدورة الرجعة يعنى لا يعد صابرا من الجمال إلا من صبر فى حالة الرجوع من الحجاز إذ هو آخر السفر و محل قلة العلف و منه ذاهبين مع واديها الكثير الأشجار من أراك و غيره ثم يعدل الحاج يمينا إلى الوادى المسمى على السنة الحجاج بوادى العقيق.

قال شيخنا أبو سالم و لا مناسبة بين الاسم و المسمى بل تسميته بوادى العقوق انسب لشدة جرأة أعرابه على السرقة فإنهم من أجرأ الناس على ذل ثم منه إلى النبط و به آبار محكمة البناء بالحجر المنحوت و ماؤها عذب حلو غزير فى الغالب.

قال أبو سالم و غزارة ماء أودية الدرب إنما يكون بحسب كثرة المطر و قلته فإذا حمل الوادى و لو مرة فى السنة غزر ماؤه سائر السنة و منهم إلى الخضيرة مرحلة لا ماء فيها و لا فى الخضيرة إلى الينبع حاصله يومان لا ماء فيهما و من النبط إلى الخضيرة واد حار و هو مكان يتشوق الناس فيه و يموتون عطشا إلا إذا وجد فيه ماء المطر و هذا الوادى قد وافق فيه الاسم المسمى قلما تخلو سنة من شدة تقع للحجاج فيه من عطش أو موت و هو واد كبير طبق ما بين جبلين لا سعة فيه من النبط إلى الخضيرة فإذا اشتد الحر فى النهار

حجبت الجبال عنه الهواء البحرى فينعكس غربيا أو شرقيا صاعدا من الوادى أو منهبطا فيصير سموما محرقا و لا ماء هناك فربما أتلف الناس فيه العطش المهلك و ربما أحدث ذلك سمية الأبدان بقبح الهواء مع حرارته فتموت المئون بل الآلاف من الخلق فى أسرع مدة فيأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۱۱

قال الشيخ أبو سالم و وقوع ذلك فى الإياب كثير و فى الركب المصرى أكثر و قد غمرتنا فيه و الحمد للّه ألطافه تعالى الخفية، و حضرتنا منته و مواهبه السابغة الوافية، فلم نر به بأسا فى الحر و لقر و الحمد للّه الذى بنعمته تتم الصالحات و تنزل البركات.

و نزلنا مغيب الشفق قبيل الخضيرة و صلينا بها الصبح و قطعنا الوعرات السبع المسماة على ألسنة الحاج بسبع و عرات و خرجنا إلى متسع من الأرض و بلغنا ينبع النخل غروب الشمس و لما قربنا مضيق ينبع تأخر كثير من الصعاليك فخرج عليهم المحاربون و جردوا صعلوكا فصاحوا و رجع إليهم بعض الحجاج فهربوا و جلسوا تحت أحجار و رموهم ببنادق و رماهم الحجاج فكفى اللّه شرهم و استبشر الناس بقدومهم الينبع لأنها أول بلاد الحجاز العامرة و فيها قرى كثيرة و مزارع و نخيل و عيون جارية و ذكروا أن عمرانه متصل نحو ثلاثة أيام و القرية التى ينزل بها الركب هى آخر القرى التى من ناحية البحر و ليس بعدها إلا ينبع البحر الذى هو المرسى و غالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التى ينزل بها الحاج للتسوق و تعمر هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج و تجلب إليها البضائع و السلع ذوات الأثمان و يجلب إليها من الثمار و الفواكه و الحبوب و الفول شىء كثير و هناك وجدنا أخبار المدينة و مكة زادهما اللّه تعالى تشريفا و تعظيما، و تبجيلا- و تكريما، و وجدنا أيضا أخبار سائر بلاد الحجاز و تعرفنا على رخصها من غلائها و خصبها من جدبها و من هناك تجلب الميرة للمدينة الشريفة لأن السفن الجالبة للطعام من مصر ما كان منها للمدينة يرسى بينبع البحر و ما كان منها لمكة يتجاوز إلى جدة فإذا وصل الطعام إلى الينبع حمل منها إلى المدينة تحمله أعراب تلك الناحية من بنى سالم و جهينة و يتداركون بالطريق من هناك للمدينة.

قال شيخنا أبو سالم و أكبر جبال تلك الناحية جبل رضوى و هو المشرف على

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۱۲

بلاد الينبع و ليس هو الجبل الصغير الذى هو بجانب الينبع بل هو الجبل الكبير المشرف عليه و إلى هذا البلد كانت غزوة العشيرة من غزواته صلى اللّه عليه و سلم و مسجد القرية الآن هو مسجد العشيرة المعدود فى المساجد التى صلى فيها النبى صلى اللّه عليه و سلم.

قال السيد السمهودى ما نصه و مسجد العشيرة معروف ببطن الينبع و هو مسجد القرية التى يزلها الحاج المصرى و لابن زبالة أن النبى صلى اللّه عليه و سلم صلى فى مسجد الينبع بعين بولا.

قلت و عنده عين جارية لكنها لا تعرف بهذا الاسم انتهى.

و قد دخلنا هذا المسجد و قلنا فيه حتى صلينا الظهر و العصر و توضأنا من هذه العين و عليها نخيل و فى الينبع ملتفة ناعمة و وجدنا بها العام يبس ماء العين و انهدم بعض سقف المسجد و ذبلت النخل و فى الينبع مزاراة على تل مرتفع لأبى الحسن النفاتى و قبر الحسن المثلث فوق القرية لم نصل إليه لبعده و ذعارة عرب البلد يزار من بعيد بالنية و بهذا البلد موطن طائفة من الأشراف و منهم شرفاء بلدنا القاطنون بسجلماسة.

قال البكرى فى ذكر المراحل من الوجه إلى الينبع ما نصه ثم سرنا من الوجه إلى مشرف النعام، ثم إلى حدرات و اكام، و أماكن يرى منها البحر الأجاج، و شدة تلاطمه بالأمواج، ثم إلى حدارت كبيرة المقدار، كثيرة الصخور و الأوعار، و نزلنا فى مرحلة يقال لها بركة اكره، و هى أرض بها حفائر ماء تكره، ماؤها مر المذاق، من تقيد

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۱۳

شربه حصل له الإطلاق، و هى مرحلة لا تراح بها النفوس، و لا يضحك بها العبوس، قال الشاعر:

يا من أتى اكره فى سيرهابشر بنيل القصد و المنه

لا تكره المكروه فى اكرهفبالمكاره حفت الجنة

و مدة المسير إليها تسع ساعات بتمامها، و ثلث ساعة ثابتة فى أحكامها، ثم سرنا منها إلى مرحلة يقال لها الحنك، و لها من بين القرى اسم مشترك، بين فضاء واسع المجال، و مراعى أعشاب للجمال، إلا أنها خالية من الماء للوراد، و الإقامة بها إنما هى على طريقة السير المعتاد، و مدة المسير إليها أربع عشرة ساعة من الزمان، حررها أهل الإتقان، ثم سرنا منها إلى العقبة السوداء المشتهرة، و قطعنا مفاوزها و نزلنا بالحوراء النضرة، و هى مرحلة رملها غزير، و مخاطبها كثير، و بها شجر الأراك الأخضر، و الماء من حفائر رملها يتفجر، قال الشاعر:

جئنا إلى الحوراء و هى محطةفيها الأراك نزاهة للرائى

ناديت خل قف بها متأملاو انظر لرمل مغمر بالماء

و اغنم زمانا مقبلا بسعودهفيه اجتماع الشمل بالحوراء

و مدة المسير إليها فى جمل الإعداد، حررها أهل الإرشاد، ثم سرنا منها إلى مفازة نبط، و هى حد عربان جهينة فى الشيل و الحط، و بطرقها مضائق و حدرات، و جبال راسيات شامخات، و شجر أثل كالنخيل، و حفائر ماء عذب يشفى العليل، قال الشاعر:

و فى اكره و التى بعدهامرارة ماء تزيد القساوه

فجئنا إلى نبط نشكر الظمافانعشنا ماؤها و الطلاوه

و لما صبرنا على مرهافاعقبنا صبرنا بالحلاوه

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۱۴

و مدة المسير إليها عدد كاف، و هى عشرون ساعة من غير اختلاف، ثم سرنا إلى طراطير الراعى، و هى مكان تحمد فيه المساعى، و هى جبال سود فوق الجبال، و تسمى أيضا بالأباطح كما يقال، ثم إلى واد يسمى وادى النار، و هو واد بين جبال و وعر و غبار، ثم نزلنا بالخضراء و قيل الخضيرة بالتصغير، و هى من أعمال بندر الينبع فى المسير، قال الشاعر:

أنظر إلى الخضراء و اغنم بسطهاتلقى رباها نزهة للرائى

فلرب حشاش شكا من همهقد زال عنه الهم بالخضراء

و مدة وصولنا إليها فى المسير ثم رحلنا منها و استقبلنا دار البقر، و رأينا أول الوعرات قد ظهر، و هى سبع و عرات كبيرة، أصعبها الأولى و الأخيرة، بين كل و عرة فضاء و بعده عقلة فى الطريق، و يليها شفاء جبل هائل و مضيق، ثم أنخنا الركاب ببندر الينبوع، و هو أول بلاد الحجاز فى الذهاب و آخرها فى الرجوع، به حدائق و نخيل، و عيون بين زروع تسيح و تسيل، و كان به سور، منيع و جامع مفرد وسيع، و بيوت فسحة الرحاب، فآل أمرها إلى الخراب، و به الآن سوق الحجاج، يأخذون منه الذخيرة عند الاحتياج، و به أفران و حيشان كبار، و عشش تسقى فيها القهوة من أيدى الجوار، قال الشاعر:

حبذا بندر ينبوع و مافى رباه من رياض و عيون

و سقاة من ملاح نهديصرّ عن الصب من نبل العيون

فارتحل عنهن و اذهب و انتصح فإذا خالفت أذهبت العيون

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۱۵

و جميع تلك الأسواق خارجة عن المساكن، و يعم نفعها الساكن و الظاعن، فنصبنا بهذا البندر الخيام، و أقمنا به ثلاثة أيام، و مدة المسير إليه سبع عشرة ساعة فى العدد، محررة فى ميقاتها صحيحة السند، انتهى كلام البكرى.

ثم رحلنا من الينبع و مررنا على السقائف و دار الوقدة ثم كذلك من الرمل المشرف على بدر ثم كذلك إلى أن نزلنا بدرا و سمى

هذا المنزل دار الوقدة لأنهم يوقدون فيه الشمع الكثير يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك و يبيعونه فى الركب و يجعلونه على اقتاب الجمال بالليل فترى الركاب كله كأنه من أعظم المساجد المسرجة مصابيحها فى أحد المواسم.

قال أبو سالم و شاع عندهم أن الصحابة فى غزوة بدر أوقدوا هناك نيرانا كثيرة فنحن نشتبه بهم و تلك غفلة منهم و خطاء من وجهين أحدهما أن وقوع الأمر بإيقاد النار الكثيرة إنما كان فى غزوة الفتح بمر الظهران كما هو معروف فى كتب السير و أما بدر فلم يقل فيها أحد بذلك و ثانيها لو سلم أن ذلك وقع فيها فقد كان لإرهاب العدو و إظهار قوة المسلمين و كثرة عددهم فحيث لا ضرر فلا عدو له و لا شك أن الفرح بنصر اللّه أولياءه على أعدائه و الاستبشار بالأماكن التى اعز اللّه فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن ما لم يؤد ذلك إلى محظور مثل اعتقاد أن الوقود سنة متبعة بل ربما ظن بعضه أنها من أفعال الحج فلتعظم بغير ذلك من فرح و سرور و صدقة و عبادة و أعلان بشكر و قد جاءنى كثير ممن لا شمع عنده يستفتون و يقولون لا شمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده ظانين أن ذلك من مناسك الحج و شعائره و كم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات نسأل اللّه أن يثبتنا على سنة النبى صلى اللّه عليه و سلم المستقيمة التى لا ترى فيها عوجا و لا أمتا انتهى.

ثم إن الركب يتوسط و توسطنا بين الجبلين جبل الرمل الكبير المشرف على بدر

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۱۶

يسرى الطريق و الجبل الآخر يمناه فإذا بالناس يشرعون يريدون الصعود لجبل الرمل أفواجا رجاء أن يسمعوا ما يوثر هنالك من صوت الطبل و زعم كثير من الحجاج أنهم يسمعونه هنالك.

تتمة ذكر الإمام ابن مرزوق فى شرحه على البردة ما نصه و من الآيات ببدر الباقية ما كنت اسمعه من غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل الملوك الوقت و يرون أن ذلك لنصر أهل الإيمان قال و ربما أنكرت ذلك و ربما تأولته بأن الموضع لعله صلب فيستجيب فيه حواجر الدواب و كان يقال لى انه دهس رمل غير صلب و غالب ما يسيرى هنالك الإبل و إخفاقها لا تصوت فى الأرض الصلبة فكيف بالرمل قال ثم لما من اللّه تعالى بالوصول إلى ذلك الموضع المشرف نزلت عن الراحلة أمشى و بيدى عود طويل من شجر السعدان المسمى بام غيلان و قد نسيت ذلك الخبر الذى كنت أسمع فما راعنى و أنا أسير فى الهاجرة إلا واحد من عبيد الأعراب الجمالين الذين كانوا معنا يقولون أتسمعون الطبل فأخذتنى لما سمعت كلامه قشعريرة بينة و تذكرت ما كنت أخبرت به و كان فى الجو بعض ريح فسمعت صوت الطبل و أنا دهش مما أصابنى من الفرح أو الهيبة أو ما اللّه اعلم به فشككت و قلت لعل الريح سكنت فى هذا الذى فى يدى و حدث مثل هذا الصوت و أنا حريص على طلب التحقيق بهذه الآية العظيمة فألقيت العود من يدى و جلست إلى الأرض أو و ثبت قائما أو فعلت جميع ذلك فسمعت صوت الطبل سماعا محققا أو صوتا لا أشك انه صوت طبل و ذلك من ناحية اليمن و نحن سائرون إلى مكة المشرفة فظللت أسمع ذلك الصوت يومى أجمع المرة بعد المرة و لقد أخبرت أن ذلك الصوت لا يسمعه جميع الناس انتهى.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۱۷

و قال الإمام المرجانى رحمه اللّه تعالى و لقد ضربت طبلخانة النصر ببدر فهى تضرب إلى يوم القيامة نقله عنه السيد السمهودى فى تاريخه الكبير و الصغير.

قال شيخنا أبو سالم و قد كثر كلام الناس فى هذه المسألة و إذا ذكر من يوثق به كابن مرزوق و غيره أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس يسمعه دون بعض و قد مررت ببدر سبع مرات و أنا فى كلها ألقى البال لذلك فلم أسمع شيئا اتحققه و فى هذه المرة سمعنا بعد ما قربنا من البندر صوت طبل محقق فإذا هو طبل بعض أمراء الركب كان متأخرا وراءنا و تحققنا ذلك بجلوسنا مر بنا و كثير من الناس ممن لم يتحقق ذلك زعم أنه الطبلخانة المذكورة و قد سألت عن هذه المسألة محقق زمانه شيخنا أبا بكر السجستانى رضى اللّه عنه فقال لى كنت حريصا على تحقيق ذلك و لقد مررت ببدر نحوا من سبع و عشرين مرة فلم أسمع شيئا أتحققه و العلم عند اللّه.

قلت و هذه المسألة مثل ما شاع على ألسنة الحجاج أنهم يرون الأنوار مشرقة من يوم قربهم من الينبع و يقولون أن وادى النار اسمه وادى النور لأجل رؤيتها منه فحرف الناس التسمية و قد ألقيت البال لذلك فكلما قالوا أنهم رأوا الأنوار نظرنا فإذا هو بروق تخفق من بلاد بعيدة و تحققنا ذلك بظهروه مرات كثيرة فى غير ناحية المدينة و تارة فى ناحيتها و يتصل خفقانه حتى يقرب إلينا فنتحقق انه برق و تظهر أمارات أخر تحقق ذلك مثل رؤية غيم متراكم و أصوات رعد و أرض الحجاز معروفة بكثرة الرعد و البرق و كثير من الحجاج يصممون على أنها أنوار و لو ظهرت الأمارات و لو كان من غير ناحية المدينة.

قال و قد سألت شيخنا أبا بكر السجستانى رضى اللّه عنه عن هذا فقال لى كنت

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۱۸

أتأمل ذلك كثيرا فلم أر شيئا مما يزعمه الحجاج إلا البرق نعم قال لنا رضى اللّه عنه و أرضاه الذى لا يمترى فيه انه نور النبى صلى اللّه عليه و سلم حقيقة و إن كنت جميع الأنوار من نوره ما عايناه مرارا و نحن مجاورون بالمدينة المشرفة فى الحرم الشريف فأنا نجلس أحيانا نهارا حتى يستفيض من ناحية الحجرة ما يخالف ضوء النهار فيغشى الحرم الشريف كله فيراه الناس.

قلت و لعل هذا الذى ذكر شيخنا رضى اللّه عنه أنه خاص أيضا به و بأمثاله ممن تنورت بصائرهم فاستنارت بها أبصارهم فيشاهدون الأنوار المعنوية محسوسة و إلا فكثير من الناس لا يشاهدون ذلك و اللّه يختص برحمته من يشاء و اللّه ذو الفضل العظيم.

و فى آخر المضيق الذى بين الرمل و الجبل عريش إلى الآن يزعم الناس انه موضع العريش الذى بنى لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يوم بدر و إن ذلك موضع الواقعة و ليس به.

و نزلنا بدرا بعيد المغرب و هى قرية حسنة ذات نخيل و ماء عذب فيها بركة كبيرة تكفى الأركاب كلها و مادتها من عين هنالك و على ذلك البلد أنوار تلوح، و رياح النصر تغدو و تروح، و ينشرح فيه الصدر و القلب، و يتجلى فيه بصفة الجمال لكل مسلم الرب، سبحانه و تعالى، و معالم النبوءة لا تخفى، و مواطئ أقدام الرسول صلى اللّه عليه و سلم و أصحابه رضى اللّه عنهم لا تعفى، و قد ظهرت على أهل هذا البلد بركة الرسول صلى اللّه عليه و سلم معلنين بذلك فأسعارها فى الغالب أرخص من غيرها مع صغرها و انقطاعها عن البلاد و أهلها محفوظون آمنون مطمئنون مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم و كان نزولنا خارج البلد.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۱۹

غريبة وزرنا قبور الشهداء و عليهم جدار قصير محيط بقبورهم.

قال الإمام أبو سالم و بالقرب منهم قبور السادات الأشراف الزيدنية من أهل اليمن نزل أسلافهم بهذا البلد و لهم إتباع فى طريق القوم و مجلس ذكر قال و كبيرهم اليوم السيد أبو الغيث وزرنا أيضا المسجد المسمى بمسجد الغمامة و هو موضع العريش يوم الوقعة ببدر كما نص عليه غير واحد و انشرحت صدورنا بذلك و وجدنا به المصرى و نزل علينا الشامى سحرا و أخذ المصرى ساعتئذ فى الرحيل، و حثوا ركابهم بالرسيم و الذميل، و ظعنا نحن بعد صلاة الظهر و مررنا على قبور الشهداء و موضع العريش مع الأخ سيدى محمد الأخصاصى وجدناه هنالك ينتظرنا إذ هو مجاور بالمدينة المشرفة و قبور الشهداء أسفل الوادى من جهة البزوة و ليس بالموضع الذى تزعمه العوام تحت الكثيب على طريق القادم من مصر.

قال البكرى ثم سرنا من ينبع إلى الدهناء فى فضاء و رمال، و آكام و جبال، حتى وصلنا إلى الأبرقين، و هى كناية عن جبلين متفرقين، احدهما رمل صاعد، و الأخر من وعر و جلامد، و بينهما تدق الطبول الحربية، لنصرة خير البرية، فيسمعها من كان أهلا للسماع، و يحجب أهل الزيغ و الابتداع، ثم دخلنا قرية بدر و حنين، التى حماها اللّه من كل شين، و بها جسر طويل، و عيون تجرى بين حدائق و نخيل، و بها مسجد العريش و قيل مسجد النعام، و موضع حوض المصطفى عليه الصلاة و السلام، و محل النصرة لجيوش الإسلام، على أهل الأنصاب و الأزلام، و هى الغزوة العظيمة المقدار، التى بها شاهت وجوه الكفار، فيا لها من غزوة قاتلت فيها الملائكة، و ضاقت بها على أعداء الدين المسالك، و أخزى اللّه أهل الشرك و الغواية، و استشهد من

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۲۰

المسلمين من سبقت له العناية، و خرج فيها أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم للجهاد، و قتل فيها أبو جهل رأس أهل العناد، فبلغت الشهداء من السعادة أوفر نصيب، و قلبت أعداء اللّه فى القليب، و وجدوا ما وعدهم ربهم من العذاب الأليم، و اللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، قال الشاعر:

يا أهل بدر لقد طابت مئاثركمو قد علا قدركم فى أرفع الدرج

فزتم بغفران أوزار و حسن ثناعلى المدى نشره من أطيب الأرج

يكفيكم فى علاكم قول مادحكمهم أهل بدر فلا يخشون من حرج

فيا لها من ليلة بت و قد أشرق بدرها، و سما قدرها، أذهبت عن العيون الهجوع، لاشتغالها برؤية القناديل و الشموع، و أما الشموع فقد ملأت الأرجاء بالنور، و محت بضوئها ظلمة الديجور، و قد دقت طبول الأفراح، و زالت عن القلوب الأتراح، و أحضر السكر الماد، و أذيب فى الماء للوراد، و ملىء به البواطى و الحلل، و سقى به جميع الطوائف و أهل العمل، فشرب كل منهم أوفر نصيب، فكانت ليلة من صفائها أقصر من جلسة الخطيب، و قضينا الأوطار من مشاهدها المبتهجة، و عدة المسير إليها ثمان ساعات و اثنتا عشرة درجة، انتهى كلام الشيخ البكرى رضى اللّه عنه.

فسرنا نطوى المراحل، و ننضى الرواحل، إلى أن رعت الغزالة نرجس الكواكب، و صلى المكتوبة كل راجل و راكب، إلى أن نزلنا بقاع.

البزوة و الناس بقرب المزار فى فرح و نشوة، من رجال و نسوة، و هو قاع لا يظفر غائصه بقاع، و لا يرى المسافرون نظيرا له فى البقاع، و نزلنا بعيد المغرب، و لا يرى من الناس إلا مضطرب و مطرب، إلى أن تفجر ينبوع الفجر، و قبض كل متهجد فى مصلاه جائزة الأجر، فشمرنا الذيل لقطع بسيط البزوة، و كم فيه من غدوة و سروة، فهو حقا قاع صفصف، و مهمه نفنف، لا ترى فيها عوجا و لا أمتا، و لا تجد فيه إلا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۲۱

السماء سمتا، و للّه در القائل:

قد سلكنا القاع المديد الذى مأصحى مضافا دون البقاع لبزوه

فهو قاع لا نبت فيه تراهعين ساروكم لنا فيه سروه

فأعاننا اللّه على قطع مسافته، و كان لنا فى طرى مراحله و إتمام مفازته، فسرنا و بلغنا أول سبيل، و قلنا مستظلين بظله الظليل، حتى وصلنا الركب فسرنا و بتنا غربى مستورة، حيث تراءت لنا بخلوة مشهورة، فرأينا هلال ذى الحجة، أبين و أصفى من الحجة، ليلة السبت ثانى عشر يناير من شهور العجم و هى قرية و بها بئر كبيرة مطوية بالحجر المنحوت إلا أن الرمل قد غلب عليها و حولها عمارة قليلة و بها قبر يزار عليه بناء و اسم صاحبه الشيخ يحيى قالوا انه شريف من أهل اليمن.

ثم ارتحلنا من منزلنا ذلك و خلفناه، و والينا المصاحبة غيره فعزلناه، فجد بنا السير، و كادت المطايا من سرعتها تحكى الطير، حتى أوصلتنا قرب الظهر رابغ، و كم لها علينا من فضل شائع سابغ، و وجدنا بها الأركاب المصرى و الشامى قد خيموا، فإذا الشاميون على الرحيل قد صمموا، فنقضوا أخبيتهم، و عانقوا أرديتهم، فارتحلوا ملبين، و للسير مزمعين، و وجدنا واديه قريب من العهد بالسيلان، و جلسنا للصلاة فى ظل النخيل و الفسلان، و جاء ركبنا فاخذ الناس منازلهم، فالتحقنا بأصحابنا و أناخوا رواحهم.

و رابغ قرية فيها نخيل و آبار كثيرة فى واد يأتى إليه السيل من بعيد تزرع فيه مفاثى كثيرة و دخن و ذرة و هو من أخصب أودية الحجاز ثم اشتغل الناس بغسل ثيابهم و الاغتسال، و التنظيف و شراء النعال، توجد هناك معدة للمحرمين إلا أنها فى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۲۲

الغالب غالية.

و لما حان للشمس أفول، شمر الركب المصرى الذيول، فقام و أرتحل، و عن رابغ انتقل، و بتنا هنالك و فى غد تهيأنا للإحرام، فاغتسلنا و أزلنا ما فى أزالته فضل و رغبة من الشعث، و ألقينا التفث، و أخرنا الإحرام، فارتحلنا ضحى الأحد ثانى الشهر إلى أن وازينا مهيعة، و تراءت أبنية الجحفة، اتحفنا هدايانا بأكمل تحفة، فقلدنا و أشعرنا، و جللنا و تجردنا، فركعنا و أحرمنا ملبين، بالحج مفردين، و للفرض الكفائى ناوين، و حافظنا على استحضار النية، و واصلنا الإحرام بالتلبية، و اتبعنا فيها السنة السنية، و تابعنا السير بها ضارخين، غير مفرطين، و لا مفرطين، مستبشرين آمين، مسرورين مطمئنين، و لبث الناس فى ثياب إحرامهم، كأنهم نشروا من قبورهم بأكفانهم، يزفون و يهرعون للموقف.

و سرنا كأموات لففنا جسومنابأكفاننا كل ذليل لمولاه

لعل يرى ذل العباد و كسرهمفيرحمهم رب يرجون رحماه

ينادونه لبيك لبيك ذا العلىو سعديك كل الشرك عنك نفيناه

و لو كنت يا هذا تشاهد حالهملأبكاك ذاك الحال فى حال مرآة

وجوههم غبر و شعث رؤسهمفلا رأس إلا للإله كشفناه

لتزداد روعا من خضوع لربناو ما كان من درع المعاصى خلعناه

و ذاك قليل فى كثير ذنوبنافقد طالما رب العباد عصيناه

إلى زمزم زمت ركاب مطاياناو نحو الصفا عيس الوفود صففناه

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۲۳ نؤم مقاما للخليل معظماإليه استبقنا و الركاب حثثناه

و نحن نلبى فى صعود و مهبطكذا حالنا فى كل مرقى رقيناه

فكم نشز عال علته و فودناو تعلو لنا الأصوات حين علوناه

نحج لبيت حجه الرسل قبلنالنشهد نفعنا فى الكتاب وعدناه

دعانا إليه اللّه عند بنائهفقلنا له لبيك داع اجبناه

أتيناك لبيناك جئناك ربماإليك هربنا و الأنام تركناه

و وجهك نبغى أنت للقلب قبلةإذا ما حججنا أنت بالحج رمناه

فما البيت ما الأركان ما الحجر ما الصفاو ما زمزم أنت الذى قد قصدناه

و أنت منانا أنت غاية سؤلناو أنت الذى دنيا و أخرى أردناه

إليك شددنا الرحل تخترق الفلافكم فدفد فى السواد خرقناه

كذلك ما زلنا نحاول سيرنانهارا و ليلا عيسنا ما أرحناه

إلى أن بدا أحدى المعالم من منىو هبت نسيم للوصال نشقناه

و نادى بنا الحادى البشارة و الهنآفهذا الحمى هذا تراه غشيناه

و سرنا و جاوزنا الرمال، التى تتيه فيه الأركاب كالجبال، و أخذنا بطن هرشاء و نزلنا بعيد المغرب شرقى السيل و غربى قديد و هى قرية غالب أبنيتها حيشان و فيها قهاوى و فواكه تباع و لا ماء بها إلا ما يسقى من بعيد ثم ارتحلنا منه و مررنا و قد متع النهار بالمشلل و يسمى اليوم بعقبة السكر.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۲۴

قال الإمام أبو سالم و أكثر الناس خصوصا المصرية يجلبون السكر من مصر بالقصد ليشربوه هناك و يؤثرون فى ذلك أثرا لا أصل له

يزعمون أن رمل ذلك المحل انقلب للصحابة سكرا فشربوه و هى عقبة فى جبل صغير فيها رمل يتعب الإبل [مع كثرة التلاحى و شدة التلاحم، و إفراط التزاحم، و عدم التعاطف و التراحم، و فيها قيل:

كم جمل منتصب للشقاما جره الجمّال إلا انكسر

و كان فى الركب يرى مبتدافما له من بعد هذا خبر]

و قد سوى البناء فى جانبيها و التقطت أحجارها و بنى مسجد صغير بأحد جانبيها و بينها و بين خليص نحو من ثلاثة أميال.

و ذكر السيد السمهودى أن هناك بالمشلل مسجدا للنبى صلى اللّه عليه و سلم على يسار الذاهب إلى منى و لعله هو هذا المبنى هناك اليوم فقد دخلناه وزرناه و تبركنا بالآثار المضافة له صلى اللّه عليه و سلم و شرف و كرم و مجد و عظم فبلغنا الكديد قبل الظهر و نزلنا فى قبة عظيمة بإزاء بركة عظيمة تحت القرية و فى خليص هذا عين تجرى و أبنية و قهاوى و سوق حافلة و قد سيق الماء فى قنوات محكمات من العين يفجر عنها و يبرز فى مواضع للسقى و الوضوء إلى أن خرج الماء إلى البركة المذكورة و كانت عميقة يغرق فيها من لا- يحسن العوم و يخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد رجل حرثهم الدخن و يكثرون من المقاثى و ماء هذه العين أحلى و أعذب إلا أنه سخن و نمنا هنيئة ريثما يحين وقت الصلاة فتوضأنا وصلينا الظهر و تلاحق الركب و سقى الناس و استقوا و ركعنا بمسجد هناك فوق البركة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۲۵

ينسب لسيدنا محمد صلى اللّه عليه و سلم و قد تهدم و امتلأ أوساخا و صار إصطبلا للدواب فأنا للّه و إنا إليه راجعون لقد ضعف الدين و قلت الرغبة فى الخير حتى يكون بهذه المثابة المكان الذى دخله سيد الأولين و الآخرين عليه أفضل الصلاة و أزكى التسليم و صلى فيه و كان من حقه أن يذهب و يفضض و قد أشرت بذلك لأمير الحج المصرى و وعد بإصلاحه و اللّه يوفقنا و إياه.

و سرنا فى غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل و غيره و فى خلالها فدادين يزرع فيها المقاثى و الدخن و غير ذلك و نزلنا بين العشاءين فى بسيط من أشجار برية من السيال و غيره ثم منه قبيل الفجر و مررنا بالثنية التى يهبط منها إلى عسفان أسفارا و الطريق فيها مبنية ملتقطة أحجارها كعقبة السكر إلا أن هذه أطول منها و أسهل و بأحد جانبيها مسجد فلما خرجنا من العقبة وصلنا عسفان ضحى و فيها سوق و آبار من جملتها البئر التى يذكر أن النبى صلى اللّه عليه و سلم تفل فيها و ماؤها حلو غياة و شربنا منه تبركا بآثاره صلى اللّه عليه و سلم و استفاض ذلك على ألسنة العوام و لم أقف عليه فى شىء من التواريخ التى بأيدينا و عثرنا عليها و اللّه اعلم بحقيقته و به مسجد و لم أدر ما أصله فسرنا و قطعنا تلك المفاوز كلها من أرض تسمى ببرقة و هى أرض طيبة ذات مزارع و وادى العميان إلى أن أنخنا بمر الظهران بعد العشاء و يسمى وادى فاطمة و وادى الشريف و وجدنا به الشامى و المصرى خيما و بفور نزولنا رحل الشامى و تعبه المصرى آخر الليل و هو واد كبير فيه قرى متعددة ذات نخيل و بساتين و عيون تجرى و أعظمها القرية التى ينزل بها الحاج و فيها سوق و عين كبيرة و بساتين مؤنقة، وجدنا بها الثمار مزهوة، فالقلوب بالنظر لنضارتها من الأحزان مجلوة، مع ما غمرها من السرور بقرب الديار، و مشاهدة الآثار، ففرح الناس، و تزايد الإيناس، و أعبق عليهم بأرجه الأريج، و عرفه المتكاثر البهيج، شجر

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۲۶

الكادى ، باستنشاق الحاضر و البادى، فغمر عبيقه كل نادى، و لما بلغنا عام تعسة هذا الوادى، قلنا بعريش هنالك و جرى ذكر الكادى فى النادى، و سألنا عنه صاحب العريش و أخبر أن شجره كشجر النخل و بعث من أتانا بشىء من أوراقه و إذا فيها رائحة طيبة جدا و أوراقه عريضة، و أنواره و ميضة، فسبحان من يخص من يشاء بما شاء.

تكملة قال الإمام البكرى رحمه اللّه تعالى فى عد المراحل من بدر إلى هنا ما نصه ثم سرنا من بدر إلى قاع البزوة و تسمى طرق النجحان، ثم إلى عالج و جبل القرود و مكان يسمى ودّان، ثم نزلنا بسبيل محسن المشهور، و تنزهنا فى خضرة أعشابه و سرحه المعطور، قال الشاعر:

قد شكا لى بعض المحبين يوماظمأ الماء قلت ذا غير ممكن

كيف تشكو الظمأ و تجزع منهو بهذا السبيل أحسن محسن

و مدة المسير منه ثمان عشرة من الساعات، و عشرون درجة محررة بالميقات، ثم سرنا منها إلى بستان القاضى، و نسينا بقرب الديار تعب السير الماضى، ثم نزلنا برابغ محل الميقات، و تجردنا عن لبس المخيط بصدق النيات، و أحرمنا بالعمرة و الحج، عملا بقوله الحج العج و الثج ، و أهللنا بالتلبية لعلام الغيوب، و سألنا اللّه تعالى غفران الذنوب، و رأينا حفائ ماء تنبع، و مزارع بطيخ يتنوع، و مسجدا قديم الأثر، و يسمى ذا الجحفة كما ورد فى الخبر، و هو محل إحرام المصطفى، صلى اللّه عليه و سلم زاده اللّه شرفا، قال الشاعر:

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۲۷ تجرت لما أن وصلت لرابغو لبيت للمولى كما حصل الندا

و قلت إلهى عندك الفوز بالغنىو أنى فقير قد أتيت مجردا

و مدة المسير إليها ست عشرة ساعة بالتمام، و عشرة من الدرج ثابتة الأحكام، ثم سرنا إلى الجرينات و نزلنا بطارق قديد، الذى لا يحل فى حرمه للمحرم الصيد، و إرجاؤه واسعة المجال، كثيرة الوعر و الرمال، إلا أنها تبشر بقرب البلاد، و هى مواطن الأمجاد، قال الشاعر:

قد نزلنا بطارق لقديدو دخلنا حماك نرجو الحماية

فتفضل على عبيد وفودمنك يرجو دفع العنا و العناية

و مدة المسير إليها سبع عشرة من الساعات، محررة بالميقات، ثم سرنا إلى عقبة السويق، و هى عقبة عالية الرمال فى الطريق، ثم منها إلى خليص الشهيرة، و بعها فسقية من الماء كبيرة، يخرج منها إلى الديسة، و يحترز فيها من اللصوص أصحاب النفوس الخسيسة، ثم خرجنا من مدرج عثمان، إلى قرية عسفان، و بها البئر التى تفل فهيا سيد البشر، صلى اللّه عليه و سلم و هى بئر من يشرب من مائها زال عنه الضرر، قال الشاعر:

أن عسفان تسامت رفعةو علت قدرا على كل القرى

و بها بئر النبى المصطفىخير من صلى و صام و قرا

فإذا جئت لها كن محسنافعسى تحسب من أهل القرى

و مدة المسيرة إليها زاى فى العدد، معلومة فى العدد، ثم سرنا منها إلى جبل العميان، الذى تجتمع فيه الفقراء بقصد الإحسان، و نزلنا بالوادى، و هو نهاية سير

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۲۸

البوادى، و هو واد خصيب، يرى فيه طالب النزاهة أوفر نصيب، أغصانه زاهية، قطوفها دانية، و أطياره ناطقة، و جداوله دافقة، و مزارعه تنبت من كل زوج بهيج، و يفوح من أزهارها كل عرف أريج، و هى زائدة الابتهاج، و على كل حديقة سياج، فلو رآه مصرى من الناس، نمى الروضة و المقياس، به عشش تسكنها عرب البوادى، و بأرضه ينبت شجر الكادى، قال الشاعر:

يا حبذا واد فسيح الفضاأريجه قد عطر النادى

كم فيه من باغية قد زكتو فيه زهر الفل و الكادى

و كم ثمار و زروع بهو الماء فيه ينعش الصادى

قلت لخلى حين شاهدتهو لاح لى نور السنا بادى

هل دار ليلى قد تدانت لنافقال لى أنك بالوادى

و وصوله خمس عشرة ساعة فى السير، و خمس من الدرج بالتحرير، ثم سرنا إلى سبيل الجوخى المعروف، و رأينا جنان مكة دانية القطوف، ثم مررنا بمساجد ميمونة بالعمرة، و قد اقترن لسماء سموها كوكب الثريا بالزهرة، و لاحت لنا أعلام الديار، و مشاهد

المشاعر و الآثار، و وصلنا ثنية كدا، و بعدها المعلى التى بها مشاهد أهل الهدى، و كنا عند خروجنا من عدم الوصول خائفين، حتى تلقتنا هواتف البشائر لتدخلن المسجد الحرام أن شاء اللّه آمنين، فدخلنا من باب السلام، و شاهدن البيت و المقام، و طفنا طواف القدوم، و ذهبت عنا الهموم، و جئنا إلى محل الصفا، و سعينا فى طلب الوفا، و لما تم سعينا بالطواف، و حفتنا من عناية اللّه الألطاف، أقمنا بمكة بالإحرام، إلى سابع ذى الحجة الحرام، انتهى كلام البكرى.

و لنرجع إلى تعداد مراحلنا، و ذكر منازلنا، و لما اطمأن المنزل بنا بالوادى،

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۲۹

و لاحت لنا من أعلام القرب الهوادى، رحلنا آخر الليل سحرا، و ما جعلنا سوى شد الحمولة و طرا، فسرنا و نسمات الوصال تهب علينا، و بشائر التلاقى تترادف إلينا، و ظفرنا بمسرة ما ظفر بها مسرور، و لا طوى كشحه عليها مصرور، و قلنا بالقلوب و القوالب، الحمد للّه الذى أدنانا و أنالنا المطالب، و بلغنا جميع المئارب، و بلغنا سرف ضحى و بها قبر أم المؤمنين ذات النقيبة الميمونة، الهلالية السيدة ميمونة، رضى اللّه عنها و أرضاها، بمقاصير فراديس الجنان حباها، توفيت بهذا الوادى، و كان من غريب الأنفاق، الذى ليس للأذهان إليه انسياق، أن بهذا الوادى بنى بها سيدنا صلى اللّه عليه و سلم و رضى اللّه عنهما و كان تزوجها بمكة و هو محرم فى عمرة القضاء و بنى بها بسرف فى رجوعه و على قبرها بناء، و مسجد فزرناها خارج البناء، معظمين لرحمتها، راجين حسن بركتها، و زار من معنا من الحرم معظمات للحرم، و ركعنا فى مصلى النبى صلى اللّه عليه و سلم هنالك، و تجاوزنا نفرى المسالك، إلى أن جئنا التنعيم و قد متع النهار حيث المسجد المنسوب للسيدة عائشة رضى اللّه عنها بنى فى المكان الذى أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبد الرحمن رضى اللّه عنه بأمر من النبى صلى اللّه عليه و سلم فى حجة الوداع و من ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة فى المواسم و غيرها و هو أدنى الحل حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة تسمية للشىء باسم ما يقع فيه فنمنا هنالك و استرحنا، و طبنا و اطمأننا، و قمنا و توضأنا، و فى مصلاه صلى اللّه عليه و سلم ركعنا، فسرنا و تجاوزنا المكان المسمى بالزاهر و يسمى جنان مكة و به آبار و به قبر يذكر انه قبر الصحابى الشهير الإمام المشهور أبى عبد الرحمن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنها.

قال الإمام أبو سالم فقد صح انه مات بمكة بعد الحج فقيل أنه دفن خارجها

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۳۰

بوصية منه كراهية أن يدفن فى البلد الذى هاجر منه فمن قائل أنه بهذا الوادى و من قائل أنه بالوادى الذى بطرف المحصب و هو الذى شهره كثير من الناس إلا أنه ليس هناك قبر ينسب إليه قال و قد زرناه فى هذا المكان بحسن النية و أكثر الناس اغتسل بهذا المكان لدخول مكة اقتداء بمن قال إن هذا هو ذو طوى الذى بات به صلى اللّه عليه و سلم و اغتسل فيه و استحب أكثر العلماء الاغتسال فيه و التحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أن ذا طوى أمام هذا و ليس بينه و بين مكة واد آخر هو الوادى الذى وراء قيقعان و بأسفله الموضع المسمى بالشبيكة حيث الثنية السفى التى يخرج منها الحاج فأعلى هذا الوادى هو ذو أطوى و أسفله هو الشبيكة انتهى و نزلنا ذا طوى ظهر الأربعاء خامس ذى الحجة الخامس و العشرين من يناير و بتنا به فى مسرة أعظم بها من مسرة، لم تدع من العناء ذرة، و يا لها من مبرة، نولت كل قلب قرارا و كل عين قرة، فلما صلينا الصبح اغتسلنا غسلا خفيفا كما هى سنة المحرم لدخول مكة بذى طوى و بللنا بذلك غلة الجوى، فارتحلنا آمّين أم القرى، و دخلنا من باب المعلى، و هو الثنية العليا التى دخل منها المصطفى سيد الآخرة و الأولى، عليه أفضل الصلاة و السلام و إنما هما و أعطرهما و أزكى و هى المسماة بكدا بالفتح و قد بالغت الولاة فى حفر هذه الثنية و تنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة و مع ذلك ففيها صعوبة و منها يشرف على مقبرة مكة المسماة بالحجون و هى أحدى المقابر التى تضىء لأهل المساء كما تضىء الكواكب لأهل الأرض كما ورد فى الحديث.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فلنرجع إلى تعداد مراحلنا من العقبة إلى مكة المشرفة و لما أن قربنا العقبة دخلناها بشرهة عظيمة و نزاهة كبيرة و الحجاج قد شاك جمعيهم السلاح التام و قامت الصيحة و التنادى و ارتفع حس البارود و صوت البنادق إلى أن دخلنا منزل

العقبة فخيمنا فيه البيوت قرب الركب المصرى إذ وجدناه هناك و أقمنا فيه ما كتب لنا فى نشاط عظيم و تسوق قوى و فيها سوق لا يكاد أن يحصى ما فيها من

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۳۱

أنواع البز و الثياب و الأمتعة و الأطعمة و أنواع الخير من كعك و خبز و أنواع الطبائخ بتابل و غيره من أبزار منوعة الأجناس و مفترقة الأصناف فناقص العقل إن دخل السوق كاد أن لا يرجع بدرهم عنده غير أن اللّه مكن العقول و أثبتها فلم تكترث بما هنالك لما غلب من شوق الحبيب و محبته عليه الصلاة و السلام فلم تعتبر شيئا إلا الوصول إليه و مشاهدة أثره صلى اللّه عليه و سلم فخف عليها كل ما تشاهده من مشاق السفر و وعثه و كذا تغيب عما تشاهده من الملذوذات فطابت النفس بما قصدته و أرادته من التنقل فى منازل القرب و مراتب الإشهاد و مقامات السعود و الحضور و الاستبداد بما فيه الغنيمة العظمى و الفوز بحضرة العزيز الغفار لما به من الموبقات التى بها ل الإنسان يتعامى.

حاصله أننا أقمنا بها فى عزة و منع و سرور و جذل و فرح و هناء إذ أعظم شيء مذلة الأعراب الذين صدوا الحاج فى العام الذى قبلنا و قد أصابه خزى و ذل حتى إن الإنسان يأخذ بعض ما لهم فلا يستطيع أن يتكلم لما رأوا من شوكة الركب المغربى و قوته فجزاهم اللّه جزاء وفاقا لأنهم أخذوا ركب الحجاج الجزائرى و الطرابلسى بل أخذوا منهم كيت و كيت من الدراهم و بذلك خلوا سبيلهم و لو لا عطاؤهم ذلك و إقامة أمير مصر ما جاوزوا العقبة و لا مروا عليها بل فضل اللّه و جاه النبى صلى اللّه عليه و سلم انعطف عليهم و إلا لهلك كلهم أو جلهم فكل ما كان رحمة بهم فلما علم الحجاج أى ركبنا ما جاز عليهم أرعدوا و أبرقوا و ترجوا و اتعظوا فقاموا على ساق واحدة و رمية متحدة فما ملكت أنفسهم إلا القتال غير أن أعراب العقبة سكنت شوكتهم و طوى بساطهم و أنسد سبيلهم علما منهم أنهم لا يستطيعون مقاومة هذا الركب لا سيما و أن فيه أفاضل و صلحاء و علماء فالحمد للّه.

نعم أودع الناس فى القصر و دائعهم و بضائعهم لوقت الرجوع فلما ظعن الركب

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۳۲

المصرى و انفصل عن محله ظعنا فى أثره بعد ملء سقايتنا فإن مياه العقبة بين بين إلا أن بعض الآبار فيه ماء عذب و هو بندر عظيم يكاد أن يكون فى أسواقه مثل المدينة فيه يشبهها فى الارتفاق به و الاستعداد منه للزاد فترى الحاج كأنه جدد السفر لحصول الاستراحة فيه حسا فلا تعمل نفس ما فرق فيه من قرة أعين فيه ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأبصار فلا ترى فيه عوجا و لا أمتا يوم نزولها يتبع الداعى ما كتب له من الملذوذ و البز المتنوع و كذا الفواكه فيه صنوان و غير صنوان تساق من غزة و أطرافها من نواحى الشام فيشترى منها القانع و المعتر كل على حسب قدره و قوة زاده و ضعفه على أن أهل الأموال فى نزهة و تنعم فتجد أحدهم يشرب ماء النيل إلى مكة المشرفة و بعضهم إلى الرجوع.

و قد ذهبت أنا و الفاضل الأخ سيدى أحمد الطيب الزواوى إلى الكخية أعنى خليفة الأمير لأمر يتعلق بأمر أصحابنا بل بالركب جميعه لأن شيخنا الولى الصالح، و القطب الواضح، سلطان العارفين، و خاتمة المحققين، شيخ المريدين، الشيخ محمد الحفناوى بعث معنا مزبورة ليكون مع الحجاج فلما وصلنا إليه قام إلينا و عظمنا غاية التعظيم و مع ذلك هو فى رفعة عظيمة و مرتبة منيفة و معه عسكر عظيم لا يصل إليه الضعيف إلا بعد شدة كبيرة و انتظار قوى و أما نحن و الحمد للّه فبنفس سماعه بنا لقينا و أدخلنا محله الخاص به و ذلك المحل الذى هو فيه يخطف الأبصار فلا يكاد الضعيف يطمئن به و يسكن فى محله لاختلاف الألوان و كثرة الأوانى المزخرفة فجلسنا عنده ساعة إلا و الطعام حضر قرب الاصفرار فأتوا بالأطعمة المختلفة و الطبائخ المتنوعة فى الموائد المستحسنة لا يكاد أن يحصى ما عليها من الأوانى فأجلسنا عليها و ألح علينا فى أكلها.

حاصله هذا الأمر فى السفر فكيف هو فى الحضر نعم فما عندنا إلا الصبر و طلب

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۳۳

عوضه فی الآخرة و هـذا و أننا ظعنا منه علی خیر و عافیـة و منـة و فضل من اللّه قل بفضل اللّه و برحمته فبـذلک فلیفرحوا هو خیر مما یجمعون.

و لما انفصـلنا عن بندر العقبة و وقفنا علی الحصن الذی فیه العسـکر نعم الأعراب دائرة بالحصن علی عادتهم من اجتماعهم مع کونهم بسـلاحهم تأمین للسـلاح ینتظرون فرصـة أو غفلـة من الحاج یأخـذون ما بـدا لهم خلسـة و مکرا أو تتخلف بعض الرواحل فیأتون إلیها ظاهرین قهرا و نحن و الحمـد للّه سـلمنا من ذلک کله إذ الرکب معه هیبـة عظیمـة لا یسـتطیعون ذلک فتخلفنا علی العادة من التخلف شفقة علی ضـعفاء الرکب أنا و سـیدی محمد الشـریف الطرابلسی و من معه من أصحابه و کذا سیدی أحمد الطیب قل أن ینفرد عنا و ذلک من توافق الطبائع و نحن کـذلک من المشـی بالتدریـج علی شاطئ البحر فی آخر الرکب فما علمنا أحـدا من العرب وراءنا علما منهم لا قوة لهم بنا خفیة أو ظاهرا إلی أن وصـلنا شاطئ البحر قرب الزوال قبل وصولنا إلی ظهر الحمار فتوضأنا وصـلینا الظهر ثم رکبنا بغالنا فسـرنا ساعـة و إذا ببعض الإجمال لأصـحاب سـیدی محمد الشـریف المذکور وقفت من شدة السـیر و کثرة الحمل فذهبنا ساعة معها ثم خلفناها و أشـرفنا علی ظهر الحمار و فیه نخل علی شاطئ البحر و لا بأس به و فی وسطه آبار طیبة الماء عذبة من أحسن المیاه فسقت الناس إبلهم و ملأت سقایاتهم فلم ننزل بطرف النخل و إنما ینزل فیها الحاج بعد الرجوع و وجدنا ثمت آخر المصری بل جمیع الرکب لم یسـتقیموا علی المشـی و إنمـا ینتظرون اسـتقامة الأقطـار و رجوع کـل إلی موضـعه ثم صـعدنا العقبـة التی بعـد الآبار و فیها طریقان کما سبق و هی صعبة الصعود غیر أنها لیست طویلة جدا و الحمد للّه و إلا لهلک جلسه أو بعضه فلما صعدنا بعد الظهر فی حر عظیم نزلنا فی وسع کثیر و رحث قوی فوق العقبة لما علمت أن المغربی یمشی فی النهار بخلاف المصری فانه یمشی لیلا.

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۴۳۴

و هذه المرحلة قصیرة و مع قصرها أنها شدیدة الحر و الخوف من الأعراب موجود فان شوکتهم هناک قویة إذ طریقة ضیقة و قد تنزل الأعراب فی زمان الثمرة فیه فلما مر أکثر اللیل و إذا بالرکب ارتحل لیلا فسرنا بعض اللیل إلی طلوع الفجر [فسق من کان علی الخیل و البغال لنسـتعد لصـلاة الصـبح حسبما هو العادة منا فلما طلع الفجر] و تنفس الصبح صلیناه ثم رکبنا إلی وقت الضحی و نزلنا إلی صلاة الضحی کذلک کل یوم ثم سرنا کذلک إلی أن وصلنا إلی الشرف و قد ذکر وصفه الشیخ أعنی سیدی أحمد بن ناصر.

و یسـمی هذا المحل الآن أم العظام نزلناه عند وقت العصر ثم بتنا فیه علی خیر و عافیة ثم ظعنا آخر اللیل و الحمد للّه و لم تکن مرحلة أطول منها فإن الإبل أکثرها یموت فی هذه المرحلة لطولها و شدة تعبها فظعنا منها علی خیر و عافیة فسـرنا کذلک إلی أن وصـلنا إلی مغار شـعیب بعد الظهر و فیها نخل عظیم و غیضة کبیرة و ماء جار فلا یجری ماء إلا هنا و فی عیون القصب فی جمیع مراحل الدرب و قد تقدم أخبار مدین فیما سبیق و فیها بعض الخصب للدواب و للإبل نعم الحجاج یتأنسون فی هذا المنزل کأنهم حصـلت لهم راحة و سرور فـان خاصـة من توجه إلی بیت اللّه الحرام یشاهـد أنوار النبوءة و الرسالـة فی أرض الحجـاز فیتیسـر علیه حمل بعض الأثقال فإذا تجلی ربـه علی قلبـه سـبحانک ممـا حصـل لی فی الخیـال من بعض التوهمـات فی التجلی نعم نـودی فی سـره یـا موسـی المحبـة أنی اصـطفیتک علی الناس برسالتی أی الإلهام إذ لم ینقطع بالنبی صـلی اللّه علیه و سـلم و إنما انقطع به رسالـة الوحی و قال رسالة الإلهام أیضا فی سـره و أنی اصـطفیتک علی الناس بکلامی أی نـداء الحق یا أیها الحبیب و یا أیها العبـد فخذ ما أتیتک من التوجه إلی اللّه و کن من الشاکرین حیث أسعدک التوفیق

الرحلة الورثیلانیة، ج۱، ص: ۴۳۵

للتوجه للأماکن الشـریفة دون من یساویک فی البشریات فإن الأوانی تتشرف بما فیها من سر الملک و الملکوت، و نسیم الجبروت، و کذا بالمعانی قال الشاعر:

قلب بذکر اللّه أضحی روضةو واحد باللهو صار مزبله

ما منبت الورد کنبت غیرهو لا شذا المسک کریح البصله

لو سقى الحنظل شهدا دائماما أنبت الحنظل إلا حنظله

و قال أيضا:

و من حضر السماع بغير قلبو لم يتحرك فلا تلم المغنى

قلت هذه المنزلة شذاؤها طيب و أنوارها بينة فالعارف تجده فيها منشرح الصدر طيب الوقت منبسط الظاهر و الباطن لأن آثار المحبوب حاصلة فيه إلا من أصابه زكام محبة الدنيا فهو لا يشم شيئا من هذه العواطر الإلهية و الروائح النبوية و ذلك معلوم فى الشاهد ثم ظعنا منها ليلا أيضا على ما أسلفناه إلى أن وصلنا عيون القصب و فيها ماء حار عذب قريب من البحر و هو كثير القصب و ذكر وصفه شيخنا سيدى أحمد بن ناصر و كذا ذكر المسجد الذى يزار هناك فنزلنا به عن صلاة العصر و نزلنا على أكمل الخير و أتم العافية و ارتحلنا أيضا ليلا ثم كذلك على ما علم منا من جد السير على شاطئ البحر إلى بلوغ بندر المويلح و قد نزلنا عند الظهر و اللّه اعلم و هو بندر عظيم كثير الأرزاق ثم أن أسواقه تامة و فيها ما لا يحصى من أنواع النبات و الأطعمة المختلفة و الملابس المزخرفة و الطبائخ المنوعة و علف الدواب كثير و فيه مرسى قوية النفع و أن هذا البندر أعظم بنادر الدرب نفعنا و أسرعها لقضاء الحاجة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۳۶

فلا تعلم نفس ما يوجد فيه من منافع الخاصة و العامة فلا حرج إلا فى قلة الفلوس و ضعف اليقين و عدم الصدق فى التوجه مع الحق و مع الخلق فالذى زلزلت أرضه بالبهتان و الكذب و الخيانة و عدم الحياء من اللّه و من الناس قل أن تصحبه السلامة فى دينه و دنياه نعم هذا البندر فيه آبار كثيرة و مياه عظيمة مفترقة و فيه نخل كثير و بساتين متعددة و كذا زروع لا تحصى و هو حصن قوى عامر بالعسكر و بالبيوت الكثيرة و الديار المتعددة.

حاصله قد سكن فيه من شاء بنية الإقامة و إن الحاج يضع فيه أمتعته إلى الرجوع من الحج يتزودون به إلى مصر و قد وضع أصحابنا ما فضل عنهم من الزاد و ما لا يحتاجون إليه من الأمتعة و كل ذلك بأجرة ثم أقمنا فيه ما كتب فى أكمل حال و أتمه و ما معنا إلا البركة و الحمد للّه على ذلك و قد ظهر فضل اللّه علينا و على أصحابنا و تمت عندنا النعمة فلله الحمد للّه و المنة نعم انفصلنا عنه فى عافية فسرنا على شاطئ البحر ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى آبار السلطان و هو محل عظيم ينشرح فيه الصدر و تلتذ به الأعين و تنبسط إليه النفس فلا ترى أحدا إلا اطمأن قلبه به غير أنه كثير السراق من متلصصى الأعراب فينبغى للإنسان أن يحتاط فيه بمزيد الحذر غاية جهده و هذا المحل كان لا ماء فيه و إنما حفر آباره الأمير إبراهيم إذ هو الذى تسبب فيه و كمل ذلك أخوه بوصية أخيه المذكور كما تقدم فى كلام شيخنا المذكور و يسمى هذا الموضع دار أم السلطان و ماؤه عذب سخن سريع الانفصال كما سبق ثم ظعنا منه سائرين و مررنا بالمضيق الموسوم بشق العجوز و سرنا عن يميننا و عن يسارنا جبال سلمى و كفافة و مررنا بقبر الشيخ مرزوق المتبرك به دائما و عليه أعواد دليل عليه فيزوره من يعرفه ثم كذلك فنزلنا ببندر الأزلم بين الظهر و العصر و فيه ثلاث

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۳۷

آبار كبار محكمة البناء و ماؤها غزير إلا أنه مر يصلح للإبل فقط و لضرورية الناس من غسل و نحوه و لا يسيغه إلا المضطرون و بتنا فى ذلك المحل فى أكمل حال ثم ظعنا منه و سرنا بين جبلين فى مضائق و عقبات صغار إلى أن وصلنا إسطبل عنتر قرب العصر و فيه ثلاث آبار و ماؤها حلو إلا أنها قليلة الماء يستقيه الناس للشرب غير أنه لا يكفيهم فلا تكاد الإبل تطمع فيه ثم ظعنا منه و مررنا بوادى الأراك و هو واد واسع كثير الأراك الأخضر الناعم و بعده مضائق بين جبال صعودا إلى أن وصلنا بندر الوجه عند العصر و اللّه أعلم و فيه حصن حصين فى حرف واد كبير بين جبلين كبيرين و الناس نازلون أطرافه إذا كان ليس الوقت وقت سيول و إلا ارتفعوا عنه و فيه آبار و التى فوق البندر أحسن من التى تحته و فيه داخل البندر بئر ماؤها عذب طيب [و فى أعلى الوادى ماء بين جبلين يسمى الزعفران إلا أنه قليل الماء كما تقدم عن شيخنا و ماؤه طيب] غاية ثم ارتحلنا من الوجه صبيحة و نزلنا الأكره بين المغرب و العشاء على حرف الآبار فسقى الناس إبلهم و دوابهم ثم إن ماءه لا يكاد أحد يسيغه لحرافته مرارته إلا بعض الآبار فأنى قد وجدت فيه ماء

يكاد أن يكون عذبا من جهة المشرق و هو بئر قريب من الغيضة فى وسط الوادى.

و قد حكى لنا بعض الناس من الركب انه وجد بئرا ماؤها عذب طيب و ذلك يستغرب فى هذا الموضع و هذا المنزل أشد منازل الدرب و أصعبها مرارته مائه و كثرة حره و سخونة ربحه فيشتد ذلك على الحجاج حتى يهلك كثير منه بالعطش و أن ماءه خبيث أخبث شيء فى هذه المراحل فترك مائه متعين لأنه مضر فلله الحمد على سلامتنا منه.

ثم ارتحلنا إلى أن وصلنا إلى الدركين قرب العصر و هو منزل الحاج المصرى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۳۸

و سمى بذلك بئر درك أعراب مصر و أعراب الحجاز فان ما بعده من أعمال الحجاز إذ تتغير بعد ذلك البلدان و يتضح أمر الحجاز و تباين الجبال ما بعدها لما قبلها و يشتد شبهها لجبال مكة لسوادها.

و فى هذا المحل غياض من شجر الطلح و هى من أنواع الكلأ الذى ترعاه الإبل كثيرا إلا أنه لا تترك للرعى لأن المحل مخوف تغير فيه الأعراب إلخ ما ذكرناه آنفا.

ثم ظعنا منه إلى أن نزلنا الحوراء عند العصر و تفرق الناس فى مياهها و هى حفائر على ساحل البحر يحيط بها ديس كثير و فيها ملوحة قوية و قريب العهد بالحفر أجود من غيره و هو مكثر للإسهال لا سيما مع الإكثار منه و هو مفرط فى علة البطن كماء الاكر و الأزلم و عجرود و من أمثال الحجاج لا رجال إلا رجال الحوراء و لا جمال إلا جمال الدورة أى الرجعة من مكة و فيه الآن آبار قد حدثت أحدثها بعض الناس و هى بعيدة عن ساحل البحر و ماؤها أطيب من القديمة و أجود و عليها ينزل المصرى فى عصرنا هذا و كذا سائر الأركاب و قد علمنا عذوبة مائها أن لم يطل جدا و إلا خبث كالقديم.

ثم ظعنا منه آخر الليل فصلينا الصبح مع جماعة الفضلاء فى الوادى المضيق ثم سرنا فى تلك المضائق إلى الوادى المسمى الآن بوادى العقيق بل تسميته بوادى العقوق أولى لتلصص أعرابه و جرأتهم على الناس بالسرقة ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى النبط بين الظهر و العصر فيه آبار أربع محكمة البناء بالحجر و الصخر و ماؤها عذب حلو طيب غزير لا ينقطع مدده.

و فى هذا المنزل تنشرح النفس و تمرح فيه لطيب مائه و حلاوة مكانه و طلاوة منظره و قربه من الأماكن الشريفة و المآثر كالينبع و نحوه ثم أرتحلنا منه أيضا ليلا أى

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۳۹

آخره ثم سرنا كذلك إلى أن دخلنا وادى النار و هذا الوادى قد وافق فيه الاسم المسمى إذ لا يخلو من شدة تقع للحاج فيه من عطش و موت و مرض و هو واد كبير قد انطبق عليه الجبلان من النبط إلى الخضيرة فلا ينفذ فيه الهواء غالبا لأن الهواء إذا تحرك بالرياح انطبق عليه الجبلان فينعكس الريح إلى ما وراء و تحدث الحرارة و السموم فى الهواء فينشأ الهلاك منه و لا ماء هناك من النبط إلى الينبع فإذا قبح الهواء مع الحرارة مات من الناس ألوف مؤلفة فى أسرع مدة فيأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت و قد صار ذلك فى رجوعنا.

نعم اشتد بنا العطش أنا و جماعة من الفضلاء كثيرا قرب وصولنا إلى النبط و إذا بأعرابى أتانا بقربة ماء عذب و أظنه من ماء المطر بارد كأنه من ماء الثلج و سقى جمعينا لوجه اللّه العظيم و لو طلب الدراهم لأخذ منها كثيرا لقرب الموت و الهلاك منا فاستغربنا حال الرجل و ما صدر منه إلينا من غير طلب شيء و لو دعوة خير إذ عادة الأعراب لا يعطون شربة الماء إلا بفلوس كثيرة لا سيما عند العطش و نحن و الحمد للّه قد وقع بنا فضل عظيم وجود كريم.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا الخضيرة أوان العصر و هذا المنزل لا ماء فيه أصلا و بتنا فيه على أحسن حال و أتمه و ارتحلنا منه آخر الليل ثم كذلك إلى أن صلينا الصبح و قطعنا الأمكنة المسماة بسبع و عرات فخرجنا إلى متسع من الأرض و بلغنا إلى ينبع النخل بين الظهر و العصر فى حر شديد و وجدنا المصرى نازلا هناك فنزلنا حذاءه الفلالى و الجزائرى و الفزانى فلما خيمنا البيوت تفرقت الناس

على المياه و شراء علف الدواب و ما يحتاجونه من الزاد إذ سوقه عظيم و نخله كريم و استبشر الناس بوصولهم إلى هذا المحل لأنه أول بلاد الحجاز بالعمارة و فيها قرى كثيرة و مزارع و نخل و عيون جارية و هو انتهاء موضع وصله صلى اللّه عليه و سلم و فيه أخبار

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۴۰

المدينة و مكة و غيرهما و الحاج إذا وصل هناك كأنه وصل إلى مكة.

و هذا المحل تزهى فيه النفوس و هو روضة من رياض اللّه تعالى تصلح للمنقطعين و للغرباء و المساكين و هى باب من أبواب اللّه تعالى يتيسر فيها الذهاب إلى المشرق و المغرب لأنها مرسى و فيها أسواق كثيرة فلا تكاد تنعدم فيها الخيرات، و تقضى فيها جميع الحاجات، و فيها غالب الحبوب و الثمرات، و كذا الخزبز أعنى الدلاع و جميع الأقوات، و المشتهات فأقمنا فيها ما شاء اللّه ثم ارتحلنا منه مع المصرى قرب الزوال إلى قرب الاصفرار فنزل الركب المغربى و معه أهلنا و أنا قد وقع لى غيظ من أجل ظلم الحجاج بعضهم بعضا فأقسمت باللّه أنى لا أبيت معهم فسرت مع الركب المصرى راكبا على بغلتى مع بعض أصحابنا و هو الحاج يوسف إلى أن شرفنا على بدر بعد صلاة الصبح و عند طلوع الشمس هبطنا بين الكديتين من الرمل ثم مر بنا على الحجارة المجتمعة التى يظنونها اليوم أنها قبور الشهداء و ليست هى و إنما قبور الشهداء ناحية القرية فوق منزل الركب و قد زرناها و الحمد للّه فلما نزل الركب المصرى ذهبت أنا و صاحبى الحاج يوسف الشيبانى إلى قرب القرية لنستظل بظل جدار المدشر فجلسنا هناك ننتظر الركب المغربى إلى أن وصل و نزل أعلى الركب المصرى قرب الجبل و بينما أنا كذلك و إذا بأخينا فى اللّه سيدى محمد المحفوظى قد رآنى عند السقائف التى تشرب فيها القهوة فأخذ بيدى و ذهب بى إلى شيالة المصرى و دخلت خيمته ففرح بى فرحا شديدا فقام فجعل لنا الغداء و تكرم علينا غاية و أخذت فى القيلولة عندهم و كل ذلك أنا و الحاج يوسف المذكور إلى أن صلينا الظهر و زال حر النهر فذهبنا إلى أصحابنا و أهلنا فنزلنا ذلك اليوم و أقمنا الذى بعده وزرنا فيه قبور الشهداء ضحى فاجتهدنا فى الدعاء عندها إلى أن حصل لنا وجد عظيم تكاد النفس تزهق من شدة ما تجلى لها من الأنوار التى هى حاصلة منه صلى اللّه عليه و سلم و من أصحابه الذين قاتلوا هناك رضى اللّه عنهم و أرضاهم.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۴۱

و قد قيل أن صوت الطبل الذى وقع به النصر للنبى صلى اللّه عليه و سلم يضرب هنا و يسمعه من خصه اللّه بتلك المزية العظمى و قد سمعته فى الحجة الأولى و فى الثانية و هذه على شك إلا أن بعضهم يقول هو حوافر الدواب تضرب بأرجلها فتسمع كالطبل و قال بعضهم الريح تهب و تلتقى مع بعض الأجرام الخاوية فيردها حائط الجرم فيسمع صوتها كالطبل و هذا من التأويل المرجوح استبعادا لأن يبقى صوت الطبل إلا الآن إعجازا لقدة الإله بل ذلك سائغ و واقع غير مستبعد و هو من معجزاته صلى اللّه عليه و سلم الباقية إلى الآن غير أن بعض الأكابر الثقات اعترفوا بها و صدقوا بذلك يقينا و بعضهم يقول إنما هو تخيل بعضهم ينكر أصله و يقول بنفيه بل الحق الذى اجتمع عليه أهل الخير قاطبة و أنه واقع قد سمعه خاصة كل ركب بل كاد أن يكون أجماعيا.

نعم قد سمعت ممن يوثق به أنه سمعه الناس فى غير أبان الحج فلم يبق إلا تسليمه أو التصديق به.

نعم الذى يحتاط بنفى ذلك عن نفسه لا أنه يقول لا أصل له أو يؤول أن طبل الناس من المصرى يتأخر فى الطريق فيسمع صوته فيظن الناس أنه طبل القدرة و لو كان الأمر كذلك ما وجد صوته إلا يوم دخول الركب البندر و قد سمعناه يوم الإقامة بعده.

نعم الصوت شاهدناه فى ذلك المحل قطعا كما شاهدنا الأنوار تبرق جهة المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام و إن قال بعضهم أنها أبراق تلمع لأن الحجاز تكثر فيها الرعود و الإبراق غير أنه و ان احتمل ذلك فالحق أن البرق و النور متباينان فلا يلتبس أحدهما بالآخر أصلا و فوق كل ذى علم عليم.

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۴۲

و بدر هذه قرية عظيمة حلوة طيبة روضة من رياض البلدان من رآها يتمتع بنظرها و يشاهد فيها أنوار الجلال، و لوائح الجمال، كأنه

صلى اللّه عليه و سلم مستقر فيها لم يغب فصورته صلى اللّه عليه و سلم و صور أصحابه هناك تشاهد لدى المحبين فتنبسط النفس هنالك أتم انبساط فهى تمرح فى تلك الرياض، و تتردد فى تلك الحياض، فما زالت قائمة على أصول التجليات، و المشاهدات، لأثار النبوءة فتجد العارف باللّه منشرح الصدر، مستنير السريرة، منور البصيرة، عالى الهمة، قوى المحبة، تعلوه أنوار، و تنفتح له أسرار، و تنكشف له أمور فينسى كل قريب له، و محب لديه، بما شاهد فكأنه عروس فبدر من أعياد العارفين، و مواسم المقربين، فى ضيافة حبيبه صلى اللّه عليه و سلم و نزول فى مقعد صدق عند مليك مقتدر يطمئن قلبه باللّه و بمحمد صلى اللّه عليه و سلم و أصحابه و كيف لا و هو محل النصر من اللّه و أن ملائكته قد قابلت أعداء اللّه هنالك فلا تعلم نفس ما حصل لمحبيه صلى اللّه عليه و سلم.

و أن هذه القرية قد توطنها الأشراف و نزلوا بها من قديم الزمان و فيها أهل السنة و كذا الزيدية أعنى الخوارج الظاهرية و هم فى الاعتقاد قدرية و فيها نخل كثير و بساتين و ماؤها طيب حلو عذب و فيه أيضا بركة تكفى الأمصار العظيمة فضلا عن الأركاب و هى مستمدة من عين هناك و فى بدر توقد النيران الكثيرة و النزهة القوية و هى أزيد من كل بندر بشىء كثير ثم انفصلنا عن هذا المحل على خير و عافية و منة و فضل عظيم بعد انفصال المصرى عند الظهر و مررنا بواد ثم كذلك إلى وقت العصر فصلينا العصر بعد خروج ذلك الوادى فسرنا فى أرض متسعة واسعة سهلة طيبة غير أن الهواء تقوى علينا ثم كذلك إلى بعد العشاء فنزلنا و البعض خيم

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۴۳

البيوت و البعض إلى أن طلع الفجر و تنفس الصبح ارتحلنا فى فرح و سرور و نشاط كبير فرحا بقرب الوصول و الوصال، إلى الأماكن الشريفة و حضرة الاتصال.

نعم تقوى علينا شذاء القرب من الرب الكريم فتشنفت الأحوال و النعوت، فربحت تجارة الحاج بمجاورة اللهوت، ثم كذلك إلى أن وصلنا قاع البزوة و هى محل نزول الركب عند الزوال فوجدنا المصرى إذا راحلا و قد أدركنا آخره فلم ينزل ركبنا هناك بل جاوزنا سائرين آخر المصرى ذاهبين معه إلى وقت المغرب فنزلا و بتنا و الحمد للّه فى عافية و سرور بقربنا مكان الإحرام و المصرى سائر على حاله إلى قرب طلوع الفجر فارتحلنا منه آخر الليل ثم كذلك مجدين السير إلى منزل يقال له مستورة و هى بلدة طيبة و وصفها كما ذكره شيخنا سيدى أحمد بن ناصر.

ثم ارتحلنا منها أيضا فجد بنا السير ليلا و سرنا فى الليل إلى وقت الضحى فقربنا منزل رابغ نعم دخلنا وادى رابغ من جهة المغرب عند قوة حر النهار قرب الزوال [فدخلنا رابغ و وجدنا المصرى قد خيم فيه و نزلنا فوقه قبل الزوال] و بعض الركب يستظل بالنخل و البعض بالبيوت إلى أن حان وقت الظهر فصلينا الظهر ثم أقمنا نستعد لأحوال الإحرام، و كثير من الركب لا يعرف أحكام الإحرام، فصار جميعنا معشر الطلبة نعلمهم فرائض الإحرام، و سننه و شرائطه و موانعه و الناس كلهم ذكور و إناث فى غسل و اغتسال، و غسل ثيات و موانع الإحرام فى انتقال، حتى قرب وقت العصر فآن إحرام الكل فشمرنا عن ساعد الجد، ليتأهب جميعنا لما فيه الكمال بالكد، و رمينا ما كنا بصدده من مجاورة الضد، و نبذنا ما كنا عليه من مجاوزة الحد، بل طوينا مسافة الإعراض، و متابعة الدنيا و ما فيها من الأغراض، و سعينا لما فيه رضاه، و فعلنا ما أمرنا به و ارتضاه، و أزلنا ثياب الحياة، و لبسنا ثياب الممات،

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۴۴

و حنطناها كالكفن، و أيقظنا العيون و الجفن، و قصدنا بالإحرام الانسلاخ، من طبائع الاجباح التى هى كالسباخ، فوجهنا النفوس لعلام الغيوب، و ما مسنا فى ذلك من لغوب، و لبسنا الأزرار و الردا، و تركنا ما طغى منا و اعتدى، و أزلنا أيضا المخيط و المحيط، ليتسع الوارد علينا و ينبسط، و يتحلى كلنا بالرضى و ما به الإنسان يغتبط، فالحج قصد للمولى، و ارتباط و ترق لمراتب العلى، بعد غسل القلب من الأدران، و يطلب حينئذ المحرم غاية الغفران، و يتهيأ للوصول إلى ما به الامتنان، سمعا و طاعة لما فيه رضى الرحمان، فصلى المحرم ركعتين، على نوعى الكونين، فبالتكبير لم يبق فيه قلبه أحد الثقلين، فلما استوى قائما فى حضرته، قال لبيك اللهم لبيك و سعديك فى فضله و رحمته، فقال له الرب جل جلاله تفضل عليك الإله بمنته، ثم تجلى بما هو أعلى فتدلى له ربه و هو فى منصته،

فكان أقرب إليه، من ريقه فى فيه، قربا من سطوته، فصار محرما بإحرام البشر، و هو فى الحقيقة غيب نفسه عما لا يعتبر، و عن الأكوان بمشاهدة المكون و لكنه الذات يعتمر، فأناخ نفسه ليحمل عليها أعباء التكليف، و يشد عليها أحمال الحقيقة مع الهودج من التعريف، فجمع بين الذكر و التذكر، و السعى و التفكر، و المعرفة و الشكر، متوجها لبيت اللّه الحرام، بالشوق و العشق و قوة الغرام، فركب مركوب العز و التقوى، و نال من اللّه الفوز و القرب و الغاية القصوى، حينئذ قد زالت بشريته، و انبسطت عليه روحانيته، فإذا نطق نطق به، فيه يسمع و يبصر به، هذا هو الإحرام على التحقيق، و صاحبه معزول عن التعويق.

نعم هذا صاحب الإصابة و السعد و التوفيق و هذا رابغ، مشتهر و سائغ، و رضة العز و الدنو و القرب، و فيه المشاهدة و المجاهدة و الحرب، و الإغاثة من كل شدة و كرب.

هذا و انه قرية عظيمة كثيرة المزارع و المقاثى و النخل و المياه و سوقها عظيمة

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۴۵

و فيها النعال الكثيرة مستعدة للبيع قبل أوانه، مدخرة لزمانه، غير أنها غالة الأثمان، و بعد امتثال الناس أوامر الرحمان، انفصلنا فى غاية المنة و الفضل و الشكر للّه تعالى لما وصلنا إلى ميقات الإحرام فلم يعقنا عائق، و لا أرهقنا شىء مانع غير لائق، فانفصل الكل بالتلبية و الإحرام، مع الخضوع و الخشوع و الدعاء لجميع الأنام، بالتقشف و التذلل للرب الكريم شعثا غبرا منكثين الرءوس، فرارا من غضب اللّه و المقت و الباس و البوس، يطلب جميعنا رحمة المنان، و المغفرة و العفو من الرحمان، قد أصابنا شدة الحر، حتى انسلخ الجلد عن الرأس و الظهر، فما أرعوى أحد بذلك، و لا رجع و انزجر بما هنالك، لعل اللّه أن ينظر إلينا بعين الرحمة، و يغمس جميعنا فى بحر النعمة، حشاه من كريم أن لا يمن على وفده بجنة الرضوان بذهابه و عوده و وقت انفصالنا عنه بعد صلاة العصر بمدة بل قبل الاصفرار سائرين فصلينا المغرب ثم كذلك إلى أن صلينا العشاء كذلك ساعة طويلة نزلنا فبتنا خير مبيت و أقمنا ليلا فارتحلنا فى مدة من الليل ننتظر الصبح إلى أن صليناه ثم كذلك و كان ذلك اليوم يوم حر شديد بحيث لا يقدر الإنسان أن يقف للشمس حتى أصاب الحر كثيرا من الناس فحملهم ذلك على أن غطوا رؤوسهم لأن الدين يسير و لن يشادّ أحد هذا الدين إلا غلبه و اللّه تعالى يقول: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ إلا جماعة الأفاضل فلم يغط أحد رأسه و هو الفاضل سيدى احمد الطيب و مثله سيدى أحمد بن حمود و سيد محمد الشريف الطرابلسى و الفقيه سيدى أحمد عياض و سيدى محمد بن خثوش رحمه اللّه و أصحاب الجميع كالأشراف منا و كذا أهل وطننا فلو غطينا رءوسنا ما بقى أحد إلا غطى رأسه و أما أمير الركب فقد غطى رآه و كذا جميع من كان معه من كبار الركب و بالجملة فلما اشتد الحر علينا غطى جل الناس رؤوسهم لقيام العذر بل كاد أن يكون ما فعلناه من عدم التغطية أن يكون منهيا عنه نعم ثم سرنا كذلك فى تلك

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۴۶

الرمال أول النهار غير أن فيها حرا عظيما من طلوع الشمس إلى غروبها إلى أن نزلنا قديد و هى قرية غالب أبنيتها حيشان و قهاوى و فواكه تباع و لا ماء فيها إلا ما يسقى من بعيد نزلنا عند الظهر و ما خرجنا من تلك الرمال القوية الواسعة التى تتيه فيه الأركاب بعض الأحيان إلا بمشقة عظيمة.

و قد بتنا فى قديد ثم ارتحلنا منه آخر الليل سائرين إلى طلوع الفجر فصلينا الصبح فى جماعة ثم ركبنا و سرنا كذلك إلى عقبة السكر فصعدناها و هى صعبة على الجمال و الرجال لا سيما من صعدها فى زمان الحر غير أن من علم قرب الوصول إلى مكة المشرفة هان عليه أمر ذلك و سهل عليه حالها و أشرفنا على الكدية التى بها البناء المعلوم و فيها أبنية كثيرة نعم من وصل هناك شم رائحة الجوار و استراح من التعب بل الإنسان يغيب عن حسه إذا وصل إلى ذلك الموضع و يتقوى عليه شذاء تلك الأماكن العالية و المواضع الطيبة فلا تجد أحدا إلا انبسط وجهه و انشرح صدره و تمكن قلبه و اطمأن باللّه صدره و طابت بذلك نفسه و بتجلى البيت انخشع قلبه و تتزاحم الأركاب و تتلاحم حتى لا ينعطف بعضهم على بعض رحم اللّه الجميع بمنه و كرمه.

و قد زرنا ذلك المح و قد قيل فيه مسجد للنبى صلى اللّه عليه و سلم و لما هبطنا تلك العقبة سرنا فى طريق ذات أحجار كثيرة و أوعار صعبة بينها و بين خليص ثلاثة أميال فسرنا غير بعيد إلى أن دخلنا على خليص و فيه عين جارية قوية ساقيتها مبنية محكمة البناء لا تجد أعظم منها بناء و فيها بركة عظيمة عميقة يعطب فيها من لا يحس السباح لعظمها و منها تجرى ساقية إلى أرض الحراثة و فيها مزارع و مقاثى و بساتين و أكثرها الدخن و فيها قرية حلوة طيبة لا يكاد الإنسان يحزن فيها بل داخلها منبسط

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۴۷

على الدوام إذ يغلب آثاره صلى اللّه عليه و سلم فيها و يتقوى شهوده بتحقيق النظر فيها ما أعذبها من قرية و ما أحلاها من منزلة و أسعده من موضع كأنه صلى اللّه عليه و سلم خيم هناك فترى الأنوار ساطعة و اللوائح مشرقة، و لوامع النبوءة منبلجة، و سر الكائنات صلى اللّه عليه و سلم يلاقينا بالرحب و التكرمة و التحية الطيبة و الأوصاف السنية صلى اللّه عليه و سلم و شرف و كرم فقد زال الحجاب عن الخاصة من خلقه فشاهده محسوسا طالعا فى فلك الأقبال، و أزهى نوره فى عوالم الوصال، تغدر الحجاج خماصا و تورح بطانا بالتمتع بالنعيم الشريف، الذى لا يكيف، فلا يدرك إلا بذوق مثله و فى خليص تتنعم النفس برؤية من الكمال التام و الشفاعة الكبرى صلى اللّه عليه و سلم و حينئذ ترى الوجوه تتلألأ- نورا إذا هب عليها نسيم الوصل فيتعطر شذاء قرب المنزل فتكون النفس شائقة خافقة فيردها قفص البدن فيعصهما اللطيف القوى فيحنئذ ننظر الوعد الربانى، و الفتح الصمدانى، ساعتئذ أن لم يصبها وابل فطل.

و قد نزلنا خليص عند الضحى الأعلى إلى وقت الظهر فصلينا فيه جماعة و بين الظهر و العصر انفصلنا من خليص و ارتحلنا منه إلى أن حان وقت العصر فصلينا جماعة ثم كذلك إلى قرب المغرب أشرفنا على العقبة التى يصعد منها إلى الثنية التى يهبط منها إلى عسفان عند المغرب و الطريق فيها مبنية ملتقطا أحجارها كعقبة السكر إلا أن هذه أطول منها و أسهل و بأحد جانبيها مسجد.

فلما خرجنا العقبة وصلنا عسفان و مررنا كذلك عند العشاء سائرين غاية الناس أن بعضهم شرب من ماء عسفان تبركا بآثاره صلى اللّه عليه و سلم إذ قد قيل أن ماء بئرها كان مرا فتفل فيه صلى اللّه عليه و سلم فصار حلوا طيبا و ماؤها عذب كماء خليص و ان كان سخنا و هذه البئر التى تفل فيها صلى اللّه عليه و سلم سمعنا بها قبل

الرحلة الورثيلانية، ج ۱، ص: ۴۴۸

و ليس ذلك من ألسنة العوام فقط كما قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر بل سمعناه من أهل العلم بل من كتب التاريخ نقلناه و فى خليص مسجد و لا- أدرى أنه للنبى صلى اللّه عليه و سلم أو لا- و سرنا ليلا- و قطعنا تلك المفاوز بل لم انفصلنا عن خليص فى ليلة مقمرة بعد صلاة العشاء بأمد سمعنا النساء يصرخن و لهن صوت التولول كان عروسا تزف لزوجها و صوت البنادق و البارود و غير ذلك من أصوات الناس [التى تدل على الفرح فلما سألنا عن السبب قالوا نوره صلى اللّه عليه و سلم هو الذى يلوح و يلمع] فلما نظرنا أبصرنا نورا يلمع و يلوح جهة اليسار نحو المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام يلمع كالبرق و هو يخفض غير انه ليس كالبرق لأن له لونا يخالف سائر الألوان كأنه حديث عهد من ربنا طرىء النزول، ليتم سرور الحاج و يستبشر بالقبول، و يترقب كرامة النزول، فلا أقل أنه من كرامة الحاج و ان احتمل أن يكون من البرق لكثرة رعود أرض الحجاز نعم الرعد بين و علامته ظاهرة و أثاره سحاب و تغير فى الهواء بالتحرك و ان لم يكن معه مطر.

و أما ما وقع هذه الليلة فلا رعد و لا ريح و لا حركة و لا تغير فى الهواء بل و لا سحاب أصلا و لا غيم بل السماء صاحية و ليس فيها شىء من السحاب أصلا و إنما هو النور الذى تواتر نقله عن الحجاج قديما و حديثا لا مجال لجحوده فهو من فضل اللّه الذى يجب الإقرار به إذ ليس خاصا بأحد حتى يقع للإنسان فيه شك أو طروق احتمال خوفا من الاستدراج أو تمكن به النفس الأمّارة و قد اتفقت كلمة الناس من القرون الماضية و العلماء السالفة و الصلحاء الخالية و الأولياء السابقة و العامة و الخاصة أنهم يرونه و أنهم يعرفون حال البرق فلم يحصل لهم شك أنه ليس هو بل أطبقوا على أنه نوره صلى اللّه عليه و سلم فمن طرّق الاحتمال فيه فقد طرق

الاحتمال

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۴۹

فيما لا يخفى انه نور لأن البرق لا يلازم جهة المدينة المشرفة و إنما يختلف بحسب الجهات و هذا لا يرى إلا من جهة طيبة كما شاهدنا فى غير هذه الحجة و هذا معلوم عند الحاج سابقا و لا حقا فلا يخفى أمره و اللّه اعلم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده ثم أعلم لما سرنا كذلك إلى مغيب القمر نزلنا و بتنا مفترقين و أننا تهنا أعنى الركب شيئا قليلا عن الطريق غير أننا سبقنا أول الركب فلما قرب طلوع الفجر أرتحلنا و سرنا إلى أن صلينا الصبح فى جماعة فقطعنا المفاوز و بعد الضحى الأعلى دخلنا الشجر القريب من الجبل المشرف على وادى فاطمة يسمى جبل العميان الذى يجتمع فيه الفقراء لقاصد الإحسان نزلنا بالوادى و هو نهاية سير البوادى عند الزوال بل قبله بقليل نعم الحر فى ذلك النهار قوى عظيم كأن النار اضطرمت فى الأرض و اشتعلت فيها بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إلى الماء و إلى السوق فلما تحرك نسيم الرواح، [و استبشرت الناس بالأرواح، أذهب علينا ريح التلاقى بالغدو و الرواح] ، لم يبق لنا نص و لا تعب لما ذاقته الأرواح، من لطائف الوصل بالمحبوب، و قرب مشاهدة جوار علام الغيوب، لا خير فى أوقات الحياة سوى وقت رؤية آثار المحبوب، فتزاحمت الواردات الإلهية على القلوب، فزال السدد عن أقفالها من غطاء الحجب، فلا يسمع المحب حسيسن اعتراض النفس، و فى ذلك الوادى ما تشتهيه الأنفس، و تلذ الأعين لا سيما فتوحات الجبار، ترد هناك على الإنسان من غير اختيار، فليس على مثله للإنسان اصبطار، أن رحمة اللّه قريب من المحسنين بلا افتخار، و فى هذا الوادى مياه كثيرة، و عيون جارية، و بساتين مشهورة، و مزارع قوية و فواكه مختلفة، نعم بقينا هناك إلى أن حان وقت العصر فصلياه جماعة ثم تأهبنا للرحيل فلما حان وقت العشاء ارتحلنا من الوادى بفرح و سرور بالوصول

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۵۰

إلى بيت اللّه الحرام، و كل ما أصابنا من تعب و نصب كطيف المنام، فلما حصل المطلوب، و بلغنا غاية المأمول و المرغوب، استبشرنا برسوم الحرم و زوال الكروب، بفضل اللّه قرب النائى و الصعب، إذ لو لا ذلك ما تيسر بالكد و الحرب.

ثم سرنا كذلك بنية الخشوع و الإنابة، و الخشية و الخضوع و المهابة، إلى طلوع الفجر و صلينا الصبح جماعة ثم ركبنا و سرنا إلى أن وصلنا قبر السيدة ميمونة زوجة النبى صلى اللّه عليه و سلم و قد تزوجها فى هذا الوادى كما سبق فزرناه بنية خالصة من غير دخول للروضة إذ أدب من يزور نساءه صلى اللّه عليه و سلم لا يدخل محل البناء بل يزورهن من خارج كأنهن حال حايتهن رضى اللّه عنهن و على قبرها بناء و مسجد فعظمناها من خارج و فى ذلك مصلى للنبى صلى اللّه عليه و سلم فمن وفق يركع فيه.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى التنعيم صبيحة قبل الشروق و فيه مسجد لعائشة رضى اللّه عنها كما سبق ذكره و فى ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة فى المواسم و غيرها ثم سمى هذا المكان [باسم ما يقع فيه توسعا و مجازا و هو أدنى الحل فيطلق عليه اسم العمرة لأن المحرم بالحج أو العمرة لابد أن يحرم من الحل و أدنى الحل هذا المكان] ثم سرنا فوصلنا إلى الزاهر و قد قيل انه ذو طوى فيغتسل فيه استحبابا داخل مكة و الحق إن ذا طوى هو القريب لمكة و ليس بينه و بين مكة واد آخر و هو الوادى الذى وراء قعيقعان و بأسفله الموضع المسمى بالشبكة حيث الثنية السفلى الذى يخرج منه الحاج فأعلى الوادى هو ذو طوى فزرنا التنعيم ثم سرنا إلى أن وصلنا

الرحلة الورثيلانية، ج۱، ص: ۴۵۱

ذا طوى وقت الضحى فقرّت الناس على الاغتسال من غير نزول فخيم بعض الناس الخيام للستر فى الغسل فخيمنا خيمة لا فاغتسلنا نحن و الأصحاب غسلا من غير دلك خشية قتل بعض الدواب حسبما هو غسل المحرم فلما اغتسلنا ركعنا ركعتين للضحى و وظيفة الطهارة لما ورد عنه صلى اللّه عليه و سلم من أحدث و لم يتوضأ فقد جفانى و من أحدث و توضأ و لم يركع فقد جفانى و من أحدث و توضأ و ركع و لم يدع فقد جفانى و من أحدث و توضأ و ركع و دعا و لم أجبه فقد جفيته و أنا لست برب جاف فرك كل منا

ركعتين من وظائف الوضوء و منهم من صلى الضحى أعنى الذى يلازمها فلما حصل كل فضيلة ذى طوى قام الركب على ساق الجد و الحزم لدخول مكة المشرفة فركب من ركب و مشى من مسى فاستقبلنا جبل قيقعان و صعدنا إلى الثنية قاصدين أم القرى أعنى مكة و دخلنا من باب المعلى.

و هى الثنية العليا التى دخل منها صلى اللّه عليه و سلم سيد الأولين و الآخرين عليه أفضل الصلاة و السلام و إنماها و أعطرها و أزكى هى المسماة بكداء فتح الكاف.

و قد بالغ الولاة فى حفر هذه الثنية و تنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة و مع ذلك ففيها صعوبة و منها يشرف الإنسان على مقبرة مكة المسماة بالحجون و هى إحدى المقابر التى تضىء لأهل السماء كما تضىء الكواكب لأهل الأرض كما ورد فى الحديث عنه عليه الصلاة و السلام.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحامل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشک، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلک، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹